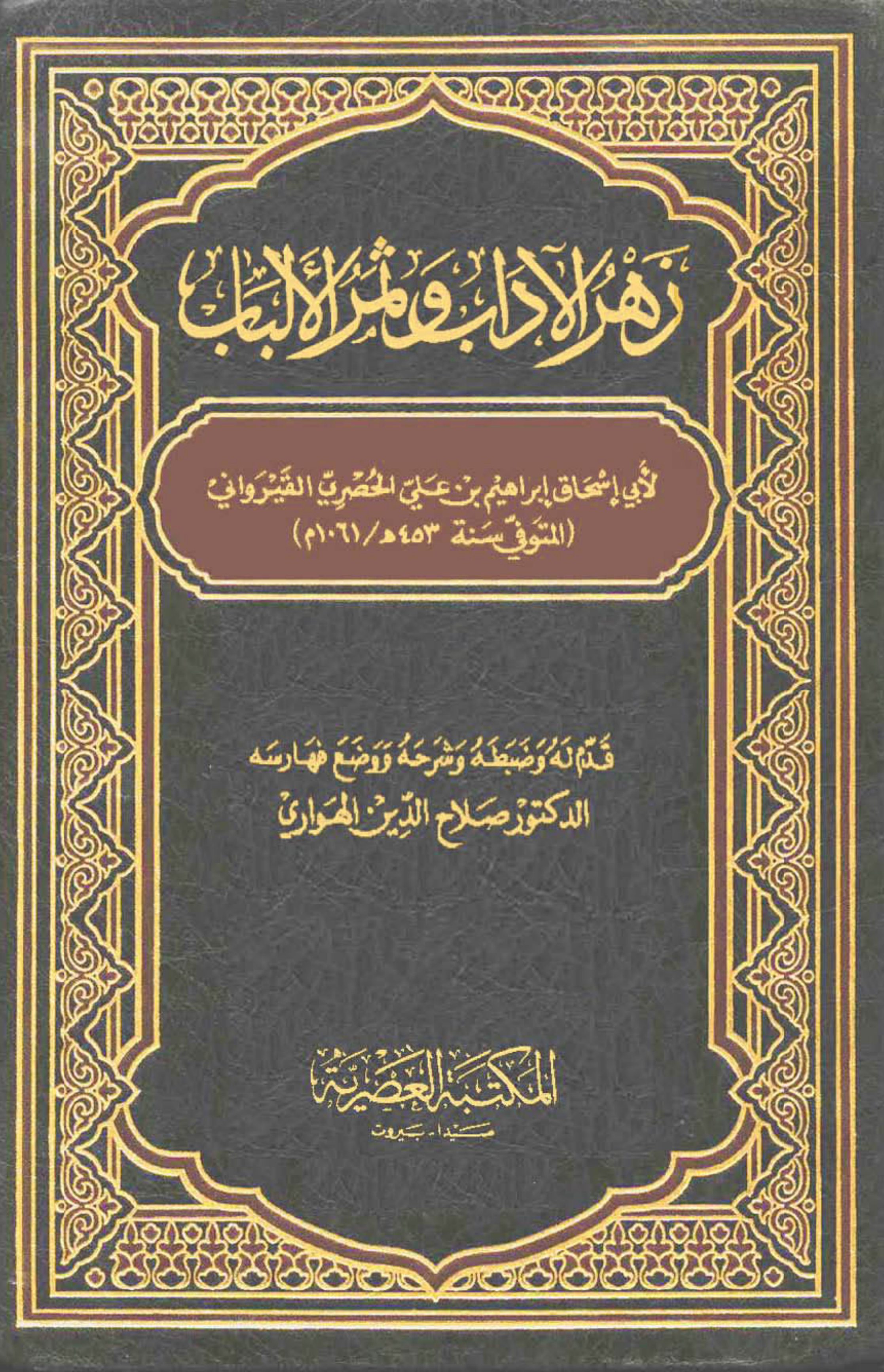

زهر الآداب وثمر الألباب
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحُصْرِيّ القيرواني
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م)
قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه
الدكتور صلاح الدين الهواري
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

زهر الآداب وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحُصْريّ القيرواني
(المتوفّى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م)

قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه
الدكتور صلاح الدّين الهواري

المجلّد الثاني

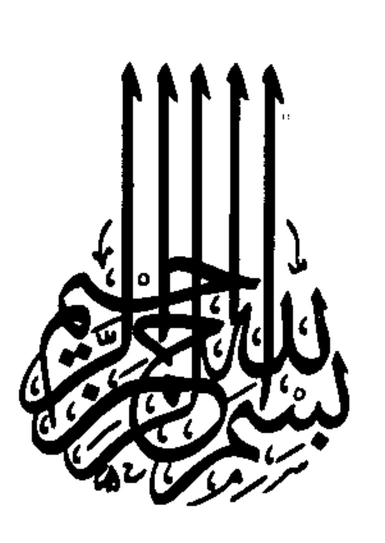


الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - 2001 م



بيروت - ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥-١٥
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٠٢١٧


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام ومقدماته، وموائده وآلاته

أَفْرِشْ طَعامَك اسم الله، وألْحِفْهُ حمدَ الله. لا يَطِيبُ حضور الخِوان، إلّا مع الإخوان. البُخْلُ بالطَّعَام، من أخلاق الطَّغَام[(١)]. الكريم لا يَحْظُر، تقديمَ ما يَحْضُر. قد قامت خطباءُ القدور. قدورٌ أبكار، بخواتِم النَّار. قِدْرٌ طار عَرْفُها، وطاب غَرْفُها. دَهْمَاء تَهْدِرُ كالفَنِيقِ[(٢)]، وتَفُوحُ كالمِسْكِ الفَتِيقِ. مائدة كَدَارَة البَدْر، تباعد بين أنفاس الجلاَّس. مائدة مثلُ عروس. مائدة لطيفة، محفوفةٌ بكل طَرِيفة. مائدة تشتمل على بدائع المأكولات، وغرائب الطيِّبات. مائدةٌ كأنما عملها صُنَّاع صنعاءَ، تجمع بين أنوار الربيع، وثِمَارِ الخريف.

وقال الجُماز[(٣)]: جاءنا فلان بمائدةٍ كأنّها زَمَنُ البرامكة على العُفَاة!

وذَمَّ آخر رجلاً فقال: لا يَحْضُرُ مائدتَه إلا أكرمُ الخَلْق وألأَمُهُمْ - يريد الملائكةَ والذُّبَاب.

وقال ابن الحجَّاج لرجل دعاه وأخَّر الطعام:

قَدْ جُنَّ أَصْحابُكَ مِنْ جُوعِهِمْ ... فَاقْرَأ عَلَيْهِمْ سُورَةَ المائِدَهْ

ولبعض أهل العصر يذم رجلاً:

---

(١) الطَّغَامُ: أرذال الناس وأوغادهم.

(٢) الفنيق: الفحل المُكَرَّم من الإبل لا يركب لكرامته على أهله، وفي حديث الحجَّاج لما حاصر ابن الزبير بمكة، ونصب المنجنيق: «خَطَّارَةٌ كالجَمَلِ الفَنِيقِ». (ابن منظور، اللسان: فنق).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن عمرو بن حماد، المعروف بالجماز البصري: شاعر، مفلق، مطبوع، من موالي قريش. قدم بغداد أيام الرشيد، واتصل بالمتوكل. وكان ماجناً خبيث اللسان. وقيل: إنه مات فرحاً بعشرة آلاف درهم وهبه إياها المتوكل. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ص ٣٧٥؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣/ ١٢٥).

خِـــوَانٌ لا يُلِــــمُّ بــــه ضُيــــوفٌ وَعِـــرْضٌ مِثْــلُ مِنْــدِيــلِ الخِـــوَانِ

رُغفَانٌ كالبدور المُمَنْطَقةِ بالنّجوم. حَمَلٌ ذهبيّ الدِّثار، فِضِّيُّ الشعار. أطْيَبُ ما يكون الْحَمَلُ، إذا حلَّت الشمس الحَمَل[(١)]. جَدْيٌ كأنما نُدِف على جَبينه القَزّ. زِيْرَبَاجة، هي للمائدة دِيباجة، تَشْفِي السَّقام، ولونها لونُ السقيم. سِكْبَاجة[(٢)] تفتقُ الشهوة، واسفيذباجة تُغَذّي القرِم[(٣)]، وطَباهجَة يُتَفَكّه بها[(٤)]، وَخَبِيصٌ يختم بخير. طَبَاهِجَة من شرط الملوك، كأَعْرَافِ الديوك، وقَلِيَّة كالعود المُطرَّى. مغمومة تفرج غَمَّ الجائع. هريسة نَفِيسة، كأنها خيوط قَزّ مشتبكة، كأَنَّ المُرِّي[(٥)] عليها عُصَارَةُ المسك على سبيكة الفضة. أرزة مَلْبونة، في السُّكّر مدفونة. شواءٌ رشراش[(٦)] وفالوذج رَجْرَاج[(٧)]. طَبَاهِجَة تغذي، وفالوذجة تعزي، واسفيذباجة تصفع قَفَا الجوع. لا فِراشَ للنبيذ، كالحَمل الحنيذ[(٨)]. دجاجَة سميطة[(٩)]، لها من الفضة جسم، ومن الذهب قشرة. دجاجة دِينارِيةً ثمناً ولوناً.

لابن الرومي في وصف طعام

وهذا محلول من قول علي بن العباس الرومي يصف طعاماً أكله عند أبي بكر الباقطاني[(١٠)]:

وسَمِيطَـــةٍ صَفْـــراء دِينَـــارِيـــةٍ ثَمنــاً ولَــوْنــاً زَفَّهــا لَــك حَــزْوَرُ[(١١)]

---

(١) الحمل الأول: الصغير من أولاد الضأن، والحمل الثاني: برج في السماء.
(٢) السِّكْبَاجَةُ: واحدة، أو قطعة من السِّكْبَاج، وهو طعام يُعْمَل من اللحم والخلّ مع توابل وأفاويه.
(٣) القرم: شديد الشهوة إلى أكل اللحم.
(٤) الطَّباهِجَةُ: ضرب من قَلِيِّ اللحم (فارسي معرب).
(٥) المُرِّي: ضرب من الإدام.
(٦) الشواء: اللحم المشوي. ورشراش: سمين يقطر ماؤه أو دسمه. والرشراش: الرَّخْوُ، يقال: خُبْزٌ رشراش، وعظم رشراش.
(٧) الفالوذج: حلواء تُعْمَلُ من الدقيق والماء والعسل، وتصنع الآن من النَّشا والماء والسكر.
(٨) الحنيذ: المشوي، يقال: حَنَذَ العِجْلَ وغيره حَنْذاً، وتحناذاً: شواه بأن دَسَّهُ في النار، أو في حجارة محماة بالنار، فهو مَحْنُوذٌ، وَحَنِيذٌ، وَحَنْذٌ.
(٩) سميطة: يقال: سمط الذبيحة سَمْطاً: غَمَسَها في الماء الحار لإزالة ما على جلدها من شعر أو ريش قبل طبخها.
(١٠) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٥٦.
(١١) الحَزْوَرُ: السريع إلى إكرام الضيف.

عَظُمَـــتْ فَكَـــادَتْ أَن تَكُـــونَ أوزَّةً ... وَغلَـتْ فَكَـادَ إهَـابُهـا يَتفطَّـرُ[١]

طَفِقَـتْ تَجُـودُ بِـذَوْبِهـا جَـوْذَابَـة ... فَـأَتـى لُبَـابُ اللَّـوزِ فيهـا السُّكَّـرُ[٢]

ظَلْنَـا نُقَشِّـر جِلْـدَهـا عَـنْ لَحْمِهـا ... فَكَـأَنَّ تِبْـراً عَـن لُجَيْـنٍ يُقْشَـرُ

وَتقَـدَّمَتْهَـا قَبْـلَ ذَاكَ ثَـرائِـدٌ ... مِثْـلُ الـرِّيَـاضِ بمثْـلِ ذاكَ تُصَـدَّرُ

وَمُـرَقَّقَـات كُلُّهُـنَّ مُـزَخْـرَفٌ ... بِـالبيـض مِنْهَـا مُلْبَـسٌ وَمُـدَثَّـرُ

وَأَتَـتْ قَطـائِـفُ بَعْـدَ ذاكَ لَطـائِـفٌ ... تَـرْضَـى اللّهَـاةُ بهـا ويَـرْضَـى الْحَنْجَـرُ

ضَحِـكُ الـوُجـوهِ مـن الطَّبـرْزَدِ فَـوْقَهـا ... دَمْـعُ العيـانِ مِـنَ الـدّهـان يُعَصَّـرُ[٣]

مقامة لبديع الزمان فيها وصف طعام

قال البديع: حدثني عيسى بن هشام قال: اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ، وأنا بِبَغْدَاذَ[٤]، وليس مَعِي عَقْد، عَلَى نَقْد[٥]، فخرجتُ أَنْتَهِزُ محالَّه، حتى أَحَلَّني الكَرْخَ[٦]؛ فإذا أنا بسَوَادِيٍّ يَحْدُو بالْجَهْدِ حمارَه، ويُطَرِّفُ بالْعَقْدِ إزارَه[٧]؛ فقلتُ: ظَفِرْنَا والله بِصَيْدٍ، وَحيَّاكَ اللهُ أبا زَيْد! مِنْ أَيْنَ أقبلْتَ؟ وأينَ نزلتَ؟ ومتى وافَيْتَ، فَهَلُمَّ إلى البيتِ. فقال السَّوَادِي: لستُ بأبي زيد، وإنما أبو عُبَيْد! فقلتُ: نعم لَعَنَ اللهُ الشيطانَ، وأبْعَدَ النِّسيان، أنْسَاني طُولُ الْعَهْدِ بِكَ، كَيْفَ أبوكَ، أشَابٌّ كَعَهْدِي، أمْ شَابَ بَعْدِي[٨]؟ قَالَ: قد نَبَتَ المَرْعَى على دِمْنَتِهِ[٩]، وأرجو أن

(١) الإهاب: الجلد.

(٢) الجُوذَابُ: طعام يتخذ من اللحم والأرز والبندق والسُّكَّر.

(٣) الطبرزد: السُّكَّرُ (فارسي معرب).

(٤) الأزاذ: أجود أنواع التمر. وبغداذ: هي بغداد.

(٥) ليس معي عقد على نقد: أي ليس معي نقود يُعْقَدُ عليها الكيس والثوب.

(٦) المحال: جمع محل: المكان الذي يُحَلُّ فيه، وحَلَّ المكان، وبه حُلُولاً: نزل. والكرخ: بلدة في الجانب الغربي من بغداد.

(٧) السوادي: الرجل من قرى العراق، نسبة إلى السواد، وسمي العراق سواداً لاكتاء أرضه بالخضرة. و «يطرف بالعقد إزاره»: يَرُدُّ أحد طرفيه إلى الآخر.

(٨) كعهدي: أي كعهدي به حين عرفته.

(٩) الدمنة: آثار الدار، ولا ينبت الربيع على الدمنة إلا حين يبعد عهدها بالخراب، يريد أن أباه مات منذ زمن طويل، وفي معناه قال زفر بن الحارث الكلابي:

وَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حَزازَاتُ الصُّدورِ كما هِيَا

يُصَيِّرَه اللهُ إلى جنَّتِه، فَقُلْتُ: إنّا للهِ، ولا قوة إلا بالله، ومددت يدَ البدار، إلى الصِّدَار[١] أريد تمزيقه، وأُحاول تخريقه[٢] فقبض السواديّ على خَصْري بِجُمْعِه[٣]؛ وقال: نَشَدْتُك بالله لا مَزَّقْتَه، فقلت: فهلم إلى البيت نُصِبْ غداء، أو إلى السوق نشتري شِوَاءً؛ والسوقُ أقرب، وطعامه أطيب، فاستفزّتهُ حُمَّةُ القَرَم[٤]، وعَطَفَتْهُ عطفة النَّهم، وطَمع، ولم يعلم أنه وقع، ثم أتيت شَوَّاءً يتقاطرُ شِوَاؤُه عَرَقاً، ويتسايل جُوذابُه مرقاً[٥]؛ فقلت: أبرز لأبي زيد من هذا الشواء، ثم زِنْ له من تلك الْحَلْوَاء، واختر من تلك الأطباق، ونضّد عليها أوراقَ الرقاق، وشيئاً من ماء السُّمَّاق[٦]؛ لِيأكلَهُ أبو زيد هنياً. فأنحى الشَّوَّاءُ بِساطُوره[٧]، على زُبْدَة تَنُّورِه، فجعلها كالكحل سَحْقاً، وكالطحين دَقاً، ثم جلس وجلست ولا نَبَسَ ولا نَبسْتُ، حتى استوفيناه، وقلت لصاحب الحلواء: زِنْ لأبي زيد من اللوزِينج رطلين[٨]، فإنه أجرى في الحلوق، وأسْرَى في العروق، وليكن ليليَّ العُمْر، يوميَّ النَّشْر[٩]، رقيق القِشْر، كثيف الْحَشْو، لؤلؤيّ الدهن، كوكبي اللون، يذوب كالصَّمْغ، قبل المَضْغ، لِيأْكُلَه أبو زيد هنيًّا. فوزنه، ثم قعد وقعدتُ، وجرَّدَ وجرَّدتُ[١٠]، واستوفيناه، ثم قلت: يا أبا زيد، ما أحوجنا إلى ماء يُشَعْشَع بالثلج، لِيَقْمَع هذه الصَّارة[١١]، ويَفْثأ هذه اللُّقَم الحارة[١٢]؛ اجلسْ أبا زيد حتى آتيك بسقّاء، يُحْيِينا بِشَرْبَة من ماء، ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يُصْنع به. فلما أبطأتُ عليه قام السَّوَاديّ إلى حماره، فاعتلق الشَّوَّاء بإزاره. وقال: أين

(١) البدار: المسارعة. والصدار: قميص صغير يلي البدن.

(٢) يريد أنه همَّ بتمزيق ثوبه من الحزن.

(٣) جُمْعُ الكفِّ: قبضته.

(٤) الحُمَّةُ: يقال: حَمَّ التنور ونحوه حَمًّا: أَوقدهُ، وحمَّ الماء ونحوه: سخَّنهُ، ومنه: أَحمَّ حَمَّهُ: قصد قصده. والحُمَّةُ: الحُمَّى (علة يستحر بها الجسم). والحُمَّةُ أيضاً: كل عين ماءٍ حارة تنبع من الأرض يستشفى بالاغتسال من مائها. والقرم: شدّة الشهوة إلى اللحم.

(٥) الجوذاب: طعام يتخذ من اللحم والأرز والبندق والسكر.

(٦) السماق: حَبٌّ أحمر شديد الحموضة، شَجَرُهُ يشبه شجر الرُّمّان.

(٧) الساطور: آلة يقطع بها الجزار اللحم.

(٨) اللَّوْزِينَجُ: من الحلوى: شبه القطائف، يُحْشَى بالجوز، ويدهن بدهن اللوز.

(٩) ليلي العمر: صُنع من ليلته. ويومي النشر: نشر في يومه.

(١٠) جَرَّد وجرّدت: يريد أَنَّ كلاًّ منهما جرّد يده من ثيابه استعداداً للمائدة.

(١١) الصارة: العطش، وفي غير هذا: الحاجة.

(١٢) يفثأ: يُسَكِّن.

ثمنُ ما أكلتَ؟ قال: ما أكلتُه إلا ضيفاً! قال الشَّوَّاء: هاكَ وآكَ متى دعوناك؟ زِن يا أخا القحبة عشرين، وإلا أكلت ثلاثاً وتسعين! فجعل السواديّ يبكي ويمسح دموعه بأردانه، وَيَحُلُّ عُقدَهُ بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القُرَيْد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد!؟ فأنشدت:

إعمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَهْ ... لا تَقْعُدَنَّ بِذُلِّ حالَهْ
وَانهَضْ بِكُلِّ عَزيمةٍ ... فَالمرْءُ يَعْجِزُ لا المَحَالَهْ[١]

لعلي بن يحيى المنجم

ومن مليح ما قيل في القطائف قول عليّ بن يحيى بن أبي منصور المُنَجِّم:

قَطائِفٌ قَدْ حُشِيَتْ بِاللَّوْزِ ... وَالسكّر الماذِيّ حَشْوَ الموزِ[٢]
يَسْبَحُ في آذِيّ[٣] دُهْنِ الْجَوْزِ ... سُرِرْتُ لَمَّا وقَعَتْ في حَوْزِي
سُرور عَبَّاسٍ بِقُرْبِ فَوْزِ[٤]

ومن ألفاظ أهل العصر في الحلواء: فالوذج بِلُبَاب البُرّ، ولُعَابِ النَّحْل، كأَنَّ اللوز فيه كواكب دُرّ، في سماء عَقِيق.

لابن الرومي يصف اللوزينج

ولم يقل أحد في صفة اللوزينج أَحْسن من قول ابن الرومي[٥]:

لا يُخطِئَنِّي مِنْكَ لَوْزِينَجٌ ... إذا بَدا أَعْجَبَ أَو عَجَّبا[٦]
لَوْ شاءَ أَنْ يَذْهَبَ في صَخْرَةٍ ... لَسهَّل الطِّيبُ لَهُ مَذْهَبا[٧]

---

(١) المحالة: اسم من مَحَلَ بالأمر مَحْلاً: رامه بالحيلة.
(٢) الماذي: العسل.
(٣) الآذي: الموج.
(٤) عباس: هو العباس بن الأحنف الشاعر المشهور، وفوز: هي معشوقته.
(٥) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٢٥٤.
(٦) اللوزينج: هو بلغة اليوم البقلاوة أو القطائف. وأعجب: أرضى. وعَجَّب جعل الناس يعجبون منه.
(٧) يقول: لِعِظَم طيب اللوزينج فإنه يستطيع النفاذ في الصخر.

لم تُغلِق الشَّهْوَةُ أَبوابها إلاَّ أبَتْ زُلْفَاهُ أَنْ يُحْجَبا[١]
يَدورُ بالنَّفْحَةِ في جَامِه دَوْراً تَرَى الدُّهْنَ لَهُ لَوْلَبا[٢]
عَاوَن فيهِ مَنظَرٌ مَخْبَراً مُسْتَحْسَنٌ سَاعَدَ مُسْتَعْذَبا[٣]
مُستكْثَفُ الْحَشْوِ وَلكِنَّهُ أرَقُّ جِلْداً من نَسِيم الصَّبا
كأنما قُدّتْ جَلابِيبُهُ من نقطةِ القَطْرِ إذا حَبَّبا[٤]
يُخالُ من رِقَّةِ خِرْشَائِهِ شَارَكَ في الأَجْنِحَة الْجُنْدُبا[٥]
لو أنَّه صُوِّرَ من خُبْزِهِ ثَغْرٌ لكانَ الواضِحَ الأشْنَبا[٦]
من كلِّ بيضاء يَوَدُّ الفَتى أن يَجْعَلَ الكفَّ لها مَرْكَبا
مَدْهُونَةٍ زَرْقاءَ مَدْقُوقةٍ صَهْباء تحكى الأزْرَق الأشْهَبا
قُرة عَيْنٍ وفَمٍ حُسِّنَتْ وَطُيِّبت حتى صَبَا مَنْ صَبا
دِيفَ له اللوزُ؛ فما مُرَّةٌ مَرَّتْ على الذائق إلا أَبَى[٧]
وانتَقَدَ السُّكَّرَ نُقَّادُهُ وَشَاوَرُوا في نَقْدِه المَذْهَبا
فلا إذا العَيْنُ رَأَتْه نَبَتْ ولا إذا الضِّرْسُ عَلاه نَبَا[٨]
لا تُنكِروا الإدْلالَ من وَامِقٍ وَجَّه تِلْقَاءكُمُ المَطْلَبا[٩]

هذه الأبيات يقولها في قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن بِشْر المَرْثديّ، ويهنيه بابن ولده، وأولها:

---

(١) يقول: اللوزينج علاج لمن انقطعت شهوته عن الحلوى.
(٢) الجام: إناء من فضة. والدّهن: كناية عن الحشوة من لوز وجوز وفستق.
(٣) المَخْبَرُ: خلاف المنظر، يقال: طابق مَخْبَرُهُ مَنْظَرَه، والجمع: مخابر.
(٤) حُبِّب: صار ذا حبب.
(٥) الخرشاء: الجلدة الرقيقة. والجندب: الجراد.
(٦) واضح: أبيض. والأشنب: من الشَّنَب، وهو رقة وبرودة وعذوبة في الأسنان.
(٧) داف الدواء دَوْفاً: خلطه، ودافه في الماء وبه: بلّه، وسحقه. يريد أن صانع اللوزينج كان يختبر اللوز ليطرح منه ما وجده مُرًّا.
(٨) في الديوان: «رآها» و «علاها».
(٩) الإدلال: التدلل والجرأة في الطلب. والوامق: العاشق. وقوله: وجّه تلقاءكم المطلبا: طلب منكم.

شَمْسٌ وَبَدْرٌ وَلَدَا كَوْكَبَا أَقْسَمْتُ بِاللهِ لَقَدْ أَنْجَبَا(١)

قال أبو عثمان سعيد بن محمد النَّاجِم: دخلت على أبي الحسن وهو يعمل هذه القصيدة، فقلت: لو تَفَاءَلْتَ فيها لأبي العباس بسبعة من الولد؛ لأن أبا العباس منكوساً سابعٌ، لجاء المعنى ظريفاً، فقال:

وَقَدْ تَفَاءَلْتُ لَهُ زاجِراً كُنْيَتَهُ، لا زَاجِراً ثَعْلَبَا
إنّي تأمّلْتُ لَهُ كُنْيَةً إذا بَدا مَقْلُوبُهَا أَعْجَبَا
يَصُوغُها العَكْسُ أبا سابعٍ لا كَذَّب اللهُ ولا خَيَّبَا
بَلْ ذاكَ فَأْلٌ ضامِنٌ سَبْعَةً مِثْلَ الصّقُور استَشْرَفَتْ مَرْقَبَا
يَأْتونَ من صُلْبِ فتًى ماجِدٍ وذاكَ فَأْلٌ لم يَعُدْ مَعْطَبَا
وَقَد أتانا مِنْهُمُ واحِدٌ فَلْنَنْتَظِرْهُمْ سِتَّةً غُيَّبَا
في مُدّةٍ تَغْمُرُها نِعْمَةٌ يَجْعَلُها اللهُ لَهُ تُرْتُبَا(٢)
حَتَّى نَراهُ جَالِساً بَيْنَهُمْ أَجَلَّ مِنْ رَضْوَى وَمِنْ كَبْكَبَا(٣)
كَالبدرِ وَافَى الأَرْضَ مِنْ نُورِهِ بَيْنَ نُجومِ سَبْعَةٍ فَاحْتَبَى(٤)
وَلْيُشْكَرِ النَّاجِمُ عن هذِه فَإِنّها مِنْ بَعْضِ مَا بَوَّبَا
سَدَّى وأَلْحَمْتُ أخٌ لم أَزَلْ أَشْكُرُ ما أسْدَى وما سَبَّبَا

نهم ابن الرومي وحبه السمك

وكان ابنُ الرومي منهوماً في المآكل، وهي التي قَتَلَتْهُ، وكان مُعْجَباً بالسمك، فوعده أبو العباس المرثدي أن يبعثَ إليه كلّ يوم بوظيفة لا تَنْقَطِع، فبعث إليه يوم سَبْتٍ، ثم قطعه، فقال:

---

(١) الشمس: كناية عن أم الولد. والبدر: كناية عن أبي العباس المرثدي. والكوكب: صفة للولد، أي هو كالكوكب في الحسن والجمال. وأنجبا: رُزقا ولداً نجيباً.

(٢) التُّرْتُبُ: الشيء المقيم الثابت.

(٣) رضوى وكبكب: جبلان.

(٤) احتبى: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها، وهي جلسة معروفة عند أشراف العرب. ولعله أراد: «فاجتبى» أي: فاختار.

مَـا لِحِيتَـانِنَـا جَفَتْنَـا وَأَنَّـى أَخْلَـفَ الـزائـرونَ مُنْتَظـرِيهِـمْ
جَـاء فـي السَّبـتِ زَوْرُهُـمْ فَـأَتِينـا مِـنْ حِفَـاظٍ عليـه مـا يَكْفِيهِـمْ[١]
وَجَعلنـاهُ يَـوْمَ عيـدٍ عَظيـمٍ فكـأنَّـا اليهـودُ أَو نَحْكِيهِـمْ
وَأَراهـم مُصَمِّمِيـنَ علـى الهَجْـرِ فَلِـمْ يُسْخِطُـون مَـنْ يُـرْضِيهِـمْ
قَـدْ سَبَتْنا وَمـا أتتنـا وكـانُـوا يَـوْمَ لايَسْبِتُـون لا تَـأْتِيهِـم

من الناجم إلى ابن الرومي

فاتَّصل ذلك بالناجم، فكتب إلى ابن الرومي:

أبـا حسـنٍ أَنْـتَ مَـنْ لا تَـزَا لُ نَحْمَـدُ فـي الفَضْـلِ رُجْحـانَـهُ[٢]
فَكَـمْ تُحْسِـنُ الظـنّ بـالمـرثـديِّ وَقَـدْ قَلَّـلَ اللهُ إحْسَـانَـهُ
أَلَـم تَـدْرِ أنَّ الفتـى كـالسَّـرَابِ إذا وَعَـدَ الْـوَعْـدَ إخـوانَـهُ
فَبَحْـرُ السَّـرابِ يَفُـوتُ الطَّلُـوبَ فَقُـلْ فـي طِـلابِـكَ حِيتَـانَـهُ

لابن الرومي يصف العنب الرازقي

وخرج ابنُ الرومي إلى بعض المتنزهات وقصدوا كَرْماً ورازِقيًّا، فشربوا عامَّةَ يومهم، وكانوا يتهمونه في شِعْره، فقالوا: إن كان ما تُنْشِدنا لكَ فَقُلْ في هذا شيئاً، فقال: لا تَرِيموا حتى أقول فيه، وأنشدهم لوقته[٣]:

وَرازقـيٍّ مُخْطَـفِ الخُصُـورِ كـأَنَّـهُ مَخَـازِنُ البلُّـورِ
قَـد ضُمِّنَـتْ مِسْكـاً إلـى الشطـورِ وَفـي الأعـالـي مـاء وَرْدٍ جُـوري[٤]
بِـلا فَـريـدٍ وَبِـلا شُـذُورِ لـه مَـذاقُ العَسَـلِ المَشُـورِ[٥]
وَبَـرْدُ مَـسِّ الخَصِـرِ المَقْـرورِ وَنكْهَـة المِسْـك مـع الكـافـورِ[٦]

(١) الزَّوْرُ: الضيف.
(٢) رَجَحَ الشيء رُجُوحاً وَرُجْحاناً وَرَجاحةً: ثَقُلَ، ورجح عقله أو رأيه: اكتمل.
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٨٦/٣.
(٤) جوري: نسبة إلى مدينة جور، وهي مدينة فيروزاباد.
(٥) المشور: من شار العسل إذا جناه.
(٦) الخَصِرُ: من الخَصَرِ، وهو البرد. المقرور: البارد، أو الذي أصابه البرد.

وَرِقّــةِ المـــاءِ علــى الصُّـــدورِ بــاكَــرْتُــه والطَّيْــرُ فــي الــوُكُــورِ
بِفِتْيَـــةٍ مِـــن وَلَـــدِ المنصـــورِ أمـــلاُ للعَيْـــنِ مِـــنَ البُـــدُورِ
حَتَّـــى أَتَيْنَـــا خَيْمَـــةَ النَّـــاطـــورِ قَبْـــلَ ارتفـــاعِ الشمـــسِ لِلـــذّرُورِ[(١)]
فَـانْحَـطَّ كـالطَّـاوِي مـن الصُّقُـورِ بِطـاعــةِ الـرَّاغِــبِ لا المَقْهُــورِ[(٢)]
وَالحــرُّ عَبْــدُ الحلَــبِ المَشْطُــورِ حَتَّــى أَتــانــا بِضُــروعِ حُــورِ[(٣)]
مَمْلُــوءَةٍ مِـــنْ عَسَـــلٍ مَخْصُـــورِ وَالطَّـــلُّ مِثْـــلُ اللـــؤلـــؤ المنثـــورِ[(٤)]
ثُـــمّ جَلَسْنَـــا جِلْسَـــةَ المحبـــورِ بَيْـــنَ حِفَـــافَـــيْ جَـــدْوَلٍ مَسْجـــورِ[(٥)]
أَبْيَـــض مِثْـــل المُهْـــرقِ المنشـــورِ أَوْ مِثْـــل مَتْـــنِ المُنْصَـــلِ المشهـــورِ[(٦)]
يَنْسَـــابُ مِثْـــلُ الحيَّـــةِ المـــذعـــورِ بَيْـــنَ سِمَـــاطَـــيْ شَجَـــرٍ مَسْطُـــورِ[(٧)]
نَـــاهيـــكَ لِلعقـــودِ مِـــنْ ظُهـــورِ فَنِيلَـــتِ الأوطـــارُ فـــي سُـــرُورِ
وَكُـــلُّ مـــا يُقْضَـــى مِـــنَ الأُمـــورِ تَعِلَّـــةٌ مِـــنْ يَـــوْمِنـــا المَنْظُـــورِ[(٨)]
وَمُتْعَـــةٌ مِـــنْ مُتَـــعِ الغُـــرورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر في صفات الفواكه والثمار

كَرْمٌ نُسْلِفه الماء القَرَاح، ويَقْضِينا أُمّهات الرّاح. عنقود كالثريَّا، وعِنَبٌ كمخازن البلّور، وضروبِ النُّور، وأَوعيةِ السرور. أمّهات الرحيق، في مخازن العَقِيق. نَخْلٌ نُسْلِفه الماء، ويقضينا العسل. رُطَب كأنها شُهْدة بالعقيق مُقَنَّعة، وبالعِقْيان مُقَمَّعة. رُمَّان كأنه صُرَر الياقوت الأحمر. سَفرجل يَجْمَع طيباً، ومنظراً حسناً عجيباً، كأنه زِئْبر[(٩)] الخزّ الأغبر، على

(١) الناطور: حافظ الكرم والنخل. الذرور: الطلوع.
(٢) الطاوي الجائع. وفي الديوان: «فانقضَّ».
(٣) الحور: جمع أحور: أبيض. وفي الديوان: «بضروعٍ خُورِ».
(٤) الطلُّ: الحسن المعجب من كل شيء، والمطر الخفيف يكون له أثر خفيف، والندى الذي ترسله عروق الشجر إلى غصونها، واللبن. والعسل المخصور: البارد.
(٥) المحبور: المسرور. والمسجور: المملوء. وفي الديوان: «مجلس المحبور».
(٦) المُهْرَقُ: الصحيفة، وقيل، ثوب الحرير الأبيض. والمنصل: السيف.
(٧) السِّمَاطُ: الصفُّ، وما يبسط ليوضع الطعام عليه.
(٨) التَّعِلَّةُ: ما يُتَعلَّل به، وقد تَعلَّل بالأمر: تَلَهَّى به واكتفى. وفي الديوان: «ما نقضي» و«عن يومنا».
(٩) الزِّئْبِرُ: ما يظهر من درز الثوب.

الديباج الأصفر. تفَّاحٌ نَفَّاحٌ(١)، يجمع وَصْفَ العاشق الوَجِل، والمعشوق الْخَجِل، له نسيمُ العبير، وطَعْمُ السكر، رسولُ المحب، وشبيه الحبيب. وتين كأنه سُفر مضمومة على عَسَل. مشمش كأنه الشَّهد في بَنَادِق الذهب.

[بعض ما جاء في وصف الليل]

قال بعضُ الرواة: أنشدت أعرابياً قولَ جرير بن عطية بن الْخَطَفي(٢):

أَبُـدِّلَ اللَّيْـلُ لا تَسْـرِي كَـواكِبُـهُ ... أَمْ طـالَ حَتَّى حَسِبْتُ النَّجْـمَ حَيْـرَانـا

لأعرابي في وصف ليل لقاء

فقال: هذا حسَنٌ في معناه، وأعوذ بالله من مثله؛ ولكني أنشدك في ضدّه من قولي، وأنشدني:

وَلَيْـلٍ لـم يُقَصِّـرْهُ رُقـادٌ ... وَقصَّـرَ طُـولَـهُ وَصْـلُ الحبيـبِ
نَعيـمُ الحـبِّ أَوْرَق فيـه حَتَّـى ... تَنـاوَلْنَـا جَنـاهُ مِـنْ قَـريـبِ
بِمَجْلِـسِ لَـذَّةٍ لـم نَقْـوَ فيـهِ ... علـى شَكْـوَى ولا عَـدِّ الـذُّنـوبِ
بَخِلْنَـا أَنْ نُقَطِّعَـهُ بِلَفْـظٍ ... فَتَـرْجَمـتِ العيـونُ عـنِ القُلـوبِ

لأعرابي يصف وفاءه لصحبه

فقلت له: زدني، فما رأيت أظرفَ منك شعراً؛ فقال: أمَّا هذا الباب فحسبك، ولكن أنشدك من غيره:

وَكُنْـتُ إذا عَلِقْـتُ حِبـالَ قَـوْمٍ ... صَحِبْتُهُـمُ وَشِيَمتـيَ الـوفـاءُ
فَـأُحْسِـنُ حيـن يُحْسِـنُ مُحْسِنُـوهُـمْ ... وَأَجتنِـبُ الإسـاءَةَ إنْ أَسـاءوا
أَشـاءُ سِـوَى مَشيئَتِهِـمْ فـآتِـي ... مَشِيئَتَهُـمْ وَأَتْـرُكُ مـا أَشـاءُ

---

(١) تفاحٌ نفَّاحٌ: ينفح بالرائحة العطرة، وقد نفح الطيب: انتشرت رائحته.
(٢) جرير، الديوان: ص ٤٩٢. والبيت من قصيدة طويلة، بدأها بالغزل فأطال، ثم أتى على هجاء الأخطل.

لجرير يصف يوم صيد

قال الأصمعي: قرأتُ على أبي مُحْذر خلف بن حيّان الأحمر شِعْرَ جرير، فلما بلغت إلى قوله[١]:

وَيــومٍ كــإبهــامِ القَطــاةِ مُحَبَّــبٍ ... إلــيّ صِبَــاهُ غَــالــبٍ لِــيَ بَــاطِلُــهْ[٢]
رُزِقْنـا بـه الصّيـدَ الغَـزِيـرَ ولـم نكُـنْ ... كَمَــنْ نَبْلُــهُ مَحْــرُومَــةٌ وحَبــائِلُــهْ
فيــا لــكَ يَــوْمٌ خَيْــرُه قَبْــلَ شَــرِّهِ ... تَغيّــبَ وَاشيــهِ وَأَقْصَــر عــاذِلُــهْ[٣]

فقال خَلَف: وَيْحَه! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرّ؟ فقلت له: كذا قرأته على أبي عمرو بن العلاء، فقال لي: وكذا قال جَرير، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلاَّ ما سمعَ، قلت: فكيف كان يَجبُ أن يكونَ؟ قال: الأجْوَد أن يقولَ: خَيْرُهُ دون شرِّه، فأَرْوِه كذلك، فقد كانت الرواةُ قديماً تُصْلِحُ أشعارَ الأوائل، فقلت: والله لا أرويه بعدها إلاَّ كذا.

لإبراهيم بن العباس يصف قصر الليل

ومن أجود ما قيل في قِصَرِ الليل قول إبراهيم بن العباس[٤]:

وَلَيْلَــةٍ مِــنَ الليــالــي الغُــرِّ ... قَــابلــتُ فيهــا بَــدْرَهــا بِبَــدْرِي[٥]
لــم تَــكُ غَيْــرَ شَفَــقٍ وفَجْــرِ ... حَتَّــى تَقَضَّــت وَهــي بِكْــرُ الــدَّهــرِ

للأَصْبَهاني يصف يوم لهو

وقال محمد بن أحمد الأصبهاني فيما يتعلق بهذا المعنى وإن كان في ذكر النهار:

كَيْــفَ يُــرْجَــى لِمُقْلَتــيَّ هُــدُوٌّ ... وَرُقَــادي لِطَــرْفِ عَيْنَــي عَــدُوٌّ
بِــأَبِــي مَــنْ نَعِمْــتُ منــه بِيَــوْمٍ ... لَــم يَــزَلْ لِلســرورِ فيــه نُمُــوٌّ

---

(١) نفسه: ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥. والأبيات من قصيدة طويلة يجيب بها الفرزدق.
(٢) يشبه اليوم بإبهام القطاة في قصره.
(٣) في الديوان: «وَذلك يَـوْمٌ خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ».
(٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، مولى يزيد بن المهلب، وأصله من خراسان: كاتب من أشعر الكتاب، وأرقهم لساناً، وأسيرهم قولاً، وله ديوان شعر مشهور. توفي بـ «سُرّ من رأى» سنة ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ٦/ ١٧).
(٥) ليالٍ غُرٌّ: بيض.

يَـوم لَهْـوٍ قَـدِ الْتَقَـى طَـرَفَـاهُ   فَكَـأَنَّ العَشِـيّ فيـه غُـدُوُّ
إذْ لِشَخْـصِ الـرقيـبِ فيـه تَنَـاءٌ   وَلِبَـدْرِ السَّمـاءِ مِنِّـي دُنُـوُّ

لابن المعتز يصف ليل سرور

وقال ابن المعتز:

يـا رُبَّ لَيْـلٍ سَحَـرٌ كُلّـهُ   مُفْتَضَـحِ البَـدْرِ عَليـلِ النَّسيـمْ
تَلْتَقِـطُ الأنفـاسُ بَـرْدَ النَّـدَى   فيـهِ فَتُهْـدِيـه لِحَـرِّ الهُمـومْ
لا أَعْـرِفُ الإصبـاحَ لَمَّـا بَـدَا   فـي ضَـوْئِـهِ إلا بِسُكْـرِ النَّـدِيـمْ
لَبِسْـتُ فيـهِ بـالتـذاذِ الهَـوَى   وَلـذَّةِ الـرَّاحِ ثِيَـابَ النَّعِيـمْ

وصف مَنْبِج[١]

بين الرشيد وعبد الملك بن صالح

أخذ قوله: «سَحَر كله» من قول عبد الملك بن صالح بن عليّ، وقد قال له الرشيد لما دخل منبج: أهَذا منزلك؟ قال: هو لك، ولي بك يا أميرَ المؤمنين، قال: كيف بناؤه؟ قال: دون منازل أهْلي، وفوق منازلِ الناس، قال: وكيف ذلك وقَدْرُك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خُلُق أميرِ المؤمنين أتأسَّى به، وأَقْفُو أثَره، وأَحْذُو حَذْوَهُ، قال: فكيف طِيبُ مَنْبِج؟ قال: عَذْبَة الماء، قليلة الأَدْوَاء، قال: فكيف لَيْلُها؟ قال: سحر كله؟

لأبي تمام

وأخذ هذا الطائي فقال[٢]:

أَيَّـامُنَـا مَصْقُـولَـةٌ أَطْـرَافُهَـا   بِـكَ، وَالليـالـي كُلُّهَـا أَسْحَـارُ

* * *

(١) مَنْبِجٌ: مدينة بالشام، يقال: إن كسرى هو أول من بناها لما غلب على الشام، وهي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، كثيرة الخيرات، كان عليها سورٌ مَبْنِيٌّ بالحجارة، وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. وفيها ولد الشاعر البحتري، وإياها عنى المتنبي بقوله:
قَيْـلٌ بِمَنْبِـجَ مَثْـوَاهُ وَنَـائِلُـهُ   في الأُفـقِ يَسْـأَلُ عَمَّـن غَيْرُه سَـأَلا
(ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٥/ ٢٠٥).

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٢٨. والبيت من قصيدة طويلة يمدح بها أبا سعيد الثَّغْرِيّ.

للحاتمي

ولأهل العصر، قال أبو علي محمد بن الحسين بن المُظفَّر الحاتمي:

يـا رُبَّ لَيْـلِ سُـرورٍ خِلْتُـهُ قِصَـراً ... كَعارِضِ البرقِ في أُفْقِ الدُّجَا بَرَقا
قَـدْ كَـادَ يَعْثُـر أُولاه بِـآخـرِهِ ... وَكـادَ يَسْبِـقُ منـه فَجْـرُه الشَّفَقـا
كَـأنَّمـا طَـرَفَـاه طَـرْفٌ اتّفـقَ الْـ ... ـجَفْنَـانِ مِنْـهُ على الإطْبَـاقِ وافْتـرَقَـا

ألفاظ في هذا المعنى لأهل العصر

ليلةٌ من حسنات الدهر، هواؤها صحيح، ونسيمُها عليل. ليلة كَبُرْدِ الشباب، وبَرْدِ الشراب. ليلة من ليالي الشباب، فِضِّيَّة الأَديم، مِسْكِيَّة النسيم. ليلة هي لُمَعَةُ العمر، وغُرَّةُ الدهر. ليلة مِسْكيّة الأديم، كافوريّة النجوم. ليلة رَقَد الدّهر عنها، وطلعت سعودُها، وغابت عُذَّالُها. ليلة كالمسك مَنْظَرُها ومَخْبَرُها. ليلة هي باكورةُ العُمْر، وبِكْرُ الدهر. ليلة ظلماتها أنوار، وطِوال أوقاتها قِصَار.

[سعيد بن هُرَيم، وصِلَتُه بالفضل بن سهل]

سبب صلته به

كان سببُ اتصال سعيد بن هُرَيْم بِذي الرياستين الفَضْلِ[(١)] ـ وسمي ذا الرياستين لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون ـ أنه دخل عليه يوماً، فقال: «الأَجَل آفَةُ الأمل، والمعروف ذُخْرُ الأَبد، والبِرُّ غنيمةُ الحازم، والتفريط مصيبةُ أَخِي القدرة، وإنَّا لم نَصُنْ وُجوهَنا عن سؤالك، فَصُنْ وجهك عن ردِّنا، وضَعْنا من إحسانك بحيث وضَعْنَا أَنْفُسَنَا من تأميلك».

فأمر أن يُكْتَب كلامُه، وسَمَّاه سعيداً الناطق، ووصله المأمون[(٢)] فخصّ به.

---

(١) هو أبو العباس، الفضل بن سهل السرخسي: وزير، لُقِّب بذي الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف. أسلم على يد المأمون، ووزر له، وكان من أخبر الناس بعلم النِّجامة، وأكثرهم إصابةً في أحكامه. مات قتيلاً بالحمام وهو في سرخس سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٤١).

(٢) كذا، ولعله أراد: «ووصله بالمأمون».

فلحقته في بعض الأوقات جَفْوَة من الفضل، فكتب إليه: «يا حافظَ مَنْ يَضع نفسَه عنده، ويا ذَاكِرَ مَنْ نَسِيَ نصيبه منه، ليس كتابي إذا كتبتُ استبطاءً، وما إمساكي إذا أمسكتُ استغناء؛ فكتبت مذكِّراً لا مستقصراً فِعْلَك» فَوَصَلهُ وأَحْسَن إليه.

وقد رُوِيَ بعضُ هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبي حفص الكرماني مع ذِي الرِّياستين.

للتميمي يمدح الفضل بن سهل

ويقول أبو محمد بن عبد الله بن أيوب التَّميمي(١):

لَعَمْـرُكَ مـا الأَشْـرَافُ فـي كُـلّ بَلْـدَةٍ ... وإنْ عَظُمُـوا لِلفَضْـلِ إلاَّ صَنَـائِـعُ
تَـرَى عُظَمـاءَ النـاس لِلْفَضْـل خُشَّعـاً ... إذا مـا بَـدا، والفَضْـلُ للهِ خـاشِـعُ
تَــوَاضَــعَ لَمَّــا زاده اللهُ رِفْعَـــةً ... وَكُــلُّ جَليــلٍ عِنْــدَهُ مَتَــواضِــعُ

لإبراهيم بن العباس يمدح الفضل

وقال إبراهيم بن العباس(٢):

لِفَضْـــلِ بـــنِ سَهْـــلٍ يـــدٌ ... تَقَـــاصَـــرَ عَنْهَـــا المَثَـــلْ
فَبَـــاطِنُهَـــا لِلنَّـــدَى ... وَظَـــاهِـــرُهَـــا لِلقُبَـــلْ
وَبَسْطَتُهَـــا لِلْغِنَـــى ... وَسَطْـــوَتُهَـــا لِـــلأَجَـــلْ

لابن الرومي يمدح إبراهيم بن المدبر

أَخذه ابنُ الرومي فقال لإبراهيم بن المُدبّر(٣):

أَصْبَحْــتُ بيــن ضَــرَاعــةٍ وَتَجمُّــلٍ ... وَالمَــرْءُ بَيْنَهُمــا يَمُــوتُ هَــزِيــلا
فَــاْمْــدُدْ إلــيَّ يَــداً تَعــوَّدَ بَطْنُهــا ... بَــذْلَ النــوالِ وَظَهْــرُهــا التقبيــلا

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٣.
(٢) نفسه: ٤/ ٤٣. وفيه: «ونائلها للغنى».
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ٨٨. وفيه «بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ». والخصاصة: الفقر والجوع.

لابن الرومي يمدح ابن طاهر

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وزاد في هذا المعنى تشبيهاً ظريفاً[١]:

مُقَبَّـلُ ظَهْـرِ الكَـفِّ وَهَّـابُ بَطْنِهـا ... لَهَـا رَاحَـةٌ فِيهـا الحَطِيـمُ وَزَمْـزَمُ

فَظَـاهِـرُهـا لِلنـاسِ رُكْـنٌ مُقَبَّـلٌ ... وَبَـاطِنُهـا عَيْـنٌ مِـن العُـرْفِ عَيْلَـمُ[٢]

* * *

من ترجمة الفضل بن سهل

وكان ذو الرياستين يَقْبَلُ صوابَ القائلين بما في قُوَّته من صَفَاءِ الغريزة، وَجَوْدَةِ النَّحيزة[٣] فهو كما قال أبو الطيب[٤]:

مَلِـكٌ مُنْشِـدُ القَـرِيـضِ لَـدَيْـهِ ... يَضَـعُ الثَّـوبَ فـي يَـدَيْ بَـزَّازِ[٥]

وكانت مَخَايِلُ فَضْلِه، ودلائلُ عَقْلِه، ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دِين المجوسية، فقال له: أَسْلِم أَجِد السبيلَ إلى اصْطِنَاعِك، قال: فأسلم على يَدِ المأمون، ولم يزل في جَنَبَتِه[٦]، إلى أن رقى إلى رُتْبَتِهِ.

وذكره يحيى عند الرشيد فأجْمَل الثناء، فأمر بإحضاره، فلما رآه أُفْحِمَ؛ فَنَظَرَ الرشيد إلى يحيى كالمستفهم؛ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ من أدلّ دليل على فَرَاهَةِ المملوك أن تَمْلِكَ هَيْبَةُ مولاه لِسانَه وَقَلْبَه، فقال الرشيد: لئن كنت سَكَتَّ لكي تقولَ هذا فقد أَحْسَنْت، ولئن كان هذا شيئاً اعتراك عند الْحَصَر لقد أَجَدْتَ؛ وزاد في إكرامه وتقريبه، وجعل لا يَسْأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بأفْصَحِ لسان، وأجود بَيَان.

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ٢٨٠. والبيتان من قصيدة طويلة جداً بلغت ثلاثمائة وثلاثة أبيات.

(٢) عَيْلَمٌ: كثيرة الماء، والعيلم أيضاً: البحر. وفي الديوان: «غيلم»، وهو الشاب العظيم المفرق، الكثير الشعر.

(٣) النحيزة: الطبيعة.

(٤) المتنبي، الديوان: ١/ ٣٦٥. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا بكر علي بن صالح الروزباري الكاتب.

(٥) القريض: الشعر. البزاز: تاجر الثياب. أي: أنه عارف بالشعر معرفة البزاز بالثوب.

(٦) جنبته: جانبه.

مختارات من كلام الفضل بن سهل

قال سهل بن هارون: ومما حُفظ من كلام ذي الرياستين مما رأينا تَخْلِيدَه في الكتب؛ لِيُؤْتَمّ به، وَيُنْتَفَعَ بِمقْوَلِ حكمته، قَوْلُه: مَن تركَ حقًّا فقد غبن حظًّا، ومَن قضَى حقًّا فقد أحْرَزَ غُنْماً، ومَن أتَى فَضْلاً فقد أوْجَب شُكراً، ومن أحْسَن توكّلاً لم يعدم مِنَ اللهِ صُنْعاً، ومَن ترك لله شيئاً لم يَجدْ لِما تركَ فَقْداً، ومَنِ التمسَ بمعصية اللهِ حَمْداً عادَ ذلك على مُلْتَمِسِه ذمًّا، ومن طلب بخلاف الحقِّ له دَرَكاً عاد ما أدرك من ذلك له مُوبِقاً[١]؛ وذلك أَوْجَب الفَلاحَ للمحسنين، وجعل سوءَ العاقبة للمسيئين المقصِّرين.

وَوَقَّع في رُقْعَةِ ساعٍ: نحن نرى قبولَ السعاية شَرًّا منها؛ لأنَّ السِّعاية دلالةٌ، والقبولَ إجازة، وليس مَنْ دَلّ على شيء وأخْبَر به كمن قَبِلَه وأجَازَهُ؛ فاتّقُوا السَّاعِي؛ فإنَّهُ لو كان في سِعَايَتِهِ صَادِقاً لكان في صِدْقِهِ آثماً؛ إذْ لم يَحْفَظِ الْحُرْمةَ، ولم يستر العَوْرَة.

* * *

من محمد بن علي إلى محمد بن يحيى بن خالد

والشيْءُ يُقْرَنُ مع جِنسِه: كتب محمد بن علي إلى محمد بن يحيى بن خالد، وكان والياً على أرمينية للرشيد: إنَّ قوماً صارُوا إلى سبيل النُّصْح فذكروا ضِيَاعاً بأرمينية قد عَفَتْ ودَرَسَتْ[٢]، يرجع منها إلى السلطان مَالٌ عظيم، وإني وقفتُ عن المطالبةِ حتى أَعْرِفَ رأيَك.

جواب يحيى بن خالد

فكتب إليه: قرأتُ هذه الرقعةَ المذمومة، وفَهِمْتُها، وسُوقُ السعاية بِحَمْد الله في أيامنا كَاسِدَة، وألْسِنَةُ السُّعاةِ في أيامنا كَلِيلة خاسئة؛ فإذا قَرَأْتَ كتابي هذا فاحْمِلِ الناسَ على قانونك، وخُذْهُم بما في دِيوَانِك؛ فإنَّا لم نُوَلِّك الناحية، لِتتبَّعَ الرسوم العافية، ولا لإحياء الأعْلام الداثرة، وَجَنِّبني وتجنَّب بَيْتَ جرير يخاطب الفرزدق[٣]:

وَكُنْتَ إذا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارَا

(١) الدَّرَكُ: اللَّحَاقُ. والمُوبِقُ: المُهْلِكُ.

(٢) عفت ودرست: كلاهما بمعنى امّحَت وذهبت معالمها.

(٣) جرير، الديوان: ص ٢١٦.

وأجْرِ أمورَكَ على ما يكسب الدُّعَاء لنا لا علينا، واعلم أنها مدّة تنتهي، وأيامٌ تَنْقَضِي، فإمَّا ذِكْرٌ جميلٌ، وإما خِزْيٌ طَوِيل.

رجل يريد أن ينصح المهدي

وقال رجلٌ للمهدي: عندي نصيحةٌ يا أمير المؤمنين، فقال: لِمَنْ نَصيحتك هذه؟ لَنا، أمْ لِعامَّةِ المسلمين، أم لنفسك؟ قال: لك يا أميرَ المؤمنين، قال: ليس الساعي بأعظم عورةً ولا أقْبَحَ حالاً ممن قَبِل سِعَايته، ولا تخلو من أن تكونَ حاسِدَ نعمة، فلا نَشْفِي غَيْظك، أَوْ عَدُوًّا فلا نعاقب لك عَدُوَّك! ثم أقبل على الناس فقال: لا يَنْصَحْ لنا نَاصِحٌ إلاَّ بما فيه لله رضاً، وللمسلمين صَلَاح؛ فإنما لنا الأبدانُ وليس لنا القلوبُ؛ ومن اسْتَتَرَ عنَّا لم نكشفه، ومن بادَانَا طلبنا تَوْبَته، ومن أخطأ أقَلْنَا عَثْرَتُه؛ فإني أرى التأديبَ بالصّفْح أبْلغَ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكْثر منها مع المُعَاجلة، والقلوب لا تبقى لِوالٍ لا يَنْعَطِف إذا اسْتُعْطِفَ، ولا يعفو إذا قَدَر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يَرْحَمُ إذا اسْتُرْحِم.

بعض توقيعات الفضل بن سهل

وَوقّع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمة: الأمورُ بتمامها، والأعمالُ بِخَوَاتمها، والصنائعُ باستدامتها، وإلى الغاية يَجْرِي الجواد؛ فهناك كَشفَتِ الخِبْرَةُ قِناعَ الشَّكّ؛ فحمد السابق، وذمّ الساقط.

وذو الرياستين هو القائل:

أَنْضَيْتِ أَحرف «لا» مِمَّا لَفَظْتِ بها فَحَوّلي رَحْلَها عَنَّا إلى نَعَمِ[١]
أَوْ صَيِّريها إليها مِنْكِ منعمةً إنْ كُنْتِ حَاولتِ فيها خِفَّةَ الْكَلِم
قِسْتُمْ علينا فَعارَضْنَا قِياسَكُمُ يا أَحْسَنَ الناسِ من قَرْنٍ إلى قَدَمِ[٢]

ولما قتل ذُو الرياستين دخَل المأمونُ على أمّه فقال: لا تَجْزَعِي فإنّي ابْنُك بعد ابنك. فقالت: أفلا أَبْكي على ابنٍ أَكْسَبني ابناً مِثْلَكَ؟

(١) أَنْضَى الشيءَ: أبلاه، ومنه: أَنضى الدابة: هزلها وأَتعبها.
(٢) القَرْنُ: جانب الرأس، ومن الجبل: رأسه وأعلاه.

[بعض أوصاف الخيل]

لابن القرية

ووصف ابن القِرِّيَّة[١] فرساً أَهْدَاه الحجاجُ إلى عبد الملك بن مروان فقال: حَسَنُ القَدِّ، أسِيلُ الخَدِّ، يسبق الطَّرْفَ، وَيَسْتَغْرِقُ الوَصْفَ.

لعبد الله بن طاهر

وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه: قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب في الصَّعْدَاء، ويجاوزُ الظِّباءَ في الاستواء، ويسبق في الحَدُور جَرْيَ الماء، فهو كما قال تأبّط شرًّا[٢]:

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي … بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ المُتَدَارِكِ

رجل يريد شراء فرس

وقال رجل لبعض النخاسين: اشْتَرِ لي فرساً جَيِّدَ القَمِيص، حَسَنَ الفُصوص، وثِيق القَصَبِ، نقيَّ العَصَب، يُشِيرُ بأُذُنيه، ويَنْدِسُ بِرِجْلَيْهِ[٣]، كأنه موجٌ في لُجَّة، أو سَيْلٌ في حَدُور.

لمحمد بن الحسن بن الحرون

جمع محمد بن الحسين[٤] هَذَيْنِ الكلامين وزاد فقال يصف فرساً: هو حَسَنُ القميص، جَيِّد الفصوص، وثيق القَصَب، نقيُّ العَصَب، يُبْصِرُ بأذنيه، ويَتَبَوَّع بيديه[٥]؛

(١) هو أبو سليمان، أيوب بن زيد بن قيس.... المعروف بابن القِرِّيَّة الهلالي، والقريّة: جدته: خطيبٌ فصيحٌ لَسِن. قتله الحجاج سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٤ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٥٠).

(٢) هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل، وقيل: ابن عمسل، وأمه امرأة يقال لها: أميمة. لُقِّبَ بـ «تأبط شرًّا» لأنه تأبط الغول وهو يظنه كبشاً، وقيل: سمّي بذلك لأنه تأبط سيفاً وخرج. توفي نحو ٨٠ ق. هـ/ ٥٤٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢١/ ١٤٤؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٢٩؛ المحبَّر، ابن حبيب: ١٩٦).

(٣) يندس: يضرب.

(٤) هو محمد بن الحسن بن الحرون.

(٥) التَّبَوُّعُ: إبعاد خطو الفرس في جريه.

ويُدَاخِل بِرِجْلَيه، كأنه موجٌ في لجَّة، أو سيلٌ في حَدُور، يناهب المشي قبل أن يُبْعث، ويلحق الأرانب في الصعداء، ويجاوزُ جواري الظباءِ في الاستواء، ويسبق في الحَدُور جَرْيَ الماءِ، إنْ عُطِف جَارَ، وإن أرسِل طار، وإنْ كلّف السير أمْعَن وسار، وإن حُبس صَفَن[١]، وإن استوقف فطن، وإنْ رَعَى أبنَ[٢]؛ فهو كما قال تأبّط شرًّا، وذكر البيت.

أبيات لتأبَّط شرًّا

وأول هذه الأبيات:

وَإنــي لَمُهْــدٍ مــن ثَنــائــي فقَــاصِــدٌ ... به لابْنِ عمّ الصِّدْقِ شَمْسِ بن مالكِ

أَهــزُّ بِــه فــي نَــدْوَةِ الحــيّ عِطْفَــهُ ... كمــا هــزَّ عِطْفِــي بــالهِجَــانِ الأوَارِكِ[٣]

قَلِيــــل التَّشَكِّـــي لِلْمُلِـــمِّ يُصِيبُـــهُ ... كثيـرُ الهـوَى شَـتُّ النَّـوَى والمَسَـالِـكِ

يَظَــلُّ بِمَــوْمــاةٍ وَيُمْسِــي بِغَيْــرِهــا ... جَحِيشاً وَيَعْـرَوْري ظُهـورَ المهـالِـكِ[٤]

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الـرّيح مِنْ حَيْثُ يَنْتَحي ... بِمُنْخَـــرِقٍ مِـــنْ شَـــدِّهِ المتـــدارك

إذا خَـاطَ عَيْـنَيْـهِ كَـرَى النوم لـم يَـزَل ... لـه كَـالـىءٌ من قلـبِ شَيْحَـانَ فـاتِـك[٥]

إذا طَلَعَـــتْ أُولَـــى العَـــدُوِّ فَنَفْـــرُهُ ... إلـى سَلَّـةٍ مِنْ صَـارِمِ الغَـرْبِ بـاتِـكِ[٦]

وَيجعـــلُ عَينيـــه رَبيئَـــةَ قَلْبِـــهِ ... إلـى ضَـرْبَـةٍ مِنْ حَـدِّ أَخْلَقَ صَـائِـكِ[٧]

إذا هَـــزَّهُ فـــي عَظْـــمِ قِـــرْنٍ تَهَلَّـــتْ ... نَـواجِـذُ أَفْـوَاهِ المنـايـا الضَّـوَاحِـكِ[٨]

يَـرى الـوَحْشَـةَ الأُنْـسَ الأنيـسَ وَيَهْتَـدي ... بِحَيْـثُ اهْتَـدَتْ أُمُّ النجـومِ الشَّـوَابِـكِ[٩]

---

(١) صَفَنَ الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة.

(٢) أَبَنَ: ترقَّب.

(٣) الندوة: المجتمع. الهجان من الإبل: الكريمة. الأوارك: التي ترعى الأراك.

(٤) الموماة: المفازة ينعدم فيها الماء. والجحيش: المنفرد. ويعروري: يركب على العري، يريد أنه يركب ظهور المهالك بلا سرج.

(٥) الكالىء: الحافظ. الشيحان: الحازم. يريد أن قلبه يقظ وإن نامت عينه.

(٦) الباتك من السيوف: القاطع، والجمع: بواتك.

(٧) الربيئة: الرقيب. والصائك: القاطع.

(٨) القِرْنُ: المثيل في الشجاعة والشدّة والعلم والقتال وغير ذلك.

(٩) أم النجوم الشوابك: الشمس.

عُقْبَةُ بن سِنَان يصف خيلا أهداها عمرو بن العاص لمعاوية

وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سَوابِق خَيْلِ مِصر، فعُرِضت عليه، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثي، فقال له معاوية: كيف ترَى هداياناً يا أبَا سَعِيد؟ فإن أخَاكَ عَمْراً قد أطْنَبَ في وَصْفِها، فقال: أراها يا أميرَ المؤمنين على ما وصف، وإنها لمُخَيّلة[١] بكلّ خير؛ إنها لسَامِيَةُ العُيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، قَبَّاء الأسنان[٢]، ضِخَام الرُّكبَات، مشرفات الحجبات[٣]، رِحَاب المَنَاخِر، صِلاَبُ الحوافر، وَقْعُها تحليل، ورفعها تعليل[٤]، فهذه إن طُلِبت سَبقت، وإن طَلَبتْ لَحِقَتْ. قال له معاوية: اصرفها إلى رَحْلِك؛ فإنّ بِنَا عنها غِنًى، وبفتيانك إليها حاجة.

للنابغة الجَعْدِيّ

وقال النابغة الجَعْدِيّ[٥]:

وإنّـــا أنَـــاسٌ لا نُعَـــوِّدُ خَيْلَنَـــا ... إذا مـــا التقَيْنَـــا أنْ تَحِيـــدَ وَتَنْفُـــرَا[٦]
وَنُنْكِـــرُ يَـــوْمَ الـــرَّوْعِ ألـــوانَ خَيْلِنـــا ... مِنَ الطعنِ حَتَّى نَحْسِبَ الْجَوْنَ أشْقَرا[٧]
فَلَيْـــسَ بِمَعْـــروفٍ لَنَـــا أنْ نَـــرُدَّهَـــا ... صِحَـــاحـــاً، ولا مُسْتَنكَـــرٍ أن تُعَقَّـــرا[٨]

---

(١) مُخيّلةٌ: مبشرة.
(٢) قَبّاءُ الأسنان: لها صرير.
(٣) الحجبات: جمع حَجَبَة، وهي من الفرس ما أشرف على صفاق البطن من وركيه.
(٤) التحليل والتعليل: من حركات الخيل.
(٥) هو أبو ليلى، قيس بن عبد الله، وقيل: حسّان بن قيس بن عبد الله، من جعدة بن كعب بن ربيعة، والنابغة لقب اشتهر به: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. ولد بالفلج جنوبي نجد، وزار اللخميين بالحيرة. وفد مع قومه على النبي ﷺ وأنشده شعراً، فدعا له بخير. شهد فتح فارس، وكان مُغلباً في الشعراء، إذا هُوجِيَ غُلِب. توفي نحو ٥٠ هـ/ نحو ٦٧٠ م. (المرزباني، معجم اشعراء: ١٩٥؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٩٣). والأبيات من قصيدة طويلة يذكر فيها وفوده مع قومه على النبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، ويفتخر بقومه (ديوانه: ٦٠ ـ ٦٩؛ القرشي، الجمهرة: ٢/٢٥٩ ـ ٢٧٢).
(٦) حاد عن الشيء، يَحيدُ حَيْداً وَحَيداناً وَمَحِيداً وَحَيْدُودَةً: مال عنه وعدل. والنَّفْرُ: التفرُّق. ونفر الظبي وغيره نَفْراً وَنَفَراناً: شرد.
(٧) الجون: الأسود. وننكر ألوان خيلنا: لا نعرفها لاختلاط الدماء والغبار بألوانها الحقيقية.
(٨) عقر الفرس والبعير بالسيف عَقْراً: قطع قوائمه، يقال: فرس عَقِيرٌ وَمَعْقُورٌ، وخيلٌ عَقْرَى، وعقر الناقة: نحرها، والعَقْرُ: الحَزُّ. وفي الديوان: «وَما كانَ مَعْرُوفاً لَنَا أَن نَرُدَّها».

لبعض العرب

وقال بعض العرب:

وَلقـدْ شَهِـدْتُ الخيـلَ يَـوْمَ طِـرَادِهـا   بِسَليـم أَوْظِفَـةِ القَـوَائِـم هَيْكَـلِ[١]
فَـدعَـوْا: نَـزالِ! فَكُنْـتُ أَوَّلَ نـازلِ   وَعَـلامَ أَرْكَبُـهُ إذا لَـمْ أَنْـزِلِ

لأعرابي

ووصف أعرابي فرساً فقال: لما أرسلت الخيل جاءُوا بشيطانٍ في أَشْطَان[٢]، فأرسلوه، فلمع لَمْعَ البَرْقِ، واستهلَّ استهلالَ الوَدْقِ[٣]، فكان أَقْرَبهم إليه الذي يقعُ عينه من بُعْدٍ عليه.

لأعرابي

وذكر أعرابي رجلاً فقال: عنده فرسٌ طويل العِذَارِ، أَمِينُ العِثَار؛ فكنت إذا رأيته عليه ظننته بَازِياً على مَرْبأ، عليه رُمْحٌ طويل يقصّرُ به الآجال.

وقال بعض المُحْدَثِينَ في هذا التطابق:

لَقِينَـاهُـمْ بـأَرْمَـاحٍ طِـوالٍ   تُبَشِّـرُهـم بِـأَعْمَـارٍ قِصَـارِ

أعرابي يصف خيل بني يَرْبُوع

ووصف أعرابي خيلاً لبني يربوع فقال: خَرجَتْ علينا خيلٌ من مستطير نَقْعٍ[٤]، كأن هَوَادِيَهَا أَعْلام، وآذانَها أقلام، وفرسانها أُسود آجام[٥].

---

(١) الأوظفة: جمع وظيف، وهو مُسْتَدَقُّ الذراع والساق من الخيل والإبل وغيرها، والهيكل: الفرس الضخم، أو الطويل، قال امرؤ القيس:

وَقَـدْ أَغْتَـدِي وَالطَّيْـرُ فـي وُكُنَـاتِهـا   بِمُنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوابـدِ هَيْكَـلِ

(الهواري، شرح المعلقات العشر: ص ٤٧).

(٢) الأشطان: الحبال، الواحد: شَطَن.

(٣) الودق: المطر.

(٤) النقع: غبار الحرب، قال بشّار:

كَـأَنَّ مُثَـارَ النَّقْـعِ فَـوْقَ رُؤُوسِنَـا   وَأَسْيَـافَنَـا لَيْـلٌ تَهَـاوَى كَـوَاكِبُـهْ

(بشار بن برد، الديوان: ١/ ١٦٧).

(٥) الآجام: جمع أَجَمَة، وهي مسكن الأسود.

ولما أنشد العمَّاني[١] الرشيد يصف فرساً:

كَأَنَّ أُذْنَيْهِ إذا تَشَوَّفَا قَادِمَةٌ أَوْ قَلَماً مُحَرَّفَا

ولحن، ففهم ذَلك أَكْثَرُ من حضر؛ فقال الرشيد: اجعل مكان «كأَن» يَخَال، فعِجبوا لِسُرْعَة تَهَدِّيه.

لأبي تمام يصف فرساً

وللطائيين في هذا النوع أشعارٌ كثيرة منعني من اختيارها كثرة اشتهارها، وسأنشد بعض ذلك، قال أبو تمام[٢]:

مَا مُقْرَبٌ يَخْتَالُ فِي أَشْطَانِهِ مَلآن مِنْ صَلَفٍ بِهِ وَتَلَهْوُقِ[٣]
بِحَوَافِرٍ حُفُرٍ وَصُلْبٍ أَصْلَتٍ وَأَشَاعِرٍ شُعْرٍ، وَخَلْقٍ أَخْلَقِ[٤]
ذُو أَولَقٍ تَحْتَ العجاج، وإنَّما مِن صِحَّةٍ إفراطُ ذَاكَ الأَوْلَقِ[٥]
صَافِي الأديم كَأَنما ألبستهُ مِنْ سُنْدُسٍ بُرْداً وَمِنْ إسْتَبْرَقِ[٦]

(١) هو أبو العباس، وقيل: أبو عبد الله، محمد بن ذؤيب، من بني نهشل بن دارم، من بني فقيم، ولقب بـ «العماني» لأنه أقام في عمان طويلاً فنُسب إليها. وهو شاعر راجز، كان يُوزن بالعجاج ورؤبة. توفي نحو ٢٢٨ هـ/ ٨٤٣ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٠٩؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٨/ ٢٣١).

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٣٩. والأبيات من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب، ويصف فرساً حمله عليه.

(٣) المقرب: الفرس الذي يقرب معلفه ومربطه لكرامته. يختال: يتبختر. الأشطان: الحبال، المفرد: شطن، وأراد الرسن. الصلف: التيه والكبر. المتلهوق: من تلهوق الرجل: تَزَيَّن بما ليس عنده. وَفسَّر التبريزي الصلف والتلهوق بمرح ونشاط كالجنون.

(٤) حُفر: أي تحفر الأرض لشدة وطئها، وقيل: حافر أحفر: إذا كان مستديراً كالقعب. والصلت: الجبين الواضح. وفي الديوان: «وَصُلْبٍ صُلَّبٍ»، والصُّلْبُ: عظم في الظهر ذو فقار يمتد من الكاهل إلى أسفل الظهر. صُلَّبٌ: شديد. الأشاعر: جمع أشعر: ما ينبت عليه الشعر مما يقارب الحافر. وَشُعْرٌ: نبت عليها الشعر، وقلة الشعر في هذه المواضع مذمومة. وَخَلْقٌ أَخْلَق: أي أملس ليس فيه عيب.

(٥) الولق والأولق: الجنون. يقول: إنه ذو نشاط كالجنون، وذاك من صحته لا من جنونه.

(٦) الأديم: ظاهر الجلد. السندس: نوع من رقيق الديباج أو الحرير. والاستبرق: الديباج الغليظ. وأراد الشاعر هنا صفاء لون الفرس ونصوعه كنصوع الديباج، ولم يُرد لونه.

إمْلِيسَةٌ إمليدةٌ لو عُلِّقتْ   في صَهْوَتيهِ العَيْنُ لم تَعلَّقِ[1]
مُسْوَدُّ شَطْرٍ مِثْلُ ما اسْوَدَّ الدُّجَى   مُبْيَضُّ شَطْرٍ كَابْيِضَاضِ المُهْرَقِ[2]

للبحتري يصف فرساً

وقال أبو عبادة[3]:

وأغَرَّ في الزَّمَنِ البهيم مُحَجَّلِ   قَدْ رُحْتُ مِنْهُ على أغرَّ مُحَجَّلِ[4]
وَافِي الضلوعِ يَشُدّ عقدَ حِزَامِهِ   يَوْمَ اللقاءِ على مُعِمٍّ مُخْوِلِ
يَهوي كما هَوَتِ العقابُ إذا رَأَتْ   صَيْداً وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الأجْدَلِ[5]
مُتَوحّشٌ بِدقيقتين كَأَنما   تُرَيَانِ من وَرقٍ عليه مُوَصَّلِ[6]
كالرائحِ النَّشْوان أكْثَرُ مَشْيِهِ   عرض على السَّنَن البعيد الأطْوَلِ
وَيظنّ رَيْعَانَ الشبابِ يَرُوعُهُ   من نَشْوَةٍ أو جِنَّةٍ أو أَفكلِ[7]
هَزِجِ الصهيلِ كأنَّ في نَبَرَاتِه   نَغماتِ مَعْبَدَ في الثَّقِيلِ الأوّلِ
تَتَوَهَّمُ الْجَوْزاءُ في أرْسَاغِه   وَالبَدْرُ غُرةٌ وَجْهِهِ المُتهلِّلِ
صافِي الأديم كأنّما عُنِيَتْ لَهُ   بِصَفَاءِ نُقْبَتِه مَدَاوِكُ صَيْقَلِ[8]

(١) في الديوان: «إمْلِيسُهُ إمْلِيدُهُ»، أي: أملس، ناعم، برّاق. والصهوة: موضع السرج من الفرس. يقول: إنه لملاسته ونعومته لا تعلق الأشياء به، وربما عنى بالعين: العين الشريرة لقوله في البيت الذي يليه:

يُرْقَى وَمَا هُوَ بِالسَّليم وَيَغْتَدِي   دُونَ السَّلاحِ سِلاحَ أَرْوَعَ مُمْلِقِ

(٢) المهرق: الصحيفة، وقيل: الحريرة البيضاء.

(٣) البحتري، الديوان: ٢/٣٦٦. والأبيات من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القُمّي الكاتب.

(٤) البهيم: المظلم. والغِرَّةُ والتَّحْجِيلُ: بياض في الجبهة والقوائم. والأغَرُّ المُحَجَّلُ: الفرس، والرجل الكريم على المجاز.

(٥) الأجدل: الصقر.

(٦) الدقيقتان: صفة للساقين. وفي الديوان «مُتَوجِّسٌ برقيقتين كأنما... تُرْيَانُ».

(٧) الأفكل: الرعدة. والجنة: الجنون. وفي الديوان: «وَتَظُنُّ».

(٨) المداوك: جمع مدوك، وهو المِصْقَلة، يقال: داكَ الصيقل السيف وسَنَّهُ بالمدوك. وفي الديوان: «مداوس صيقل». ونقبته: لونه.

وَكــأنَّمــا كُسِــيَ الخــدودَ نَــوَاعِمــاً ... مَهْمَــا تُــلاحِظْهَــا بِلَحْــظٍ يَخْجَــلِ
وَكــأنمــا نَفَضَــتْ عَلَيْــهِ صِبْغَهــا ... صَهْبَــاءُ لِلبَــرَدانِ أو قُطْــرَ بُّــلِ[1]
مَلَــكَ العيــونَ؛ فــإن بَــدَا أَعْطَيْنَــهُ ... نَظَــرَ المُحــبِّ إلــى الحبيــبِ المُقْبِــلِ

لإسحاق بن خَلَف يصف فرس أبي دُلَف

وقال إسحاق بنُ خلف النهرواني لأبي دُلَف، وكان له فرسٌ أدهم يسميه غرابا:

كَــمْ كَــمْ تُجــرِّعُــهُ المَنــونُ وَيَسْلَــمُ ... لَــوْ يَسْتطيــعُ شَكَــا إليــكَ لَــهُ الفــمُ
مِــنْ كُــلِّ مَنْبِــتِ شَعْــرَةٍ مــنْ جِلْــدِهِ ... خَــطٌّ يُنَمِّقُــه الْحُســامُ المِخْــذَمُ[2]
مــا تُــدْرِكُ الأرواح أَدْنَــى جَــرْيِــهِ ... حَتَّــى يَفُــوتَ الــريــحَ وَهْــوَ مُقــدَّمُ[3]
رَجَعَتْــهُ أَطْــرَافُ الأسِنَّــةِ أَشْقَــراً ... وَاللــونُ أدْهَــمُ حيــنَ ضَــرَّجَــهُ الــدَّمُ
وَكــأَنَّمــا عَقَــدَ النُّجُــومَ بِطَــرْفِــهِ ... وَكــأَنَّــهُ بِعُــرَى المجَــرَّةِ مُلْجَــمُ[4]

وقال أبو الطيب[5]:

جَفَتْنِــي كــأَنّــي لَسْــتُ أَنْطَــقَ قَــوْمِهــا ... وَأَطْعَنَهُمْ والشُّهْبُ في صُوَرِ الدُّهْمِ[6]

لأبي الفتح كُشَاجم

وقال أبو الفتح كُشاجم:

قَــدْ راحَ تَحْــتَ الصُّبْــحِ لَيْــلٌ مُظْلِــمُ ... إذ لاحَ فــي السَّــرْجِ المُحلَّــى الأدْهَــمُ
دِيبــاجُ أَلْــوانِ الجيــادِ، ولــم يَكُــنْ ... لِيُخَــصَّ بــالــديبــاج إلاَّ الأكْــرَمُ
ضَحِــكَ اللُّجَيْــنُ علــى سَــوادِ أديمــهِ ... وَكــذا الظــلامُ تُنِيــرُ فيــه الأنْجُــمُ

---

(١) البردان: اسم لعدة أماكن، والمراد هنا: الموضع الذي كان بهذا الاسم قرب بغداد، وكان مشهوراً بالخمر. وقطربل: اسم قرية.
(٢) المخْذَمُ: القاطع.
(٣) الأرواح: جمع الريح.
(٤) مُلْجَمٌ: من ألجم الدابة إذا ألبسها اللجام، وهو حديدة توضع في فمها.
(٥) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٠٢. والبيت من قصيدة يمدح بها الحسين بن إسحاق التنوخي.
(٦) أنطق: تفضيل من النطق، أي أفصح. والشهب: من صفات الخيل، وهي التي في لونها بياض قد غلب على السواد. والدهم: السوداء محضاً.

فَكَــأَنَّــهُ بِبَنَــاتِ نَعْــشٍ مُلْبَــبٌ وَكَــأَنَّمَــا هُــوَ بِــالثُرَيَّــا مُلْجَــمُ

لابن المُعْتَز

قلت: هذا من قول ابن المعتزّ:

أَلاَ فَــاسقيــانــي وَالظــلامُ مُقَــوّضٌ وَنَجْمُ الدُّجَىٰ تَحْتَ المَغارِبِ يَرْكُضُ (١)
كَــأَنَّ الثُّــرَيَّــا فــي أَواخِــرِ لَيْلِهــا تَفتّــحُ نَــوْرٍ أَو لِجَــامٌ مُفَضَّــضُ

لأبي الفتح أيضاً

وقال أبو الفتح:

مَــنْ شــكّ فــي فَضْــلِ الكُمَيْــتِ فَبَيْنَــهُ فيــهِ وَبَيْــنَ يقينــهِ المِضْمــارُ
فــي مَنْظَــرٍ مُستحسَــنٍ مَحْمُــودةٍ أَخْبَــارُه إذ تُبْتَلَــى الأخبــارُ
مــاءٌ تَــدفّــق طَــاعَــةً وسَــلاَسَــةً فــإذا اسْتُــدِرَّ الْخُضْــرُ فيــه فَنَــارُ
وَإِذا عَطَفْــتَ بِــهِ علــى نَــاوَرْدِه لَتُــدِيــرَه فَكــأَنَّــه بِــرْكَــارُ
وَصــفَ الْخَلــوقَ أَديمُــه فكــأَنَّمــا أَهْــدَى الْخَلــوقَ لِجلــدِه عَطــارُ (٢)
قَصُــرَتْ قِــلاَدَةُ نَحْــرِهِ وَعِــذَارِهِ وَالــرّسغ، وَهْــيَ مِــنَ العِتَــاقِ قِصَــارُ
وَكــأَنَّمــا هَــاديــهِ جِــذْعٌ مُشْــرِفٌ وَكــأَنمــا لِلضبــع فيــه وِجَــارُ (٣)
يَــرِدُ الضَّحَــاضِــحَ غيــر ثــانــي سُنْبُــكٍ وَيَــرُودُ طَــرْفُــكَ خَلْفَــه فَتَحــارُ (٤)
لَــوْ لــم تَكُــنْ لِلْخَيْــلِ نِسْبَــةُ خَلْقِــهِ حَــاكَتْــهُ مِــنْ أَشْكَــالِهــا الأَطْيَــارُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز:

وَخيْــلٍ طَــواهــا القَــوْدُ حَتَّــى كــأَنَّهــا أَنــابيــبُ سُمْــرٌ مــن قَنَــا الخــطِ ذُبَّــلُ (٥)

---

(١) مُقَوِّضٌ: من قَوَّض البناء إذا هدمه، وَقَوَّض المجلس: فَرَّقَهُ.
(٢) الخَلُوقُ: نوع من الطيب.
(٣) هاديه: صدره. والوِجَارُ: جُحْرُ الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك.
(٤) الضَّحاضحُ: جمع الضَّحضاح، وهو الماء القليل لا عُمْقَ فيه. والسنبك: طرف الحافر.
(٥) القنا: الرماح، الواحدة: قناة. والخط: موضع بالبحرين تُنْسَب إليه الرماح. وَذُبَّلٌ: جمع ذابل، ورمح ذابل: دقيق.

صَبَبْنَا عليها ـ ظَالمينَ ـ سِيَاطنا فَطَارَتْ بها أيدٍ سِرَاعٌ وأَرْجُلُ

لأعرابي مولد

قَوْلُهُ: «ظالمين» من أَبْدَع حَشْوٍ جرى في بيت، وكأنّ ابن المعتز أشار إلى قول أعرابي مولد:

وَعَوْدٍ قليلِ الذنبِ عَاوَدْتُ ضَرْبَهُ إذا هَاجَ شَوْقِي مِنْ مَعاهِدهَا ذِكْرُ(١)
فَقلْتُ لهُ: ذَلفاءُ ـ وَيْحَك! ـ سَبَّبَتْ لك الضَّرْبَ، فَاصْبِرْ إنَّ عَادتَكَ الصَّبْرُ(٢)

لابن المعتز أيضاً

وقال ابن المعتز:

أراجعتي فِدَاك بِأَعْوَجِيٍّ كَقِدْحِ النَّبْعِ في الرّيشِ اللُّؤامِ(٣)
بِأَدْهَمَ كَالظَّلَامِ أغرَّ يَجْلُو بغُرَّتِهِ دَيَاجِيرَ الظّلامِ
تَرَى أَحْجَالَهُ يَصْعَدْنَ فِيهِ صُعودَ البَرْقِ في جَوِّ الغَمَامِ

وقال أيضاً:

قَدْ أَغْتَدِي والصُّبْحُ كالمَشِيبِ في أُفُقٍ مِثْلِ مَدَاكِ الطِّيبِ
بِقَارِحٍ مُسَوَّمٍ يَعْبُوبِ ذي أُذنٍ كَخُوصَةِ العَسِيبِ(٤)
أو آسةٍ أُوفَتْ على قَضِيبِ يَسْبِقُ شَأْوَ النظرِ الرّحِيبِ
أَسْرَعُ مِنْ ماءٍ إلى تَصْوِيبِ وَمِنْ رُجوعِ لَحظةِ المُرِيبِ(٥)

وقال:

رُبَّ رَكْبٍ عَرَّسوا ثم هَبُّوا نَحْوَ إسْرَاجٍ وَشَدِّ رِحَالِ

---

(١) العَوْدُ: البعير.
(٢) ذلفاء: اسم امرأة. يقول: إن حُبَّ السرعة إلى لقائها هو السبب في ضرب راحلته.
(٣) الأعوجي: الفرس الكريم، منسوب إلى أعوج. واللؤام: المحكم.
(٤) القارح: الفرس القوي. مُسوَّمٌ: مُعْلَمٌ، وُضِعت عليه السومة: العلامة. واليعبوب: الفرس السريع الطويل. والعسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة، والذي لم ينبت عليه الخوص من السعف.
(٥) تصويب: انحدار.

وَعَـدَوْنـا بـأعِنَّـةِ خَيْـلٍ تَـأْكُـلُ الأرْضَ بـأَيْـدٍ عِجَـالِ
زَيَّنَتْهَـا غُـررٌ ضَـاحِكَـاتٌ كَبُـدورٍ فـي وُجُـوهِ لَيـالِ

لعلي الإيادي

وقال علي بن محمد الإيادي:

مَسَـحَ الظـلامُ بِعُـرْفِـهِ يَـدَهُ وَمَشَـى فَقَبَّـلَ وَجْهَـهُ البَـدْرُ

لأبي العباس الناشيء

وقال الناشيء أبو العباس عبد الله بن محمد:

أَحْـوَى عليـه مَسـائـحٌ مِـنْ لِيطَـةٍ شُهْـبٌ تَسِيـلُ على نَـوَاشِـرِ سَـاقِـهِ(١)
فَكَـأَنَّـهُ مُتَلَفِّـعٌ قُبْطِيَّـةً أَثْنَـاؤُهـا مَشْـدُودَةٌ بِنِطَـاقِـهِ
فَسَـوادُه كـاللَّيْـلِ فـي إظْـلامِـهِ وَبَيَـاضُـهُ كـالصُّبْـحِ فـي إشـراقِـهِ
صَـافِـي الأدِيـمِ كَـرِيمـةٌ أنْسَـابُـهُ أَخْـلاَقُـهُ عَيْـنٌ علـى أعْـراقـهِ

لأبي منصور الثعالبي

كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي إلى الأمير أبي الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال، وقد زاره الأميرُ في داره:

لا زال مَجْـدُكَ لِلسِّمَـاكِ رَسِيـلا وَعُلُـوُّ جَـدِّكَ بـالخلـود كَفِيـلا(٢)
يـا غُـرَّةَ الـزمـنِ البهيـم إذا غَـدَا أَهْـلُ العُـلاَ لِـزَمـانهـم تَحْجِيـلاَ
يـا زائـراً مَـدّت سَحَـائـبُ طَـوْلِـه ظِـلاًّ علـيَّ مِـنَ الجمَـالِ ظليـلا(٣)
وَأَتَـتْ بِصَـوْبِ جـواهـرٍ مـن لَفْظِـهِ حَتَّـى انتظَمْـنَ لِمَفْـرِقـي إكْلِيـلاَ
بِـأَبـي وغَيْـرِ أبـي هِـلالٌ نُـورُهُ يَسْتَعْجِـلُ التسبيـحَ والتهليـلا

---

(١) الليطة: قشرة القصبة والقوس والقناة، وكل شيء له متانة، الجمع: لِيطٌ ولِيَاطٌ. والنواشر: جمع ناشرة: أحد الأوردة تحت الجلد في باطن الذراع أو الساق.
(٢) السِّمَاكُ: هما سِمَاكان: نجمان نيِّران، أحدهما في الشمال، وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب، وهو السماك الأعزل. والرسيل: القرين.
(٣) الطَّوْلُ: الفَضْلُ والغِنى واليُسْرُ.

نَقَشَتْ حَوَافِرُ طِرْفِه في عَرْصَتِي ... نَقْشاً مَحَوْتُ رُسُومَهُ تَقْبِيلا[١]
وَلو استطعتُ فَرَشْتُ مَنْقِطَ خَطْوِهِ ... بِعُيُونِ عِينٍ لا تَرَى التَّكْحِيلاَ
ونَثَرتُ رُوحي بعدما مَلَكَتْ يَدِي ... وَخَرَرْتُ بين يَدَيْ هَواهُ قَتِيلا

لابن هانئ يصف خيل المعز

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف خيل المعز:

لـه المُقْرَبات الْجُرْدُ يُنْعِلُها دَماً ... إذا فَرَعَتْ هَامَ الكُمَاةِ السَّنَابِكُ[٢]
يُرِيقُ عليها اللؤلؤُ الرطبُ مَاءَهُ ... وَيَسبِكُ فيها ذائبَ التِّبْرِ سَابِكُ
صَقِيلاتُ أَجْسامِ البرُوق كأنّما ... أمرّت عليها بالشموسِ المَدَاوِكُ[٣]

ولابن هانئ أيضاً

وقال يصف فرساً لجعفر بن علي بن حَمْدُون:

تَهلَّلَ مَصْقُولَ النواحي كأنَّهُ ... إذا جالَ ماءُ الْحُسْنِ فيه غَرِيقُ
مِنَ البُهْمِ وَرْدُ اللونِ شِيبَ بِكُمْتَةٍ ... كما شِيبَ بالمسكِ الفَتِيق خَلُوقُ[٤]
فلو مِيزَ مِنْهُ كلُّ لونٍ بذاتِهِ ... جَرَى سَبَجٌ منه وَذَابَ عَقِيقُ[٥]

وقال في قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشَّيْبَاني:

فَتَقَتْ لكم رِيحُ الجِلاَدِ بِعَنْبَرٍ ... وأمدَّكُمْ فَلَقُ الصَّباح المُسْفِرِ
وَجَنَيْتُمُ ثَمرَ الوقائعِ يانعاً ... بالنَّصرِ مِنْ ورقِ الحديدِ الأخْضَرِ
أَبَني العوالي السَّمْهَرِيّة والسيو ... فِ المَشْرَفيَّة والعديدِ الأكْثَرِ[٦]

(١) العرصة: ساحة الدار.
(٢) المُقْرَباتُ: جمع المُقْرَبَة: الفرس أو الناقة ونحوهما القريبة المُعدَّةُ للركوب، أو الفرس تُكَرَّمُ فَيُقَرَّبُ مَرْبَطُهَا ومَعْلَفُهَا. وَجُرْدٌ: جمع أجرد: الذي خلا جسمه من الشعر، وقد جَرِد شعر الفرس: كان قصيراً رقيقاً. والهام: الرؤوس، الواحدة: هامة. السنابك: الحوافر، الواحد: سنبك.
(٣) المَدَاوِكُ: جمع مِدْوَك: ما يُسْحَق به الطيب، أو يُصقل به السيف والحُليّ.
(٤) البُهْمُ: جمع بهيم، وهو الأسود. وَشِيبَ: خُلِطَ. والخَلُوق: نوع من الطيب.
(٥) السَّبَجُ: السواد. والعقيق: أراد أحمر بلون العقيق.
(٦) العوالي: جمع العالية، وهي صدر الرمح، والمراد الرماح نفسها. والسمهرية: الصلبية العود، =

مَـنْ مِنكُـمُ الملـكُ المطـاعُ كـأنَّـهُ تَحْـتَ السَّـوابـغِ تُبَّـعٌ فـي حِمْيَـرِ
القـائـدُ الخيـلِ العِتَـاقِ شَـوازِبـاً خُـزْراً إلـى لَحْـظِ السِّنـانِ الأَخْـزَرِ(١)
شُعْـثَ النَّـوَاصـي حَسْـرَةً آذانُهـا قُـبَّ الأيـاطـلِ دَامِيـاتِ الأَنْسُـرِ(٢)
تَنْبُـو سَنَـابِكُهـنَّ عـن عَفَـرِ الثـرى فَيَطَـأْنَ فـي خَـدِّ العـزيـزِ الأَصْعَـرِ(٣)
فـي فتيـةٍ صَـدَأُ الحـديـدِ عَبِيـرُهُـمْ وَخَلـوقُهـم عَلَـقُ النَّجيـعِ الأحمـرِ(٤)
لا يـأكـل السِّـرْحَـانُ شِلْـوَ عَقيـرِهِـمْ مِمّـا عليـهِ مـن القَنَـا المُتكَسِّـرِ(٥)

وقال في قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن علي:

فَخْـرٌ لِطـرفٍ أَعْـوَجِـي أنـتَ فـي صَهَـواتِـهِ وَالحُسْـنُ والتَّطْهِيـمُ(٦)
يُبْـدِي لِعِـزِّكَ نَخْـوَةً، فَكـأنَّـهُ مَلِـكٌ تَـديـنُ لـه الملـوكُ عَظيـمُ
هَـادٍ علـى الخيـلِ العِتـاقِ، كـأنَّـهُ بيـن الـدُّجُنَّـة والصبـاحِ صَـرِيـمُ(٧)
سَـامـي القَـذالِ بِمِسْمَعَيْـهِ عيَـافَـةٌ تَحْـتَ الـدُّجَـى وَلِطَـرْفِـهِ تَنْجِيـمُ(٨)

= وقيل: هي منسوبة إلى «سَمْهَر»، وهو رجل كان يُقَوِّمُ الرماح، وامرأته، رُدَيْنَة التي تُنْسَبُ إليها الرماح أيضاً، فيقال: رديني، أو رمح رديني. والمشرفية: السيوف المجلوبة من «المشارف». قال أبو الطيب:

نُعِـدُّ المَشْـرَفِيَّـةَ وَالعَـوالـي وَتَقْتُلُنـا المَنُـونُ بِـلا قِتَـالِ

(ديوانه: ٢/ ١٤).

(١) شوازب: جمع شازب، وهو الفرس الضامر. والخزر: جمع أخزر، وهو الذي ينظر بمؤخر عينه.

(٢) قب: جمع أقب، من القَبَب، وهو دقة الخصر وضمور البطن. والأياطل: جمع أيطل وهو الخصر. والأَنْسُر: جمع نسر، وهو ما ارتفع في باطن حافر الفرس من أعلاه.

(٣) العَفَرُ: وجه الأرض، والتراب. الأصعر: الذي يصعر خدّه: يميله تيهاً وكبراً، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ في الأَرْضِ مَرَحاً﴾. (سورة لقمان، آية ١٨).

(٤) الخَلوقُ: نوع من الطيب. العلق: الدم الغليظ. والنجيع: دم الجوف.

(٥) السرحان: الذئب. والشِّلْوُ: العضو، والبقية من كل شيء، وأشلاء الإنسان وغيره: أعضاؤه بعد التفرق والبلى.

(٦) التطهيم: الحسن، يقال: جواد مطهم، ورجل مطهم، وامرأة في خلقها تطهيم.

(٧) العتاق: الخيل الكريمة الجيدة. والدجنة: الظلمة. والصريم: المنقطع. والمراد أن لونه وسط بين السواد والبياض، فهو كميت.

(٨) القذال: معقد العذار من الفرس خلف الناصية. والعيافة: زجر الطير. والعائف: المتكهن بالطير. والتنجيم: النظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها، والمراد أن أذني هذا الجواد تدلانه =

أُذُنٌ مُـــؤَلَّلــــةٌ، وَقلْـــبٌ أَصْمَـــعٌ وَحَشــاً أقــبٌّ، وَكَلْكَـــلٌ مَلْمُـــومُ(١)
فَــالطَّــوْدُ مــن صَهَــوَاتِــهِ مُتَــزَلْــزِلٌ والجيْـــشُ مـــن أَنْفَــاسِـــه مَهْــزُومُ
خَــرَقَ العيــونَ فَضَــلَّ عنهــا لَــوْنُــهُ وَصفَــا فَقُلْنَـــا مـــا عليـــه أديـــمُ
فَكَــأنمــا جَمَــدَتْ عليــه مُــزْنَــةٌ وَانجــابَ عَنْــه عَــارِضٌ مَــرْكــومُ(٢)
وَكَــأنمــا نُحِــرَتْ عليــه بَــوارِقٌ وَكَــأنمــا كُسِفَــتْ عليــه نُجــومُ
وَكَــأنّــكَ ابــنُ المنــذِرِ النعمــانُ فَــوْ قَ سَــراتِــه، وَكَــأنــهُ اليَحْمُــومُ(٣)

لعلي بن محمد الإيادي

وقال علي بن محمد الإيادي يصف فرس أبي عبد الله جعفر بن أبي القاسم القائم:

وأَقَــبَّ مِــنْ لَحــقِ الجِيــادِ، كَــأَنّــهُ قَصْــرٌ تبــاعَــدَ رُكْنُــهُ مِــنْ رُكْنِــهِ(٤)
لَبِسَــتْ قَــوائِمُــهُ عَصــائــبَ فِضَّــةٍ وَغَــدَتْ بِسُمْــرِ صفَــا المسيــلِ وَدُكْنِــهِ
وَكَــأنمــا انْفَجَــرَ الصَّبــاحُ بِــوَجْهِــهِ حُسنــاً، أو احْتَبَــس الظَــلامُ بِمَتْنِــهِ(٥)
قَيْــدُ العيــون إذا بَصُــرْنَ بِشَخْصِــهِ وَرِضــا القلــوبِ إذا اصْطَلَيْــنَ بِضِغْنِــهِ
مُتَسَيْطِــرٌ بــالــراكبيــنَ، كــأنّــهُ بَــازٍ تَــرُوحُ بــه الْجَنــوبُ لِــوَكْنِــهِ(٦)
يَتَــوَقّــفُ اللحظَــاتِ فــي خَطَــرَاتِــهِ بِكمـــالِ خِلْقَتِـــه وَدِقَّـــةِ حُسْنِـــهِ
حُلْــوُ الصَّهيــل تخــالُ فــي لَهَــواتِــهِ حَــادٍ يَصُــوغُ بــدائعــاً مــن لَحْنِــهِ(٧)

= على مواقع الخير والشر في الظلام.

(١) مُؤلّلةٌ: منصوبة، مُحددة، من ألّ الفرس إذا نصب أذنيه وحددهما. والقلب الأصمع: الذكي المتيقظ. والأقب: الضامر. والكلكل: الصدر، ومن الفرس: ما بين محزمه إلى ما مَسَّ الأرض منه إذا ربض.

(٢) العارض: السحاب المعترض في الأفق. والمركوم: المتراكم الذي جمع بعضه فوق بعض.

(٣) اليحموم: علم على فرس النعمان بن المنذر. واليحموم في غير هذا: الشديد الحرارة.

(٤) أقب: ضامر، دقيق. واللحق: الضمر.

(٥) المتن: الظهر.

(٦) الوكن: العش، ومثله الوكنة. قال امرؤ القيس:
وَقَــدْ أَغْتَــدِي وَالطَّيْــرُ فــي وُكُنــاتِهــا بِمُنْجَــرِدٍ قَيْــدِ الأوابِــدِ هَيْكَــلِ
(ديوانه: ص ٥١).

(٧) اللهوات: مجاري الحلق، الواحدة: لهاة.

مُتجبِّـــرٌ يُنْبِـــي بعِتْـــق نِجـــارِهِ إشْـــرافُ كـــاهِلِـــهِ وَدِقَّـــةُ أُذْنِـــهِ(١)
ذو نَخْـــوَةٍ شَمخَـــتْ بـــهِ عـــن نِـــدّهِ وَشهـامـةٍ طَمحَـتْ بـهِ عَـنْ قِـرْنِـهِ(٢)
وَكـــأنَّـــهُ فَلـــكٌ إذا حَـــرّكتَـــهُ جَـارٍ علـى سَهْـلِ البـلادِ وَحَـزْنِـهِ
قَـدْ راحَ يَحْمِـلُ جَعْفَـرَ بـن مُحمّـدٍ حَمْـلَ النسيـمِ لِـوَابـلٍ مـن مُـزْنِـهِ

لأبي الطيّب المتنبي

وما أحسن ما قال أبو الطيب المتنبي(٣):

وَيَـوْمٍ كَلَـوْنِ العـاشقيـنَ كَمَنْتُـهُ أُراقِـبُ فيـه الشَّمـسَ أيّـانَ تَغْـرُبُ(٤)
وَعَيْنـي إلـى أُذْنـيْ أَغـرَّ كَـأنَّـهُ مِـنَ الليـلِ بـاقٍ بيـن عَينيـهِ كَـوْكَـبُ(٥)
لـه فَضْلَـةٌ عـن جسمِـهِ فـي إهَـابِـهِ تَجيءُ على صَدْرٍ رحيبٍ وَتَـذْهَـبُ(٦)
شَقَقْـتُ بـه الظَّلْمَـاءَ، أُدْنـي عِنَـانَـهُ فَيَطْغَـى، وَأُرْخيـه مِـراراً فَيلْعَـبُ(٧)
وَأَصْـرَعُ أيَّ الـوَحْـشِ قَفَّيْتُـه بـهِ وَأنْـزِلُ عنـهُ مِثْلَـه حيـنَ أرْكَـبُ(٨)

---

(١) عتق النجار: كرم العنصر.
(٢) النِّدُّ: القِرْنُ، النظير.
(٣) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٧٦. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها كافور الإخشيدي.
(٤) كمنته: أي كمنت فيه واستترت. يقول: رُبّ يوم طال عليّ كليل العاشقين استترت فيه خوفاً من الأعداء، مراقباً غروب الشمس لآمن على نفسي.
(٥) الأغر: ذو الغرة، وهي البياض في جبهة الفرس. يقول: إنه كان في مسيره يراقب أذني فرسه يتحرز لنفسه بهما، لأن الفرس إذا أَحسَّ بشيء من بعيد نصب أذنيه فيعلم فارسه أنه قد رأى شيئاً. ويصف هذا الفرس، فيقول: إنه أدهم كقطعة من ليل، والغرة في وجهه كأنها كوكب قد بقي بين عينيه.
(٦) الإهاب: الجلد. والرحيب: الواسع. يصف فرسه بعرض الصدر، وسعة الجلد، ليقول: إنه واسع الخطو سريع.
(٧) العنان: اللجام. وأُدني: أقرب. وأراد بطغيانه: شدّة النشاط والمرح. يقول: شققت ظلام الليل بهذا الفرس أجذب عنانه إليّ فيمرح ويثب، وأرخيه له فيلعب كما يشاء.
(٨) أصرع: أقتل. قَفَّيْتُهُ: أتبعته، ومثله: حال من الضمير في «عنه»، وحين أركب: حال من الضمير في مثله. يقول: إذا طردت به وحشاً أدركه فصرعته، وأنزل عنه بعد الطرد والصيد وهو باقٍ على نشاطه وقوة جريه مثلما كان حين الركوب.

وَمـا الخيـلُ إلا كـالصَّـديـقِ قليلـةٌ وإنْ كَثُرَتْ في عَيْنِ مَنْ لا يُجَرِّبُ[١]
إذا لـم تُشَاهِـدْ غَيْـرَ حُسـن شِيـاتِها وَأعْضَـائها فَـالْحُسـنُ عَنْـكَ مُغَيَّـبُ[٢]

مقامة لبديع الزمان في وصف فرس

وينخرط في سِلْكِ هذا المعنى مقامة[٣] من مقامات الإسكندري في الكُدْية[٤] مما أنشأه بديعُ الزمان وأملاه في شهور سنة خمس وثمانين وثلثمائة، قال البديع:

حدَّثنا عيسى بن هشام قال: حضرنا مجلسَ سيف الدولة يوماً وقد عُرِضَ عليه فَرَسٌ:

متـى مـا تَـرَقَّ العيـن فيـه تَسهَّـل[٥]

فَلَحَظَتْهُ الجماعة؛ فقال سيف الدولة: أيكم أحْسَنَ صفته، جعلته صِلَتَه؛ فكلٌّ جَهد جَهْدَه، وبذل ما عِنْدَه؛ فقال أحد خَدَمِه: أَصْلَح الله الأمير! رأيْتُ بالأمس رجلاً يَطأُ الفَصاحَة بِنَعْلَيه[٦]، وتَقِفُ الأبصارُ عليه، يُسَلِّي الناس، ويشفي الياس، ولو أمر الأميرُ بإحضاره، لَفَضَلَهُمْ بِحِضَاره[٧].

فقال سيفُ الدولة: عليّ به في هيئته، فصار الخدمُ في طلبه، فجاؤُوا للوقت به، ولم يُعْلِمُوه لأيّ حالٍ دُعِيَ به، ثمَّ قُرِّبِ واستُدْني، وهو في طِمْرَيْنِ[٨] قد أكل الدهرُ عليهما وشرب، وحين حضر السِّماط لثَمَ البساطَ، ووقف. فقال سيف الدولة: بَلَغَتْنا عنك عارضة[٩]، فاعْرِضْها في هذا الفرس وَصِفْهُ. فقال: أصلح اللهُ الأمير! كيف به قَبْلَ ركوبه وَوُثُوبِه، وكَشْفِ عيوبه [وغُيُوبِه]؟ فقال: اركَبْه، فركبه وأَجْراه، ثم قال: أصلح اللهُ الأميرَ!

---

(١) يقول: الخيل كالصديق تكثر قبل التجربة، وتقلّ بعدها.
(٢) الشيات: الألوان. يقول: إذا لم تر من الخيل إلاّ حسن ألوانها وأعضائها، فقد غابت معرفة حسنها عنك، يريد: أن حسنها فيما وراء ذلك من جريها وطباعها.
(٣) قام المؤلف بشرح هذه المقامة بعد نَصِّها مباشرة، فليعد القارىء إلى ذلك على سبيل التزيّد والتزوّد.
(٤) الكدية: قسوة الدهر، والمراد هنا: الاستجداء.
(٥) يريد أن أعلاه وأدناه مستويان في الحسن.
(٦) كناية عن انقيادها له.
(٧) الحِضَارُ: أصله جودة السير وسرعته.
(٨) الطمران: ثوبان باليان.
(٩) العارضة: سرعة البديهة.

هو طويلُ الأُذنين، قليل الاثنين، واسع الْمَراث[١]، لَيِّنُ الثّلاث، غَليظ الأَكْرُع[٢]، غامض الأربع، شَديد النَّفْس، لطيف الْخَمْس، ضيق القَلْتِ[٣]، رقيق السّتِّ، حديد السَّمْع، غليظ السَّبع، رقيق اللسان، عريض الثّمان، شديد الضِّلْع، قصير التّسع، واسع السَّحْر، بعيد العَشْر، يأخذ بالسَّابح، ويُطْلِقُ بالرَّامح، ويَطْلُع بلائح، ويَضْحَكُ عن قَارح، يحزّ وَجْهَ الكديد[٤]، بمداقّ الحديد، يُحْضِر كالبَحْر إذا ماجَ، والسيل إذا هاج.

فقال سيفُ الدولة: لك الفرس مُباركاً فيه. فقال: لا زِلْتَ تأخذُ الأنفاس، وتَمْنَحُ الأفراس، ثم انصرف، وتبعتُه، وقلت: لكَ عليَّ ما يليقُ بهذا الفرس من خِلْعَةٍ إن فسَّرْتَ ما وَصفْتَ، فقال: سَلْ عما أَحببت.

فقلت: ما معنى قولك: بعيدُ العشر؟ فقال: بَعيد النظر، والْخَطْو، وأعالي الْجَنْبَيْنِ[٥]، وما بين الوَقْبَيْن والْجَاعِرَتَيْنِ، وما بين الغُرَابَيْنِ، والمنخرين، وما بين الرِّجلين، وما بين النقبة والصِّفاق، وبعيد القامَةِ في السباق.

فقلت: لا فُضّ فُوك! فما معنى قولك: قصير التّسْع؟ قال: هاك: قصير الشّعرة، قصير الأُطْرَة، قصير العَسيب، قَصِير القضيب، قصير العَضُدين، قصير الرُّسْغَيْن، قصير النَّسَا، قصير الظِّهْر، قصير الوَظيفِ.

فقلت: لله أنت! فما معنى قولك: عريض الثّمان؟ قال: عريض الْجَبْهة، عريض الصَّهْوَة، عريض الكتف، عريض الْجنْب، عريض الورك، عريض العَصَب، عريض البَلْدة، عريض صَفْحَة العنق.

فقلت: أحسنت، فما معنى قولك: غليظ السّبع؟ قال: غليظ الذراع، غليظ المَحْزِم، غليظ العُكْوَة، غليظُ الشَّوَى، غليظ الرُّسْغِ، غليظ الفَخِذَيْن، غليظ الْحِبَالِ[٦].

(١) المراث: خوران الفرس، وهو المبعر.
(٢) الأكرع: جمع كراع، وهو ما دون الكعب.
(٣) القلت: النقرة في رأس الورك.
(٤) الكديد: الأرض الغليظة.
(٥) بعد أعالي الجنبين: كناية عن متانة الخلق.
(٦) الحبال: جمع حبل، والمراد بها هنا العروق. وفي رواية: «غليظ الحاذ»، والحاذ: الظهر، أو موضع اللبد من الفرس.

فقلت: لله درُّك! فما معنى قولك: رقيق الستّ؟ فقال: رقيق الجَفْن، رقيق السَّالِفَة، رقيق الجَحْفَلة، رقيق الأَديم، رقيق أَعْلَى الأُذنين، رقيق الغُرْضَيْن.

فقلت: أجَدْتَ، فما معنى قولك: لطيف الخمس؟ قال: لطيف الزَّوْر، لطيف النَّسْر، لطيف الجُبَّة، لطيف العُجَايَة، لطيف الرّكْبَة.

فقلت: حياك الله! فما معنى قولك: غامض الأربع؟ قال: غامض أَعالي الكَتِفَيْن، غامض المَرْفِقَيْن، غامض الحِجَاجَيْنِ، غامض الشَّظَى.

قلت: فما معنى قولك: لَيّن الثلاث؟ قال: ليّن المَرْدَغَتَيْن، لَيّن العُرْفِ، ليّن العِنان.

قلت: فما معنى قولك: قليل الاِثْنَين؟ قال: قليلُ لَحْم الوجه، قليل لحم المَتْنَين.

قلت: فمن أين نَبَاتُ هذا العلم؟ قال: من الثغور الأُموية، وبلاد الإسكندرية.

فقلت له: أنت مع هذا الفضلِ، تُعَرِّضُ وجهكَ لهذا البَذْلِ؟! فأنشأ يقول:

سَاخِفْ زَمانَكَ جِدًّا فَالدَّهْرُ جِدُّ سَخيفِ
دَعِ الحميَّةَ نَسْياً وَعِشْ بَخَيْرٍ وَرِيفِ
وَقُلْ لِعَبْدِك هَذا يَجِيءُ لَنَا بِرَغِيفِ

سقط عنا تفسيره في «ليّن الثلاث»[١]، وأكثرُ هذا التفسير يحتاجُ إلى تفسير، ولم يُرِدْ بما أَورد إفْهام العَوامّ، والبلاغة لمحة دالة، وبلاغة النثر أخت بلاغة الشعر؛ وقد قال البحتري[٢]:

وَالشِّعْرُ لَمْحٌ تَكْفِي إشارتُهُ وَلَيْسَ بِالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

وسأقول في شرحه بكلام وجيز زيادة في الإفادة: الوَقْبَان: نُقْرتان فوق العينين. والجاعِرتان من الفرس: موضع الرّقمتين من الحمار، وهما منتهى ضَرْبه بذَنَبه إذا حَرّكه. والغرابان: الناتئان من أَعْلى الوركين، وذكر النقبة هنا، وهو الذي يُعْرف بالمنْقَبِ، وهو من

(١) تلك الثلاث هي: لين المردغتين، والمردغة: ما بين العنق إلى الترقوة، ولين العرف، وهو الشعر الغزير النابت على عنق الفرس، ثم لين العنان، وهو سير اللجام، ولين العنان: كناية عن طاعة الجواد.

(٢) البحتري، الديوان: ١/ ٢٣٤.

السُّرَّة حيث ينقب البيطار. والصِّفاق: الخاصرة، وقد قيل: جلد البطن كلّه صفاق، والذي أراده الخاصرة. وأراد بِبُعْد القامة في السباق امتدادَهُ إذا جرَى مع الأرض. والأُطرَة هنا: طرف الأبْهر، وهي طَفِطفة غلِيظة. والأبهر: عِرْق يستبطن الظّهر، فيتّصل بالقلب، وقيل: هو الأكحل. والعسيب: عظم الذنب. والرُّسْغ من الفرس: موضع القيد. والنَّسَا: عرق مستبطن الفخذين، وقِصَره محمود في جَرْيِ الفرس، ولكنه لا يسمح بالمشي. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرُّسْغ إلى الساق. والصَّهوة: الظهر. والبَلْدة: ما بين عينيه. والعُكْوَة: مغرز الذَّنَب. والشَّوى: الأطراف. والحبال: حبلا العاتق والظَّهْر. والجَحْفَلة من ذوات الحافر: كالشفة من الإنسان. والغُرْضَان من الفرس: ما انحدر من قَصَبة الأنف من جانبيها، والزور: الصدر. والنَّسْر في الحافر: لحمة يابسة أَسفَله يشبهها الشعراء بالنَّوى. والجُبَّة: التي فيها الحوشب. والحَوْشَب: حشو الحافر. والعُجَاية: عَصَب في قوائم الفرس والبعير مركّب فيه فصوص من عظام كأمثال الكِعَابِ تكون عند الرّسغ. والحِجَاجان: العظمان المُطِيفان بالعين. والشَّظَى: عظم لاصقٌ بالذراع. والمتنان: جانبا الظهر؛ وسقط عنّا تفسير الثّلاث من نفس المقامة.

[قولهم في الوعد ومنزلة إنجازه]

بين أبي القاسم المسعودي وعيسى بن موسى

قال الجاحظ: قال أبو القاسم بن مَعْن المسعودي لعيسى بن مُوسى: أَيُّها الأمير؛ ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفتُك، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صَحِبْتُك، فقال: ولم؟ ألم أُكلِّمْ لك أميرَ المؤمنين في كذا وكذا؟ قال: بلى! فهل استنجزْتَ ما وُعِدْت، وعاودت ما ابتَدَأْت؟ فقال: حالَتْ دون ذلك أمورٌ قاطعة، وأحوالٌ عاذرة. قال: أَيُّها الأمير، فما زِدْتَنِي على أنْ نبَّهْتَ الهمَّ من رَقْدَتِه، وأَثَرْتَ الحُزْنَ من رَبْضَتِه، إنَّ الوعدَ إذا لم يَصْحَبْهُ إنجازٌ يُحقِّقُه كان كلفظٍ لا مَعْنى له، وجسمٍ لا روحَ فيه.

بين منصور بن زياد ويحيى بن خالد

وكلَّم منصورُ بنُ زيادٍ يحيى بنَ خالدٍ في حاجةٍ لرجلٍ، فقال: عِدْهُ قَضَاءَها. قال: فقلت: أصلحك الله! وما يَدْعُوك إلى العِدَة مع وجود القدرة؟ فقال: هذا قولُ من لا يعرفُ موضِعَ الصّنائع من القلوب، إنَّ الحاجةَ إذا لم يتقدّمها مَوْعِدٌ يُنتظر به نُجْحُها لم تتجاذَب الأنفس سرورها؛ إنّ الوَعْدَ تَطعُّم والإنجاز طَعَام؛ وليس من فَاجأهُ طعامٌ كمن وجَدَ رائِحته،

وتمطَّق به، وتطعَّمه ثم طَعِمه؛ فدَعِ الحاجَة تُخْتَمْ بالوَعْد؛ ليكونَ بها عند المصطنع حُسْنُ مَوْقع، ولُطْفُ مَحَلّ.

بين المهدي وابن دأب

ووعد المهديُّ عيسى بنَ دَأْبٍ جَارِيَةَ، ثم وهبها له، فأنشده عبد الله بن مُصْعب الزبيري معرِّضاً بقول مضرّس الأسدي:

فَلا تَيْأَسَنْ مِنْ صَالِحٍ أَنْ تَنَالَهُ ... وَإِن كَانَ قِدْماً بين أَيْدٍ تُبَادِرُهْ

فَضَحك المهدي، وقال: ادفعوا إلى عبد الله فلانة، لجاريةٍ أخرى؛ فقال عبد الله بن مصعب:

أَنْجَزَ خَيْرُ الناسِ قَبْلَ وَعْدِه ... أَراحَ مِنْ مَطْلٍ وَطُولِ كَدِّهْ

فقال ابن دَأْب: ما قلت شيئاً، هَلاَّ قلت:

حَلاَوَةُ الفَضْلِ بِوَعْدٍ يُنْجَزُ ... لا خَيْرَ في العُرْفِ كَنَهْبٍ يُنْهَزُ

فقال المهدي:

الوَعْدُ أَحْسَنُ ما يكو ... نُ إذا تَقَدَّمَهُ ضَمَانُ

لأبي قابوس يمدح يحيى بن خالد

وقد قال أبو قابوس النصراني[1] يمدح يحيى بن خالد:

رأيتُ يَحْيَى، أتمَّ اللهُ نِعْمَتَهُ ... عليه، يَأتِي الَّذِي لم يَأتِه أحَدُ
يَنْسَى الَّذي كان مِنْ مَعْرُوفِه أَبداً ... إلى الرِّجال، ولا يَنْسَى الذي يَعِدُ

لأبي الطيب المتنبي

وقال أبو الطيّب المتنبي[2]:

---

(١) هو أبو قابوس، عمرو بن سليمان: شاعر نصراني من أهل الحيرة. عاش في زمن هارون الرشيد، ولم يرد لمولده ووفاته تاريخ. كان منقطعاً إلى البرامكة الذين تقرَّب بهم إلى الخليفة الرشيد. (المرزباني، الشعر والشعراء: ٣١؛ لويس شيخو، شعراء النصرانية: ٢/ ٢٤١).
(٢) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٢٠. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي.

قَــوْمٌ بُلُــوغُ الغُــلامِ عِنْــدَهُــمُ طَعْــنُ نُحُــورِ الكُمــاةِ لاَ الْحُلُــمُ[١]
كَــأَنَمــا يُــولَــدُ النَّــدَى مَعَهُــمْ لا صِغَــرٌ عَــاذِرٌ ولا هَــرَمُ[٢]
إذا تَــوَلَّــوْا عَــداوَةً كَشَفــوا وَإنْ تَــوَلَّــوْا صَنيعَــةً كَتَمُــوا[٣]
تَظُــنُّ مِــنْ فَقْــدِكَ اعْتِــدادَهُــمُ أَنَّهُــمُ أنْعَمــوا ومــا عَلِمــوا[٤]

لأبي علي البصير في الفضل بن يحيى

ودخل أبو عليّ البَصير[٥] على الفضل بن يحيى، فأنشده:

وُصِــفَ الصــدُّ لِمَــنْ أَهْــوَى فَصــدْ وَبَــدا يَمْــزَحُ بِــالهَجْــرِ. فَجَــدْ
مــالَــهُ يَعْــدِلُ عَنّــي وَجْهَــهُ وَهــو لا يعــدِلُــهُ عِنــدي أحَــدْ
لا تُــرِيــدوا غِــرَّةَ الفَضْــلِ، وَمَــنْ يَطلُــبُ الغِــرّة فــي خِيــسِ الأسَــدْ[٦]
مَلِــكٌ نَــدْفَــعُ مــا نَخْشَــى بِــهِ وَبِــهِ نُصْلِــحُ منَّــا مــا فَسَــدْ
يُنْجِــزُ النــاسُ إذا مــا وَعَــدُوا وإذا مــا أنْجَــزَ الفضــلُ وَعَــدْ

لابن الرومي

وقال ابن الرومي في هذا المعنى[٧]:

---

(١) النحور: جمع نحر، وهو موضع القلادة من الصدر. والكماة: جمع كمي، وهو البطل التام السلاح. والحلم: بمعنى البلوغ. يقول: إنهم يعرفون بلوغ الغلام بحمل السلاح والطعن في نحور الأبطال، لا ببلوغ سن الحلم.
(٢) الندى: الجود. والهرم: الكبر والعجز عن التصرف. يقول: إن الجود مقارن لفطرهم، لا يتوقف على القدرة، ولا يمنع منه العجز.
(٣) الصنيعة: المعروف. يقول: إنهم إذا عادوا أحداً جاهروا بعداوته، لأنهم لا يخافون عدواً، وإذا اصطنعوا إلى أحد معروفاً كتموا معروفهم تكرماً وحياءً.
(٤) الاعتداد: الاهتمام. يقول: إنهم لا يعتدون بما صنعوا من المعروف لتناسيهم إياه، حتى كأنهم لم يعلموا به.
(٥) هو أبو علي، الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعي، ويعرف بالبصير: شاعر، كاتب، مترسل، ضرير. فارسي الأصل. انتقل أسلافه من الأنبار إلى الكوفة، وجاوروا بني النخع، فنسبوا إليهم. مدح أبو علي المعتصم والمتوكل والفتح بن خاقان، وتوفي بـ «سُرّ من رأى» سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م». (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٩٧).
(٦) خيس الأسد: عرينه.
(٧) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٢٨٠.

لَـه مَـواعِـدُ بـالخَيْـرَاتِ بـادِرَةٌ   لكنهـا تَسْبِـقُ الميعـادَ بـالصّفَـدِ[١]
يُعْطِيكَ في اليومِ حَقّ اليومِ مُبتدئاً   وَلا يُضَيِّع بَعْدَ اليَوْمِ حَقَّ غَدِ[٢]

[من عرف قدر النعمة استدامها]

بين سليمان بن عبد الملك وأبي وائلة حاجبه

خطب سُليمانُ بن عبد الملك فقال: أيها الناسُ، مَنْ لم يعلم أبْوَابَ مَدْخَله في الكرامة، وجَهِل طريقته التي وقَعَتْ به على النِّعمة كان بِعُرْضِ رُجوعٍ إلى دارِ هَوَان، وانقلابٍ بفادحِ خُسْرَان.

فقام إليه أبو وَائلة السّدوسي، وهو حاجبُه، فقال: يا أميرَ المؤمنين كنا كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[٣]، ثم صِرْنا كما قال زُهير:

يَـدُ المَلِـكِ الجَليـلِ تَنـاولَتْهُـمْ   بـإحْسَـانٍ فَلَيْـسَ لَهـا مُـزيـلُ
لِأنَّ الخيـرَ أَجْمَـعَ فـي يَـدَيْـهِ   وَرَبِّـي بـالجـزاءِ لـه كَفِيـلُ

فقال سُليمان: هذه والله المعرفةُ بقَدْرِ النِّعمة، والعلمُ بما يَجب للمنعم.

يونس بن المختار وحاجب المأمون

وَرُؤِي يونس بن المختار في دار المأمون، ومرتَبَتُه في أَعْلَى مراتِبِ بني العباس، قاعداً على الأرض، فقال الحاجبُ: ارتفِعْ يا أَبَا المعلّى إلى مَرْتَبَتِكَ، قال: قد رفعني الله إليها بأميرِ المؤمنين، وليس لي عملٌ يَفِي بها، فلِم لا أُكْرِمها عن القعود عنها إلى أن يتهيَّأَ لي الشكر عليها؟ فبلغ الكلامُ المأمونَ؛ فقال: هذا والله غايةُ الشكرِ، وبمثله تدرّ النِّعَم.

بين رجل والمعلى بن أيوب

وقال رجل لِلْمُعَلَّى بن أيوب، وقد رَفَعه المعتصمُ إلى مرتَبَة أَهْل بيته: ما يزيدُك التقريبُ إلا تباعُداً. فقال: يا هذا؛ إني أَصُون تقريبَه إياي بتباعدِي منه؛ لئلا تفسد حُرْمَتي عنده بقلَّةِ الشكرِ على نعمته.

---

(١) الصفد: العطاء. وفي الديوان: «له مواعيد بالخيرات ناجزةٌ».

(٢) رواية الديوان:

يُعْطِيكَ حَقَّ غَدٍ في اليَوْمِ مُبْتَدِئاً   وَلَيْسَ يَجْهَلُ بَعْدَ اليَوْمِ حَقَّ غَدِ

(٣) سورة الإنسان، آية (١).

بين المنصور والحارث بن حسان

ولما استعانَ المنصورُ بالحارث بن حسَّان قال له: يا حارث؛ إنّي قد مكَّنْتُك من حُسْنِ رَأْيي فيك، فاحفَظْهُ بِتَرْكِ إغفال ما يجبُ عليك! قال: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ أَغْفَل سببَ حُلولِ النعمة، وَلَهَا عَن الحال التي أصارَتْهُ إليها، استصحبَ الياسَ من نَيْلِ مِثْلِها، وانقطع رجاؤُه من الزيادة فيها، فقال أبو جعفر: مَنْ كانت عنده هذه المعرفةُ دامَت النعمةُ له، وبقي الإحسانُ إليه.

بين المأمون وعبد الله بن طاهر

ولما قال المأمونُ لعبد اللَّه بن طاهر[١] عند قدومه من مصر: ما سرَّني اللهُ منذ ولّيتُ الخلافةَ بشيءٍ عَظُم موقعُه عندي، بعد جميل عافيةِ الله، هو أكثر من سروري بقدومك، فقال عبدُ الله: إيذَنْ لي يا أميرَ المؤمنين في تفريق أَمْوالي من طَارِفٍ وتالد. قال: ولِم؟ قال: شكراً على هذه الكلمة؛ وإلا قَصَّر بي الحياءُ عن النظرِ إلى أمير المؤمنين، فقال المأمون لِمَنْ حضر من أهل بيته وقوّاده: ما شيءٌ من الخلافة يَفِي لعبد الله ببعض شكره.

لأبي نواس في المعنى

وقال أبو نواس[٢]:

قَـــدْ قُلْـــتُ لِلعبـــاس مُعْتَـــذِراً   عَـــنْ ضَعْـــفِ شُكْـــرِيــهِ وَمُعْتَـــرِفَـــا
أَنَـــت امـــرؤٌ جَللْتَنِـــي نِعَمـــاً   أَوْهَـتْ قُـوى شُكْـري فقـد ضَعُفَـا[٣]
فَـــإِلَيْـــكَ مِنـــي اليَـــوْمَ تَـقْـــدِمـــةٌ   تَلْقَـــاك بـــالتَّصْـــرِيـــحِ مُنْكَشِفَـــا[٤]
لا تُسْـــدِيَـــنَّ إِلـــيَّ عَـــارِفَـــةً   حَتَّـــى أَقُـــومَ بِشُكْـــرِ مَـــا سَلَفَـــا

---

(١) هو أبو العباس، عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي: أمير، شجاع، جواد، رفيع المنزلة. كان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات إليه، فولّاه على الشام خرجاً وحرباً. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٩/ ٤٨٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ٢/ ٦٨).

(٢) أبو نواس، الديوان: ٤٣٣.

(٣) جللتني: كسوتني، وجللتني نعماً: غمرتني بها. وأوهت: أضعفت.

(٤) في الديوان:

فَـــإليـــكَ قَبْـــلَ اليَـــوْمِ تَقْـــدِمَـــةٌ   لاَقَتْـــكَ بِـــالتَّصْـــرِيـــحِ مُنْكَشِفَـــا

للناشيء يعارض أبا نواس

عارضه الناشيء واعترض معناه، فقال:

إنْ أَنْتَ لم تُحْدِثْ إليَّ يداً حَتَّى أقومَ بِشُكْرِ ما سَلَفَا
لَمْ أَحْظَ مِنكَ بنائلٍ أبداً وَرجَعْتُ بالْحِرْمان مُنْصَرِفا

لابن الرومي

وقال ابن الرومي[١]:

عَاقَنا أَنْ نَعُودَ أنَّكَ أَوْلَيْـ ـتَ أُموراً يَضيقُ عَنْهَا الجزاءُ[٢]
غَمَرَتْنَا مِنْكَ الأيادي اللّواتي ما لِمِعْشارِها لَدَيْنا كِفاءُ[٣]
فَنَهَانَا عَنْكَ الحياءُ طَويلاً ثُمَّ قَدْ رَدَّنا إلَيْكَ الحياءُ
وَلَما حَقَّ إنْ قَرُبْتَ التَّنائي وَلَمَا حَقَّ إنْ بَرَزْتَ الجفاءُ
غَيْرَ أَنَّا أَنْضاءُ شُكْرٍ أُريحَتْ وَقَديما أُريحَتِ الأنْضاءُ[٤]

ألفاظ لأهل العصر

في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

عندي من بِرِّه ما ملك الاعتذار بأَزِمَّتِه، وقبض أَلسِنةَ أمراءِ الكلام وأَئِمَّته. عندي له مبارٌّ[٥] أَعجزني شكرُها، كما أعوزني حَصْرها. شُكْرُه شَأْوٌ بعيدٌ لا تبلغه أَشْوَاطي، ولا أَتلافَى التفريطَ في حقِّه بإفراطي. إحسانُه يُعيد العربَ عُجْما، والفُصحاءَ بُكْما. قد ازحمني من مكارِمه ما يُحصَرُ عنه المبين، ويصحبه العيُّ وبئس القَرين.

وقال أعرابي:

رَهَنْتُ يَدِي بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرِّهِ وَما فَوْقَ شُكْري لِلشكورِ مَزِيدُ

(١) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٥٤.
(٢) أوليت: أعطيت. والجزاء: المكافأة.
(٣) يقول: أكثرت من عطاياك فأصبحنا عاجزين عن رَدٍّ بعض جميلك.
(٤) الأنضاءُ: جمع نِضْو: المهزول.
(٥) المَبَارُّ: جمع مَبَرَّة: موضع البِرِّ.

وَلَوْ كَانَ شيئاً يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ ... وَلَكِنَّ ما لا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

وقال يَحْيَى بن أكثم: كنتُ عند المأمونِ، فَأُتِي برجل تُرْعَدُ فرائِصُه[1]؛ فلما مثل بين يديه قال المأمونُ: كَفَرْتَ نعمتي، ولم تشكر معروفي، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ وأين يقعُ شكري في جَنْبِ ما أَنعم اللهُ بك عليّ، فنظر إليّ المأمون وقال متمثّلاً:

وَلَو كانَ يَستغْني عن الشكرِ مَاجِدٌ ... لِرفعةِ قَدْرٍ أَوْ عُلوِّ مَكانِ[2]
لَمَا أَمَرَ اللهُ العِبادَ بِشُكْرِهِ ... فَقالَ: اشكروا لي أيُّها الثَّقَلَانِ[3]

ثم التفت إلى الرجل فقال: هلاّ قلت كما قال أصرم بنُ حميد:

مَلَكْتَ حَمْدِيَ حَتَّى إنَّني رَجُلٌ ... كُلِّي بِكُلٍّ ثَناءِ فِيكَ مُشْتَغِلُ
خُوِّلْتَ شكري لما خَوَّلْتَ مِنْ نِعَمٍ ... فَحُرُّ شكري لما خَوَّلْتَنِي خَوَلُ[4]

لأبي الفتح البُسْتي

وقال أبو الفتح البُسْتي:

لَئِنْ عَجَزَتْ عن شُكْرِ بِرِّكَ قُوّتي ... وَأَقْوَى الوَرَى عن شُكْرِ بِرِّكَ عَاجِزُ
فإنَّ ثَنائي واعتقادي وطَاقتي ... لأفلاكِ ما أَوْلَيْتَنِيها مَرَاكِزُ

وقال أبو القاسم الزعفراني:

لي لِسانٌ كَأَنَّهُ لي مُعَادِي ... لَيْسَ يُنْبي عَنْ كُنْهِ ما في فؤادي
حَكَمَ اللَّهُ لي عَلَيْهِ فَلَو أَنْـ ... ـصَفَ قلبي عَرفْتُ قَدْرَ وِدادِي

بين أبي العتاهية وعمر بن العلاء

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية، يمدحُ عُمر بن العلاء:

---

(١) الفرائص: جمع فريصة: لحمة بين الكتف والصدر، ترتعد عند الفزع، وهما فريصتان، ويقال: فلان ضخم الفريصة: جريء شديد.
(٢) الماجد: الشريف الخَيِّرُ.
(٣) الثقلان: الإنس والجان.
(٤) خَوَّلتني: أعطيتني وملكتني. والخول: حاشية من العبيد والإماء، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

إنــي أَمِنْــتُ مــن الــزمــان وَرَيْبِــهِ لمَّــا عَلِقْــتُ مــن الأميــر حِبَــالا[١]
لَــوَ يَسْتطيــعُ النــاسُ مــن إجــلالِــه لَحــذَوْا لــه حُــرَّ الــوجُــوهِ نِعَــالا[٢]
مــا كــان هــذا الجــودُ حتــى كُنْــتَ يــا عمــر، وَلَــوْ يَــوْمــاً تَــزُولُ لَــزَالا
إنَّ المطــايَــا تَشْتكيــكَ لأنَّهَــا قَطعَــتْ إليــك سَبَــاسِبــاً وَرِمــالا[٣]
فــإذا وَرَدْنَ بنــا وَرَدْنَ مُخِفَّــةً وَإذا صَــدَرْنَ بنــا صَــدَرْنَ ثِقــالا

وهي قصيدة سهلةُ الطبع، مسلسلة النظام، قريبة المتناول.

وروي أنَّ عمر بن العلاء وصلَهُ عليها بسبعين ألف درهم، فحسدته الشعراءُ، وقالوا: لنا بباب الأميرِ أعَوَامٌ نَخْدُم الآمالَ، ما وصلنا إلى بعض هذا! فاتصل ذلك به؛ فأمر بإحضارهم، فقال: بلغني الذي قُلْتُم؛ وإنَّ أحدكم يأتي فيمدحني بالقصيدة يشبِّب فيها فلا يَصِلُ إلى المدح حتى تذهب لَذَّةُ حلاوته، ورائقُ طلاوته؛ وإنَّ أبا العتاهية أتى فشبب بأبياتٍ يسيرة، ثم قال: إنَّ المطايا تشتكيك لأنَّها... وأنشد الأبيات. وكان أبو العتاهية لمّا مدحه بهذا الشعر تأَخَّر عنه بِرُّه قليلاً، فكتب إليه يَسْتَبْطِئهُ:

أَصــابــت علينــا جَــودَكَ العَيْــنُ يــا عُمَــرْ فَنَحْــنُ لهــا نَبْغِــي التمــائــمَ والنُّشَــرْ[٤]
أَصَــابتْــكَ عَيْــنٌ فــي سَخــائِــك صُلبــةٌ وَيــا رُبَّ عَيْــنٍ صُلْبَــةٍ تَفْلِــقُ الْحَجَــرْ
سَنَــرْقيــكَ بِــالأشعــارِ حَتَّــى تَملَّهــا فَــإنْ لــم تُفِــقْ منهــا رَقَيْنَــاكَ بــالسُّــوَرْ

وقال:

يَــابْــنَ العَــلاءِ وَيَــابْــنَ القَــرْمِ مِــرْدَاسِ إني مَدَحْتُكَ في صَحْبي وَجُلاّسي[٥]
أُثْنِــي عَلَيْــكَ وَلِــي حــالٌ تُكَــذِّبُنِــي فيمــا أَقــولُ فــأَسْتَحْــي مِــنَ النَّــاسِ
حَتَّــى إذا قِيــلَ: مــا أَوْلاَكَ مــن صَفَــدٍ طَأْطَأْتُ من سُوءِ حالِي عِنْدَها رَاسِي[٦]

(١) ريب الزمان: صرفه، حوادثه.
(٢) حذا النعل: قَدَّرها وقطعها على مثال.
(٣) السباسب: جمع السَّبْسَب: المفازة.
(٤) النُّشَرُ: جمع نُشْرَة، وهي الرقية يداوى بها المريض والمجنون.
(٥) القرم: الفحل.
(٦) الصفد: العطاء.

فأمر حاجبه أن يدفع إليه المال، وقال: لا تُدْخِلْه عَلَيَّ، فإني أَسْتَحْيي منه.

وذكر بعضُ الرواةِ أَنَّ المهدي خرج متصيّداً، فسمعَ رجلاً يتغنَّى من القصيدة التي مرَّت منها الأبيات في عمر بن العلاءِ آنفاً:

يا مَنْ تفرَّدَ بالجمال فما تَرَى عَيْني على أَحَدٍ سِوَاهُ جَمَالا
أَكثرتُ في قولي عَلَيْكَ من الرُّقَى وَضرَبْتُ في شِعْرِي لك الأَمْثَالا
فَأَبَيْتَ إلاَّ جَفْوةً وَقَطِيعةً وَأَبيتُ إلاَّ نَخْوَةً ودَلالاَ
باللهِ قولي إنْ سألتكِ واصْدُقِي أَوَجَدْتِ قَتْلِي في الكتاب حَلالاَ
أَمْ لاَ، فَفِيمَ جَفَوتِني وَظلَمْتِني وَجعلتِني للعالمينَ نَكَالاَ[1]
كَمْ لاَئمٍ لو كنتُ أَسْمَعُ قَوْلَهُ قَدْ لامني وَنَهَى وَعَدَّ وَقَالاَ

فقال المهديّ: عَلَيَّ به، فجاءه، فقال: لِمَنْ هذا الشعر؟ قال: لإسماعيل بن القاسم أبي العتاهية، قال: لمن يقوله؟ قال: لِعُتْبَة جارية المهدي، قال: كَذَبْتَ، لَو كانَتْ جاريتي لوَهَبْتُها له، وكانت عُتبة لِرَيطة بنت أبي العباس السفاح، وكان أبو العتاهية قد بلغ من أمرها كل مبلغ، وَكلُّ ذلك فيما زعم الرواةُ تصنُّع، وتخلّق؛ لِيُذكَر بذلك.

[من أخبارِ أبي العتاهية]

ولوعه بعتبة

قال يزيد [بن] حَوْرَاء المغني[2]: كلّمني أبو العتاهية أَنْ أُكَلِّمَ المهدي في عتبة؛ فقلت: إنَّ الكلام لا يمكنني، ولكن قل شعراً أُغنيه إياه، فقال:

نَفْسي بشَيْءٍ مِنَ الدنيا مُعَلَّقَةٌ اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكْفِيها
إنّي لأَيْأَسُ مِنْهَا ثم يُطْمِعُني فيها احْتِقارُكَ لِلدنيا وَما فِيها

---

(١) النكال: العقاب، أو النازلة، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِما بَيْنَ يَدَيْهَا وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلمُتَّقِين﴾. (سورة البقرة، آية ٦٦).

(٢) هو أبو خالد، يزيد بن حوراء، من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: مُغَنٍّ مُحسنٌ، كثير الصناعة، من طبقة إبراهيم الموصلي، وكان مِمَّن قَدِم على المهدي في خلافته وغَنَّاه، وكان حسن الصوت، حلو الشمائل. (الاصفهاني، الأغاني: ٣/ ٢٤٦).

فعملت فيه لَحْناً وغنَّيْتُه المهدي؛ فقال: لِمَنْ هذا؟ فأخبرته خَبَرَ أبي العتاهية، فقال: ننظرُ في أمره، فأخبرت بذلك أبا العتاهية؛ فمكث أشهراً، ثم أتاني فقال: هل حَدَثَ خبر؟ فقلت: لا، فقال: غَنِّه بهذا الشعر:

لَيْتَ شِعْرِي ما عِنْدَكُمْ لَيْتَ شِعْري ... إنّما أُخِّرَ الجوابُ لأمْرِ
ما جَوابٌ أَوْلَى بِكلِّ جَميلٍ ... مِنْ جَوابٍ يُرَدُّ من بَعْدِ شَهْرِ

قال يزيد: فَغَنَّيْتُ به المهدي، فقال: عليَّ بِعُتْبَةَ، فأحضرت، فقال: إنَّ أبا العتاهية كلَّمني فيك، وعندي لكِ وله ما تحبَّانِ؛ فقالت له: قد علم مولاي أمير المؤمنين ما أَوْجَبَهُ من حق مولاتي، فأُريد أن أذْكُرَ لها ذلك؛ قال: فافعلي؛ فأَعْلَمْتُ أبا العتاهية بما جرى، ومضت الأيامُ؛ فسألني معاودةَ المهدي، فقلتُ له: قد عَرفْتَ الطريقَ فقل ما شئت حتى أُغنيه، فقال:

أَشْرَبْتَ قَلْبِي مِنْ رَجائكَ مالَهُ ... عَنَقٌ إليكَ يَخِبُّ بي وَرَسِيمُ(١)
وَأَمَلْتُ نَحْوَ سَماءِ صَوْبِكَ ناظِرِي ... أَرْعَى مَخايِلَ بَرْقِها وَأَشيمُ(٢)
وَلقدْ تَنَسَّمْتُ الرياحَ لِحاجتي ... وَإذا لها مِنْ رَاحَتَيْكَ نَسِيمُ
وَلَرُبَّما اسْتَيْأَسْتُ ثم أقولُ: لا ... إنَّ الذي ضَمِنَ النَّجاحَ كَرِيمُ

فغنيته بالشعر، فقال: عَلَيَّ بِعُتْبَةَ، فأتت؛ فقال: ما صنعت؟ قالت: ذكرت ذلك لمولاتي فَأَبَتْهُ وَكَرِهَتْهُ، فَليفْعَلْ أميرُ المؤمنين ما يريد، فقال: ما كنتُ لأفعل شيئاً تكرهه، فأعلمت أبا العتاهية بذلك، فقال:

قَطَّعتُ مِنْكِ حَبائِلَ الآمالِ ... وَأَرَحْتُ مِنْ حِلّ وَمِنْ تَرْحَالِ
ما كانَ أَشأمَ إذْ رَجاؤكِ قادَني ... وَبَناتُ وَعْدِكِ يَعْتَلِجْنَ بِبالي(٣)
وَلئنْ طَمِعْتُ لَرُبَّ بَرْقٍ خُلَّبٍ ... مَالَتْ بِذي طَمعٍ وَلُمْعَةِ آلِ(٤)

(١) العنق والرسيم: ضربان من السَّيْر.
(٢) أَشيم: أنظر. وفي الأغاني: «وَرَمَيْتُ نَحْوَ سَماءِ جُودِكَ نَاظِري».
(٣) في الأغاني: «إذ رجاؤك قاتلي». ويعتلجن ببالي: يقعن ويخطرن، على المجاز من قولهم: اعتلج الموج إذا التطم.
(٤) البرق الخُلَّب: ما لا مطر فيه. والآل: السراب.

وقد نُقِلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه، والله أعلم بالحقّ في ذلك[١].

المهدي يضرب أبا العتاهية مائة سوط

وضرب المهدي أبا العتاهية مائة سوط لقوله:

أَلاَ إنَّ ظَبْيـاً لِلخليفـةِ صَـادَنِـي ... وَمالي على ظَبْيِ الخليفةِ مِنْ عَدْوَى

وقال: أبي يَتَمرَّسُ[٢]، وَلِحَرمي يَتَعَرَّضُ، وَبِنِسَائي يَعْبَثُ؟ ونَفاهُ إلى الكوفة.

وفي ضربه يقول أبو دُهْمان[٣]:

لَـوْلاَ الَّـذِي أَحْـدَثَ الخليفـةُ لِلعُـ ... ـشَّـاقِ مِـنْ ضَـرْبِهِـمْ إذا عَشِقُـوا

لَبُحْـتُ بـاسـمِ الـذي أُحِـبُّ، وَلـ ... كنّـي امـرُؤٌ قَـدْ ثَنـانِـيَ الفَـرَقُ[٤]

من شعره في عتبة

وكان أبو العتاهية بالكوفة لما نُفِي يَذْكُرُ عُتبة، ويكنّي باسمها، فمن ذلك قوله:

قُـلْ لِمـنْ لَسْـتُ أُسمّـي ... بِـأَبـي أَنْـتِ وَأُمِّـي

بِـأَبِـي أَنْـتِ لَقَـدْ أصـ ... ـبَحْـتِ مـن أَكْبَـرِ هَمِّـي

وَلَقَـدْ قُلْـتُ لأَهْلـي ... إذْ أذاب الحـبُّ لَحْمِـي

وأَرَادُوا لـي طبيبـاً ... فَـاكتَفُـوا مِنّـي بِعِلْمـي:

مَـنْ يَكُـنْ يَجْهَـلُ مـا ألْـ ... ـقَـى فـإنَّ الحـبَّ سُقْمِـي

إنَّ رُوحِـي لِبَغْـدا ... دَ، وَفـي الكـوفـةِ جِسْمِـي

وقوله:

أَمْسَـى بِبَغْـدادَ ظَبْـيٌ لَسْـتُ أَذْكُـرُهُ ... إلاَّ بَكَيْـتُ إذا مـا ذِكْـرُه خَطَـرا

إنَّ المُحِـبَّ إذا شطَّـتْ مَنـازِلُـهُ ... عـنِ الحبيـبِ بكـى أوْ حَـنَّ أو ذَكَـرا

---

(١) أنظر هذه الرواية في الأغاني: ٣/٢٤٦ ـ ٢٥٠ (ترجمة يزيد بن حوراء).

(٢) تَمرَّس بالشيء وامترس: احتك به، وتدرَّب عليه.

(٣) هو أبو دُهْمان الغِلابي: شاعر من أهل البصرة. أدرك دولتي بني أمية وبني العباس، ومدح المهدي، وكان طيباً ظريفاً مليح النادرة. (الأصفهاني، الأغاني: ٢٢/٢٦٩).

(٤) ثناني: صرفني ومال بي عما أريد. والفَرَقُ: الخوف.

يَا ربَّ لَيْلٍ طويلٍ بِتُّ أرْقُبُهُ حَتى أضاءَ عَمودُ الصُّبْحِ فانْفَجَرا
ما كُنْتُ أحسِبُ إلاَّ مُذْ عَرفتكُمُ أنَّ المضَاجعَ مِمَّا تُنْبِتُ الإبَرا
وَاللَّيْلُ أطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الحِسَابِ عَلَى عَيْنِ الشَّجِيِّ إذا مَا نَوْمُهُ نَفَرا

بين المهدي وأبي العتاهية

ولما قدمت عُتبة بِبَغْداد قَدِم معها أبو العتاهية، وتلطَّف حتى اتَّصَل بالرشيد في خلافة أبيه المهدي؛ وتمكَّن منه، وبلغ المهديّ خبرُه، فأحضره؛ فقال: يا بائس؛ أنت مستقتل، وسأَله عن حاله؛ فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

أَنْتَ المُقَابِلُ والمُدَا بِرُ فِي المناسِبِ والعَدِيدِ
بَيْنَ العُمُومَةِ والخُئو لةِ والأُبُوَّةِ والجُدُودِ
فَإذَا ٱنْتَمَيْتَ إلَى أبِيـ ـكَ فَأنْتَ فِي المَجْدِ المَشِيدِ
وإذا ٱنْتَمَى خَالٌ فَمَا خَالٌ بِأَكْرَمَ مِنْ يَزِيدِ

يريد يزيد بن منصور؛ وكانت أُم المهديّ أم موسى بنت منصور الحميري. وأنشده:

عَلِمَ العَالِمُ أنَّ المَنَايَا سَامعاتٌ لَكَ فِيمَنْ عَصَاكَا
فَإذا وَجَّهْتَهَا نَحْوَ طَاغٍ رَجَعَتْ تَرْعُفُ منه قَنَاكَا[1]
وَلَوَ ٱنَّ الريحَ بَارَتْكَ يَوْماً فِي سَمَاحٍ قَصَّرتْ عَنْ نَدَاكَا

وأنشده[2]:

أَتَتْهُ الخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً إلَيْهِ تُجَرِّرُ أذْيَالَهَا
فَلَم تَكُ تَصْلُحُ إلاَّ لَهُ وَلَم يَكُ يَصْلُحُ إلاَّ لَهَا
وَلَوْ رامَهَا أَحَدٌ غيرُهُ لَزُلْزِلَت الأرضُ زِلْزَالَهَا
وَلَو لَم تُطِعْهُ بَنَاتُ القلوبِ لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمَالَهَا

فقال له المهدي: إن شئت أدَّبناك بضَرْبٍ وجيع؛ لإقدامك على ما نُهيت عنه، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزةً على مَدْحِك لنا. وإن شئتَ عَفَوْنا عنك فقط.

---

(١) ترعف: تسيل دماً.
(٢) الأصفهاني، الأغاني: ٤/ ٤٤.

فقال: بل يُضِيف أميرُ المؤمنين إلى كريم عفوه جميلَ معروفه؛ ومكرُمتان أكثرُ من واحدة، وأميرُ المؤمنين أولى من شَفع نِعْمَتهُ وأتمّ كرمه. فأمر له بثلاثين ألف درهم وعَفَا عنه.

الرشيد يحبسه على ترك الشعر

ولما قدم الرشيدُ الرَّقَّة أظهر أبو العتاهية الزّهد والتصوف وترك الغَزل، فأمره الرشيد أن يتغزّل، فأَبى، فحبسه، فغنّى بقوله:

خَلِيلَيَّ مَالي لا تَزالُ مَضَرَّتي ... تَكُونُ على الأقدار حَتْماً من الحَتْمِ
كَفَاكَ بحقّ اللهِ ما قَدْ ظَلَمْتَني ... فَهذا مُقامُ المستجيرِ من الظُّلْمِ
ألا في سَبيلِ اللهِ جِسْمي وقُوّتي ... أَلَا مُسعِدٌ حَتَّى أَنوحَ على جِسْمي

فأمر بإحضاره وقال: بالأمس يَنْهاك أميرُ المؤمنين المهدي عن الغزَل، فتأبَى إلاّ لَجاجاً ومَحْكاً؛ واليوم آمرك بالقول فتأبَى جُرْأة عليّ وإقداماً، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات، كنتُ أقول الغزلَ ولي شبابٌ وجِدَّة، وبي حَراك وقُوَّة، وأنا اليوم شيخٌ ضعيف لا يحسن بمثلي تَصابٍ؛ فردَّه إلى حبسه؛ فكتب إليه[(١)]:

أنا اليوم لي، والحمدُ لله، أَشْهُرٌ ... يَرُوح عليَّ الغَمُّ منك ويَبْكُرُ
تَذَكَّرْ، أمينَ اللهِ، حَقّي وَحُرْمَتي ... وما كُنتَ تُولِيني، لعلَّك تَذْكُرُ
ليالِيَ تُدنِي منكَ بالقُرب مَجْلِسي ... وَوَجْهُكَ من ماءِ البشاشةِ يَقْطُرُ
فمَنْ لِيَ بالعين التي كُنْتَ مرةً ... إليَّ بها من سالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فبعث إليه: لا بأس عليك؛ فقال:

كأنَّ الخَلْقَ رَكْبٌ فيه رُوحٌ ... له جَسَدٌ وأنْتَ عليه راسُ
أمينَ الله إنَّ الحبسَ بأسٌ ... وَقَدْ وَقّعتَ: ليس عليك باسُ

فأخرجه.

أخذ البيتَ الأول من هذين عليّ بن جبلة[(٢)] وزاد فيه، فقال لأبي غانم الطوسي:

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ٤/ ٦٥.

(٢) هو أبو الحسن، علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن: شاعر مطبوع، مجيد، فصيح، وكان أعمى، أسود، أبرص. ولد ببغداد، واشتهر بمدح القائدين: أبي دلف العجلي وحميد الطوسي. توفي سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٧٤٢؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٧١).

دِجْلَــةُ تَسْقِــي وَأَبُــو غَــانِــمٍ يُطْعِــمُ مَــنْ تَسْقِــي مِــنَ النَّــاسِ
وَالخَلْــقُ جِسْــمٌ، وَإِمَــامُ الهُــدَى رَأْسٌ، وَأَنْــتَ العَيْــنُ فِــي الــرَّاسِ

* * *

بشار يمدح عمر بن العلاء

وكان عمر بن العلاء ممدَّحاً، وفيه يقول بشار بن برد[١]:

إذا أَيقَظَتْــكَ حُــرُوبُ العِــدَى فَنَبِّــهْ لَهَــا عُمَــراً ثُــمَّ نَــمْ
دَعَــانِــي إلــى عُمَــرٍ جُــودُهُ وَقَــوْلُ العَشيــرةِ بَحْــرٌ خِضَــمْ[٢]
وَلَــوْلاَ الــذي ذَكَــروا لــم أَكُــنْ لِأَمْــدَحَ رَيْحَــانَــةً قَبْــلَ شَــمْ[٣]
فَتَــى لا يَبِيــتُ علــى دِمْنَــةٍ وَلا يَشْــرَبُ المَــاءَ إلاّ بِــدَمْ[٤]

لأبي سعيد المخزومي

أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومي[٥]، فقال:

وَما يُرِيدونَ، لَوْلا الْجُبْنُ، مِنْ رَجُلٍ بِــالليــلِ مُشْتَمِــلٍ بــالجَمْــرِ مُكْتَحِــلِ
لا يَضْــرِبُ المــاءَ إلا مِــنْ قَلِيــبِ دَمٍ وَلا يَبِيــتُ لــه جــارٌ علــى وَجَــلِ[٦]

لأبي الطيب المتنبي

وقال أبو الطيب[٧]:

---

(١) بشّار بن برد، الديوان: ٤/ ١٦٠.
(٢) بَحْرٌ خِضَمٌّ: واسع.
(٣) في الديوان: «ولولا الذي زعموا».
(٤) الدمنة هنا بمعنى الحقد الثابت، وفي الديوان: «فتًى لا يَنَامُ على ثَأْرِه».
(٥) رجّح بعضهم أنه «أبو سعد»، استناداً إلى ما قيل في هجائه:
إِنَّ أَبَــا سَعْــدٍ فَتَــى مَــاجِــدٌ يُعْــرَفُ بِــالكُنْيَــةِ لا الــوَالِــدِ
يَنْشُــدُ فــي حَــيِّ مَعَــدٍّ أَبــاً ضَــلَّ عــن المَنْشُــودِ وَالنَّــاشِــدِ
فَــرَحْمَــةُ الله علــى مُسْلِــمٍ يَــرُدُّ مَفْقُــوداً علــى فَــاقِــدِ
(٦) القليب: البئر. والوجل: الخوف.
(٧) أبو الطيب المتنبي، الديوان: ٢/ ١٨٠، والبيتان من قصيدة طويلة يمدح بها سيف الدولة الحمداني.

تَعَــوَّدَ ألاَّ تَقْضَــمَ الحــبَّ خَيْلُــهُ ... إذا الهامُ لم تَرْفَع جُنوبَ العَلائِقِ[١]
وَلا تَــرِدَ الغُــدْرَانَ إلاَّ ومَــاؤُهَــا ... مِنَ الدَّمِ كالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقائِقِ[٢]

لابنِ هانىء

وقال أبو القاسم بن هانىء:

مَـنْ لَـمْ يَـرَ المَيْدَان لَـمْ يَـرَ مَعْـرَكـاً ... أَشِبـاً، ويَـوْمـاً بِـالأَسِنَّـةِ أكْهَبَـا[٣]
وَكتـائبـاً تُـرْدِي غَـوَارِبُهَـا العِـدَى ... وَفَـوَارِسـاً تَعْـدو صَـوالجها الظّبـا[٤]
لا يُـورِدون المـاءَ سُنْبُـكَ سَـابـحٍ ... أو يَكْتَسـي بِـدَمِ الفَـوَارِسِ طُحْلُبـا[٥]

[رجع إلى عمر بن العلاء]

بين عمر بن العلاء وأبي العتاهية

قال: وبلغ عمرَ بنَ العلاء أن أبا العتاهية عاتبٌ عليه في هَنَاتٍ نالها منه في مجلس، وكان كثيرَ الانقطاع إليه، فتخلّف عنه، فساء ذلك عمر، فكتب إليه: قد بلغني الذي كان من تجنُّبك فيما استخفّك به سوءُ الأدب عن عِلْمِ حقيقةٍ مني، فصرت مُتَرَدّداً من العمى في يَلاَميع[٦] الشبهة؛ ولو كان معك من علمك داعٍ إلى لقائي لكشفت لك مَوْرِدَ الأمر ومصدره، لترجع إلى الصِّلة، فتقال أو تأبى إلا الصَّريمة فتَصْرِم؛ وقد قال الأول:

(١) القضم: أكل الشيء اليابس. والهام: الرؤوس. وجنوب: جمع جنب، بمعنى جانب. والعلائق: جمع علاقة، وهي ما يتعلق به الشيء، يريد المخالي. يقول: إذا أُعطيت خيله عليقها رفعته على هام الرجال، وأكلته، وفي هذا إشارة إلى كثرة القتلى.
(٢) ورد الماء: أتاه للشرب. والغدران: جمع غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل. والريحان: كل نبت طيب الريح. والشقائق: زهر معروف. أي تعوّد ممدوحه ألاّ يورد خيله الماء إلاّ بعد أن يكثر القتل، حتى يمتزج الماء بالدم، وتظهر خضرة الطحلب من فوقه كلون الريحان فوق الشقيق.
(٣) أشب: مختلط. وأكهب: مظلم.
(٤) صَوالجٌ: جمع صَوْلَج: العود المُعْوَجّ (فارسي معرب). والظُّبا: جمع ظباة، وهي حدّ السيف.
(٥) الطحلب: خضرة تعلو الماء المزمن.
(٦) اليلاميع: جمع يلمع، وهو البرق الخُلَّب والسراب، وَيُشَبَّهُ به الكذاب.

وَمُسْتَعِتِبٍ أَبْدَى على الظنِّ عَتْبَهُ ... وَأَخْرَجَ مِنْهُ المُحفظَاتِ غَليلُ
كَشَفْتُ له عُذْراً فأَبْصَرَ وَجْهَهُ ... فَعادَ إلى الإنصافِ وَهْوَ ذَليلُ

فأجابه أبو العتاهية: لم أَجُزْ بعَتْبي الحقيقةَ إلى الشبهة، ولم أجد سعةً مع عظيم قدرتك إلى حمل اللائمة، فقصَّر بيَ الخوفُ من سُخْطِك، على تَرْك معاتبتك؛ لأنَّ المعاتبة لا تجتنى إلاَّ من المساوِي، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الصُّحبة، وسالف المدَّة، وأنا أقول:

رَضيتُ بِبَعْضِ الذُّلِّ خَوْفَ جميعهِ ... وَلَيْسَ لِمثْلِي بالملوكِ يَدَانِ
وَكُنْتُ امْرَأً أَخْشَى العقَابَ وأتَّقي ... مَغَبَّةَ ما تَجْني يَدِي ولِسَاني
فَهلْ مِنْ شَفِيعٍ مِنْكَ يَضْمَنُ تَوْبَتِي ... فَإنِّي امْرَؤٌ أُوفِي بِكُلِّ ضَمانِ

فتراجعا إلى أحسن ما كانا عليه.

وإنما ألم أبو العتاهية في قوله: «إنّ المطايا تشتكيك... وما يليه» بقول أبي الْحَجْنَاء نُصَيبٍ الأكبر[1]:

فَعاجُوا فأَثْنَوا بالذي أَنْتَ أَهْلُه ... وَلو سَكَتُوا أَثْنَتْ عليك الْحَقَائِبُ[2]

وقال أبو الطيب في أبي العشائر الحمداني[3]:

تُنْشِدُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ ... بِأَلْسُنٍ مَالَهُنَّ أَفْوَاهْ[4]
إذَا مَرَرْنَا عَلَى الأَصَمِّ بِهَا ... أَغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهْ[5]

---

(١) هو أبو محجن، نصيب بن رباح، مولى عبد العزيز بن مروان: شاعر فحل مقدم في النسيب والمديح. وكان عفيفاً لم ينسب قطّ إلا بامرأته، وله في سواد لونه شعر كثير. توفي نحو ١٠٨ هـ/ ٧٢٦ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٢٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ١/ ٣٠٥ ـ ٣٥٥).
(٢) البيت مع بيتين آخرين في «العمدة»: ١/ ٧٤، أنشدها نصيب لسليمان بن عبد الملك، فأثابه عليها خمسمائة دينار.
(٣) المتنبي، الديوان: ١/ ٤١٩.
(٤) يقول: نلبس خلعه، فيراها الناس، فيعلمون أنها من إنعامه، فكأنها قد أبانت عن كرمه، ونطقت بالثناء عليه.
(٥) المِسْمَعُ: الأذن. يقول: إذا مررنا بها على الأصم، علم أن الأمير قد أنعم بها علينا، فاستغنى برؤيتها عن أن نخبره بعطائه.

وهذا المعنى من النُّصْبَةِ[١] الدالة بذاتها التي ذكرتُهَا عن الجاحظ في أقسامِ البيان.

* * *

وقال بَعْضُ الخطباء: أشهد أن في السموات والأرض آياتٍ ودَلاَلاَتٍ، وشواهدَ قائماتٍ؛ كلٌّ يؤدي عنك الحجَّة، ويشهد لك بالربوبية.

لأبي العتاهية

ونظيرُ هذا قولُ أبي العتاهية، وروي أنه جلس في دكان ورَّاق، وأخذ كتاباً فكتب على ظهره:

فَواعجباً كَيْفَ يُعْصَى المَلِيـ ـكُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَللهِ في كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ في الوَرَى شَاهِدُ
وَفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أَنَّه وَاحِدُ

لأبي نواس

وانصرف، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبياتَ، فقال: لِمنْ هذا؟ فَلَوددْتُها لي بجميع شِعْرِي، فقيل: لإسماعيل بن القاسم، فوقع تحتها[٢]:

سُبحانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْـ ـقَ مِن ضعِيفٍ مَهِينِ[٣]
فَصَاغَهُ من قَرَارٍ إلى قَرَارٍ مَكِينِ
يَحُولُ شيئاً فشيئاً في الْحُجْبِ دُونَ العيونِ[٤]
حَتَّى بَدَتْ حَرَكَاتٌ مَخْلوقَةٌ مِنْ سُكُونِ

وقال الفضل بن عيسى الرَّقاشي[٥]: سَلِ الأرض مَنْ غَرس أشْجارَكِ، وشَقَّ أنهارَكِ، وجَنَى ثمارِكِ، فإنْ لم تُجِبْكَ حِوَاراً، أجَابَتْكَ اعتباراً.

---

(١) النصبة: ما يُنْصَبُ من العلامات لتدل على معانٍ جرى العرف بدلالتها عليها.
(٢) أبو نواس، الديوان: ص ٦١٩.
(٣) في البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلقكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ (سورة المرسلات، آية ٢٠).
(٤) يحول: يتحول من حالٍ إلى حالٍ أُخرى. وفي الديوان: «يحور» أي: يتحول من شيء إلى شيء.
(٥) هو أبو عيسى، الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي: واعظ من أهل البصرة، من أخطب الناس، وكان متكلماً، قاصاً مجيداً. وهو رئيس طائفة من المعتزلة تُنْسَب إليه، وكان قدرياً ضعيف الحديث، سَجَّاعاً في قصصه. توفي نحو ١٤٠ هـ/ نحو ٧٥٧ م. (الزركلي، الأعلام: ٥/ ١٥١).

وهذا شبيهٌ بقول عديّ بن زيد[١]، وقد نزل النعمانُ بن المنذرِ تحت سَرْحَة[٢]. فقال: أتدرِي ما تقول هذه السَّرْحَة أيها الملك؟ قال: وما تقول؟ قال: تقول:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالماءِ الزُّلالِ
ثُمّ أَضْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرُ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالِ

ويروى «عَكَفَ الدَّهْرُ بهم فثَوَوْا[٣]». فتكدَّرَ حالُ النُّعْمان وما كان فيه من لذَّةٍ.

ألفاظ لأهل العصر في الشكر بدلالة الحال

لو سكت الشَّاكرُ لنَطَقَتِ المآثِرُ. لو صَمتَ المُخَاطِبُ لأثْنَت الحقائِبُ، ولَشَهِدَتْ شواهِدُ حاله على صِدْقِ مَقَالِه. إن جَحَدْتُ ما أوْلاَنيه، وكَفَرْتُ ما أعطانيه، نطقتْ آثارُ أياديه عليَّ، ولمعت أعلامُ عَوَارِفه[٤] لديَّ.

لأبي الفضل الميكالي

ولأبي الفضلِ الميكالي من رسالة: وردَ فلانٌ فتعاطى من شُكْرِه على نعمه التي ألبسه جمالَها، وأسحَبه أذْيالَها، ما لو لم يتحدّثْ به ناشراً ومُثْنِياً، ومُعِيداً ومُبْدِياً، لأَثْنَت به حَالُه، وشهِدَتْ به رِحَاله، حتى لقد امتلأت بذكرِه المحافلُ، وسارت بخبره الرُّكْبَان والقوافلُ، وصارت الألسِنةُ على الشكر والثناء لساناً، والجماعة على النَّشْرِ والدعاءِ أنصاراً وأعواناً، على أنه وإن بالغَ في هذا الباب، وجاوزَ حَدَّ الإكثار والإسهاب، نهايتُه القصورُ دون واجبه، والسقوطُ عن أدنى درجاته ومَرَاتبه.

لأبي الفتح البستي

ومما يقترن لهم بهذا المعنى من ذِكْرِ الشكر: قال أبو الفتح البستي: الحرُّ نَحْلُ الشكر، إن أجْنَاه المرءُ من خيره شكراً أجناه من بِرّه شَهْداً.

---

(١) هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادي التميمي: شاعر جاهلي فصيح، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، ولو شاء لملكه الناس، ولكنه كان يؤثر اللهو والصيد على الملك. تزوج من هند بنت النعمان، ثم غضب النعمان عليه وحبسه وقتله نحو ٥٩٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ٨٠؛ شيخو، شعراء النصرانية: ١ج/ ٤٣٩).

(٢) السرحة: الشجرة العظيمة، أو هي كل شجرة لا شوك لها، وقد تُطلق مجازاً على المرأة.

(٣) كذا، ولا يستقيم وزنه، ولو قال: «عكف الدهر بهم ثم ثووا» لتم.

(٤) العوارف: جمع عارفة، وهي النعمة.

غيره: الشكر ترجمانُ النيَّةِ، ولسانُ الطَّويَّة، وشاهدُ الإخلاصِ، وعنوان الاختصاص. الشكرُ نسيمُ النِّعَم، وهو السببُ إلى الزيادة، والطريقُ إلى السعادة. الشكرُ قَيْدُ النِّعْمَة، ومفتاحُ المزيد، وثَمنُ الجنةِ. مَنْ شكرَ قليلاً، استحقَّ جزيلاً. شُكْرُ المَوْلَى، هو الأَوْلَى. الشكر قَيْد النِّعم وشِكالُها وعِقالُها، وهو شبيه بالوَحْشِ التي لا تقيم مع الإيحاش، ولا تَرِيم[١] مع الإيناس. مَوْقعُ الشكرِ من النعمة مَوْقعُ القِرَى من الضيفِ، إنْ وجده لم يَرِم، وإنِ فَقَدَهُ لم يُقِم. الشكر غرسٌ إذا أُودع سَمْع الكريم أَثْمَرَ الزيادة، وحفظَ العادة. الشكرُ تعرّض للمزيد السائغ، والنِّعم السَّوابغ. شُكْرُهُ شُكْرُ الأسيرلِمَنْ أطْلَقه، والمملوكِ لمن أعْتَقَه. أثْنَى عليه ثناء الرَّوْضِ المُمْحِل، على الغَيْثِ المُسْبِل. أثنى عليه ثناء لسان الزَّهَر، على راحة المطر. أثنى عليه ثناء العطشان الوارد، على الزُّلالِ البارد. شُكْرُه شكر الأرض للدِّيم[٢]، وزُهَيْر لِهَرِم. بَسَطَ لسانَ الثناءِ والدعاء، وبلغ عنان الشكْرِ عَنَان السماء. شَكَره شكراً ترتاحُ له المكارم، وتهتزّ له المواسِم. لأشكُرَنّه شُكْراً تَشِيع أنواعُه، وتَنْبَسِطُ أبْواعه[٣]، ويلذ ذكره وسماعُه. شكرٌ ملأ القلبَ واللسانَ، كشكر حَسَّان لآل غَسَّان[٤]. أَطال عِنان الشكْرِ، وفسح مجالَه، ورفع أَعْمِدته، ومدَّ أرْوِقَته. شُكْرٌ كأنفاسِ الأحبابِ، أو أنفاس الأسحارِ، أو أنفاس الرِّياض غِبَّ القِطَار[٥].

[من أخبار نُصَيب وشعره]

بين نصيب والفرزدق

رجع ما انقطع:

كان سببُ قولِ نصيب:

فَعَـاجُـوا فـأَثْنَـوْا بـالَّـذِي أَنْـتَ أَهْلُـه

أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال سليمان بن عبد الملك: يا فرزدق؛ مَنْ أَشعر الناس؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين، قال: لماذا؟ قال بقولي:

---

(١) لا تريم: لا تنطلق ولا تذهب ولا تفارق.

(٢) الديم: جمع ديمة، وهي السحابة التي يدوم مطرها.

(٣) الأبواع: جمع باع، وهو مسافة ما بين أطراف أصابع يديك حين تبسطهما موازيين لصدرك.

(٤) حسان: هو حسان بن ثابت الأنصاري، وكان في الجاهلية يمدح الغساسنة، ويتقرّب إليهم بشعره.

(٥) القِطَارُ: جمع قَطْرٍ، وهو المطر.

وَرَكْبٍ كأَنَّ الريحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهَاتِرَةً من جَذْبِها بالعصائبِ[١]
سَرَوْا وسَرَتْ نَكْباء وَهي تَلُفُّهم إلى شُعَبِ الأكْوارِ ذاتِ الحقائبِ[٢]
إذا آنَسُوا ناراً يقولون: لَيْتَها، وَقدْ خَصِرَتْ أَيديهم نَارُ غالبِ[٣]

يريد أباه ـ وهو غالب بن صَعْصَعَةَ بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع ـ فأَعرض عنه سليمان كالمُغْضَب؛ لأنه إنما أراد أن يُنْشِدَ مدحاً فيه؛ ففهم نُصَيب مرادَه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ قد قلتُ أبياتاً على هذا الرويّ ليست بدونها، فقال: هَاتِها؛ فأنشأ نُصَيْبٌ يقول:

أَقولُ لِركْبٍ قَافلينَ لَقِيتهُمْ قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلاك قَارِبُ[٤]
فَقدْ أَخبروني عن سُليمان أنني لِمَعْروفهِ من آل وَدَّانَ طالبُ
فَعاجوا فأَثنَوْا بالَّذِي أنْتَ أهلهُ وَلو سكتوا أثنَتْ عليكَ الحقَائبُ[٥]
فَقالوا: تَركْنَاهُ وفي كلِّ لَيْلَةٍ يُطِيفُ به من طَالِبي العُرْف راكِبُ[٦]
وَلو كان فَوْقَ الناس حيٌّ فِعالهُ كَفِعْلِك أو للفعلِ مِنْكَ يُقارِبُ
لَقُلْنَا: له شِبْهٌ، وَلكِنْ تَعذَّرَتْ سِوَاك عنِ المُسْتَشْفِعِينَ المطالِبُ
هُوَ البدرُ والناسُ الكواكبُ حَوْلَهُ وَهلْ تُشْبِه البدرَ المنيرَ الكواكِبُ

فقال سليمانُ: أحسنتَ، والتفتَ إلى الفرزدق، فقال: كيف تسمعُ يا أبا فِراس؛ قال: هو أَشعَرُ أهل جِلْدَتِه، قال: وأهل جِلْدَتِك؛ فخرج الفرزدق وهو يقول:

وَخَيْرُ الشِّعْرِ أَكْرَمُهُ رِجَالاً وَشَرُّ الشِّعْرِ ما قَالَ العبيدُ

(١) التِّرَةُ والوَتِيرَةُ والوَتْرُ والوِتْرُ: الظلم في الذحل (الثأر)، وقيل: هو الذحل عامة.
(٢) النكباء: الريح التي تميل عن مهاب الرياح. والأكوار: جمع كُور، وهو الرحل. والحقائب: جمع حقيبة، وهي الرفادة في مؤخر القتب، وكل ما شُدَّ في مؤخر رحلٍ أو قتب. وفي الديوان: «سروا يخبطون الليل وهي تلفهم».
(٣) خصرت: بردت. نار غالب: نار أبيه غالب. وفي الديوان: «إذا ما رأوا ناراً».
(٤) ذات أوشال: موضع، والأوشال: جمع وشل، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.
(٥) عاجوا: مالوا، عرَّجوا.
(٦) العُرْفُ: المعروف.

[من المديح]

قال أبو العباس محمد بن يزيد: وهذا بابٌ في المدح حسن متجاوز مُبْتَدع لم يُسْبَق إليه.

قول نصيب: «من أهْل ودّان». قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ذكر محمد بن كناسة والزبيدي أنّ نُصَيبا من أهل ودّان، وكان عَبْداً لرجل من بني كنانة هو وأهل بيته، وزعم أبو هفّان أنه عبدٌ لعبد العزيز بن مروان، وكان نصيبٌ شديدَ السواد، وهو القائل:

كُسيتُ ـ ولم أملكْ ـ سَواداً، وَتَحْتَهُ قَميصٌ مِن القُوهيِّ بيضٌ بَنَائِقُهْ[1]
فَما ضَرَّ أثْوابي سَوادِي، وَإنَّني لَكَالمِسْكِ لا يَسْلُو عن المِسْكِ ذائِقُهْ

لسحيم

وقال سُحَيم عبد بني الحسحاس[2]:

أَشعارُ عَبْدِ بني الحَسْحاس قُمْنَ لهُ عِنْدَ الفَخار مَقَامَ الأَصْلِ والوَرِقِ
إن كُنْتُ عَبْداً فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَماً أَو أَسْوَدَ اللَّوْنِ إني أَبْيَضُ الخُلُقِ

للمتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي لكافور الإخشيدي[3]:

إنَّما الجِلْدُ مَلْبَسٌ وابيضاضُ الـ ـخلق خَيْرٌ من أَبْيِضاضِ القَباءِ[4]

وقال نصيب لبعض ملوك بني أمية: إن لي بنات نَفَضْتُ عليهن من سوادي، فقال: ما أحسن ما تلطّفت لهنّ! وأمر له بصلة.

---

(١) القوهي: ثياب بيض تنسب إلى قوهستان. والبنائق: الجيوب، ومفردها: بنيقة.

(٢) هو أبو عبد الله، سُحَيْمُ عبد بني الحَسْحَاس: شاعر مخضرم، أدرك الإسلام وأسلم. وهو عبد حبشي، اشتراه بنو الحسحاس، وهم بطن من أسد. وعرف سحيم بغزله الصريح، وتشبيبه ببنات أسياده، ويقال: إنه قُتِل بسبب ذلك في خلافة عمر بن الخطاب (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٢٠).

(٣) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٤٩. وفيه «وابيضاض النَّفْس».

(٤) يقول: الجلد للإنسان بمنزلة اللباس، فلا عبرة ببياضه، وإنما العبرة ببياض النفس ونقائها من العيوب.

بين أبي تمّام وابن الزيات

وكان أبو تمام حبيبُ بن أَوْسٍ لما مدح أبا جعفر مُحمدَ بنَ عبد الملك الزيات بقصيدته التي أولها[١]:

لَهَـانَ عَلَيْنَـا أَنْ نَقُـولَ وَتَفْعَـلا وَنَذْكُرَ بَعْضَ الفَضْلِ مِنْكَ وَتُفْضِلا[٢]

وهي من أحسن شعره، وقَّع له على ظهرها:

رَأَيْتُكَ سَمْحَ البيعِ سَهْلاً، وَإنما يُغَالَى إذا ما ضَنَّ بِالشيءِ بائِعُهْ
فَأَمَّا إِذا هَانَتْ بَضائِعُ بَيْعِهِ فَيُوشِكُ أَنْ تَبْقَى عليه بَضَائِعُهْ
هُو الماء إِن أَجْمَمْتَهُ طابَ وِرْدُهُ وَيَفْسدُ مِنْهُ أَنْ تُباحَ مَشَارِعُهْ[٣]

فأجابه بقصيدة طويلة، واحتجّ عليه واعتذَر إليه في مدحه لغيره؛ فقال في بعض ذلك[٤]:

أَمّا القوافي فَقَدْ حَصَّنْتَ غِرَّتَها فَما يُصَابُ دَمٌ منها ولا سَلَبُ[٥]
مَنَعْتَ إلاَّ مِنَ الأَكْفاءِ أَيِّمها وَكانَ منكَ عليها العَطْفُ والحدَبُ[٦]
وَلو عَضَلْتَ عن الأَكفاءِ أَيِّمَها وَلم يَكُنْ لكَ في إظهارها أَرَبُ[٧]
كانَتْ بَناتِ نُصيبٍ حينَ ضَنَّ بها على المَوالي ولم تَحْفِلْ بها العَرَبُ

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله[٨]:

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٤٧.
(٢) يقول: يهون علينا أن نُسْأَل بالقول، فَتُعْطي أنت بالفعل، ثم نمدحك ببعض فضائلك، فَتَنْهَالُ علينا أَفْضَالُك.
(٣) أَجَمَّ الماءَ وَجَمَّهُ: تركه يجتمع. والمشارع: جمع مشرعة، وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس، فيشربون منها ويستقون.
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٦٤.
(٥) حَصَّن الشيء: منعه وحماه. والغرة من كل شيء: أوله ومعظمه وطلعته.
(٦) الأيم: من لا زوج لها، بكراً أو ثيباً، ومن لا امرأة له، وتأيم فلان: مكث زماناً لم يتزوج. والحَدَبُ: العطف والحنان والإشفاق. وفي الديوان: «ناكحها».
(٧) عَضَلَ المرأة: منعها من الزواج ظُلماً. والأرب: الحاجة. وفي الديوان: «في أَطهارها» والأطهار: جمع طهر. جعل القوافي كالنساء، فإذا طهرت المرأة احتيج إليها، وتعتزل في الحيض.
(٨) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه، مما يرجح أن تكون منحولة له.

أبـا جَعْفَـرٍ إن كُنْـتُ أَصْبَحْـتُ شَـاعِـراً ... أُسَـامِـحُ فـي بَيْعـي لَـهُ مَـنْ أُبـايِعُـهْ
فَقَـدْ كُنْـتَ قَبْلِـي شَـاعِـراً تَـاجِـراً بِـهِ ... تُسَـاهِـلُ مَـنْ عَـادَتْ عَلَيْـكَ مَنَـافِعُـهْ
فَصِـرْتَ وَزِيـراً والـوزارةُ مَكْـرَعٌ ... يَغَـصُّ بِـه بَعْـدَ اللَّـذاذة كَـارِعُـهْ[1]
وَكَـمْ مِـن وَزِيـرٍ قَـدْ رَأَيْنَـا مُسَلَّطـا ... فَعـادَ وَقَـدْ سُـدَّت عليـه مَطَـالِعُـهْ
وَلله قَـوْسٌ لا تَطيـشُ سِهـامُهـا ... وَللهِ سَيْـفٌ لا تفـلُّ مَقَـاطِعُـهْ

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: ويقال إن هذه الأبيات منحولة لحبيب، وليس مثل أبي جعفر في جلالةِ قَدْره واصطناعه لحبيب يُعَامَل بمثل هذا الجواب، ولا يَنْتَهي جَهْلُ حبيب أن يقابل مأموله ومن يَرْتَجي جليلَ الفائدة منه بهذه الأبيات.

وقد قيل: بل قالها، ولم ينشدها أحداً؛ وإنما ظهرت بعد موته

لابن الزيات يمدح الحسن بن سهل

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً، ومدح الحسنَ بن سهل في وزارته للمأمون؛ وأعطاه عشرة آلاف درهم، فقال:

لـم أَمْتَـدِحْـكَ رَجـاءَ المـالِ أَطْلُبُـهُ ... لَكِـنْ لِتُلْبِسَنِـي التَّحْجيـلَ والغُـرَرَا
مـا كـانَ ذلـكَ إلا أنَّنـي رَجُـلٌ ... لا أَقـربُ الـوِرْدَ حتـى أَعْـرِفَ الصَّدَرا

لأبي تمام يمدح ابن أبي دُوَاد

قال الصولي: وكان السببُ الذي أَوْجد[2] أبا جعفر على أبي تمام حتى قال: «لقد رأيتك سَهْلَ البيع ـ الأبيات» قولَ أبي تمام قصيدته المشهورة في ابن أبي دُوَاد التي أولها[3]:

سَقَـى عَهْـدَ الحِمَـى سَبَـلُ العِهـادِ ... وَرَوَّيَ حَـاضِـرٌ مِنْـهُ وَبَـادِ[4]

(١) المكرع: المكان الذي تشرب منه الدواب، سمي بذلك لأن الحيوان لا يشرب منه إلاّ بإدخال أكارعه فيه. والكُراع: ما دون الكعب في الدابة، وما دون الركبة من الإنسان. وكرع في الماء: أدخل فيه أكارعه ليشرب.
(٢) أَوجده: أثار موجدته (غضبه).
(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢١٣. وفيه: «وَرَوَّضَ حَاضِرٌ»، و «نزحت به رَكِيَّ العين».
(٤) السَّبَلُ: المطر، وقيل: هو المطر بين السحاب والأرض، حين يخرج من السحاب ولم يصل إلى الأرض. والعهاد: أمطار الربيع، والواحدة عهدة.

نَـزَحْـتُ بِـهِ رَكِـيَّ الـدَّمْـعِ لَمَّـا رَأَيْـتُ الـدَّمْـعَ مِـنْ خَيْـرِ العَتَـادِ(١)

يقول فيها في مدحه:

هُـمُ عَظْـمُ الأثَـافِـي مِـنْ نِـزَارٍ وَأَهْـلُ الهَضْـبِ منهـا والنِّجَـادِ(٢)
مُعَـرَّسُ كُـلِّ مُعْضِلَـةٍ وَخَطْـبٍ وَمَنْبِـتُ كُـلِّ مَكْـرُمَـةٍ وَآدِ(٣)
إذا حُـدُثُ القبـائـلِ سَـاجَلُـوهُـمْ فَـإِنَّهُـمُ بَنُـو المجـدِ التِّـلادِ(٤)
تُفَـرِّجُ عنهـمُ الغمـراتِ بِيـضٌ جِـلاَدٌ تحـتَ قَسْطَلَـةِ الجِـلادِ(٥)
وَحَشْـوُ حَـوادِثِ الأيـامِ مِنْهُـمْ مَعَـاقِـلُ مِطْـرَدٍ وَبنـو طِـرادِ(٦)
لَهُـمْ جَهْـلُ السبـاعِ إذا المنـايـا تَمَشَّـتْ فـي الـوَغَـى وَحُلُـومُ عـادِ(٧)
لَقَـدْ أَنْسَـتْ سُلُـوِّي كُـلَّ دَهْـرٍ مَحَـاسِـنُ أحمـدَ بـن أبـي دُوادِ
مَتَـى تَحْلُـلْ بِـهِ تَحْلُـلْ جَنَـابـاً رَضِيعـاً للسَّـواري والغَـوادِي(٨)

---

(١) نَزَحَ البئر وأنزحها: استقى ما فيها حتى تنفد، والنَّزَحُ: البئر التي اسْتُقِي ماؤها، وبئر نزوح، وركايا نُزُحٌ: قليلة الماء. والركي والركايا: الآبار، والمفرد: ركية. والعتاد: العُدَّة.

(٢) الأثافيُّ: الحجارة التي تُجْعَلُ عليها القدر، الواحدة أُثْفِيَّة (مشددة)، ويقال: إذا كانت الواحدة مشددة ففي الجمع التثقيل والتخفيف، كقولك: أُمنيَّة وأَمانيُّ وأمانٍ. وقيل: الأثفية: الجبل. وفي الديوان: «هم عُظْمَى الأثافي». والنجاد: المرتفعات.

(٣) المُعرَّسُ: موضع التعريس، وهو النزول ليلاً. والآد والأيد: القوة، وآد فلان يئيد أيداً: اشتد وقوي. أراد أنه يفزع إليهم في المعضلات والخطوب.

(٤) المُسَاجلة: المباراة والمفاخرة، قال الفضل بن عباس اللهبي:

مَـنْ يُسَـاجِلْنـي يُسَـاجِـلْ مَـاجِـداً يَمْـلأُ الـدَّلْـوَ إلـى عَقْـدِ الكَـرَبْ

(ابن منظور، اللسان: سجل). وَحُدُثُ القبائل: القبائل الحديثة. والتلاد والتالد والتليد: كلُّ قديم موروث من مالٍ أو مجد أو سُؤدد. وفي الديوان: «بَنُو الدَّهْرِ التِّلادِ».

(٥) الغمرات: جمع غمرة، وهي الشدة. والبيض الجلاد: السيوف القوية. وقسطلة الجلاد: شدّة الحرب. والمعنى: أنهم يتكشفون عند الشدائد رجالاً كراماً ذوي قوةٍ وصبرٍ.

(٦) الطراد: القتال. وقد طارد قرنه، وتطاردا، وبينهما طراد ومطاردة، وهي حَمْلُ أحدهما على صاحبه ومقاتلته، وإن لم يكن ثَمَّ طرد.

(٧) الأحلام والحلوم: جمع حِلْم: الأناة والعقل، والحِلْمُ: نقيض السفه.

(٨) السواري: جمع سارية، وهي السحابة تمطر ليلاً. والغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تمطر صباحاً أو غدوةً. والجناب: الناحية.

وَمــا اشْتَبهــتْ سَبيــلُ المجــدِ إلاَّ هَــداكَ لِقِبْلَــةِ المعــروفِ هَــادِ
وَمــا سَــافَــرْتُ فــي الآفــاق إلاّ وَمِــنْ جَــدْواك راحِلَتــي وَزادي
مُقيــمُ الظــنِّ عِنْــدَكَ والأَمــانِــي وَإن قَلِقَــتْ ركــابــي فــي البــلادِ

وهذه النكت[١] التي أَحْقَدت أبا جعفر، وأعتبته على أبي تمام، وفي هذه القصيدة يقول معتذراً إليه في الذي قُرِفَ[٢] به عنده من هجاء مضر:

أتَــانــي عَــائِــرُ الأنبــاء تَسْــرِي عَقــاربُــهُ بــداهيــةٍ نَــآدِ[٣]
نَثَــا خَبَــرا كــأَنَّ القلــبَ مِنْــهُ يُجَــرُّ بــه علــى شَــوْكِ القَتَــادِ[٤]
بــأَنِّــي نِلْــتُ مــن مُضَــرٍ وَخَبَّــتْ إليــكَ شَكِيَّتــي خَبَــبَ الجــوادِ[٥]
وَمــا رَبْــعُ القَطيعــةِ لــي بِــرَبْــعٍ وَلا نَــادي الأَذَى مِنّــي بِنَــادِ
وَأَيْــنَ يَجــورُ عــن قَصْــدٍ لِســانــي وَقَلْبــي رائــحٌ بِــرِضَــاكَ غــادِ
وَممــا كــانــتِ الحُكَمــاءُ قــالَــتْ: لِسَــانُ المَــرْءِ مــن خَــدَمِ الفُــؤَادِ
وَقِــدْمــاً كُنْــتُ مَعْسُــولَ القَــوافــي وَمــأدومَ المعــانــي بــالسَّــدادِ[٦]

[من أخبار ابن أبي دُوَاد]

غلوه في التعصب لإياد

وكان ابن أبي دُوَاد غالياً في التعصُّب لإياد وإلحاقها بنزار، على مذهب نُسَّاب العَدْنَانِيين. قال: وكلٌّ من بالعراق من إياد دخلوا في النَّخَع، وإليهم يُنْسَبون؛ ومَنْ كان

---

(١) النكت: أراد الإشارات.
(٢) قَرَفَ الذنب وغيره، يقرفه قَرْفاً، واقترفه: اكتسبه، أي أتاه وفعله، وقارف الذنب: داناه ولاصقه، وَقَرَفَهُ بكذا: أضافه إليه واتَّهمه به.
(٣) عائر الأنباء: أي الأنباء التي لا يُعرف قائلها. نآدُ: شديدة.
(٤) في الديوان: «نَثَاخَبَرٍ»، أي انتشار خبر. والقتاد: شجر له شوك أمثال الإبر، وله وُرَيْقَة غبراء، وثمرة تنبت معها غبراء كأنها عَجْمَةُ النَّوى.
(٥) نِلْتُ من مُضَرٍ: طَعَنْتُ فيها. والخبب: ضرب من السير. والشكية: ما يُشْكَى منه.
(٦) في الديوان: «فَقِدْماً كنت مَعْسُولَ الأماني». مأدوم: من قولهم: أدمت الطعام إذا خلطته بالإدام. السَّدادُ: الصواب. يريد: أنه لم يخلط أشعاره قديماً بما يُؤذي، ولم يجعل إدامها إلاَّ السداد، أي إنه لم يقل سوءاً بمضر، وهو قَدْ رَبِيَ في نعمهم، ويقول: إن الذي ذكر عنه إنما هو زور.

بالشام فملمّ[١] على نسبهم في نزار، وابن أبي دُوَاد يُرْمَى بالدعوة؛ والتكثيرُ من أخباره يُخْرِجُ إلى ما أَخَافهُ من تَطْويلِ التصرُّف، في مملول التكلُّفِ.

علمه وعداوته لابن الزيات

وكان ابن أبي دُواد عالماً بضروبِ العِلم والأدب، متصرّفاً في صناعة الجِدال، على مذهب أهلِ الاعتزال، وكانت العداوةُ بينه وبين ابنِ الزيَّات بيّنة، والنفاسة في الرياسة بينهما متمكِّنة، وقال له بعض الشعراء:

أَكُلّ أبي دُوادٍ مِن إيادِ فَكُلُّ أبي ذُؤيبٍ من هُذَيْلِ

قال مسلم: ماتَاه إلاَّ وضيع، ولا فاخر إلا سقيط، ولا تعصَّب إلاَّ دَخِيل.

أصله

وقال مدني لرجل: ممن أنت؟ فقال: من قريش، والحمد لله، قال: بأبي أنت! التحميد هاهنا رِيبة! واسم أبي دُوَاد دُعْمِيّ، قال أبو اليقظان: وهم من قبيلة يقالُ لها بنو زهرة إخوة بني جدّان، وقد ذكرهُ الطائي في قوله[٢]:

وَالغَيْثُ مِن زُهْرٍ سَحَابَةُ رَأْفَةٍ وَالركنُ مِنْ شَيْبَانَ طَوْدُ حَدِيدِ[٣]

ذكر شيبان، لأن خالدَ بن يزيد الشيباني شَفَع له عند ابنِ أبي دُوَاد فيما ينساقُ الحديثُ إليه من مَوْجِدَتِهِ عليه.

غضبه على أبي تمام ثم رضاه عنه

قال محمود الوراق: كنتُ جالساً بِطَرَفِ الْجِسْر مع أصحاب لي، فمرّ بنا أبو تمام، فجلس إلينا، فقال له رجل منا: يا أبا تمّام، أيُّ رجل أَنْتَ لو لم تكن من اليَمَنِ! قال: ما أُحِبُّ أنّي بغير الموضع الذي اختاره اللهُ لي، فَمِمَّن[٤] تحِبُّ أن أكونَ؟ قال: من مُضَر،

(١) كذا، ونحسبها: «فَهُمْ على نَسَبِهم».
(٢) أبو تمام، الديوان: ١/٢٢٢. والبيت من قصيدة طويلة يمدح بها أحمد بن أبي دواد، ويعتذر إليه، ويستشفع بخالد بن يزيد.
(٣) أراد أن الممدوح سحابة رحمة له. والركن من شيبان: أي خالد بن يزيد. وطود حديد: أي جبل حديد.
(٤) وفي نسخة: «فمن تحب أن أكون».

قال: إنما شَرُفَتْ مُضَر بالنبيّ ﷺ، ولولا ذلك ما قِيسوا بملوكنا وأَذْوائنا، وفينا كَذَا، ومِنَّا كذا ـ يَفْخَر؛ وذكر أشياءَ عاب بها مُضَر، ونُمِي الخبرُ إلى ابن أبي دُوَاد وزِيدَ فيه، فقال: ما أُحِبُّ أنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ، فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها[(١)]:

سَعِدَتْ غُرْبَةُ النَّوَى بِسُعَادِ ... فِي طُلُوعِ الإتْهَامِ وَالإنْجادِ[(٢)]

يقول فيها:

بَعْدَ أَنْ أَصْلَتَ الوُشَاةُ سُيُوفاً ... قَطَعَتْ فِيَّ وَهْيَ غَيْرُ حِدَادِ[(٣)]
فَنَفَى عَنْكَ زُخْرُفَ القولِ سَمْعٌ ... لم يَكُنْ فُرْضَةً لِغَيْرِ السَّدادِ[(٤)]
ضَرَبَ الحِلْمُ والوَقَارُ عليهِ ... دُونَ عُورِ الكلامِ بالأسْدادِ[(٥)]
مَلأتْكَ الأَحْسَابُ أَيَّ حَيا ... وَحيا أَزْمَةٍ وَحيَّةِ وَادِ[(٦)]
عَاتِقٌ مُعْتَقٌ مِنَ الرقِّ إلاَّ ... مِنْ مُقَاسَاةِ مَغْرَمٍ أَوْ نِجَادِ[(٧)]
لِلحَمَالاتِ والحمائلِ فيهِ ... كَلُحُوبِ المَوارِدِ الأعْدادِ[(٨)]

فما رَضِي عنه حتى تشفّع إليه بخالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني، فقال في قصيدة[(٩)]:

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/٢٠٨.
(٢) اللإتْهَامُ: من أَتْهَمَ: أتى تهامة. والإنْجَادُ: من أَنْجَدَ: أتى نَجْداً. غربة النوى: بعد النية، وهي الوجه الذي ينويه المسافر. يعني أن سعاداً تتهم مَرَّةً وتنجد أخرى.
(٣) في الديوان: «بعدما أصلت»، وأصلت السيف: جرّده من غمده. والسبب في قوله: الوشاة: أن جماعة وشوا به إلى أحمد بن أبي دواد، بأنه فخر باليمنيين وملوكهم على مضر، ولم يستثن إلاَّ النبي ﷺ، فغضب ابن أبي دواد، وحجبه عنه، فقال هذه القصيدة يعتذر إليه ويمدحه.
(٤) الفرضة: المعبر. السداد: أي سَديدُ القول، وَمُصيبُه.
(٥) عور الكلام: الكلام القبيح. والأسداد: مفردها السدّ: الحاجز بين الشيئين.
(٦) في الديوان: «مُلِّئتَكَ الأحساب أَيَّ حَيَاءٍ»، ونحسبه الأصوب. وقوله: مُلِّئتَكَ: أي مُلِّيتَ منها، وُمُتِّعت بها، على الدعاء. وقوله: أي حياءٍ: يريد أي حياءٍ فيك. والحيا: المطر العام. والأزمة: السنة الشديدة. وحيّة الوادي: كناية عن الشجاعة.
(٧) العاتق: بين المنكب والعنق. الرقّ: العبودية، وفي الديوان: «من الهون»، أي: الذل والهوان. المغرم: ما يدفع عن المديون. والنجاد: حمائل السيف.
(٨) الحمالات: جمع حمالة: ما لزم من غرم دية، أو نحو ذلك. اللحوب: جمع لحب: طريق واضح. الموارد: جمع مورد: مشرب الماء. الأعداد: جمع عَدّ: النبع القديم الدائم. يمتدحه بدفع الغرامات، وحَمْلِ ديات القتلى والمظلومين، وبأنه للقاصدين مثل نبع غزير متدفق.
(٩) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

أَسْرَى طَرِيداً للحياءِ مِنَ التي زَعَمُوا، وَلَيْسَ لِقَوْلِهِ بِطَرِيدِ[١]
كُنْتَ الربيعَ، أَمامَهُ وَوراءَهُ قَمَرُ القبائلِ خالِدُ بن يزيدِ
وَغداً تَبَيَّنُ ما بَراءَةُ سَاحَتي لَو قَدْ نَفضْتَ تَهَائمِيَ وَنُجودِي[٢]
لله دَرُّكَ أيُّ بابِ مُلِمَّةٍ لم يُرْمَ فيه إليكَ بالإقليدِ[٣]
لما أَظلَّتني غَمامُكَ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الشُّهودُ عليَّ وَهْيَ شُهُودِي[٤]
مِنْ بَعْدِ ما ظنُّوا بأَنْ سيكُونُ لي يَومٌ بِزَعْمِهِم كَيَوْمِ عَبيدِ[٥]

يريد عَبِيدَ بن الأبْرَصِ الأسدي، وكان النعمان بن المنذر لقيه يوم بُؤْسِه فقتله.

بين ابن أبي دواد والحاجب أبي منصور

وكان ابن أبي دُوَاد كريماً فصيحاً جَزْلاً. قال أبو العيناء: كنا عند ابن أبي دُوَاد ومعنا محمود الورّاق وجماعةٌ من أهل الأدب والعلم؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال: إن الحاجب أبا منصور يقرأُ على القاضي السلام، ويقول: القاضي يتَعَنَّى[٦] ويَجيءُ في الأوقات؛ وقد تفاقم الأمرُ بينه وبين كاتب أمير المؤمنين، يريد ابن الزيات، فصار يضرُّنا عند قَصْدِه القاضي، وما أُحِبّ أن يتعنّى إليّ لهذا السبب؛ إذ كنت لا أصِل إلى مكافأته. فقال: أجيبوه عن رسالته، فلم نَدْرِ ما نقول، ونظر بَعْضُنا إلى بعض، فقال: أمَا عندكم جواب! قلنا: القاضي - أعزّه الله، أعلمُ بجوابه منا، فقال للرسول: اقرَأْ عليه السلام، وقل له: ما أتيتك متكثِّراً بك من قلّة، ولا متعزِّزاً بك من ذِلّة، ولا طالباً منك رُتْبةً، ولا شاكياً إليك كُرْبَة، ولكنك رجلٌ ساعدَكَ زَمَان، وحرَّكَك سلطان، ولا علم يُؤْلف، ولا أصل يُعْرَف؛ فإن جِئتك فبسلطانك، وإن تركتك فلنفسك! فَعَجِبْنَا من جَوَابِه.

---

(١) أسرى: سار ليلاً. من التي زعموا: أي من التهمة التي قرف بها، لا لخوفه، بل لأنه بريء مما اتُّهم به، وحياء منه. وفي الديوان: «وليس لرهبة بطريد».
(٢) نفضت: من نفض الطريق: إذا نظر هل فيه أحد أم لا. وأراد هنا بتهائمه ونجوده: ما ظهر وما بطن من أمره، والكلام على الاستعارة.
(٣) في الديوان: «نفسي فداؤك». الإقليد: المفتاح.
(٤) لما أظلتني غمامك: أي لما تَحقَّقْتَ أمري، صار الشهود الذين كانوا ضدي، شهوداً معي.
(٥) في الديوان: «مِنْ بَعْدِ أَنْ ظَنّوا». و «يوم بِبَغْيِهِم». والبغي: الظلم. وكان مقتل عبيد بن الأبرص الأسدي نحو ٢٥ ق.هـ/ نحو ٦٠٠ م.
(٦) يَتعنَّى: يتعب.

[من بَرَاعة خالد بن عبد الله القَسْرِيّ]

صعد خالدُ بنُ عبد الله القَسْرِيُّ[١] المنبر يومَ جمعة، فخطب وهو إذْ ذاك أميرٌ على مكة، فذكر الحجَّاج فأحْمَد طاعتَه، وأثْنى عليه خيراً، فلما كان في الجمعة الثانية وردَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك يأمرُه فيه بِشَتْم الحجّاج وذِكْرِ عيوبه، وإظهار البراءة منه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن إبليس كانَ مَلَكاً من الملائكة، وكان يُظْهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة تَرَى له بذلك فضلاً، وكان الله تعالى قد علم من غِشّه ما خَفِيَ عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه[٢] بالسجود لآدَم؛ فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم فلعنوه؛ وإن الحجاجَ كان يُظْهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنَّا نرى له بذلك فضلاً، وكان الله عزّ وجل أطْلَعَ أميرَ المؤمنين من غِلِّه وخُبْثِهِ على ما خَفِيَ عنا، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فالْعَنُوه، لعنهُ الله. ثم نزل.

أبو تمام يعتذر للمعتصم عن سابق مدحه للأفشين

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركي، واسمه خيذر بن كَاوُس، وكان من أَجلّ قُوَّاد المعتصم، وأبْلى في أمر بابك الخُرَّمِيِّ بلاءً حمده له؛ فلما سَخِطَ المعتصمُ عليه لِمَا نُسبَ إليه من سوء السيرة، وقُبْح السريرة، وأنه يخطب درجة بابك، ويريد التحصّن بموضع يَخْلَعُ فيه يَدَهُ عن الطاعة، وأظْهر القاضي أحمد بن أبي دُواد عليه أنه على غيرِ الإسلام، قال أبو تمام معتذراً للمعتصم من تقديمه واجتبائه، ولنفسه من مدحه وإطرائه[٣]:

مَا كانَ لَوْلاَ فُحشُ غَدْرَةِ خَيْذَرِ ... لِيَكُونَ في الإسلامِ عَامُ فِجَارِ[٤]

---

(١) هو أبو يزيد، وأبو الهيثم، خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرْز البَجَليُّ القَسْريُّ: أمير العراقين لهشام بن عبد الملك. ولي مكة سنة ٨٩ هـ، وكان لجده يزيد صحبة مع النبي ﷺ. وهو خطيب فصيح، وجواد كثير العطاء. قتله يوسف بن عمر الثقفي سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٤ م. بالحيرة، بأمر من هشام بن عبد الملك. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/٢٢٦).

(٢) ابتلاه: اختبره، امتحنه.

(٣) أبو تمام، الديوان: ١/٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٤) فحش: قبح الذنب. فجار: حروب في الجاهلية تُعْرَفُ بأيام الفجار، وهي أربعة أفجرة في الأشهر الحُرُم، وكانت العرب تمتنع بها عن القتال. فلما وقعت هذه الحروب بين قريش وقيس عيلان، سُمِّيت أيام الفجار، لأن أصحابها فجروا فيها، أي عصوا الله بانتهاكهم حرمة الأشهر المعظمة. وقد جعل الشاعر غدر الأفشين عصياناً لله في الإسلام، كما جعلت أيام الفجار في الجاهلية.

هَـذا الـرَّسُـولُ وكـانَ صَفْـوَةَ ربِّـهِ مِـنْ خَيْـرِ بـادٍ فـي الأنـام وقَـارِ(١)
قَـدْ خَـصَّ مـن أَهْـل النفـاقِ عِصَـابـةً وَهُـمُ أشـدُّ أذًى مـن الكُفَّـارِ(٢)
وَاخْتَـارَ مِـنْ سَعْـدٍ لَعِيـنَ بنـي أبـي سَـرْحٍ لَعَمْـرُ الله غَيْـرَ خَيـارِ(٣)
حَتَّـى استضـاءَ بِشُعْلَـةِ السُّـوَرِ التـي رَفَعـتْ لـه سِتْـراً مِـنَ الأَسْتَـارِ(٤)

ثم ذكر في هذه القصيدة أن قتل الأفشين لبابك لم يكن بِصِدْق بصيرة، ولا لصحة سريرة، فقال:

وَالهـاشمـونُ المُسْتَقِلَّـةُ ظُعْنُهُـمْ عَـنْ كَـرْبـلاَءَ بـأَثْقَـلِ الأَوْزارِ(٥)
فَشَفـاهُـمُ المختـارُ مِنْـهُ ولـم يَكُـنْ فـي دِينِـهِ المختـارُ بِـالمختـارِ(٦)

[المنافقون في عهد النبي ﷺ]

أما من ذُكِر من أهل النفاق، فقد كانوا يُظْهِرونَ غَيْرَ ما يُسِرُّون، حتى أطلع الله نبيَّه عليه السلام على أخبارهم، ونَشَرَ له مَطْوِيّ أسرارهم.

---

(١) في الديوان: «هذا النبي». البادي: ساكن البادية. والقاري: ساكن القرى، أي الحضر.

(٢) يقول: غير عجيب أن يكون الخليفة قد خدع بمكر الأفشين حتى ظهرت سريرته فانتقم منه، ذلك أن النبي ﷺ، على عظمته، قد خصَّ بالودّ والثقة جماعة من المنافقين انتحلوا الإسلام مكراً، وكانوا يؤذون المسلمين، ويسخرون بهم، ويثبطون عزائمهم.

(٣) في الديوان: «لِوَحْي الله». ولعين بني أبي سرح: هو عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح القرشي، وكان قد أسلم فاختاره النبي ﷺ كاتباً للوحي، ولم يكن أهلاً لهذا الخيار، لأنه ارتدَّ مشركاً. وقوله: غير خيار، أي لم يكن ذلك خياراً.

(٤) في الديوان: «رَفَعَتْ لَهُ سَجْفاً من الأسرارِ». والسجف: الستر.
يقول: إن سور القرآن أضاءت أنوارها للنبي ﷺ، فرفعت الستر عن هؤلاء المنافقين.

(٥) في الديوان:
وَالهـاشِمِيُّـونَ اسْتَقَلَّـتْ عِيـرُهُـمْ مِـنْ كَـرْبـلاَءَ بـأَثْقَـلِ الأَوْتـارِ
والهاشميون: أهل بيت النبي ﷺ. استقلت: رحلت. عيرهم: قافلتهم. كربلاء: موضع بالعراق، قتل فيه الإمام الحسين بن علي. والأوتار: مفردها وتر: الثأر. يقول: رحل الهاشميون عن كربلاء بعد مقتل الحسين ولهم ثارات قوية ثابتة على بني أمية.

(٦) المختار: أي المختار الثقفي الذي أخذ بثأر الحسين مظاهرة ومداجاة لتحقيق أغراضه ومآربه. و«منه» أي: من الثأر.

عبد الله بن أبي سرح

وأما ابنُ أبي سَرْح فهو عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك [بن حِسْل] بن عامر بن لؤيّ، أسلم قبل الفَتْح، واستكتبه النبيّ عليه السلام؛ فكان يكتبُ موضِعَ «الغفورِ الرحيم» العزيزِ الحكيم، وأشباه ذلك؛ فأطْلَع اللهُ عليه النبيّ عليه السلام، فهرب إلى مكة مرتدًّا؛ وأُنزل فيه: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾(١). فأهْدَر النبي ﷺ يوم الفتح دَمَه، فهرب من مكّة، فاستأمن له عثمانُ رضي الله عنه؛ فأمّنه رسولُ الله ﷺ، وهو أخو عثمان من الرَّضاعة، وأسلم فَحَسُنَ إسلامُه، وولّي مصر سنة أربع وعشرين، فأقام عليها إلى أَنْ حُصِر عثمان، ومات بِقَيْسارية الشام، ولم يدخل في شيء من الفِتَن الحجازية في ذلك الوقت.

المختار بن أبي عبيد الخارجي

وأما المختارُ الذي ذكره فهو المختار بن أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عَقدة بن عروة بن عَوف بن قَسيّ وهو ثقيف؛ وكانت لأبيه في الإسلام آثارٌ جميلة، وأختُ المختار صفية بنت أبي عبيد زوجُ ابن عمر، والمختار هو كذّاب ثقيف الذي جاء فيه الحديث، وكان يَزْعُم أنه يُوحَى إليه في قَتَلَةِ الحسين؛ فقتلهم بكل موضع، وقتل عبيد الله بن زياد، وله أسْجاع يَصْنَعُها، وألفاظٌ يبتدعها، ويزعم أنها تنزل عليه وتُوحى إليه.

وقيل للأحنف بن قيس: إنّ المختارَ يزعم أنه يُوحَى إليه! فقال: صدق، وتلا: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحِي بَعْضُهم إلى بَعْضٍ)(٢). وأخبارُه كثيرة ليس هذا موضعها.

بين أمية بن خالد وعبد الله بن الأهتم

لما هُزِم أمية بن خالد بنُ أُسَيْدٍ لم يَدْرِ الناس كيف يقولون له، فدخل عبدُ الله بن الأهتم عليه، فقال: الحمد لله الذي نظر لنا أيُّها الأمير عليك، ولم يَنْظُرْ لك علينا، فقد تعرَّضت للشهادة بِجَهْدِكَ، إلاَّ أن الله علم حاجةَ أهل الإسلام إليك، فأبقاكَ لهم بخذلان مَنْ معك. فصدر الناسُ عن كلامه.

---

(١) سورة الأنعام، آية (٩٣).

(٢) لعله أراد قول الله تعالى: ﴿وَكذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شياطين الإنسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ (سورة الأنعام، آية ١١٢).

ويتعلق بهذه المقامة فصل في غرائب التكاتب

من حمدون بن نهران لعامل عزل عن عمله

كتب حمدون بن نَهْرَان إلى عاملٍ عُزِل عن عَمَلِه:

بلغني أعزَّك اللهُ انْصِرافك عن عملك، ورجوعُكَ إلى منزلك؛ فَسُرِرْت بذلك، ولم أسْتَفْظِعْهُ وأجْزَع له؛ لعلمي بأنَّ قَدْرَكَ أجلُّ وأَعْلى من أنْ يرفعَك عملٌ تتولاَّه، أو يَضَعَكَ عَزْلٌ عنه؛ ووالله لو لم تَخْتَرْ الانصرافَ وَتُرِد الاعتزالَ لكان في لُطْفِ تدبيرك، وثُقوبِ رَوِيَّتك[١]، وحُسْنِ تأتِّيك، ما تُزِيل به السببَ الداعي إلى عَزْلِك، والباعثَ على صَرْفِكَ؛ ونحن إلى أن نهنئك بهذه الحال أَوْلى بنا من أن نعزّيك؛ إذ أردْتَ الانصرافَ فأُوتيته، وأحبَبْتَ الاعتزالَ فأُعْطِيته، فبارك اللهُ لكَ في مُنْقَلَبِكَ، وهنَّاكَ النعمَ بِدَوامها، ورزقك الشُّكْرَ الموجِبَ لها الزائدَ فيها.

من ابن مكرم لنصراني أسلم

وكتب ابن مكرم إلى نصراني أسْلَم:

أَمَّا بعد فالحمدُ لله الذي وفقَّك لشكره، وعرَّفك هدايتَه، وطهّر من الارتياب قَلْبَكَ، وما زالت مَخَايِلُك[٢] ممثّلةً لنا حقيقةَ ما وهب اللهُ فيك، حتى كأنَّك لم تَزَلْ بالإسلام مَوْسُوماً، وإن كنت على غيره مُقيماً، وكنا مؤمّلين لما صِرْتَ إليه، مُشْفِقين مما كُنْتَ عليه[٣]، حتى إذا كاد إشفاقُنا أن يَسْتَعْلِيَ رجاءنا أَتت السعادةُ بما لم تَزَل الأنفسُ تعدّ مِنْكَ؛ فأسأل اللهَ الذي أضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك أن يوفّقَك لصالح العمل، وأنْ يُؤْتِيك في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، ويَقِيَكَ عذابَ النار.

بعض ما يستحسن تركه وإن كان حلالاً

قال بعضُ الكتاب: من الحقّ ما يُسْتَحسن تَرْكُه، ويستهجَنُ عملُه[٤]، وقد يقع من

---

(١) يقال: ثقب الكوكب ونحوه: أضاء، وثقب الذِّكْرُ: اشْتُهِر، وثقب رأيه: أصاب، وثقبت النار: اتقدَّت.

(٢) المخايل: جمع مَخِيلة، وهي الظنُّ، يقال: أخطأت فيه مَخِيلتي، ويقال: ظهرت فيه مخايل النجابة: دلائلها ومَظَنَّتها.

(٣) أشفق منه: خافه وحذر منه، وأشفق عليه: عطف وخاف عليه، والشفقة: الخوف من حلول مكروه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُمْ من السَّاعة مُشْفِقُون﴾ (سورة الأنبياء، آية ٤٩).

(٤) يُسْتَهْجَنُ: يُسْتَقْبَحُ.

ذلك فيما يُحلّه الشرع، ويكرهه الأدباء؛ وكثيرٌ ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموَّ نَفْسٍ، وعلوَّ همة، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمتِه، ويولّي أمرَها غير نفسه، ورأينا من يُجَاوِز ذلك إلى ألاَّ يُنْكِحَ مستنكِحاً، وزاد به العلوُّ إلى ترْكِ ما ذِكْرُه أوْلى؛ وكنا عَرفْنَا حال إنسان تزوّجَتْ أُمه؛ فَعَظُمَ لذلك هَمُّه، وانفرد عن أوِدَّائه[1]، وتوارَى عن أصفيائه؛ حياءً من لقائهم، وكُرْهاً لتهنئتهم له أو عَزائهم، واضطرّته الوَحْشَة إلى قَصْدِ من ظنّ به منهم المُسْكَة في تحامي خطابه فيما اجتنب لأجله خُلاّنَه، وفارق بسببه إخوانَه، وتخَيّل ذلك المقصودُ أنه إنما لجأ إليه ليسلّيه؛ فأفَاض معه فيما قَدَّر أنه قصد له من المعنى الذي جعله وحيداً خوف المفاوضة.

ثم مضت الأيامُ واختلف الحال، ورجع إلى العِشْرَة وأبناء المودَّة؛ فكان عنده من لم يخاطِبْهُ أحْظَى، وفي نفسه أوْفى، وعلى قلبه أخفّ، وفي نفسه أشفّ، ونَقَم على ذلك الصديق وعَتَب؛ إذْ لكلٍّ من الناس ـ إلا من طاب مَحْتِدُه وطالَ سؤدده ـ حالٌ من الإلْف والرغبة تُحسّن المساوي، ثم حالٌ من المَلَلِ والزَّهَادة تُقبِّحُ المحاسن؛ واعتذر المتكلِّفُ من التسلية بما لم يلزمه، ولم يُرِدْه صَفيُّه، فإنه فعل ما أوجبته الأخوَّة، وحقوق الخلطة، وأسبابُ العِشرة، وانبساط المُفاوَضة؛ ودبَّتْ عقاربُ الظنون والوشاية، إلى أن خرجَا بالمُلاحاةِ[2] إلى المُعَاداة؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاوَدَة الحسنى، ومراجعة الأوْلى؛ جاهرَ هذا الماقِتُ بِقَرْعِ سِنِّ الأسَفِ على تخيل النهي والوقار من الممقوت، وظاهر الممقوت بِتَقْرِيع الماقت، بتزويج أمِّه الذي تجشّم من كلامِه فيه فضلاً، وتكلّف من خطابه عليه ما من حَسْرة خَلاَ؛ فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأوْتَار، وطلب الثَّار.

ما يقال لمن تزوجت أمه

فإن اضطرّ إلى القول في هذا المعنى أحدٌ بأمر قاهرٍ من السلطان، أو حوادثِ الأزمان، أو تطارُحِ الإخوان[3]، فليقل وليكتُبْ ما مثّلنا إن لم يَجِدْ منه بدًّا: أنت ـ بفَضْلِ الله عليك وإحسانِ تبصيره إياك ـ من أَهْل الدِّين، وخلوصِ اليقين؛ فكما لا تتَّبع الشهوة في

(١) أوِدَّاؤُهُ: أهل مودته ومحبته.
(٢) المُلاحاة: المقاولة والمخاصمة والمنازعة، وقد لحا الرَّجُلَ لَحْواً: شتمه، ولحا الرجل لَحْياً: لامه وعذله.
(٣) تَطارَحَ الإخوانُ: تحاوروا وتناظروا.

محظورٍ تُبيحه، فكذا لا تُـتَّبَعُ الأَنَفَة[١] في مُباحٍ تحظره؛ وقد اتّصَل بنا ما اختاره اللهُ والقضاءُ لذات الحقِّ عليك، المنسوبةِ ـ بعد نسبك إليها ـ إليك، مما كرههُ إباؤك الدُّنيوي لك ولها، [ورَضِيَه الحلالُ الديني له ولها]، فنحن نعزّيك عن فائت محبوبك، ونهنّئك في الْخِيرَةِ في اختيارِ القَدَرِ لك، ونسألُ الله أن يجعلها أبداً معك فيما رضيت وكَرِهْتَ، وأبَيْتَ وأتَيْتَ.

فهذا ونحوه أصْوَبُ وأسلم، إن اضطررت إليه، وتركهُ أحْسن وأحزم، إن ملكت رأيَك فيه؛ والتلطفُ للكتابة عما يُسْتَهْجَن ولا يستحسن التواجه به من أحْسنِ الأشياء وأسَدِّها.

من أبي الفضل بن العميد لمن تزوجت أمه

وكتب أبو الفضل بن العميد في بابه: الحمدُ لله الذي كشف عنا سِتْرَ الحَيْرة. وهدانا لِسَتْرِ العَوْرَة، وجَدَعَ[٢] بما شرع من الحلال أنْفَ الغَيْرَة، ومَنَع من عَضْلِ الأمهات، كما منَع من وَأْدِ البنات، استِنْزالاً للنفوس الأبيَّة، عن حَمِيَّةِ الجاهلية، ثم عرّض للجزيل من الأجر من استسلم لمواقع قضائه؛ وعوّض جزيلَ الثواب لِمنْ صبر على نازلِ بلائِه؛ وهَنَّاك الله، الذي شرح للتقوى صَدْرك، ووسَّع في البَلْوَى صَبْرَك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته، والرضا بقضيَّته، ووفّقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك، ومن عظم حقّه عليك؛ وجعل الله تعالى حدّه[٣] ما تجرَّعْتَهُ من أَنَفٍ[٤]، وكظَمْتَهُ من أَسَفٍ، معدوداً يعظِّمُ اللهُ عليه أجرك، ويُجْزِلُ به ذُخْرك؛ وقَرَن بالحاضر من امتِعَاضك لِفعْلها المنتظرَ من ارْتِمَاضِك لِدَفْنِها[٥]، وعوّضك من أَسِرَّة فَرْشِها أعوادَ نَعْشِها؛ وجعل ما يُنْعِمُ به عليك من بعدها من نعمة مُعَرَّى من نِقْمة، وما يوليك بعد قَبْضِها من منحة مُبَرأً من مِحْنَةٍ.

ألفاظ لأهل العصر في التهاني بالبنات

هنأ الله سيدي وِرْدَ الكريمة عليه، وثمّر بها أعداد النّسل الطيِّب لديه؛ وجعَلَها مُؤْذِنَةً بإخْوة برَرَة، يَعْمُرون أنْدِية الفَضْل، ويَغْبُرون[٦] بقيَّةَ الدَّهْرِ.

---

(١) الأَنفَةُ: العِزَّةُ والحَمِيَّةُ.
(٢) الجَدْعُ: القطع، وقيل: هو القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها.
(٣) الحَدُّ: البأس، ومثله الجد.
(٤) الأَنَفُ والأَنَفَةُ: الحَمِيَّة.
(٥) الارتماض: الحُزْنُ.
(٦) يغبرون: يبقون.

اتصل بي خَبَر المولودة، كرّم الله غُرّتها وأَنْبَتَها نباتاً حسناً، وما كان من تَغَيُّرك بعد اتِّضَاحِ الخبر، وإنكارك ما اختاره اللهُ لك في سابقِ القَدَر، وقد عَلِمْتَ أنهنَّ أقربُ من القلوب، وأنَّ الله تعالى بدأ بهنَّ في الترتيب، فقال جل من قائل: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[1]. وما سمّاه هبة فهو بالشكر أَوْلَى، وَبِحُسْنِ التقبُّل أَحْرَى. أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأُمِّ الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهار، والمبشرة بإِخْوَة يتناسقون، ونُجَباء يتلاحقون.

فَلَـوْ كَـانَ النِّسَـاءُ كَمِثْـلِ هَـذِي لَفُضِّلَـتِ النِّسَـاءُ علـى الـرِّجَـالِ[2]
فمـا التَّـأنِيـثُ لِاسْـمِ الشَّمْـسِ عَيْـبٌ وَلاَ التَّـذْكِيـرُ فَخْـرٌ لِلهِـلاَلِ

والله يعرفُكَ البركةَ في مَطْلَعِها، والسعادةَ في موقعها، فَادَّرع اغتباطاً، واستأنِف نشاطاً. الدنيا مؤنّثة، والرجال يخدمونها. والنارُ مؤنثة، والذكور يَعْبُدونها. والأرض مؤنثة، ومنها خُلِقت البرية، وفيها كثرت الذّرية. والسماءُ مؤنثة، وقد حُلِّيَتْ بالكواكب، وَزُيِّنَت بالنجوم الثواقب. والنفسُ مؤنَّثة، وهي قِوام الأبدان، ومِلاَكُ الحيوان. والحياةُ مؤنّثة، ولولاها لم تتصرَّف الأجسامُ ولا عُرِفَ الأنام. والجنّة مؤنّثة، وبها وُعِدَ المتقون، وفيها يَنْعم المرسلون؛ فهنأك الله ما أُوليت، وأَوْزَعك شُكْرَ ما أُعطيت، وأطَال اللهُ بقاءك ما عُرِفَ النَّسْل والوَلد، وما بقي العَصْرُ والأبد؛ إنه فعال لما يشاء.

[بعض ما لا يُمْدَح النساء به]

لابن الرومي

والتصرف في النساء ضيِّقَ النطاق، شديدُ الخِنَاق، وأكثرُ ما يُمْدح به الرجال ذمّ لهن، وَوَصْمٌ عليهن، قال ابن الرومي[3]:

مَـا لِلْحِسَـان مُسِيئـاتٍ بِنَـا، وَلَنَـا إلـى المُسِيئـاتِ طُـولَ الـدَّهْـرِ تَحْنَـانُ

---

(١) سورة الشورى، آية (٤٩).
(٢) البيتان لأبي الطيب المتنبي من قصيدة يرثي بها والدة سيف الدولة الحمداني (ديوانه: ٢/ ١٤). وفيه: «وَلو كانَ النِّساءُ كَمَنْ فَقَدْنَا».
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ١٧٥. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها إسماعيل بن بلبل وزير الموفق العباسي.

فَـإنْ يَبْحْـنَ بِعَهْـدٍ قُلْـنَ: معـذرةً إنّـا نَسينـا، وَفـي النسـوانِ نَسْيَـانُ[١]
لا نُلْـزَم الـذِّكْـرَ، إنّـا لَـمْ نُسَـمَّ بـهِ وَلا مُنحْنَـاهُ، بَـلْ لِلـذّكـر ذُكْـرانُ
فَضْـلُ الـرجـالِ عَلَيْنَـا أَنْ شِيمتَهُـمْ جُـودٌ وَبـأْسٌ وَأَحـلامٌ وَأَذْهـانُ
وَأَنّ مِنْهُـمْ وَفـاءً لا نَقُـومُ لَـهُ وَهَـلْ يَكُـونُ مع النُّقصـان رُجْحَانُ؟[٢]

للمتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي[٣]:

بِنَفْسـي الخَيـالُ الـزَّائِـرِي بَعْـدَ هَجْعَـةٍ وَقَـوْلَتُهُ لِـي: بَعْـدَنَـا الغُمْـضَ تَطْعَـمُ[٤]
سَـلامٌ فَلـولا البُخْـلُ والخَـوْفُ عِنْـدَهُ لَقُلْتُـا أبـو حَفْـصٍ عَلَيْنَـا المُسَلِّـمُ[٥]

ألا ترى أَنّ الجود، والوفاء بالعهود، والشجاعة والفطَن، وما جرى في هذا السَّنَنِ، من فضائل الرجال، لو مُدِح النساءُ به لكان نَقْصاً عليهن، وذمًّا لَهُنَّ؟

رجل يمدح زبيدة أم الأمين

ولمديح النساءِ أبواب تفرّقت في الكتاب:

أنشد رجلٌ زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور:

أَزُبَيْـدةُ بنـةُ جَعْفَـرٍ طُـوبَـى لِـزائـرِكِ المُثَـابِ
تُعْطِيـنَ مـن رِجْلَيْـكِ مـا تُعْطِـي الأكُـفُّ مـن الـرِّغـابِ

فوثب إليه الخدمُ يضربونه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيراً وأخطأ، وهو أحبُّ إلينا ممن أراد شراً فأصاب، سمع قولهم: «شِمالك أَنْدَى من يمين غيرك» فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ، أعْطُوه ما أمَّل، وعرِّفوه ما جهل.

---

(١) في الديوان: «فإنْ تُبْعَنَ».
(٢) في الديوان: «وأَنَّ فيهِمْ».
(٣) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٤٤.
(٤) الباء: للتفدية. الهجعة: الرقدة. وطعم الشيء: ذاقه. يقول: عاتبني الخيال الزائر على المنام، واتهمني بالسلوّ، لأن من فارق أحبته لا ينام.
(٥) أبو حفص: كنية الممدوح. يقول: لولا أن هذا الخيال جبان لا يزور مجاهراً، وبخيل لا يجود بمطلب، لحملني الابتهاج به على أن أظنه أبا حفصٍ يُسَلِّمُ عليَّ.

لكثير عزة

وقال كثير:

وَلما قَضَيْنا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ ... وَمَسَّحَ بالأَركانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدّت على حُدْبِ المَطَايا رِحالُنا ... وَلا يَعْلَمُ الغادي الذي هُوَ رَائِحُ
أخَذْنا بأطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأبَاطِحُ
نَقَعْنَا قُلوباً بالأحاديثِ وَاشْتَفَتْ ... بِذاك صُدُورٌ مُنْضجَاتٌ قَرَائِحُ(١)
وَلم نَخْشَ رَيْبَ الدَّهْرِ في كُلِّ حالةٍ ... وَلا رَاعَنا مِنه سَنِيحٌ وَبَارِحُ(٢)

ولكثير

وقال:

تَفرَّق أُلّافُ الحَجيج على مِنًى ... وَشتَّتَهُمْ شَحْطُ النَّوى مَشْيَ أَرْبَع
فَريقانِ مِنْهُم سَالِكٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ ... وَآخرُ مِنْهُم جَازعٌ ظَهْرَ تَضْرُعِ(٣)
فَلم أرَ داراً مِثْلَها دَار غِبطَةٍ ... وَلَهْوٍ إذا التفَّ الحَجيجُ بِمَجْمَعِ
أَقلَّ مُقيماً رَاضِياً بمكانِهِ ... وَأَكْثرَ جَاراً ظاعناً لم يُوَدَّعِ
فَأَصْبَحَ لا تلقى خِباءً عَهِدْتهُ ... بِمَضْرِبِهِ أَوْتَادهُ لم تُنَزَّعِ
فَشاقُوك لما وَجَّهوا كُلَّ وِجْهةٍ ... فَبانُوا وَخلُّوا عن مَنازِلِ بَلْقعِ(٤)

عزَّة تفضل الأحوص على كثير

ودخل كُثيّر على عزَّة يوماً، فقالت: ما ينبغي أن نَأذَن لكَ في الجلوس، فقال: ولم ذلك؟ قالت: لأني رأيت الأحوص أَلْيَنَ جانباً عند الغواني منك في شعره، وأضرعَ خدًّا للنساء، وأنه الذي يقول:

---

(١) نقع: روى. منضجات قرائح: أنضجها الحزن وَقَرَّحها.
(٢) السانح والسنيح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك، والسانح أحسن حالاً عندهم في التَّيمُّنِ من البارح.
(٣) تَضْرُع: ورد في اللسان (ضرع): تُضَارُع، وهو موضع أو جبل بنجد، وَأَضْرُع: موضع، وتضروع: بلدة.
(٤) بلقع: قفر، خالية.

يـا أيُّهـا اللاَّئمي فيهـا لأَصْرِمَهـا أَكْثَرْتَ لَو كانَ يُغْنِي عَنْكَ إكْثَارُ[١]
أَكثِرْ فَلَسْتَ مُطاعاً إذ وَشَيْتَ بِها لا القَلْبُ سَالٍ وَلا في حُبِّها عَارُ

ويعجبني قولُه:

أَدُورُ وَلَوْلاَ أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرِ بِأَبْيَاتِكُمْ مـا دُرْتُ حَيْثُ أدُورُ
وَما كُنْتُ زَوَّاراً، ولَكِنَّ ذا الهوَى إذَا لَم يُزَرْ لا بُدَّ أَنْ سَيَزُورُ
لَقَدْ مَنَعَتْ مَعْرُوفَها أُمُّ جَعْفَرٍ وَإِنِّي إلى مَعْرُوفِها لَفَقِيرُ

ويعجبني قوله:

كَمْ مِنَ دَنِيٍّ لَهَا قَدْ كُنْتُ أَتْبَعُهُ وَلَوْ صَحَا القَلْبُ عَنْهَا كانَ لي تبَعَا
لا أَستطيعُ نُزُوعاً عَنْ مَحَبَّتِها أَوْ يَصْنَعُ الحبُّ بي فَوْقَ الذي صَنَعا[٢]
أَدْعُو إلى هَجْرِها قلبي فَيَتْبَعُني حَتَّى إذا قُلْتُ هـذا صَادِقٌ نَزَعَا
وَزَادَني رَغْبَةً في الحبِّ أَنْ مَنَعتْ، أَشْهَى إلى المَرْءِ مِنْ دُنياهُ ما مُنِعَا

وقوله:

إذا أَنْتَ لم تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ ما الهوَى فَكُنْ حَجَراً من يابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا[٣]
وَما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وَتَشْتَهِي وَإنْ لام فيهِ ذو الشّنَانِ وَفَنَّدَا[٤]
وَإنِّي لأَهْوَاها وأَهْوَى لِقاءَهَا كما يَشْتَهِي الصَّادِي الشَّرابَ المُبَرَّدا[٥]
عَلاقةُ حَبٍّ لَجَّ في سَنَنِ الصِّبا فأَبْلَى، وَما يَزْدَادُ إلاّ تَجَدُّدا[٦]

هذان البيتان أَلحقهما العُتبي وغيرُه بشعر الأحوص، وأنشدها أبو بكر بن دريد لأعرابي، فقال كثير: قد والله أجاد فما استقبحت من قولي؟ قالت: قولك:

---

(١) الصَّرْمُ: القطيعة والهجر.
(٢) نزع عن الصِّبَى والأمر، ينزعُ نُزُوعاً: كَفَّ وانتهى.
(٣) الجَلْمَدُ والجُلْمودُ: الصَّخْرُ.
(٤) الشَّنَآنُ والشنآن: البُغْض.
(٥) الصادي: الظمآن.
(٦) السَّنَنُ: الطريق، وَسَنَنُ الطريق: نَهْجُهُ. والسَّنَنُ: الطريقة، ومنه يقال: استقام فلان على سَنَنٍ واحد.

وَكُنْتُ إذا ما جِئْتُ أَجْلَلْنَ مَجْلِسي ... وَأَظْهَرْنَ مِنّي هَيْبَةً لا تَجَهُّمَا
يُحَاذِرْن منّي غَيْرَةً قَدْ عَرَفْنَها ... قَديماً، فلا يَضْحَكْنَ إلاّ تَبَسُّمَا
تَراهُنَّ إلا أَنْ يُخالِسْنَ نظرةً ... بِمُؤْخِرِ عَيْنٍ أَو يُقَلِّبْنَ مِعْصَمَا
كَواظِمَ لا يَنْطِقْنَ إلا مَحُورَةً ... رَجيعَةَ قَوْلٍ بَعْدَ أَن يَتَفَهَّمَا
وَكُنَّ إذا ما قُلْنَ شَيْئاً يُسِرُّهُ ... أَسَرَّ الرِّضَا في نَفْسِه وَتَحَرَّمَا

وقولك:

وَدِدْتُ وبَيْتِ اللهِ أَنَّكِ بَكْرَةٌ ... هِجانٌ، وَأَنّي مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ[1]
كِلانَا بِه عُرٌّ فَمَنْ يَرَنا يَقُلْ ... على حُسْنِها جَرْباءُ تُعْدِي وَأَجْرَبُ[2]
نَكُون لِذِي مالٍ كثيرٍ مُغَفَّلٍ ... فَلا هُوَ يَرْعَانَا ولا نَحْنُ نُطْلَبُ
إذا ما وَرَدْنا مَنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ ... عَلَيْنَا فما نَنْفَكّ نُؤْذَى وَنُضْرَبُ[3]

وَيْحك! لقد أردتَ بي الشقاءَ، أفما وجدت أمنية أَوْطأ من هذه؟ فخرج خَجِلاً.

[من الأماني]

لأبي صخر الهذلي

وقد تمنَّى بمثل هذه الأُمنية الفرزدق. وأغرب من هذا قول أبي صَخْر الهذلي:

تَمَنَّيْتُ من حُبّي عُلَيَّةَ أَنَّنا ... على رَمَثٍ في البَحْرِ لَيْسَ لنا وَفْرُ[4]
على دَائمٍ لا يَعْبُرُ الفُلْكُ مَوْجَهُ ... وَمِنْ دوننا الأَهوالُ واللُّجَجُ الخُضْرُ
فَنَقْضِيَ هَمَّ النَّفْسِ في غَيْرِ رِقْبَةٍ ... وَيُغْرِقُ مَنْ نَخْشَى نَميمَتَهُ البَحْرُ

وقيل: الأمل رفيق مُؤْنس؛ إن لم يُبلغك فقد أَلْهاكَ.

---

(١) هجان: بيضاء. المُصعب: الفحل. وفي رواية:
أَلا لَيْتَنا يا عَزّ كُنَّا لِذي غِنًى ... بَعِيرَيْنِ نَرْعَى في الخَلاءِ وَنَعْزُبُ
(٢) العُرُّ: الجَرَبُ.
(٣) وفي رواية:
إذا ما وَرَدْنَا مَنْهَلاً هَاجَ أَهْلُهُ ... إِلَيْنَا فَلا نَنْفَكُّ نُرْمَى وَنُضْرَبُ
(٤) الرَّمَثُ: خشب يُضَمُّ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، وَيُرْكَبُ في البحر.

وقال مسلم بن الوليد(١):

وَأَكْثَرُ أَفعالِ الليالي إِساءةٌ ... وَأَكْثَرُ ما تُلْقَى الأَماني كَوَاذِبَا

وقال آخر:

مُنًى إنْ تَكُن حَقًّا تَكُنْ أَحْسنَ المُنَى ... وَإلاّ فَقَدْ عِشْنَا بها زَمناً رَغْدَا
أَمانِيُّ مِنْ لَيْلَى حِسَانٌ كَأَنَّما ... سَقَتْنِي بِها لَيْلَى على ظَمَإٍ بَرْدا

وقال آخر:

رَفَعْتُ عن الدنيا المُنَى غير حُبِّها ... فلا أَسْأَلُ الدُّنْيا ولا أَسْتَزيدُها

وقيل لأعرابي: ما أمتع لذَّات الدنيا؟ فقال: ممازحةُ المحب، ومحادثةُ الصديق، وأمانيّ تقطع بها أيامك، وأنشد:

عَلِّلِيني بمَوْعِدِ ... وَامْطُلِي ما حَيِيتِ بِهْ
وَدَعِيني أَفوزُ مِنْـ ... ـكِ بِنَجْوَى تَطَلُّبِهْ
فَعَسَى يَعْثُرُ الزَّمَا ... نُ بِحظِّي فَيَنْتَبِهْ

[بعض أخبار كثير وعزّة]

حمق كثير

وكان كثير بنُ عبد الرحمن بن أبي جُمْعة الخزاعي ـ ويعرف بعزّة، على حِدَّةِ خاطرِه، وجَوْدَةِ شعره ـ أحْمَق النَّاس.

دخل عليه نفرٌ من قريش وهو عليل يهزؤون به، قال بعضهم: فقلت له: كيف تجدُك؟ قال: بخير، هل سمعتُم الناسَ يقولون شيئاً؟ فقلت: نعم، سمعتُهم يقولون: إنك الدجال. فقال: والله لئن قلتَ ذلك إني لأجِدُ في عيني اليمنى ضَعْفاً منذ أيام.

(١) هو أبو الوليد، مسلم بن الوليد الأنصاري، المعروف بصريع الغواني: شاعر غَزِلٌ مُجيد، من شعراء الدولة العباسية، من أهل الكوفة. ويقال: إن الرشيد كتب شعره بماء الذهب. توفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٧١٢؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٣٤).

كان رافضياً

وكان رافضيًّا يَدِين بالرَّجْعَة، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية[1]، والروافض يزعمون أنه دخل في شِعْب باليمن في أربعين من أصحابه، ولا بُدَّ من ظهوره، وفي ذلك يقول[2]:

أَلَا إنَّ الأئمـةَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ وُلَاةَ الْحَـقِّ أَرْبَعَـةٌ سَـوَاءُ
عَلِـيٌّ والثَّـلاَثَـةُ مِـنْ بَنِيـهِ هُـمُ الأَسْبَـاطُ لَيْـسَ بِهِـمْ خَفَـاءُ
فَسِبْـطٌ سِبْـطُ إيمَـانٍ وَبِـرٍّ وَسِبْـطٌ غَيَّبَتْـهُ كَـرْبَـلاَءُ
وَسِبْـطٌ لا يَـذُوقُ الْمَـوْتَ حَتَّـى يَقُـودَ الْخَيْـلَ يَقْـدُمُهَـا اللِّـوَاءُ
تَغَيَّـبَ لا يُـرَى عَنْهُـمْ زَمَـانـاً بِـرَضْـوَى عِنْـدَهُ عَسَـلٌ وَمـاءُ

وكان خلفاءُ بني أمية يعلمون ذلك منه، ويَلْبَسُونه عليه.

بين كثير وعبد الملك بن مروان

دخل يوماً على عبد الملك بن مروان فقال: نشدتك بحقِّ علي بن أبي طالب، هل رأيت أَعْشَقَ منك؟ فقال: يا أمير المؤمنين؛ لو سألتَني بحقّك لأخبرتُك، نعم، بينا أنا أسيرُ في بعض الفَلَوات إذا أنَا برجل قد نَصَب حَبَائِلَه، فقلت له: ما أَجْلَسك ها هنا؟ قال: أهلكني وأهلي الجوع، فنصبت حَبَائلي لأُصِيبَ لهم ولنفسي ما يكفينا سحابة يَوْمِنا، قلت: أرأيْتَ إن أقمتُ معك فأَصَبْنا صيدا، أَتَجْعَلُ لي منه جزءًا؟ قال: نعم، فبينما نحن كذلك إذْ وقَعَتْ ظبيةٌ، فَخَرجْنَا مُبْتَدِرين، فأسرع إليها فحلّها وأَطلقها؛ فقلتُ: ما حملك على هذا؟ قال: دخلتني لها رِقَّةٌ لِشبْهِها بِلَيْلَى، وأنشأ يقول:

أيسا شِبْـهَ لَيْلَـى لا تُـرَاعِـي فَـإنَّنـي لَـكِ اليَـوْمَ مِـنْ وَحْشِيَّـةٍ لَصَـدِيـقُ
أَقُـولُ وقَـدْ أَطلقتُهـا مِـنْ وَثـاقِهـا لأَنْـتَ ـ لِلَيْلَـى ـ مـا حَيِيـتَ طَلِيـقُ

وروى الكلبي وابن دَأْب أنه لمّا حَلَّها قال:

اذْهَبِـي فـي كَـلاَءَةِ الـرَّحْمٰـنِ أَنْـتِ مِنّـي فـي ذِمَّـةٍ وأَمَـانِ

---

(١) هو أبو القاسم، محمد بن الحنفية، ويقال: أبو عبد الله، محمد بن علي بن أبي طالب، وأمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة، من بني حنيفة بن لجيم، وكان محمد عالماً فاضلاً شجاعاً. توفي سنة ٨١ هـ/ ٧٠١ م.

(٢) الأبيات في الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٦٧ (فصل الكيسانية).

لا تَخَافِي بِأَنْ تُهَاجِي بِسُوءٍ مَا تَغَنَّى الحمَامُ فِي الأَغْصَانِ
تَرْهَبِينِي وَالجِيدُ مِنْكَ لِلَيْلَى وَالحَشَا والبُغَامُ والعَيْنَانِ؟[1]

لقيس بن الملوح

وقال قيس بن الملوح:

رَاحُوا يَصِيدُون الظِّبَاء وَإِنَّنِي لأَرى تَصَيُّدَهَا عليَّ حَرَامَا
أَشْبَهْنَ مِنْكِ مَحَاجِراً وَسَوَالِفاً فَأَرَى عليَّ لها بذاك ذِمَامَا
أَعْزِزْ عليَّ بِأَنْ أَرُوعَ شَبِيهَهَا أَو أَنْ يَذُقْنَ على يَدَيَّ حِمَامَا

من جيد شعر كثير

ومن جيد شعر كثيّر:

وَكَانَتْ لِقَطْعِ الْحَبْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا كَنَاذِرَةٍ نَذْراً فَأَوْفَتْ وحَلَّتِ[2]
فَقُلْتُ لها: يا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إذا وُطِّنَتْ يَوْماً لها النَّفْسُ ذَلَّتِ[3]
وَلم يَلْقَ إنسانٌ مِنَ الحبِّ مَيْعَةً تَعُمُّ وَلا غَمَّاء إلاَّ تَجَلَّتِ[4]
أَبَاحَتْ حِمًى لم يَرْعَهُ الناسُ قَبْلَها وَحَلَّتْ تِلاَعاً لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتِ[5]
هَنِيئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعزَّةَ من أَعْرَاضِنا ما اسْتَحَلَّتِ[6]
أَسِيئي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[7]
وَواللهِ ما قَارَبْتُ إلا تَبَاعَدَتْ بِهَجْرٍ، وَلا اسْتَكْثَرْتُ إلاَّ أَقَلَّتِ
وَما مَرَّ مِنْ يومٍ عليَّ كَيَوْمِها وَإِنْ عَظُمَتْ أَيامُ أُخْرَى وَجَلَّتِ

---

(١) بُغَامُ الظبية: صوتها، وقد بغمت الظبية: صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.
(٢) الحبل: الوصل. فأوفت وحلت: خرجت من عهدته لما أوفته.
(٣) وُطِّنَت: مُهِّدت وَأُعِدَّت. وذلت: سهلت ولانت. ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يقول: «لو كان هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس».
(٤) ميعة الشيء: أوله. تجلت: انكشفت. وفي رواية: «ولا عمياء».
(٥) الحمى هنا: قلب الشاعر الذي احتله.
(٦) مُخَامر: مُخَالط.
(٧) مقلية: من القِلى، وهو البغض. وتَقَلَّت: تبغضت.

فيـا عَجبـا لِلقَلْـبِ كيـف اعْتِـرَافُـهُ ... وَلِلنفـس لمـا وُطِّنَـتْ كَيْـفَ ذَلَّـتِ(١)
وَإنّـي وَتَهيـامـي بِعَـزَّة بَعْـدَمـا ... تَخلَّيْـتُ مِمَّـا بَيْنَنـا وَتَخَلَّـتِ(٢)
لَكَـالمُـرْتَجـي ظِـلَّ الغَمـامـةِ، كُلَّمـا ... تَبَـوَّأَ مِنْهـا لِلمَقِيـلِ اضْمَحلَّـتِ(٣)

كان كثير قصيراً دميماً

وكان كثير قصيراً دميماً، ولذلك قال:

فَـإِنْ أَكُ مَعْـرُوقَ العِظَـامِ فَـإِنَّنـي ... إذا مـا وَزَنْـتُ القَـوْمَ بـالقـومِ وَازِنُ(٤)

ودخل كثير على عبد الملك بن مروان في أول خلافته، فقال: أنتَ كثيّر؟ فقال: نعم، فاقتحمه، وقال: تَسْمَع بالمَعيْدِيّ لا أنْ تَراه(٥)! فقال: يا أميرَ المؤمنين، كلُّ إنسان عند محله رَحْبُ الفِناء، شامخُ البناء، عَالِي السَّناء، وأنشد يقول:

تَـرَى الـرَّجُـلَ النَّحيـفَ فَتَـزْدَرِيـهِ ... وَفـي أَثْـوابِـهِ أَسَـدٌ هَصُـورُ
وَيُعْجِبُـكَ الطَّـريـرُ إذا تَـراهُ ... فَيُخْلِـفُ ظَنَّـكَ الـرَّجُـلُ الطَّـريـرُ(٦)
بُغَـاثُ الطيـر أَطْـوَلُهـا رِقَـابـاً ... وَلَـم تَطُـلِ البُـزاةُ ولا الصُّقـورُ(٧)
خَشَـاشُ الطيـرِ أَكثَـرُهـا فِـراخـاً ... وأمُّ البـازِ مِقْـلاَةٌ نَـزُورُ(٨)

---

(١) وُطِّنَتْ: مُهِّدَتْ وَأُعِدَّت. واعترافه: اصطباره، يقال: نزلت به مصيبة فَوُجِد عَرُوفاً: أي صبوراً، والعارف: الصابر.
(٢) تَخَلَّيْتُ: تَرَكْتُ.
(٣) الغمامة: السحابة. تبوأ: نزل. المقيل: النوم نصف النهار. اضمحلت: انقشعت. يشبه تعلقه بعزّة بعد الفراق بظل سحابة، سرعان ما تنقشع، ويبقى هو في حَرِّ الشمس.
(٤) قبل هذا البيت:
رَأَتْ رَجُـلاً أَوْدَى السُّقَـامُ بِجِسْمِـهِ ... فَلَـمْ يَبْـقَ إِلاَّ مَنْطِـقٌ وَجُنَـاجِـنُ
وبعده:
وَإِنّـي لِمـا اسْتَـوْدَعْتِنـي مِـنْ أَمـانَـةٍ ... إذا ضيّـعَ الأَسْـرارَ يـا عَـزّ دَافِـنُ
(٥) وفي رواية: «أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه».
(٦) الطرير: ذو الهيئة الحسنة.
(٧) بُغاث الطير: شِرارها.
(٨) خَشاش الطير: العصافير ونحوها. والمقلاة: التي لا يعيش لها ولد. والنزور: قليلة الأولاد.

ضِعَافُ الأُسْدِ أَكْثَرُها زَئِيراً وَأَصْرَمُها اللَّواتِي لا تَزِيرُ[(١)]
وَقَدْ عَظُمَ البعيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ فَلَمْ يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البَعِيرُ[(٢)]
يُنَوَّخُ ثم يُضْرَبُ بالهَرَاوَى فَلا عُرْفٌ لَدِيهِ وَلا نَكِيرُ[(٣)]
يُقَوِّدُه الصبيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَصْرَعُهُ على الْجَنْبِ الصَّغِيرُ[(٤)]
فما عِظَمُ الرجالِ لَهُمْ بِزَيْنٍ وَلكِنْ زَيْنُهم حَسَبٌ وَخِيرُ[(٥)]

فقال: قاتله الله! ما أَطْوَلَ لسانَه، وأمد عِنَانه، وأَوْسع جَنانه؛ إني لأحسبه كما وصف نفسه[(٦)].

[قولهم في الطول والقِصَر]

لشاعر قديم

وأنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم:

وَعاذلةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي وَلم يَغْتَمِرْنِي قَبْلَ ذاك عَذُولُ[(٧)]
تَقول: اتَّئِدْ لا يَدْعُك الناس مُمْلِقاً وَتُزْرِي بِمَنْ يا بْنَ الكرامِ تَعُولُ[(٨)]
فَقُلْتُ: أَبَتْ نفسٌ عليَّ كريمةٌ وَطارقُ ليلٍ عِندَ ذاك يَقُولُ
أَلم تَعْلَمِي يا عَمْرَكِ الله أَنني كَرِيمٌ على حِينِ الكرامُ قليلُ
وَأَنِّيَ لا أَخْزَى إذا قِيلَ مُمْلِقٌ سَخِيٌّ، وأَخْزَى أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ
فَلا تَتْبَعِي النفسَ الغَوِيَّةَ وانظُرِي إِلى عُنْصُرِ الأَحْسَابِ كَيْفَ يَئُولُ

(١) لا تزير: لا تزأر.
(٢) اللبُّ: العقل.
(٣) يُنَوَّخُ: يُبْرَكُ.
(٤) وفي رواية: «وينحره على الترب الصغير».
(٥) وفي رواية: «كرم وخير».
(٦) وفي رواية: «فقال عبد الملك بن مروان: لله درّه! ما أفصح لسانه، وأضبط جنانه، وأطول عنانه! والله إني لأظنه كما وصف نفسه».
(٧) اغتمره: عَدَّهُ غمراً، وهو قليل التجربة.
(٨) مُملق: فقير. تزري: تُسيء.

وَلا تَـذْهَبَـنْ عَيْنَـاكِ فـي كُـلّ شَـرْمَـحٍ لَـهُ قَصَـبٌ جُـوفُ العِظـام أَسِيـلُ[١]
عَسَـى أَنْ تَمَنَّـى عِـرْسُـه أنَنـي لهـا بـهِ، حيـنَ يَشْتَـدُّ الـزمـانُ، بَـدِيـلُ[٢]
إذا كُنْـتَ فـي القَـوْمِ الطِّـوالِ فَطُلْتَهُـمْ بِعَـارفَـةٍ حَتَّـى يُقَـالَ طَـويـلُ[٣]
وَلا خَيْرَ فـي حُسْنِ الجُسـومِ وَطُـولِها إذا لـم تَـزِنْ حُسْـنَ الجُسـوم عَقُـولُ
فَكَـائـنْ رَأَيْنَـا مِـنْ فُـروعٍ طَـويلَـةٍ تَمـوتُ إذا لَـمْ تُحْيِهِـنَّ أُصـولُ
فَـإلاّ يَكُـنْ جِسْمِـي طَـويـلاً فَـإنَّنـي لَـهُ بِـالفِعَـال الصَّـالحـاتِ وَصُـولُ
وَلـم أَرَ كَـالمعـروفِ: أَمَّـا مَـذَاقُـه فَحُلْـوٌ، وَأَمَّـا وَجْهُـهُ فَجَميـلُ

لابن الرومي

وقال ابن الرومي[٤]:

وَنَصِيـفٍ مـن الـرجـالِ نَحيـفٍ رَاجـح الـوَزْنِ عنـد وَزْنِ الـرجـالِ[٥]
فـي أُنـاسٍ أُوتـوا حُلـومَ العَصَـافيـ ـرِ فَلَـمْ تُغْنِهِـمْ جُسُـومُ البِغَـالِ[٦]

أخذه من قول حسان بن ثابت، وقال له بنو الديان الحارثيون: قد كنَّا ونحن نَطُول بأجسامنا على العرب حتى قلت:

دَعُـوا التَّخَـاجُؤَ وَامْشُـوا مِشْيَـةً سُجُحـاً إنَّ الـرجـال ذَوُو قَـدّ وَتَـذْكيـرِ[٧]
لاَ بَـأسَ بِـالقَـوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَـمٍ جِسْـمُ البغـالِ وَأَحْـلاَمُ العَصَـافِيـرِ

فتركتنا لا نرى أجسامَنا شيئاً.

---

(١) الشرمح: الرجل الطويل. والأسيل: الأملس.
(٢) عِرْسُهُ: زوجته.
(٣) العارفة: المكرمة.
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٢٣٨/٥. والبيتان من قصيدة يمدح بها علي بن يحيى النديم ويعاتبه، وهي أطول قصيدة لامية له.
(٥) في الديوان: «مِنْ قَضيفٍ»، والقضيف: الدقيق العظيم، القليل اللحم.
(٦) يقول: في أناس ذوي عقول صغيرة في أجسام كبيرة.
(٧) التخاجؤ: فتح الصدر عند المشي تيهاً وكبرياءً.

لعنترة العبسي

والعربُ تمدح الطول، وتثني عليه، وقال عنترة بن شداد[١]:

بَطَلٌ كأَنَّ ثِيَابَه في سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْت لَيْس بِتَوْأَمِ[٢]

قوله «ليس بتوأم» يريد ليس ممن زُوحم في الرَّحم فضعف، كما قال الشعبي، وقد دخل على عبد الملك بن مروان، فجعل ينظرُ إليه، وكان الشعبي قد وُلِدَ توأماً مع أخيه، فكان نحيفاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إني زُوحمت في الرحم، وقال:

وَلمَّا التقى الصفَّانِ وَاخْتَلفَ القَنَا نِهَالاً، وَأَسْبَابُ المَنَايا نِهَالُها
تبيَّن لِي أَنَّ القَماءةَ ذِلَّةٌ وَأَنَّ أَعِزَّاءَ الرِّجَالِ طِوالُها[٣]

لأبي نواس

وقال أبو نواس[٤]:

وَكُنَّا إِذا ما الحَائِنُ الْجَدُّ غَرَّهُ سَنَى بَرْقِ غَادٍ أَو ضَجيجِ رعَادِ[٥]
تَرَدَّى له الفَضْلُ بن يَحْيَى بن خَالد بِماضِي الظُّبَى يَزْهَاهُ طُولُ نِجادِ[٦]

---

(١) عنترة بن شدّاد، الديوان: ص ٢٧.

(٢) البطل: الفارس الشجاع. السرحة: الشجرة العظيمة الطويلة. وقوله: «يحذى نعال السبت»، أي: يلبس نعال الملوك المدبوغة بالقرظ.

(٣) قَمأَ الرجل وغيره، وَقَمُؤَ قَمْأَةً وَقَماءً وَقَماءَةً: ذَلَّ وَصَغُر وصار قميئاً، ورجل قميء: ذليل، وقمأت المرأة: صغر جسمها، وقمأت الماشية: سمنت، والقماءة هنا: صِغَرُ الجسم أو قِصَرُه.

(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٤٧٢، والأبيات من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي (ت سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م).

(٥) الحائن الجد: يقال: حان الرجل إذا دنا موته، والمصدر: الحين. والجد: الحظ. والسنى: الضياء، قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَى بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾، (سورة النور، آية ٤٣). والرعاد: جمع للرعد.

(٦) الظُّبَى: جمع ظبة، وهي من السيف حدُّه. يزهاه: يرفعه ويعليه. والنجاد: حمائل السيف، وفي امتداح الطول قال مروان بن أبي حفصة في الخليفة المهدي:

قَصُرَتْ حَمائِلُهُ عَلَيْهِ فَقَلصَتْ وَلَقَدْ تَأَنَّقَ قَيْنُهُ فَأَطالَها

وقالت الخنساء في أخيها صخر:

طَويلُ النِّجادِ رَفِيعُ العِمَادِ سَادَ عَشِيرَتَهُ أَمْرَدَا

(الأصفهاني، الأغاني: ١٥/٦٨).

أَمَـامَ خَمِيـسٍ أُرْجُـوانٍ كَـأَنَّـهُ قَمِيـصٌ مَحُـوكٌ مِـنْ قَنـاً وَجِيَـادِ[1]

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله[2]:

وَمَلْمُـومَـةٌ زَرَدٌ ثَـوْبُهَـا وَلَكِنَّـهُ بِـالْقَنَـا مُخْمَـلُ[3]

[عوْد إلى أخبار كثير عزة]

كثير عند عبد العزيز بن مروان وهو مريض

ودخل كثيّر على عبد العزيز بن مروان وهو عَليل، وأهلُه يتمنَّون أَنْ يتبسم، فقال: لولا أن سرورَك لا يتمّ بأن تَسْلَم وَأَسْقَمُ لدعوتُ اللهَ أن يصرف ما بك إليّ، ولكني أسألُ الله أيها الأمير العافيةَ لك ولي في كَنَفِك؛ فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول:

وَنَعُـودُ سَيِّـدنـا وَسيِّـدَ غَيْـرِنـا لَيْـتَ التَّشكّـي كـانَ بِـالعُـوَّادِ[4]

لَـوْ كـانَ تُقْبَـلُ فِـدْيـةٌ لَفَـدَيْتُـهُ بِـالمُصْطَفَـى مِـنْ طـارِفـي وَتِـلاَدِي[5]

نقد ابن سلام الجمحي بعض شعر كثير

قال محمد بن سلام الجمحي[6]: قال أبي: ذاكرْتُ مروان بن أبي حَفْصَة شِعْرَ جرير

---

(١) الخميس: الجيش، قال طرفة بن العبد:

وَأَيِّ خَمِيـسٍ لا أَفَـأْنـا نِهَـابَـهُ وَأَسْيَـافُنَـا يَقْطُـرْنَ مِـنْ كَبْشِـهِ دَمَـا

والأرجوان: الأحمر.

(٢) المتنبي، الديوان: ٢/ ٦٤. والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني، وقد ضُرِبت له خيمة عظيمة، فهبت ريحٌ شديدة فأسقطتها.

(٣) الملمومة: المجموعة، يريد الكتيبة من الجيش. والزَّرَدُ: حلق الحديد (خبر مقدم عن ثوبها). والقنا: الرماح. والمخمل: ما جعل له خمل، وهو هدب القطيفة ونحوها.

(٤) العُوَّادُ: الزائرون في المرض.

(٥) المصطفى: المختار. الطريف: المال الحديث المُكْتَسب. والتالد: المال الموروث عن الآباء والأجداد.

(٦) هو أبو عبد الله، محمد بن سلاَّم بن عبيد الله بن سالم البصري، الجمحي: أديب، لغوي، إخباري، راوية، حافظ. قدم بغداد، وأقام بها إلى أن توفي سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م. من آثاره: «طبقات الشعراء» و «بيوتات العرب» و «غريب القرآن» وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١٠/ ٤١).

والفرزدق وكثّير، فذهب إلى تقديم كثّير، وجعل يُطْرِيه ويقول: هو أمدحهم للخلفاء، فقلت: أمِنْ جودة مدحه للخلفاء قوله لعبد الملك بن مروان:

تَرَى ابنَ أبي العاصي وَقَدْ صُفّ دُونهُ ثَمانونَ ألفاً قَدْ تَوافَتْ كُمولُها
يُقَلِّب عَيْنَيْ حَيّةٍ بِمفَازَةٍ إذا أَمكَنَتْهُ شَدّةٌ لا يُقِيلُها

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً، وجعله يقلّب عيني حية.

وقوله:

وَإنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ هُوَ الذي غَزَا كَامناتِ الودِّ مني فَنَالَها

زعم أن أمير المؤمنين استعطفَه حتى غَزَا كامناتِ صَدْرِه.

وقوله لعبد العزيز بن مروان:

وَما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلّ ضِغْني وَتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنها ضِبَابي[(١)]
وَيَرْقيني لَكَ الحاوونَ حَتّى أَجَابَك حَيّةٌ تَحْتَ الحِجَابِ[(٢)]

زعم أن عبد العزيز تَرَضَّاه، واحتال له ورَقَاه، حتى أجابه؛ أكَذَا تُمْدَح الملوك؟ فأسْكَته.

فصول قصار

من كان له من نَفْسِه واعظ، كان من الله عليه حافظ. العبد حرٌّ إذا قَنِع، والحُرُّ عبدٌ إذا طمع. الأماني تَخْدَعُك، وعند الحقائق تَدَعَك. إذا كان الطمعُ هلاكاً، كان اليأسُ إدراكاً. ليس يُعَدُّ حكيماً، من لم يكن لنفسه خَصِيماً. تعزَّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه، بقلة ما يصحبك إذا مُنِحْتَه. تجرَّعْ مَضَضَ الصبر تطفىء نار الضرّ. الحكمة حِفْظُ ما كلفت، وتَرْكُ ما كفيت. الصَّبْرُ عن محارِم الله، أيْسر من الصبر على عذاب الله.

شذور لأهل العصر في معانٍ شَتَّى

من كلام قابوس بن وشمكير

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وَشْمَكير شمس المعالي في أثناء رَسَائِله: بِزَنْد الشفيع

(١) الضِّغْنُ: الحقد الدفين. والضِّبابُ: جمع ضَبّ، وهو دويبة من الحشرات، أحرش الذنب خشنه، ولونه إلى الصُّحْمَة، وهي غُبْرَةٌ مُشْرَبةٌ سواداً، وإذا سمن أصفرّ صدره.
(٢) الحاوون: جمع حاوٍ، وهو الذي يصطاد الحيات، ويروّضها، ويلاعبها.

تُورِي نار النجاح، ومن كف المفيض يُنْتَظر فوز القِداح، الوسائل أقدام ذوي الحاجات، والشفاعات مفاتيحُ الطَّلِبَات. العفو عن المجرم من مُوجبات الكرم، وقَبُولُ المعذرة من محاسن الشِّيَم. وبالقوادم والخوافي قُوَّةُ[١] النجاح، وبالأسنة والعَوَالي عمل الرماح. الدنيا دار تغرير وخداع، وملتقى ساعةٍ لوداع، والناس مُتَصرّفون بين كل وِرد وصدَر، وصائرون خبَراً بعد أثر. غايةُ كل متحرّك إلى سكون، ونهايةُ كل متكون ألاَّ يكون، وآخر الأحياء فَنَاءٌ، والجزع على الأموات عَنَاء، وإذا كان ذلك كذلك، فلِمَ التهالك على الهالك؟. حَشْوُ الدهر أحزان وهموم، وصَفْوُه من غير كدر معدوم. إذا سمح الدهر بالْحِبَاءِ[٢]، فأبْشر بوَشْكِ الانقضاء، وإذا أعار، فاحسبه قد أغار. الدهر طعمان حلو ومرّ، والأيام ضربان عُسْر وَيُسْر. لكل شيء غاية ومنتهى، وانقطاع وإن بلغ المدى. تَرْكُ الجواب، داعيةُ الارتياب، والحاجة إلى الاقتضاء، كسوف في وجه الرجاء. همّ المنتظر للجواب ثقيل، والمدى فيه وَإن كان قصيراً طويل، النجيب إذا جرى لم يشقّ غباره[٣]، وإذا سرى لم تلحق آثاره. ومن أيْنَ للضباب صَوْب السحاب[٤]، وللغراب هُوِيُّ العقاب. وهيهات أن تَكتسب الأرض لطافة الهواء، ويصير البدر كالشمس في الضياء.

* * *

للثعالبي يصف شمس المعالي

وقد ترجم عن شمس المعالي أبو منصور الثعالبي في كتاب ألّفه له؛ قال في أوله: أمَّا على أثر حَمْدِ الله الذي هو أوّلُ كتابه، وآخرُ دعوى ساكني دَارِ ثَوَابه، والصلاةِ على خِيرته من بَرِيَّته، وعلى الصَّفْوة من ذرّيته، فإنَّ خيرَ الكلامِ ما شغل بِخِدْمَة مَنْ جمع اللهُ له عِزَّةَ المُلْكِ إلى بَسْطَةِ العلم، ونورَ الحكمة إلى نفوذِ الحكَم، وجَعَلَه مُميَّزاً على ملوكِ العصر،

(١) القوادم: جمع قادم، وهو من الإنسان رأسه، وأكثر ما يُتَكَلَّمُ به جمعاً، والقوادم أرجع ريشات من مقدم جناح الطائر، الواحدة قادمة، والمناكب اللواتي بعدهن إلى أسفل الجناح، والخوافي: ما بعد المناكب. ومن أمثالهم: «ما جعل القوادم كالخوافي»، وقيل: قوادم ريش الطائر: ضد خوافيها.

(٢) الحباء: العطاء، قال الفرزدق:

خَالي الذي اغْتَصَب المُلوكَ عَطاءَهُمْ ... وَإِليه كانَ حِبَاءُ جَفْنَةَ يُنْقَلُ

(٣) النجيب: الكريم، ومن الإبل: القوي، الخفيف، السريع. ولا يُشَقُّ له غُبار: لا يُسْبَق.

(٤) الصَّوْبُ: نزول المطر، أو المطر نفسه.

ومدبِّري الأرض وَوُلاة الأمر، بخصائص من العَدْلِ، وجلائلَ من الفضل، ودقائقَ من الكَرم المَحْضِ، لا يدخلُ أيسرُها تحت العادات، ولا يُدْرَك أقلُّها بالعبارات؛ ومحاسنُ [سِيَرِ] الأنام، تَحْرُسها أسِنَّةُ الأقلام، وتدرسها ألسنةُ الليالي والأيام، وهذه صفة تُغْنِي عن تشبيه الموصوف لاختصاصه بمعناها، واستحقاقه إياها، واستئثاره على جميع الملوك بها، وَلعِلْم سامعها ببديهة السّماع أنها للأميرِ، شمسِ المعالي، خالصةٌ، وعليه مقصورة، وبه لائقة، وعن غيره نَافِرة؛ إذ هو ـ بِمُعَاينة الآثار، وشهادة الأخيار، وإجماع الأولياء، واتّفاقِ الأعداء ـ كافلُ المجد، وكافي الْخَلْق، وواحدُ الدهر، وغُرَّة الدنيا، وَمَفْزَعُ الوَرَى[١]، وحسَنةُ العالم، ونُكْتَةُ الفلَكِ الدائر؛ فبلّغه اللهُ أقصى نهايةِ العمر، كما بلّغه أقصى غايةِ الفخر؛ وملَّكهُ أزِمَّة الأمر، كلما ملَّكهُ أعِنَّة الفضل؛ وأدام حُسْنَ النظر للعباد والبلاد، بإدامة أيامه التي هي أعْيادُ الدَّهْرِ، ومواسم اليُمن والأمْنِ، ومطالع الخير والسَّعْدِ، وزاد دولَتَهُ شباباً وَنُمُوًّا، كما زادهُ في الشرف عُلوًّا، حتى تكون السعاداتُ وَفْدَ بابه، والبشائر قِرَى سَمْعِهِ، والمسارّ غِذَاءَ نفسه، ويترامَى به الإقبالُ إلى حيث لا يَبْلُغه أمل، ولا يَقْطَعه أجل.

* * *

نَحَافى قوله: «وهذه صفة تُغْنى عن الموصوف» إلى قول أبي الطيب يَرْثِي أُختَ سيف الدولة[٢]:

يـا أُخْـتَ خَيْـرِ أخٍ يـا بِنْـتَ خَيْـرِ أَبِ ... كِنـايـةً بِهِمَـا عَـنْ أَشْـرَفِ النَّسَـبِ[٣]
أُجِـلُّ قَـدْرَكِ أَنْ تُسْمَـيْ مُـؤَبَّنَـةً ... وَمَـنْ دَعَـاكِ فقَـدْ سَمَّـاكِ لِلْعَـرَبِ[٤]

* * *

(١) مَفْزَعُ الورى: مَلْجَؤُهُم وَملاَذُهُمْ.
(٢) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٢٨.
(٣) أي: يا أخت سيف الدولة، ويا بنت أبي الهيجاء، وهو المراد بأشرف النسب، فكنى عن ذلك، ونصب كناية على المصدر، كأنه قال: كنيت كِنايةً.
(٤) في الديوان:
أُجِـلُّ قَـدْرَكِ أَنْ تُسْمَـيْ مُـؤَبَّنَـةً ... وَمَـنْ يَصِفْـكِ فَقَـدْ سَمَّـاكِ لِلْعَـرَبِ
ومؤبنة: حال من الياء في «تُسْمَيْ»، والتأبين: الثناء على الميت. يقول: أنت أجل من أن أعرفك باسمك، لأنَّ وصفكِ يغني عن تسميتك.

مدائح في شمس المعالي ابن وشمكير

وفي شمس المعالي يقول الأمير أبو الفضل الميكالي:

لا تَعْصِيَنْ شَمْسَ العُلاَ قابوسا ... فَمَنْ عَصَى قَابوسَ لاَقَى بُوسَا[(١)]

وله يقولُ بديعُ الزمان في قصيدة نظمها في تضاعيف رسالةٍ موشحة:

إنَّ مَنْ كُنْتَ مِنْ مُنَاه بِمَرْأَى ... وَتَعَدَّاك سَيِّىءُ الاقتراحِ
بَيْنَ بِشْرٍ يَرُدُّ غائِضَ جَاهي ... وَقَبُولٍ يُعِيدُ رِيشَ جنَاحِي[(٢)]
وَبِسَاطٍ وَرَدْتُ مَشْرَعَةَ الأُنْـ ... ـسِ بِهِ وَادَّرَعْتُ بُرْدَ النَّجَاحِ[(٣)]
فَاقْضِ أَوْطَاراً التَقَتْ وَالمَعَالِي ... في نِظَامٍ من النُّهَى وَتَصاحِ[(٤)]
مَلِكٌ دُونَه تَقَطَّعُ أَبصا ... رُ الليالي يَوْمَا نَدَى وَكِفَاحِ
مَلِكٌ لو يَشاءُ مَدَّ على النَّجْـ ... ـمِ رِوَاقاً وَرَدَّ وَفْدَ الرِّيَاحِ[(٥)]
تَارةً في خُشُونَةِ الدَّهْرِ تَلْقَا ... هُ وَطَوْراً في حُسْنِ ذات الوِشَاحِ
مَلِكٌ كُلَّما بَدَا تَقِفُ الأَفْـ ... ـلاكُ عُجْباً بِه وَفَرْطَ ارْتِيَاحِ
هَكَذا تَكُونُ المعالي ... طُرُقُ الجِدِّ غَيْرُ طُرْقِ المِزاحِ

وهي طويلةٌ، كتبتها على طريق الاختيار.

[من رسائل بديع الزمان]

رقعة بديع الزمان إلى شمس المعالي، وقد ورد حضرته:

لم تَزَلِ ٱلآمالُ ـ أطال اللهُ بقاء الأمير السيد شمس المعالي، وأدام سلطانه ـ تَعِدُني هذا اليوم، والأيامُ تَمْطُلني بألسنةِ صروفِها، على اختلافِ صنوفها، بين حُلْوٍ ٱسترقَّني، ومرٍّ استخفَّني، وشر صار إليّ، وخيرٍ صِرْتُ إليه، وأنا في خلال هذه الأحوال أَذْرَعُ الآفاقَ فأكون

(١) البوس: البؤس.
(٢) غائض: من غاض الماء غَيْضاً ومغيضاً: نقص أو غار وذهب، أو قلَّ ونَضَبَ.
(٣) ادَّرَعَ البُرْدَ: لبسه.
(٤) الأوطار: الحوائج، المفرد: وطر.
(٥) الرُّواقُ والرِّوَقُ: سقف في مقدم البيت، وقيل: سِتْرٌ يُمَدُّ دون السقف، وقيل: رواق البيت: مقدمه، والجمع أروقة.

طوراً مَشْرِقاً للمشرق الأقصى، وطوراً مَغْرِباً للمغرب، ولا مطمح إلاّ حضرته الرفيعة، وسُدَّته المريعة، ولا وسيلة إلا المنزع الشّاسع، والأمل الواسع؛ وقد صرت ـ أَطال اللهُ بقاء الأمير مولانا ـ بين أَنيابِ النوائب، وتجشَّمْت هَوْلَ الموارد، وركبت أَكْتَافَ المكاره، وَرَضَعْتُ أَخْلافَ العوائق، ومسحت أطْرافَ المراحل، حتى حضرت الحَضْرَة البهيّة أو كِدْتُ، وبلغت الأُمنية أو زِدْت، وللأمير السيد في الإصغاء إلى المجد، والبَسْطِ من عنان الفَضْل، بتمكين خادِمه من المجلس يَلْقاه بِقَدَمه، والبساط يَلْثِمُه بفمه، تَفضُّله، فلهُ الرأْيُ العالي إن شاء الله.

وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أنْ يزفَّ إليه ما أنشأه، فبعث به وكتب إليه:

مَرْحَباً بسلامِ الشيخ سيّدي ومولاي أَطال اللهُ بقاه، ولا كالمَرْحَبِ[1] بِطَلْعَته؛ وقد وصَلت تحيَّتُه فشكرتها، وعِدَتُه الجميلةُ بالحضورِ غدا فانتظرتها؛ ودعوتُ اللهَ أن يَطْوِيَ ساعاتِ النهار، ويزجّ الشمسَ في المَغَار، ويُقَرِّب مسافةَ الفَلَكِ الدَّوَّار، ويَرْفَع البركةَ من سيره، ويجهز الحركةَ إلى دوره؛ ويُسِرّني بِوَفْدِ الظلام وقد نزل، ثم لم يَلْبَثْ إلاّ ريثما رَحَل؛ وقد بعثتُ بما طلب سمعاً لأَمره وطاعة، والنسخة أسقمُ من أجْفَانِ الغَضْبَانِ، والشيخ سيدي ـ أدام اللهُ عزّه ـ يُرْكِضُ قلمه في إصلاحها، وحبَّذا هو في غدٍ، وقد طلع كالصبح إذا سطع، والبرق إذا لمع:

يَا مَرْحَباً بِغَدٍ وَيَا أَهْلاً بِهِ ... إن كانَ إلمامُ الأَحِبَّةِ في غَدِ[2]

وله إلى أبي الطيب سهل بن محمد يسأله أَن يصله بأبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد:

لو كان للكرم عن جَنابِ الشيخ مُنْصَرَفٌ لانْصَرَفْتُ، أو لِلأمل مُنْحَرَف إلى سِواهُ لانْحَرَفْتُ، أو للنُّجْح بابٌ سواه لَوَلجْتُ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوّجتُ، ولكنْ أَبَى الله أنْ يعقدَ إلا عليه الخنصر، أو يَتَحلَّى إلا بفواضله الدهر، ولا يزال كذا يَتَّسِم المجدُ بِسِمَتِهِ،

(١) المَرْحَبُ: يقال في تحية الوارد: أهلاً وَمَرْحَبا، أي صادفت أَهلاً ومَرْحَباً، وقولهم: مرحباً وأهلاً، أي أتيت سَعَةً، وأتيت أَهلاً.

(٢) البيت في الأصل:

لا مَرْحَباً بِغَدٍ وَلاَ أَهْلاً بِهِ ... إنْ كان تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ في غَدِ

قاله النابغة الذبياني في قصيدته بالمتجردة زوجة النعمان بن المنذر. (ديوانه: ص ٣٨).

ويجذب العلاءَ بهمّته، ويُسْعِدُ الدين بنظره، والدنيا بجماله، وغلامُه أَنا لو استعار الدَّهْر لساناً، واتّخذ الريح تَرجُمَانا، لِيُشِيع إنعامَه حق الإشاعة، لقَصُرَتْ به يَدُ الاستطاعة، فليس إلا أن يلبس مكارمه صافيةً سابغة، ويَرِدَ مشارِعَه صافيةً سائغة، ويحيل الجزاء على يد قصور، والشكر على لسان قَصِير؛ ثم إنَّ حاجاتي، إذا لم يَعْرَ من قلائدِ المجدِ نَحْرُها، ولم يَعْطَلْ من حَلْيِ المجدِ صَدْرُها، كبر مَهْرُها، وعَزَّ كفؤها، ولم أجد لها إلا واحداً أَخْضَر الجلدة في بيت العرب، أو ماجداً يملأُ الدَّلْو إلى عقد الكَرَب(١). وهذه حاجةٌ أنا أزفّها إلى الشيخ الإمام حَرَسَ اللهُ مُهْجَته، وأَسُوقها منظومة من الصَّدْرِ إلى العَجُز، كما يُساقُ الماءُ إلى الأرض الجُرُز(٢)؛ وأنا من مُفْتَتَح اليوم إلى مُخْتَتَمِه، ومن قَرْنِ النهار إلى قَدَمِه، قاعد كالكُرْكِيِّ(٣)، أو الديك الهِنْدِيّ، في هذا الأُدْحِيّ(٤)، يمرُّ بي أُولو الحلى والحلل، ويجتاز ذوو الخَيَل والخَوَل(٥)، ومَا أنا والنَّظر إلى ما لا يَلِيني، والسؤال عما لا يَعْنِيني، واليوم، لما افتضضنا عُذْرَةَ الصباح(٦)، ملأتُ جفوني من مَنْظَرٍ ما أَحْوَجَه إلى عَيْبٍ يَصْرِفُ عَيْنَ كمالِه، عن جماله، فقلت لمن حضر: مَنْ هذا؟ فأخذوا يُحرِّكون الرؤُوسَ استظرافاً لحالي، ويتغامزون تعجُّباً من سؤالي، وقالوا: هذا الشيخُ الفاضلُ أبو إبراهيمَ إسماعيلُ بن أحمد، فقلت: حَرَسَ اللهُ مُهْجَته، وأدام غِبْطَته؛ فكيف الوصولُ إلى خِدْمَته، وأنَّى مَأْتَى معرفته؟ قالوا: إن الشيخ الإمام ـ أدام الله تأييده ـ يضربُ في مودَّتِهِ بالقِدْحِ المُعَلَّى، ويأْخذ في معرفته بالحظِّ الأعلى، فإن رأى الشيخ ـ أطال الله بقاه ـ أن تُجْعَل عنايتُه حَرْفَ الصلة، وتفضّله لاَمَ المعرِفَة، فعَلَ، إن شاء الله.

[من أخبار البرامكة]

قال الرشيد ليحيى بن خالد: يا أبت، إني أردتُ أن أجعل الخاتم الذي في يد الفَضْل إلى جعفر، وقد احتشمت منه فاكْفِنِيه.

---

(١) الماجد: الشَّريفُ الخَيِّرُ. والكَرَبُ: الحَبْلُ يلي الماء. قال الفضل بن العباس اللهبي:

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِل مَاجِداً يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَب

(ابن منظور، لسان العرب: سجل).

(٢) الجُرُزُ: الأرض لا تنبت شيئاً.

(٣) الكركي: طائر يقرب من الوَزِّ، أبتر الذنب، رمادي اللون، يأوي إلى الماء أحياناً.

(٤) الأدحي: المكان من الرمل، تبيض فيه النعام.

(٥) الخَيَلُ: الخُيَلاءُ. والخَوَلُ: الإماء والعبيد والخدم.

(٦) افتض العذرة: افترعها.

فكتب إليه يحيى: قد أمر أميرُ المؤمنين ـ أَعْلَى الله أمره ـ أن يحوّل الخاتم من يمينك إلى شمالك.

فأجاب الفضل: قد سمعتُ ما قاله أمير المؤمنين في أخي، وقد اطّلعت على أمره، وما انقلَبَتْ عني نِعمةٌ صارت إليه، ولا عَزَبت[١] عني رتبةٌ طلعَتْ عليه.

فقال جعفر: لله أخي! ما أَنْفَسَ نفسه، وأَبْيَن دلائل الفضل عليه، وأقوى مُنَّة العَقْل فيه، وأَوْسع في البلاغة ذَرْعَه، وأَرْحَبَ بها جنابه. يُوجب على نفسه ما يجب له، ويَحْمِلُ بكرمه فوق طاقته.

ثمامة بن أشرس يصف جعفر بن يحيى

وذُكِر جعفرُ بن يحيى في مجلس ثُمَامَةَ بن أشرس[٢] فقال: ما رأيتُ أحداً من خَلْقِ الله كان أَبْسَطَ لساناً، ولا أَلْحَن بحجة، ولا أقدر على كلام، بِنَظْمٍ حَسَنٍ، وألفاظٍ عذبة، ومَنْطِقٍ فصيح؛ من جعفر بن يحيى، كان لا يتوقف، ولا يتحبس، ولا يَصِلُ كلامه بِحَشْوٍ من الكلام، ولا يُعِيدُ لفظاً ولا معنى، ولا يَخْرجُ من فنٍّ إلى غيره، حتى يبلغ آخِرَ ما فيه؛ وكان لا يرى شيئاً إلا حكاه، ولا يَحْكي شيئاً إلا كان أكثر منه، ولا يمُرُّ بذهنه شيء إلا حفظه، وكان إذا شاء أضحك الثَّكْلَى، وأَذْهَل الزاهد، وخشَّن قَلْبَ العابد.

قلت: فكيف كانت معرفته؟ قال: كان من أعلم الناس بالخبر الباهر، والشعر النادر، والمثل السائر، والفصاحة التامة، واللسان البسيط.

سهل بن هارون يصف يحيى وابنه جعفر

قال سهل بن هارون، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفراً، فقال: لو كان الكلام مُتصَوَّراً دُرًّا، ويُلْقِيه المنطق جَوْهراً، لكان كلامَهُمَا، والمُنْتَقَى من ألفاظهما. ولقد غَبَرت معهما، وأدْرَكْتُ طبقة المتكلمين في أيامهما، وهم يَرَوْن البلاغة لم تُسْتَكْمَلْ إلا فيهما، ولم تَكُنْ مقصورةً إلا عليهما، ولا انقادت إلا لهما. وإنهما لَلُبابُ الكرم، عِتْقَ منظرٍ، وجودَةَ مَخْبرٍ،

---

(١) عزبت: بعدت، ولعله أراد: «غربت» لتناسب قوله: «طلعت».

(٢) ثُمامةُ بن أشرس (أبو معن النميري): أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد، واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء، وله أخبار ونوادر، يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغيره. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٧/ ١٤٥).

وسهولةَ لفظٍ، وجزالة منطق، ونزاهة نفس، وكمال خصال؛ حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهما، والمأثور من خصائصهما جميعَ أيامِ مَنْ سواهما من لَدُنْ آدم إلى أن يُنْفَخَ في الصور، ويُبْعثَ أهل القبور ـ حاشا أنبياء الله الكرام، وسَلَفِ عباده الصالحين ـ لما باهت إلا بهما، ولا عَوَّلت في الفخر إلا عليهما، ولقد كانا ـ مع تهذيب أخلاقهما، ومَعْسُول مَذَاقهما، وسنا إشْرَاقهما، وكمالِ الخيرِ فيهما ـ في محاسن المأمونِ كالنُّقْطَة في البحر، والْخَرْدَلِ في القَفْرِ.

توقيع لجعفر بن يحيى

وَوَقَّع جعفرُ بن يحيى لرجلٍ اعتذر عنده من ذنب: قد قَدُمَتْ طَاعَتُك، وظهرت نصيحتك، ولا تَغْلِبُ سيئةٌ حَسَنتين.

وَوَقَّعَ ـ وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطّه ـ: الخطُّ خَيْطُ الْحِكْمة، يُنْظَمُ فيه منثورُها، وَيُفَصَّلُ فيه شذُورُها.

واختصم رجلان بحضرته، فقال لأحدهما: أنت خليّ، وهذا شَجِيّ؛ فكلامك يَجْرِي على بَرْدِ العافية، وجوابُه يَجْرِي على حَرِّ المصيبة.

بين جَعفر بن يحيى ومروان بن أبي حفصة

ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده:

أَبُو الفضل سَبَّاقُ الأَضَامِيم جَعْفَرُ ... أَبَرّ فما تَرْجُو الْجِيادُ لِحَاقهُ
أَشَار بما عَنْهُ الخلافةُ تَصْدُرُ ... وَزِيرٌ إذا نابَ الخلافةَ حَادِثٌ

فقال جعفر: أنشدني مرثيتك في مَعْنِ بن زائدة، فأَنْشَدَهُ:

أَقَمْنَا باليمامة أَوْ نَسِينا ... مُقاماً ما نُرِيدُ به زَوَالا
وَقُلْنَا: أَيْنَ نَذْهَبُ بَعْدَ مَعْنٍ ... وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فلا نَوَالا؟[1]
وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهم لِمَعْنٍ ... إِلى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ ـ عِيَالا

حتى فرغ من القصيدة، وجعفر يُرْسِل دموعَه على خدّيه، فقال: هل أثابك على هذه المرثية أحدٌ من أهْلِ بيته وولده؟ قال: لا، قال: فلو كان معن حيًّا، ثم سمعَهَا منك، كم

(١) النوال: العطاء.

كان يُثيبك عليها؟ قال: أربعمائة دينار، قال: فإنَّا كنَّا نظنّ أنه لا يَرْضَى لك بذلك، وقد أمرنا لك عن مَعْن ـ رحمه الله ـ بالضّعف مما ظَنَنتَهُ، وزِدْناك مثلَ ذلك؛ فاقْبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تخرج، فقال مروان ـ يذكر جعفراً وما سمح به عن معن ـ:

نَفَحْتَ مُكَافِئاً عَنْ جُودِ مَعْنٍ ... لَنَا فيما تَجُودُ به سِجَالا(١)

فَعجَّلْتَ العَطِيَّةَ يابْنَ يَحْيَى ... لِنَادبِهِ وَلم تُرِدِ المِطَالا(٢)

فَكَافأَ عَنْ صَدَى مَعْنٍ جَوَادٌ ... بِأَجْوَدِ رَاحةٍ بَذَلَتْ نَوَالا(٣)

بَنَى لك خَالِدٌ وَأَبُوك يَحْيَى ... بِناءً في المكارِمِ لَنْ يُنَالا

كَأَنَّ البَرْمَكِيّ لِكُلِّ مالٍ ... تَجُودُ به يَدَاهُ يُفِيدُ مَالا(٤)

* * *

أخذ هذا من قول زهير:

تَرَاهُ إذَا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

من قصيدة لزهير بن أبي سلمى

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها(٥):

وَذِي نِعْمَةٍ تَمَّمْتها وَشكَرْتَها ... وَخَصْمٍ يكادُ يَغْلِبُ الحقَّ بَاطِلُهْ(٦)

دَفعْتُ بِمَعْرُوفٍ من الحقِّ صائبٍ ... إذا ما أَضَلَّ القائلينَ مَفَاصِلُهْ(٧)

---

(١) نفحه بالمال نَفْحاً: أعطاه، قال ابن ميادة:

لَمَّا أَتَيْتُكَ أَرْجُو فَضْلَ نَائِلِكُمْ ... نَفَحْتَنِي نَفْحَةً طَابَتْ لَهَا العَرَبُ

(ابن منظور، لسان العرب: نفح). والسجال: هو من قولهم: الحرب بيننا سجال، أي: إنا نُدَالُ عليهم مرَّةً، ويُدالُ علينا أخرى، وأصله: أن المستقين بسجلين من البئر، يكون لكل واحد منهما سَجْلٌ، أي دَلْوٌ ملآى بالماء.

(٢) المِطَالُ والمطل: تأخير الوفاء بالوعد وغيره، أو ما شابهه.

(٣) الجواد: الكريم.

(٤) يفيد هنا: بمعنى يأخذ.

(٥) زهير بن أبو سلمى، الديوان: ص ٦٤ ـ ٧٠، والقصيدة في مدح حصن بن حذيفة بن بدر.

(٦) يقول: تنعم فتتمم ما أنعمت به وإذا أسديت إليك نعمة شكرتها.

(٧) مفاصله: هو من قولهم: طبق المفصل، أي أن الجزار الحاذق إذا أراد القطع أصاب المفصل. يقول: إذا لم يهتد الناطقون لمفاصل الكلام ومقاطعه، فأنت مُهْتَدٍ إليها.

وَذي خَطَلٍ في القول يَحْسَبُ أَنهُ مُصيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائِلُهْ[١]
عَبأْتُ له حِلماً، وَأكرمتُ غَيْرَهُ وَأَعْرَضْتُ عنهُ وهو بادٍ مَقَاتِلُهْ[٢]
وَأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمامَةٌ على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ نَوافِلُهْ[٣]
غَدَوْتُ عليه غُدْوَةً فَرأَيْتُهُ قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّرِيمِ عِواذِلُهْ[٤]
يُفَدِّينَهُ طَوْراً، وطَوْراً يَلُمْنَهُ وأعْيَا فما يَدْرِينَ أينَ مَخاتِلُهْ[٥]
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَريمٍ مُرَزَّإٍ جَمُوحٍ على الأمرِ الذِي هُوَ فَاعِلُهْ[٦]
أَخِي ثِقَةٍ لا يُذْهِبُ الخَمْرُ مَالَهُ وَلكنّهُ قَدْ يُذْهِبُ المالَ نائِلُهْ[٧]

تعليق عليها لقدامة بن جعفر

قَال أبو الفرج قُدامَةُ بن جعفر[٨]، في معنى أبيات زهير الأولى[٩]: لما كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس، لا من طريقِ ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهلُ الألباب من الاتّفاق في ذلك، إنما هي العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة، كان القاصد للمَدْح بهذه الأربعة مُصِيباً، وبما سواها مخطئاً؛ وقد قال زهير:

(١) الخَطَلُ: الخطأ في القول. ما يلمم به: ما يحضره من الكلام.
(٢) عبأت له حلماً: أي حلمت عليه، وصفحت عنه، وقد بدت لك مقاتله.
(٣) الأبيض: أراد به رجلاً نقياً من العيوب، وهو ممدوحه. الفَيَّاض: الكثير العطاء. والمعتفون: طالبو المعروف. تغبُّ تنقطع. فواضله: عطاياه.
(٤) الصريم: جمع الصريمة: رملة تنقطع عن بقية الرمل. عواذله: اللاتي يعذلنه على إنفاق المال. وفي الديوان: «بكرت عليه».
(٥) يفدينه: يقلن له فديناك. أَعيا: أي أعجزهن، فما يدرين كيف يخدعنه ليستنزلنه حتى يقبل عذلهن.
(٦) في الديوان: «فَأَقْصَرْنَ منه». واقصرن: كَفَفْنَ. والمرزأ: المصاب بماله.
(٧) أَخي ثقة: أي يُوثَق بما عنده من الخير لما عُلم من جوده وكرمه. وفي الديوان: «لا تُتْلِفُ الخَمْرُ مَالَهُ».
(٨) هو أبو الفرج، قدامة بن جعفر بن قدامة: بياني، حكيم، منطقي، إخباري، أديب، كاتب، ناقد. أسلم على يد المكتفي بالله العباسي، وسكن البصرة، ثم انتقل إلى بغداد، وجالس المبرد وثعلباً وغيرهما. توفي سنة ٣٣٧ هـ/ ٩٤٨ م. من آثاره: «سر البلاغة في الكتابة» و«نقد الشعر» و«كتاب الخراج» وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٨/١٢٨).
(٩) انظر رأي قدامة بن جعفر مفصلاً في «العمدة»: ٢/١٣١ ـ ١٣٢.

أَخِـي ثقـةٍ لا يُتْلِـفُ الخَمْـرُ مَـالَـهُ وَلكنّـهُ قـد يُهْلِـكُ المـالَ نـائِلُـهْ

فوصفه بالعفَّة لقلةِ إمعانه في اللذات، وأنه لا يُنْفِد فيها ماله، وبالسَّخاء لإهلاك ماله في النوال، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات، وذلك هو العدل، ثم قال:

تَـراهُ إذا مـا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّـلاً كـأنَّـك تُعْطِيـهِ الـذي أَنْـتَ سَـائِلُـهْ

فزاد في وَصْفِ السخاء بأنه يَهَشّ ولا يلحقه مَضَضٌ ولا تَكَرُّهٌ لِفعْله ثم قال:

فَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فـي الحروب وَمِثْلُـهُ لإِنْكَـار ضَيْـمٍ أو لأَمْـرٍ يُحَـاوِلُـهْ[١]

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل؛ فاستوفى ضروبَ المدحِ الأربعة، التي هي فضائلُ الإنسان على الحقيقة، وزاد الوفاءَ، وإن كان داخلاً في الأربعة؛ فكثير من الناس لا يعلم وَجْهَ دخوله فيها حيث قال: «أخي ثقة» فوصفه بالوفاء؛ والوفاءُ داخلٌ في هذه الفضائل التي قدّمناها.

وقد يتفنَّنُ الشعراءُ فيعدّون أنواعَ الفضائل الأربع وأقسامها، وكلُّ ذلك داخلٌ في جملتها؛ مثل أن يذكروا ثقابَةَ المعرفة[٢]، والحياءَ، والبيانَ، والسياسة، والصَّدْعَ بالحجَّة، والعلم، والحلم عن سفاهة الْجَهَلَة؛ وغير ذلك مما يَجْري هذا المجرى، وهو من أقسام العقل. وكذكرهم القناعة، وقلّة الشَّرَه، وطهارة الإزار؛ وغير ذلك أيضاً من أقسام العفَّة. وكذِكْرِهم الحماية، والأخْذَ بالثَّأرُ، والدفاع، والنّكايَة، والمهابة، وقَتْلَ الأقران، والسير في المَهَامِه[٣] والقفار؛ وما يشاكلُ ذلك، وهو من أقسام الشجاعة؛ وَكَذِكْرِهم السماحة، والتغابن[٤]، والانظلام، والتبرّع بالنائل[٥]، وإجابة السائل، وقِرَى الأضياف؛ وما جانس هذه الأشياء، وهو من أقسام العدل.

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام: يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة: الصبرُ على الملماتِ، ونوازِلِ الخطوب، والوفاءُ بالوعود. وعن تركيب العقل مع

---

(١) الضَّيْـمُ: الظلم، وضامه حَقَّهُ ضَيْماً: نقصه إياه.
(٢) ثقابة المعرفة: ضَوْءُها، قدحها، من ثقبت النار تثقب ثُقُوباً وثقابةً: اتقدت، وتوهجت، وأضاءت.
(٣) المهامه: جمع مهمه، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.
(٤) التغابن: أن يغبن القوم بعضهم بعضاً، والغُبْنُ في البيع والشراء: الوَكْسُ والمخادعة والغشّ.
(٥) النائل: العطاء.

السخاء: إنجازُ الوعد، وما أشبه ذلك. وعن تركيب العقل مع العفة: التنزه والرغبةُ عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، وما أشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع السخاء: الإخلاف، والإتلاف، وما أشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع العفّة: إنكارُ الفواحش، والغيرةُ على الحُرَم. ومن السخاء مع العفة: الإسعاف بالقوت، والإيثارُ على النفس، وما شَاكَلَ ذلك. وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَطٌ بين طرفين مذمومين.

لمحمد بن مناذر في البرامكة

وقد قال أبو جعفر محمد بن مناذر[1] لما حجَّ الرشيد مع البرامكة:

أَتَانَا بنو الأملاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... فيا طِيبَ أَخْبارٍ، ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
لَهُمْ رِحْلَةٌ في كلِّ عَامٍ إلى العِدا ... وَأُخْرَى إلى البيتِ العَتِيقِ المُشَهَّرِ
فَتُظْلِمُ بغدادٌ، ويَجْلو لنا الدُّجَىٰ ... بمكةَ ما حَجُّوا ثَلاثَةُ أَقْمُرِ
إذا نزلوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ ... بِيَحْيَى وَبِالفَضْلِ بن يَحْيَى وَجَعْفَرِ
فَمَا خُلِقَتْ إلاّ لِجُودٍ أَكفُّهُمْ ... وَأقدامُهُمْ إلاّ لأَعْوَادِ مِنْبَرِ
إذا رَاضَ يحيى الأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ ... وَحَسْبُك مِن راعٍ لَه وَمُدبِّرِ
تَرَى الناسَ إجلالاً لَه وَكأَنَّهُمْ ... غَرانِيقُ ماءٍ تحت بازٍ مُصَرْصِرِ[2]

[مُثُل من التجنيس]

لأبي الفضل الميكالي

قطعة من شعر الأمير أبي الفضل الميكالي في طَرفٍ أخذ بطرف من التجنيس مستطرف في ضروب من الغزل، قال:

لَقدْ راعني بَدْرُ الدُّجَىٰ بِصُدُودِهِ ... وَوَكَّلَ أَجفاني بِرَعْي كَواكِبِهْ[3]

---

(١) هو أبو جعفر، وقيل: أبو ذريح، محمد بن مناذر، مولى بني صبير بن يربوع: شاعر مقدم فصيح، عالم باللغة والأدب. نشأ واشتهر بالبصرة، وكان في أول أمره متعبداً، ثم تهتك وهجا الناس. توفي سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١١٩؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٨/ ١٠٣).

(٢) الغرانيق: جمع غرنوق، وهو طير مائي أسود. والبازي: الصقر.

(٣) راعني: أخافني، أفزعني. الدُّجى: سواد الليل مع غيم.

فيا جَزَعي، مَهْلاً عَسَاهُ يَعودُ لي وَيا كَبِدي، صَبْراً على ما كَواكَ بِهْ[1]

وقال:

مَواعيدُه في الفَضْلِ أَحلامُ نائمٍ أُشَبِّهُهَا بالقَفْرِ أَوْ بِسَرَابِهِ
فَمَنْ لي بِوَجْهٍ لو تَحَيَّرَ في الدُّجَى أَخُو سَفَرٍ في ليلِ غَيْمٍ سَرَى بِهِ[2]

وقال:

صِلْ مُحِبّاً أَعْيَاهُ وَصْفُ هَواهُ فَضَنَاهُ يَنُوبُ عن تَرْجُمَانِهْ[3]
كُلَّمَا رَاقَهُ سِوَاكَ تَصَدَّتْ مُقْلَتَاهُ بِدَمْعِهِ تَرْجُمَانِهْ[4]

وقال:

يا ذا الذي أَرْسَل مِنْ طَرْفِه عَليَّ سَيْفاً قَدَّني لو فَرَا[5]
شِفاءُ نفسي مِنْكَ تَخْمِيشَةٌ تَغْرِسُ في خَدِّك نَيْلَوْفَرَا

وقال:

يا مُبْتَلَى بِضَنَاهُ يَرْجُو رَحْمةً مِنْ مالكٍ يَشْفيهِ من أَوْصَابِهِ[6]
[أوصاكَ سِحْرُ جفونِهِ بِتَسهُّدٍ وتبلّدٍ، فَقبلتَ ما أَوْصَى بِهِ]
اصْبِرْ على مَضَضِ الهوى فَلَرُبَّما تَحلُو مَرارةُ صَبْرِهِ أَوصَابِهِ

وقال:

كَتَبْتُ إليه أَسْتَهْدِي وِصَالاً فَعلَّلني بِوَعْدٍ في الجوابِ
أَلاَ ليتَ الجوابَ يكونُ خَيْراً فَيُطْفِىءُ ما أَحاطَ مِنَ الجوَى بي

(١) الجزع: قِلَّةُ الصبر على المكروه والشرّ.
(٢) سرى به: سار به ليلاً.
(٣) أَعياه: أتعبه. والضنى: المرض. والتَّرْجُمانُ والتُّرْجُمانُ: المُفَسِّرُ، يقال: تَرْجَمَهُ وَتَرْجَمَ عنه.
(٤) راقه: أعجبه. والرَّجْمُ: القتل، وأصله الرمي بالحجارة حتى الموت، والرجم: اللعن، والطرد، والسّبُّ والشَّتْمُ.
(٥) القَدُّ: القَطْعُ المستأصل، والشقُّ طولاً. وَفَرَى الشيء فَرْياً وَفَرَّاهُ: شَقَّهُ وأفسده.
(٦) الأوصاب: جمع وصب، وهو الوجع أو المرض.

وقال:

إنْ كُنْتَ تَأنَسُ بالحبيبِ وَقُرْبهِ ... فَاصْبِر على حُكْمِ الرقيبِ وَدارِهِ
إنَّ الرقيبَ إذا صَبرْتَ لِحُكْمِهِ ... بَوَّاكَ في مَثْوَى الحبيبِ وَدَارِهِ[١]

وقال:

شَكوتُ إليه ما أُلاقي فَقال لي: ... رُوَيْداً، ففي حُكْمِ الهوَى أَنْتَ مُوتَلي[٢]
فَلو كانَ حقًّا ما ادَّعيت مِنَ الهوَى ... لَقلَّ بِما تلقى إِذاً أَنْ تَمُوتَ لي

وقال:

نَوَى لي بَعْدَ إكْثارِ السؤالِ ... حَبيبٌ أَنْ يُسامِحَ بالنَّوَالِ[٣]
فَلمَّا رُمْتُ إنجازاً لِوَعْدِي ... عليه أَبَى الوفَاءَ بما نَوَى لي
وَكان القُرْبُ مِنْهُ شِفاءَ نفسي ... فَقد قَضَتْهُ النوائبُ بالنَّوَى لي

وقال:

سَقياً لِدَهْرٍ مَضَى وَالوصلُ يَجمعُنَا ... وَنَحْنُ نَحْكي عِناقاً شَكْلَ تَنْوِينِ
فَصِرْتُ إذ عَلِقَتْ كفّي حَبَائِلَكُمْ ... فَسَهْمُ هَجْرِكِ تَرْمِي ثم تَنْوِيني[٤]

وقال:

صَدَفَ الحبيبُ بِوَصْلِهِ ... فَجَفَا رُقَادِي إذْ صَدَفْ[٥]
وَنَثَرْتُ لُؤلؤَ أدمُعٍ ... أَضْحَى لها جَفْني صَدفْ

وقال:

يا مَنْ يقولُ الشعرَ غَيْرَ مُهذّبٍ ... وَيَسُومُني التعذيبَ في تَهْذِيبهِ

---

(١) بَوَّاك: أنزلك، يقال: أباءه منزلاً، وَبوَّأَهُ إياه، وَبوَّأَهُ له، وَبوَّاهُ فيه: هيّأه له، وأنزله، ومكّن له فيه، وتبوأت منزلاً: نزلته.
(٢) مؤتلي: مقصر.
(٣) النوال: العطاء، والمراد هنا: الوصال، أو ما يمكن أن يسمح به الحبيب من قرب أو لثم وتقبيل.
(٤) تنويني: تبعدني، من النوى، وهو البُعْد.
(٥) صَدَفَ الحبيب: مالَ، وَعَدَلَ، وأَعْرَضَ، من الصدوف، وهو الميل عن الشيء، والإعراض عنه.

لَـو أَنَّ كـلَّ النَّـاس فِيـكَ مُسَـاعِـدي لَعَجِزْتُ عن تَهْذيبِ ما تَهْذِي بـهِ[(١)]

وقال:

أَراد أَنْ يُخْفِـي هَـوَاهُ وقَـدْ نَـمَّ بمـا تُخْفِـي أَسَـاريـرُهُ
وَكيـفَ يُخْفِـي دَاءَهُ مُـدْنَـفٌ قَـدْ ذابَ مـن فَـرْطِ الأسَـى رِيـرُهُ[(٢)]

وقال:

وَمُهَفْهَـفٍ تَهْفُـو بِلُـبِّ المـرءِ مِنْـه شَمَـائِـلُ
فَـالـرِّدْفُ دَعْـصٌ هـائـلٌ وَالقـدُّ غُصـنٌ مَـائِـلُ[(٣)]
وَالخـدُّ نَـوْرُ شَقَـائـقٍ تَنْشَـقُّ عنـه خَمـائِـلُ[(٤)]
وَالعَـرْفُ نَشْـرُ حَـدائـقٍ تَمَّـتْ بِهِـنَّ شَمَـائِـلُ[(٥)]
وَالطَّـرْفُ سَيْـفٌ مَـالـهُ إلا العِـذارَ حَمَـائِـلُ

لأبي الفتح البستي

ولأبي الفتح البستي في هذا المذهب:

إن لـي فـي الهَـوَى لِسَـانـاً كَتُـومـاً وَجَنـانـاً يُخْفـي حَـرِيـقَ جَـواهُ[(٦)]
غَيْـرَ أَنّـي أَخـافُ دَمْعِـي عليـهِ سَتَـرَاهُ يُفْشِـي الـذي سَتَـرَاهُ

ولأبي الفتح البستي في مذهب هذا البيت الأخير:

نَـاظِـرَاهُ فيمـا جَنَـى نَـاظِـرَاهُ أَوْدَعـانـي أَمُـتْ بمـا أَوْدَعـانـي

---

(١) هذى فلان يهذي هَذْياً وهذياناً: تكلم بكلام غير معقول في مرض أو غيره.
(٢) الرير: الدم، أو ذائب المخ.
(٣) الرِّدْفُ: الكَفَلُ والعَجُز. والدِّعْصُ: قور من الرمل مجتمع، والجمع: أدعاص وَدِعَصةٌ، وهو أَقلّ من الحِقْفِ، والطائفة منه: دِعْصَةٌ.
(٤) شقائق: أي شقائق النعمان: زهر أحمر، سمّي بذلك لأن النعمان بن المنذر نزل على شقائق رمل قد أنبتت الشَّقِرَ الأحمر، فاستحسنها وأمر أن تُحمى، فقيل للشقر: شقائق النعمان بمنبتها لا أنها اسم للشقر.
(٥) العَرْفُ: الريح الطيبة.
(٦) الجَنَانُ: القلب.

وله:

خُــــذِ العفـــوَ بِعَـــرْفٍ كمـــا أُمِـرْتَ وَأَعْـرِضْ عـن الجـاهليـنْ(١)
وَلِـــنْ فـــي الكـــلام لِكـــلِّ الأنـــامِ فَمُسْتَحْسَـنٌ مـن ذوي الجـاهِ لِيـنْ

وله:

إلـــى حَتْفِـــي سعَـــى قَـــدَمِـــي أَرَى قَـــدَمـــي أَراقَ دَمِـــي
فَمَـــا أَنْفَـــكُّ مِـــنْ نَـــدَمِـــي وَلَيْـــسَ بِنَـــافعـــي نَـــدَمِـــي

وله:

إنْ هــزَّ أَقــلامَــهُ يَــوْمــاً لِيُعْمِلَهــا أَنســاك كـلَّ كَمـيٍّ هَـرَّ عـاملَـهُ(٢)
وَإِنْ أَقـــرَّ علـــى رَقٍّ أَنـــامِلـــهُ أَقـرَّ بـالـرِّق كُتَّـابُ الأنـامِ لَـهُ(٣)

وقال لمن استدعاه إلى مَودَّته:

فَـدَيْتُـكَ قَـلَّ الصَّـديـقُ الصّـدُوقُ وَقــلَّ الْخَليــلُ الْحَفِـيُّ الـوفـي(٤)
وَلِـي راغـبٌ فيـك إمَّـا وَفَيْـتَ فَهَـلْ راغـبٌ أَنْـتَ فـي أنْ تَفِـي

وللأمير أبي الفضل:

أَهـــلاً بِظَبْـــيٍ حَـــواهُ قَصْـــرٌ كَجنَّـــةٍ قَـــدْ حَـــوَتْ نَعِيمَـــا
طَـــرَقْتُـــهُ لا أَهـــابُ سُـــوءًا أَبَـــاحَنِـــي حُبّـــهُ الحَـــرِيمَـــا
فَجـــادَ مِـــنْ فيـــه لـــي بِـــرَاحٍ تَنْفِـــي حَـــريقـــاً بـــهِ قَـــديمـــا

---

(١) في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وَأعْرِضْ عن الجَاهِلين﴾ (سورة الأعراف، آية ١٩٩).

(٢) الكميُّ: الفارس التام السلاح، أو البطل الشجاع. وَهرَّ الشيء يَهُرُّهُ هَرًّا وَهَريراً: كرهه؛ قال المفضل بن المهلب بن أبي صفرة:

وَمَـنْ هَـرَّ أَطرافَ القنـا خَشْيَـةَ الـرَّدَى فَلَيْـسَ لِمَجْـدٍ صَـالـحٍ بِكَسُـوبِ

(ابن منظور، اللسان: هرر). والعامل: الرمح.

(٣) الرَّقُّ: الصحيفة البيضاء، وقيل: ما يُكْتَبُ فيه، وهو جلد رقيق، قال تعالى: ﴿في رَقٍّ مَنْشُور﴾ (سورة الطور، آية ٣) أي في صُحُفٍ. والرِّقُّ (بالكسر): المِلْكُ والعبودية.

(٤) الخليل الحفيُّ: الذي يحفُّ بخليله، أي يطوف به وَيُحْدِقُ.

أَفْــدِي حَــريقــاً أَبــاحَ رِيقــاً لا بَــلْ حَــرِيمــاً أبــاح رِيمَــا

وله:

مَنْ لي بِشَمْلِ المُنَى وَالأُنْس أجْمَعهُ بِشَادنٍ حَلَّ فيه الحُسْنُ أَجْمَعُهُ
ما زال يُعْرِضُ عن وَصْلي وَأَخْدَعُهُ فالآنَ قد لاَنَ بَعْدَ الصَّدِّ أَخْدَعُهُ(١)

وقال:

بِأَبِي غَزَالٌ نام عَنْ وَصَبي بِهِ وَمُراقِ دَمْعِي للنَّوَى وَصَبِيبِهِ
يا لَيْتَهُ يَرْثي على وَلَهِي بِهِ لِغرامِ قَلْبي في الهوَى ولَهِيبِهِ

وله في هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخموراً خمش وجهه:

هَبْهُ تغَيَّرَ حائلاً عن عَهْدِه وَرَمَى فُؤادِي بالصدود فأَزْعَجَا
ما بالُ نَرْجِسِهِ تَحوَّلَ وَرْدةً وَالوَرْدُ في خَدَّيه عاد بَنَفْسَجَا

وله في هذا المعنى:

وَرِيم على السُّكْرِ خَمَّشْتُهُ بِقَرْصٍ بِعَارِضِهِ أَثَّرا
فَأَصْبَحَ نَرْجِسُهُ وَرْدَةً وَوَرْدَةُ خَدَّيْهِ نَيْلَوْفَرا

وقال في وصف العِذار:

ظَبْيٌ كَسَا رَأْسَ الشَّبابِ بعارضٍ نَمَّ العِذَارُ بِحَافَتَيْهِ فَلاَحَا
فَكَأَنَّما أَهْدَى لِعارضِ خَدِّهِ شَعري ظَلاماً وَاسْتَعاضَ صَبَاحَا

وقال في غلام افتصد:

وَمُهَفْهَفٍ غَرَسَ الجما لُ بِخَدِّه رَوْضاً مَرِيعَا
فَصَدَ الطبيبُ ذِراعَهُ فَجرَى لَه دَمْعِي ذَرِيعَا(٢)
وَأَمَسَّني وَقْعُ الحَدِيـ ـدِ بِعِرْقِه أَلَماً وَجيعَا

(١) الأَخْدَعُ: عرق، هو شعبة من الوريد، وهما أَخدعان: عرقان في موضع الحجامة من العنق، وربما وقعت الشَّرْطَةُ على أحدهما فينزف صاحبه.
(٢) الفَصْدُ: شَقُّ العِرْقِ، وإخراج دمه. والذريع: السريع.

فَـأَرَيْتُـهُ مِـنْ عَبْـرَتِـي ... مـا سَـالَ مِـنْ دَمِـهِ نَجيعَـا[١]

فِقرٌ في ذكر العلم والعلماء

العلماء ورثةُ الأنبياء. والعلماءُ أعلامُ الإسلام. العلماءُ في الأرض كالنجوم في السماء.

ابن المعتز ـ العلماءُ غرباء، لِكَثْرَةِ الجهل. وله: العلمُ جمالٌ لا يخفى، ونَسَبٌ لا يُجْفَى. وله: زَلّةُ العالم كانكِسَار سفينةٍ تَغْرق ويَغْرق معها خَلْقٌ كثير.

غيره ـ إذا زلّ العالم، زَلّ بَزلّته عَالَمٌ. غيره: الملوك حُكّامٌ على الناس، والعلماء حكام على الملوك. من لم يحتمل ذلَّ التعلم ساعة، بقي في ذلّ الجهل أبداً. مَاصِينَ العلمُ بمثل بَذْلِهِ لأَهله. من كتم علماً فكأنه جاهلُه.

العلـمُ يَمْنَـعُ أَهْلَـهُ ... أَن يَمْنَعـوهُ أَهْلَـهُ[٢]

أبو الفتح كشاجم:

لا تَمْنَـعِ العِلْـمَ امْـرأً ... والعِلْـمُ يَمْنَـعُ جَـانِبَـهْ
أَمَّـا الغبـيّ فليـسَ يَقْـ ... ـهَـمُ لُطْفَـهُ وَغَـرائِبَـهْ
وَتكـون حَـاضِـرةُ الفـوا ... ئـدِ عِنْـدَهُ كـالغـائِبَـهْ
وَأَخـو الحَصَـافـةِ مُسْتَحـ ... ـقٌّ أَنْ ينـالَ مَطَـالِبَـهْ[٣]
فَبِحقِّـهِ أَعْطَيتَـهُ ... مِـنْ فَضْـلِ عِلْمِـكَ وَاجِبَـهْ

ومن رقَّ وَجْهُه عند السؤال، رقّ عِلمهُ عند الرجال. عِلْمٌ بلا عمل، كشجرة بلا ثمر. كما لا يُنْبِتُ المطرُ الكثيرُ الصَّخْرَ، كذلك لا ينفعُ البليدَ كثرة التعلم. من ترفَّع بعلمه وضَعَه اللهُ بعملِه. الجاهلُ صغيرٌ وإن كان كبيراً، والعالم كبيرٌ وإن كان صغيراً. من أكثر مذاكرةَ العلماء، لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم.

---

(١) النجيع: الدم، وقيل: هو دم الجوف خاصةً.

(٢) يروى أن الإمام الشافعي أرسل هذا البيت إلى محمد بن الحسن الشيباني، وكان قد استعار منه كتاباً، فتأخر عن إعارته، وقبله قوله:

قُـلْ لِمَـنْ لَـمْ تَـرَ عَيْـنُ ... مَـنْ رآهُ مِثْلَـهُ

(٣) الحصافة: ثخانة العقل، يقال: حَصُفَ الرجل حَصَافةً، إذا كان جيد الرأي مُحْكَم العقل.

ابن المعتز: المتواضعُ في طلاب العلم أكثرهم عِلْماً، كما أن المكان المُنْخَفِضَ أكثر البقاع ماء. إذا علمت فلا تَذْكُرْ مَنْ دونك من الجهال، واذكُرْ مَنْ فوقَك من العلماء. النارُ لا يُنْقِصُها ما أُخِذَ منها، ولكن يُنْقِصُها ألَّا تجد حطباً، كذلك الْعلمُ لا يُفْنِيه الاقتباسُ منه، وفَقْدُ الحاملين له سببُ عدمه. مات خَزَنَة الأموال وهم أحياء، وعاش خُزّانُ العلم وهم أموات. مَثَلُ عِلْم لا ينفع كَكَنْزٍ لا يُنْفَقُ منه. أزْهَدُ الناس في عالم جيرانُه.

وقيل للصَّلْتِ بن عطاء، وكان مقدّماً عند البرامكة: كيف غَلَبت عليهم وعندهم مَنْ هو آدَبُ منك؟ قال: ليس للقُرَباء طَرافة الغُرَباء، وكنت امرأً بعيدَ الدار، نائي المَزار، غريبَ الاسم، قليلَ الجرم، كثير الالْتِواء، شحيحاً بالإملاء؛ فَرغَّبهم فيَّ رغبتي عنهم، وزهَّدني فيهم رَغْبَتُهم فيَّ.

علم لا يَعْبُرُ معك الوادي، لا يعمر بك النادي. لو سكت مَنْ لا يعلم لسقط الاختلاف. إذا ازدحم الجوابُ خَفِي الصواب. الغلط تحت اللَّغط. خَرْقُ الإجماع خُرْق. المحجوج بكلّ شيء ينطق.

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

بين أبي تمام وابن أبي دواد

دخل أبو تمام الطائي على أحمد بن أبي دُوَاد في مجلس حكمه، وأنشده أبياتاً يَسْتَمْطِرُ نائِله، وينشر فضائله، فقال: سيأتيك ثوابُها يا أبا تمام، ثم اشتغل بتوقيعات في يده؛ فأحْفظَ ذلك أبا تمام، فقال: احْضُرْ أيدك الله فإنك غائب، واجْتَمعْ فإنك مفترق، ثم أنشده:

إنَّ حَراماً قُبولُ مِدْحَتِنا ... وَتَرْكُ ما نَرْتَجي منَ الصَّفَدِ[1]
كَمَا الدنانيرُ والدراهمُ في الـ ... ـصَّرْف حَرامٌ إلا يَداً بِيَدِ

فأمر بتوفير حِبَائه، وتعجيلِ عطائه.

بين طاهر بن عبد الله وابن أبي تمام

ولما ولي طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراءُ يهنئونه، وفيهم تمام بن أبي تمام فأنشده:

(١) الصَّفَدُ: الوثاق.

هَنَّـاك رَبُّ النـاس هَنَّـاكـا ... مـا مِـنْ جَـزيـلِ المُلْـكِ أَعطـاكـا
قَـرَّتْ بمـا أُعطيـتَ يـا ذَا الحِجَـىٰ ... وَالبـأسِ والإنعـامِ عَيْنَـاكـا[١]
أَشـرقـتِ الأرضُ بِمَـا نِلْتَـهُ ... وَأوْرَقَ العُـودُ بِجَـدْوَاكـا[٢]

فاستضعف الجماعةُ شعره، وقالوا: يا بُعْدَ ما بينه وبين أبيه! فقال طاهر لبعض الشعراء: أجبه، فقال:

حَيَّـاك ربُّ النـاسِ حَيَّـاكـا ... إِنَّ الـذي أَمَّلْـتَ أَخْطَـاكـا
فَقُلْـتَ قَـوْلاً فيـهِ مـا زانَـهُ ... وَلَـوْ رأَى مَـدْحـاً لآسَـاكـا
فَهـاكَ إِنْ شِئْـتَ بهـا مِـدْحَـةً ... مِثْـلَ الـذي أَعْطَيْـتَ أَعْطـاكـا

فقال تمام: حتى يحلّ لِي ولك! فضحك وقال: إلا يكن معه شعرُ أبيه، فمعه ظرف أبيه؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم! فقال عبد الله بن إسحاق: لو[٣] لم يعط إلا لقول أبيه في الأمير أبي العباس ـ رحمه الله ـ يريد عبد الله بن طاهر:

يَقولُ في قَوْمَسٍ صَحْبِي وَقد أَخذَتْ ... مِنَّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ[٤]:
أَمَطْلِعَ الشَّمسِ تَبْغِي أَنْ تَـؤُمَّ بنـا؟ ... فَقُلْـتُ: كَـلَّا، وَلكِـنْ مَطْلِعَ الجُـودِ

فقال: ويعطى بهذا ثلاثة آلاف.

[ولاية طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان، وسببها]

وكان سببُ ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيناء قال:

كنا عند أحمد بن أبي دواد، فجاء الخبر أن الكُتُبَ وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبد الله بن طاهر، وأن الواثق يُعَزَّى عنه، وأنه قد ولّى مكانه خراسان إسحاق بن إبراهيم، وكان عدوًّا له لانخراطِه في سِلْكِ ابن الزيات؛ فلبس ثيابَه ومضى، وقال: لا

(١) الحِجَى: العقل.
(٢) الجَدْوَى: العطية.
(٣) جواب «لو» محذوف، وتقدير الكلام: لو لم يُعْطَ إلاَّ لقول أبيه لكان ذلك حَسَناً.
(٤) القَوْمَسُ: السيد الشريف، والأمير. السُّرَى: سير عامة الليل. الإبل المهرية: نجائب تسبق الخيل، منسوبة إلى قبيلة مَهْرَة بن حيدان. القُود: جمع أقود، وهو من الناس والدواب: الطويل العنق والظهر، والأنثى: قوداء.

تبرحوا حتى أعودَ إليكم؛ فلبث قليلاً، ثم عاد إلينا فحدّثنا أنه دخل على الواثق فعزّاه عن عبد الله وجلس، قال: فقال لي الواثق: قد وَلّينا إسحاق خراسان، فما عندك؟ قلت: وفق الله أمير المؤمنين ولا نذمّه. قال: قُلْ ما عندك في هذا. قلت: أمرٌ قد أُمضِي، فما عسيت أن أقولَ فيه. قال: لَتَفْعَلنّ. فقلت: يا أمير المؤمنين، خراسانُ منذ ثلاثين سنة في يد طاهر وابنه، وكلُّ مَنْ بها صَنَائعهُم، وقد خَلَّفَ عبدُ الله عشرَ بنين أكثرهم رجال، وجميعُ جيش خراسانَ لهم عبيدٌ أو مَوَالٍ أو صَنَائع، وسيقولون: أما كان فينا مُصْطَنع؟ وكان يجب أن يُجرّبَنا أميرُ المؤمنين، فإن وَفَيْنَا بما كان يَفِي به أبونا وجدُّنَا، وإلاّ استبدل منا بعد عُذْرٍ فينا؛ ويقدم خراسانَ إسحاقُ وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء، ويتعصّب أهلُها لهم؛ فينتقض ما أُبْرِمَ، ويفسد ما أُصلح.

قال: صدقت يا أبا عبد اللّه، والرأي ما قلت، اكتبوا بعهد طاهر بن عبد اللّه على خراسان. فَكُتِبت كُتبُ طاهر، وَخُرِقَت كُتبُ إسحاق، فخرجت الزنج تطيرُ بها، ثم لقيني إسحاق داخلاً، فقلت: يا أبا الحسن، لا عدمت عداوةَ رجلٍ أزال عنك ولاية خراسان بكلمة.

* * *

بين ابن الرومي وابن ثوابة

ومدح ابن الرومي أبا العباس بن ثوابة، فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها، فقال ابن الرومي(١):

أَلَيْسَ الْقَوَافِي بَنَاتِ الْفَتَى ... إذا صُورَةُ الحقّ لم تُمْسَخِ
فلا تَقْبَلَنّ أَمَادِيحَهُ ... حَرامٌ نِكاحُ بَنَاتِ الأَخِ

بين المعتصم وأبي تمام

ولما أنشد أبو تمام قصيدته في المعتصم:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ

قال له: جَلَوْتَ عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءَها. قال: يا أمير المؤمنين، والله لو كانت من الحورِ العين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أَوْفَى مُهُورِها.

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢/١٠٣.

لأبي الفضل الميكالي

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

أَقـولُ لِشَـادِنٍ فـي الحُسْـنِ أَضْحَـى ... يَصِيـدُ بلَحْظِـهِ قَلْـبَ الكَمِـيِّ[(١)]

مَلَكْـتَ الحُسْـنَ أَجمـعَ فـي قَـوامٍ ... فَـأَدِّ زكـاةَ مَنْظَـرِكَ البَهِـيِّ

وَذلـكَ أَنْ تَجُـودَ لِمُسْتَهـامٍ ... بِـريـقٍ مـن مُقَبَّلِـكَ الشَّهِـيِّ[(٢)]

فقـالَ: أبـو حَنِيفـةَ لـي إمـامٌ ... فَعِنْـدي لا زَكـاةَ علـى الصَّبِـيِّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال:

أَقـولُ لِشَـادِنٍ فـي الحُسْـنِ فَـرْدٍ ... يَصيـدُ بِلَحْظِـهِ قَلْـبَ الجَليـدِ[(٣)]

مَلَكْـتَ الحُسْـنَ أَجمـعَ فـي قَـوامٍ ... فَـلا تَمْنَـعْ وُجـوبـاً عَـنْ وُجُـودِ

وَذلـكَ أَنْ تَجُـودَ لِمُسْتَهـامٍ ... بِـرَشْـفِ رُضَـابِـكَ العَـذْبِ البَـرودِ

فَقـالَ: أَبـو حَنِيفـةَ لِـي إمـامٌ ... فَعِنْـدي لا زَكـاةَ علـى الـوليـدِ

وقال:

بِنَفْسِـي غَـزالٌ صـار لِلحُسْـنِ قِبْلَـةً ... يُحَـجُّ مـن البيـتِ العَتيـقِ وَيُقصَـدُ[(٤)]

دَعـانـي الهـوَى فيـه فَلَبَّيـتُ طَـائِعـاً ... وَأَحْرَمْتُ بِالإخلاصِ والسَّعْيِ يُشْهَدُ[(٥)]

فَطَـرْفِـيَ بـالتسهيـدِ وَالـدَّمْـعِ قَـارِنٌ ... وَقلبـي عَلَيْـهِ بِـالصَّبـابـة مُفْـرِدُ[(٦)]

---

(١) الشادن: ولد الظبية الذي قوي واشتد واستغنى عن أُمِّه. والكمي: البطل التامّ السلاح، أو الفارس الشجاع.

(٢) المستهام: المحب الذي هيمه الحب، وهام فلان بالمرأة: شُغِف بها حُبًّا. والمُقَبَّلُ: الثغر.

(٣) الجليد: القوي، الشديد، الصابر على المكروه.

(٤) البيت العتيق: المسجد الحرام بمكة.

(٥) التلبية: أن يقول: لَبّيك اللهمَّ لَبَّيك. وأحرم بالحج أو العمرة: دخل في عمل يحرم عليه به ما كان حلالاً، وأحرم الرجل: دخل في الحرم، أو البلد الحرام. والسعي: هو السعي بين الصفا والمروة، وهو من شعائر الحج.

(٦) القارن: الذي يقرن الحج بالعمرة، أي يجمع بينهما في وقت واحد، وَنِيَّةٍ واحدة. والمفرد أو المنفرد: الذي يفصل بينهما، ويلاحظ أن الشاعر يستخدم المصطلحات الدينية الخاصة بمناسك الحجّ على سبيل التورية.

لأبي الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم:

فَـدَيْـتُ زائـرةً فـي العيـدِ وَاصِلـةً وَالهَجْـرُ فـي غَفْلَـةٍ مـن ذلـكَ الخَبَـرِ
فلـم يَـزلْ خَـدُّهـا رُكْنـاً أَطـوفُ بـهِ وَالخالُ في خَدّها يُغْني عن الحَجَرِ(١)

لبديع الزمان الهمذاني

وينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان:

كتابي أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم، والحمد لله رب العالمين، كيف تَقَلُّبُ الشيخ في درع العافية، وأحوالُه بتلك الناحية؛ فإنّي ببعده مُنَغَّصُ شِرْعَةِ العيش، مقصوص أجنحة الأنس. ورد كتابه المشتملُ من خبر سلامته، على ما أرغب إلى الله في إدامته، وسكنتُ إليه بعد انزعاجي لتأخُّره؛ وقد كان رَسَمَ أن أعرِّفه سَبَبَ خروجي من جرجان، وَوُقُوعي بِخُراسان، وَسَبَبَ غضبِ السلطان؛ وقد كانت القصة أني لما وردتُ من ذلك السلطان حضرتَه، التي هي كَعْبَةُ المحتاج، لا كعبةُ الحجّاج، ومستقَرُّ الكرم، لا مَشْعَر الحرم، وقِبْلَة الصِّلاتِ، لا قبلة الصلاة، ومُنَى الضَّيف، لا مِنَى الخَيْفِ، وجدت بها نُدَمَاء من نَبَات العام(٢)، اجتمعوا قِيضَةَ كلب(٣) على تلفيق خطب، أزعجني عن ذلك الفِناء، وأشرف بي على الفَنَاء، لولا ما تدارك الله بجميل صُنْعه، وحسن دفعه؛ ولا أعلم كيف احتالوا، ولا ما الَّذي قالوا؛ وبالجملة غيَّروا رأيَ السلطان، وأشار عليّ إخواني، بمفارقةِ مكاني، وبقِيت لا أعلم أيمنةً أضرِب أم شآمة، ونَجْدا أَقصد أم تهامة!

وَلـوْ كُنْـتُ فـي سَلْمـى أَجـا وَشِعَـابِهَـا لَكَـــانَ لِحَجَّـــاجٍ علـــيَّ دَليـــلُ(٤)

وقد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماءٌ إذا تغيّم لم يُرْجَ صَحْوُه، وماءٌ إذا تغيَّر لم

(١) الركن: هو الركن اليماني من الكعبة. والحجر: هو الحجر الأسود (الأسعد) منها.
(٢) من نبات العام: يريد أنهم حديثو العهد.
(٣) قيضة كلب: القيضة (بالكسر): القطعة الصغيرة من العظم، والجمع: قِيَضٌ، والمراد تحقيرهم بوصفهم بعظام الكلب.
(٤) سلمى وأجأ: هما جبلا طَيِّء. وَحجَّاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي، أحد ولاة بني أمية المشهورين.

يُشرب صَفْوُه، وملك إذا سَخِط لم يُنتظر عفوه، وليس بين رضاه والسخط عَوْجَة، كما ليس بين غَضَبه والسيف فَرْجة، وليس من وراء سُخْطِه مجاز، كما ليس بين الحياة والموت معه حِجاز؛ فهو سيِّدٌ يُغْضِبُه الْجُرْم الْخَفِيّ، ولا يُرْضِيه العذر الجلي؛ وتكفيه الجناية وهي إرجاف، ثم لا تشفيه العقوبة وهي إجحاف، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح، ويَعْمَى عن العذر وهو أبين من عمود الصُّبح؛ وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب عن هذه العذر وله برهان؛ وذو يدين يبسط إحداهما إلى السفك والسفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح؛ وذو عينين يفتح إحداهما إلى الجرم، ويغمض الأخرى عن الحلم، فمزحه بين القَدِّ والقَطْع، وجده بين السيف والنِّطْع[١]، ومراده بين الظهور والكمون[٢]، وأمره بين الكاف والنون؛ ثم لا يعرف من العقاب، غير ضرب الرقاب، ولا يهتدي من التأنيب إلا لإزالة النعم، ولا يعلم من التأديب غير إراقة الدم، ولا يحتمل الهَنَةَ على حجم الذرة، ودقة الشعرة، ولا يحلم عن الهَفْوَة، كوزن الهَبْوَة[٣]، ولا يُغْضِي عن السقطة، كجرم النقطة؛ ثم إن النقم بين لفظه وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، لا يلقاه الولي إلا بفمه، ولا العدو إلا بدمه؛ والأرواح بين حَبْسه وإطلاقه، كما أنَّ الأجسام بين حله وَوَثاقِه؛ فنظرتُ فإذا أنا بين جُودَين: إما أن أَجُودَ بيأسي، وإمّا أن أجود برأسي؛ وبين رُكُوبين: إمّا المفازة، وإمّا لِجنَازة؛ وبين طريقين: إما الغُرْبَة، وإمَّا التربة؛ وبين فِراقَيْن: إمّا أن أُفارق أَرْضِي، أو أُفارق عرضي؛ وبين راحلتين: إمّا ظهور الجِمال، وإمَّا أَعْنَاق الرجال؛ فاخترتُ السماح بالوَطَن، على السماح بالبَدَن؛ وأنشدت:

إذا لـم يَكُـنْ إلاَّ المنيـةَ مَـرْكِـبٌ ... فـلا رَأْيَ لِلمَحْمُـولِ إلا رُكُـوبُهـا

وَلَّدَ ما ذكر من «كعبة [المحتاج، لا كعبة] الْحُجّاج»، من قول أبي تمام:

بَيْتَـانِ حَجَّهُمـا الأنـامُ؛ فَهـذِهِ ... حَـجُّ الغَنِـيِّ، وَتِلْكُـمُ لِلْمُعْـدِمِ

[أبو عليّ البصير وشيء من أدبه]

بين طالبي وأبي علي البصير

وشتم بعضُ الطالبيين أبا عليّ الفضلَ بن جعفر البصيرَ، فقال أبو عليّ: والله ما نَعْيَا

---

(١) النِّطْعُ والنَّطَعُ: بساط من الجلد كثيراً ما كان يُقْتَلُ فوقه المحكوم عليه بالقتل، والجمع أنطاع وَنُطُوعٌ.
(٢) الكُمونُ: التَّخفي.
(٣) الهَبْوَةُ: الغَبَرَةُ.

عن جوابك، ولا نَعْجِزُ عن مَسَابِّك؛ ولكنّا نكونُ خيراً لِنَسَبِك منك، ونحفظ منه ما أَضَعْتَ؛ فاشكُرْ توفيرنا ما وفَّرْنا منك، ولا يُغرَّنَّكَ بالجهل علينا حِلْمُنا عنك.

بين أبي علي وبعض الرؤساء

وسأل أبو علي البصير بعض الرؤساء حاجةً ولقيه؛ فاعتذر إليه من تأخّرها؛ فقال أبو عليّ: في شُكْرِ ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخَّر منه.

من شعر أبي علي البصير

وأبو عليٍّ أحَدُ مَنْ جمع له حظُّ البلاغة في الموزون والمنثور، وهو القائلُ:

ألمَّت بنا يَوْمَ الرحيلِ اختلاسَةً ... فأضْرَمَ نيرانَ الهَوى النَّظَرُ الخَلْسُ[١]
تأبَّتْ قليلاً وهي تُرْعَدُ خِيفةً ... كما تَتأبَّى حِينَ تَعْتَدِلُ الشَّمْسُ
فخاطبها صَمْتِي بما أنا مُضْمِرٌ ... وَانْبَسْتُ حتى لَيْسَ يُسْمَع لي حِسٌّ[٢]
وَولَّتْ كما وَلَّى الشبابُ لِطيّةٍ ... طَوَتْ دُونها كَشْحاً على يَأسها النفسُ[٣]

وقال يصف بلاغةَ الفتح بن خاقان وشعره:

سَمِعْنَا بأشعار المُلوكِ؛ فَكُلُّها ... إذا عَضَّ مَتْنَيْهِ الثِّقافُ تأَوَّدَا[٤]
سِوَى ما رأينا لِامْرِىءِ القيس؛ إنَنا ... نَراه ـ متى لم يَشْعُر الفَتْحُ ـ أَوْحَدا
أَقام زماناً يَسْمَعُ القولَ صامتاً ... وَنَحْسَبُهُ إن رَامَ أَكْدَى وَأَصْلَدا[٥]
[فلمَّا امْتَطَاهُ راكباً ذلَّ صَعْبُهُ ... وَسارَ فأَضحى قد أَغارَ وَأنجَدَا][٦]

---

(١) خلس الشيء خَلْساً: استلبه في نُهْزَةٍ ومخاتلة، وخالس فلاناً: انتهز منه فُرْصَةً فأعجله، وخالسه الشيء مُخالسة وخلاساً: خَلَسَهُ إياه.
(٢) أضمر الشيء: أخفاه، يقال: أضمر في نفسه أمراً: عزم عليه بقلبه. وَأَنْبَسَ فلان: سكت ذُلاًّ.
(٣) يقال: طوى فؤاده على الأمر: لم يظهره، وطوى كشحه: أعرض بِودّه.
(٤) الثقاف: أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل.
(٥) أكدى: خاب ولم يظفر، وافتقر بعد غِنًى، وألَحَّ في المسألة. ويقال للرجل عند قهر صاحبه له: أكدت أظفارك. وَأَصْلَد: صار صَلْداً، والصَّلْدُ: الأرض لا تنبت شيئاً، والزَّنْدُ لا يُوري.
(٦) أَغار فلان: أتى الغَوْر، وهو المنخفض من الأرض. وأنجد فلان: ارتفع، أو أتى نجداً، والنَّجْدُ: ما ارتفع من الأرض وَصَلُبَ.

من شعر الفتح بن خاقان

والفتح بن خاقان يقول:

وَإِنــي وَإِيــاهــا لَكَــالْخَمْــرِ، والفتــى مَتَــى يَسْتَطِــعْ مِنْهــا الــزيــادةَ يَــزْدَدِ
إذا ازْدَدْتُ منهــا زادَ وَجْــدِي بِقُــرْبِهــا فَكَيْـفَ احتـراسِـي مِـنْ هَـوًى مُتَجـدِّدِ

كتاب إلى عبيد اللّه بن يحيى

وكتب إلى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى: وإن أميرَ المؤمنين لمَّا اسْتخلَصَك لنفسه، وائتَمنك على رَعيَّتِهِ؛ فنطق بلسانك، وأخذَ وأعطى بيدك، وأوْرَدَ وأصْدَر عن رأيك، وكان تفويضُه إليك بعد امتحانِهِ إياك، وتَسْلِيطه الحقّ على الهوى فيك، وبعد أن مثّل بينك وبين الذين سَموْا لِمَرْتَبَتك، وَجَرَوْا إلى غايتك، فأسقطهم مَضَاؤُك، وخَفُّوا في ميزانك، ولم يزدك - أكرمك الله - رفعة وتشريفاً إلاَّ ازددتَ له هيبةً وتعظيماً، ولا تسليطاً وتمكيناً، إلا زَهَدْتَ نفسك عن الدنيا عُزوفاً وتنزيها، ولا تقريباً واختصاصاً، إلا ازْدَدْتَ بالعامة رأفةً وعليها حَدَباً، لا يخرجك فَرْطُ النصح له عن النظر لِرعيَّتِهِ، ولا إيثارُ حقّه عن الأخذ بِحقِّها عنده، ولا القيامُ بما هو له عن تضمينِ ما هو عليه، ولا يشغلك مُعَاناة كِبار الأمور عن تفقُّدِ صغارِها، ولا الْجِدُّ في صلاح ما يَصْلُحُ منها عن النظر في عواقبها؛ تَمْضِي ما كان الرَّشَدُ في إمضائه، وتُرْجِىءُ ما كان الحَزْمُ في إرجائه، وَتَبْذُلُ مَا كان الفضلُ في بَذْله، وتمنعُ ما كانت المصلحةُ في مَنْعِه، وتلِين في غير تكبُّر، وتَخُصّ في خير مَيل، وتعمُّ في غير تصنّع، لا يَشْقَى بك المحقُّ وإن كان عدوًّا، ولا يَسْعَدُ بك المبطلُ وإن كان وليًّا؛ فالسلطان يعتدّ لك من الغَناء والكِفاية، والذَّبِّ والحياطة[1]، والنُّصح والأمانة، والعِفّة والنزاهة، والنصب فيما أدّى إلى الراحة، بما يراك معه - حيث انتهى إحسانُه إليك - مستوجباً للزيادة. وكافةُ الرعية - إلا من غَمطَ[2] منهم النِّعْمة - مُثْنُونَ عليك بِحُسْنِ السيرة، ويُمْنِ النقيبة، ويَعُدُّونَ من مآثرك أنك لم تُدْحِض لأحدٍ حُجَّة؛ ولم تدفع حقًّا لِشُبْهَة؛ وهذا يسيرٌ من كثير، لو قصدنا لتفضيله، لأنْفَدْنا الزمان قبل تحصيله، ثم كان قَصْدُنَا الوقوفَ دون الغاية منه.

---

(١) الحياطة: الرعاية.

(٢) غمط النعمة: كفرها ولم يشكرها.

كتاب آخر إلى عبيد الله بن يحيى

وله إلى عبيد الله بن يحيى: يقطعني عن الأخْذِ بحظِّي من لقائك، وتعريفِك ما أنا عليه عن شُكْرِ إنعامك، وإفرادي إياك بالتأميل دونَ غيرك، تخلفي عن منزلة الخاصّة، ورغبتي عن الحلول محلَّ العامة، وَأنِّي لَسْتُ معتاداً للخِدْمَةِ ولا الملازمة، ولا قويًّا على المُغَادَاةِ والمُرَاوحة؛ فَلاَ يَمْنَعْك ارتفاعُ قَدْرِك، وعلوُّ أمرك، وما تعانيه من جلائل الأحوال الشاغلة، من أنْ تَتَطوّل بتجديد ذكري، والإصغاءِ إلى مَنْ يحضُّك على وَصْلي وَبِرِّي، وَيُرَغِّبُكَ في إسداء حُسْنِ الصنيعة عندي.

وله إليه آخرَ فصلٍ من كتاب: وأنا أسألُ الله الذي رَحِمَ العبادَ بك، على حينِ افتقارٍ منهم إليك، أن يُعِيذهم من فَقْدِك، ولا يُعيدهم إلى المكاره التي استنقذتهم منها بيدك.

[بعض ما يبعث على الرحيل]

ولقي رجلٌ رجلاً خارجاً من مِصْرَ يريد المَغْرِب، فقال: يا أخي؛ أَتَتَّبِعُ القَطْرَ، وتَدَع مَجْرَى السيول؟ فقال: أخرجني من مصر حَقٌّ مُضَاع، وشُحٌّ مُطَاع، وإقتار الكريم، وحركةُ اللئيم، وتغيُّر الصديق، بين السعة والضِّيق، والهربُ إلى النَّزْرِ بالعز، خيرٌ من طلب الوَفْرِ بِذُلِّ العَجْزِ.

[من الوصايا لمن اعتزم السفر]

وأوصى بعضُ الحكماءِ صديقاً له، وقد أرادَ سفراً، فقال: إنك تدخُلُ بلداً لا يَعْرِفُك أهلُه؛ فَتَمَسَّكْ بوصيتي تنفق بها فيه: عليك بِحُسْنِ الشمائل فإنها تدلُّ على الحرية؛ ونَقَاءِ الأطراف فإنها تشهد بالمُلوكية؛ ونظافة البِزَّة فإنها تنبىء عن النَّشْءِ في النِّعمة؛ وطيب الرائحة فإنها تظهرُ المروءة، والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة، وَلْيَكُنْ عقلُك دون دِينك، وقولُك دون فِعْلك، ولباسُك دون قَدْرِك، والزَم الحياءَ والأنفَة؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أَنِفْتَ عن الغلبة، لم يَتَقَدمْكَ نظيرٌ في مرتبة.

قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يُوصِي آخرَ أراد سفراً؛ فقال: آثر بعملك مَعَادَك، ولا تَدَع لِشَهْوَتك رَشادَك، وليكُنْ عقلُك وَزِيرَكَ الذي يَدْعُوك إلى الهدى، ويجنِّبك من الرَّدى، واحْبِس هواك عن الفواحش، وأطلِقْهُ في المكارم؛ فإنك تبرّ بذلك سَلَفك، وتَشِيد به شرفَك.

وأوصت أعرابية ابنَها في سفر، فقالت: يا بني؛ إنك تجاورُ الغرباء، وتَرْحَلُ عن الأصدقاء، ولعلَّك لا تَلْقَى غيرَ الأعداء؛ فخالِط الناسَ بجميل البِشْر، واتَّقِ اللهَ في العَلاَنية والسرّ.

وقال بعضُ الملوك لحكيم وقد أراد سفراً: قِفْني على أشياء من حِكْمتك أعْمَلْ بها في سفري؛ فقال:

اجعل تأنيك أمام عَجَلَتِك، وحِلْمَكَ رسولَ شِدَّتك، وعفوك مَالِكَ قدرتك، وأنا ضامنٌ لك قلوبَ رعيَّتك، ما لم تُحْرِجْهم بالشدةِ عليهم، أو تُبْطِرْهم بالإحسان إليهم.

وقال أبان بن تغلب: شهدت أعرابيةً تُوصِي ولداً لها أراد سفراً وهي تقول: أي بني! اجلس أمْنَحْك وصيتي، وبالله تَوْفِيقُك، قال أبان: فوقفت مستمعاً لكلامها، مستحسناً لوصيَّتها، فإذا هي تقول: أي بني! إياك والنَّميمة، فإنها تَزْرَعُ الضغينة، وتفرِّق بين المحبّين، وإياك والتعرض للعيوبِ فتُتَّخذ غَرَضاً، وخليقٌ ألاَّ يَثْبُتَ الغَرضُ على كثرة السهام؛ وقلَّما اعتَوَرَتِ السهامُ غَرَضاً إلاَّ كَلَمَتْه، حتى يَهِيَ ما اشتدَّ من قُوَّته؛ وإياك والجودَ بدينك، والبخلَ بمالك؛ وإذا هزِزت فاْهزز كريماً يَلِنْ لِمَهَزَّتك؛ ولا تَهْزُز اللئيم فإنه صخرةٌ لا يتفجَّرُ ماؤها، ومثِّل بنفسك مثال ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه؛ فإن المرءَ لا يرى عَيْبَ نفسه؛ ومن كانت مودَّته بشره، وخَالَفَ منه ذلك فِعْلُهُ، كان صديقه منه على مِثْلِ الريح من تصرّفها.

ثم أمسكت، فدنوتُ منها، فقلت لها: بالله يا أعرابية، إلاّ ما زِدْتِهِ في الوصية؛ قالت: أو قد أعْجَبَكَ كلامُ العرب يا حَضَري؟ قلت: نعم! قالت: الغَدْرُ أقبح ما تعاملَ به الناسُ بينهم، ومَنْ جمع الحِلْمَ والسخاءَ فقد أجادَ الحُلّة رَيْطتَها وسِرْبَالها.

فقر في مدح السفر

أبو القاسم بن عباد الصاحب: الخبر المنقول أنَّ المقبوضَ غريباً شهيد. وفي الحديث: سافروا تَغْنَموا. السفرُ أحدُ أسباب العيش التي بها قِوامه، وعليها نِظَامه. إنَّ الله لم يجمَعْ منافعَ الدنيا في الأرض؛ بل فرَّقها وأحوجَ بعضها إلى بعض. المسافرُ يسمعُ العجائب، ويَكْسِبُ التجارِبَ، ويَجْلِبُ المكاسب. الأسفارُ مما تَزِيدك علماً بقدرة الله وحِكْمتِهِ، وتدعوكَ إلى شكر نعمته. ليس بينك وبين بلدٍ نَسَب؛ فخيرُ البلاد ما حملك.

السفرُ يُسْفِر عن أخلاق الرجال. أَوحِشْ أَهلَك إذا كان في إيحاشهم أُنْسُك، واهْجُرْ وطنَك إذا نبَتْ عنه نفسك. ربما أَسفر السفَرُ عن الظَّفَر، وتعذَّر في الوطن قضاءُ الوَطَرِ، وأنشد:

لَيْسَ ارْتِحَالُكَ تَزْتَادُ الغِنَى سَفَراً   بَلِ المُقَامُ على خَسْفٍ هو السَّفَرُ[(١)]

وهذا كقول الطائي[(٢)]:

وَمَا القَفْرُ بالبِيدِ الفضاءِ، بَلِ الَّتي   نَبَتْ بي وَفِيهَا سَاكِنُوهَا هِيَ القَفْرُ

أخذه المتنبي فقال[(٣)]:

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقَدْ قَدرُوا   أَلاَّ تُفَارِقَهُم فَالرَّاحِلُونَ هُمُ[(٤)]

نقيض ذلك في ذم السفر والغربة

في الحديث: إن المسافرَ وماله لَعَلَى، قلت: إلاّ ما وعفى الله، أي على هلاك. شيئان لا يعرِفهما إلا من ابْتُلي بهما: السفرُ الشاسع، والبناءُ الواسع. السفرُ والسَّقَمُ والقتال ثلاث متقاربة؛ فالسفرُ سفينة الأذى، والسَّقَمُ حَريقُ الجسد، والقتالُ مَنبتُ المنايا. إذا كنتَ في غير بلدك فلا تَنسَ نصيبك من الذّلّ. الغربةُ كُرْبة. النَّقلَة مَثْلة. الغريب كالغَرْسِ الذي زايل أرْضَه، وفقَد شِرْبَه؛ فهو ذَاوٍ لا يُثْمِر، وذابلٌ لا يَنْضر. الغريبُ كالوَحْشِ النائِي عن وطنه؛ فهو لكل سَبُعٍ فَرِيسةٌ، ولكل رامٍ رَمِيّة؛ وأنشد:

لَقُرْبُ الدار في الإقتارِ خَيْرٌ   مِنَ العيشِ المُوسَّع في اغترابِ[(٥)]

وقال أبو الفتح البُسْتِي[(٦)]:

---

(١) الخَسْفُ: الذلُّ أو الظُّلْمُ.

(٢) أبو تمام، الديوان: ٢/٤٧٧. والبيت من قصيدة يفخر فيها بقومه عند انصرافه من مصر. وفي الديوان: «بالبِيدِ القواء».

(٣) المتنبي، الديوان: ٢/٩٧. والبيت من قصيدة طويلة قالها في عتاب سيف الدولة، والردّ على قوم متشاعرين تحاملوا عليه.

(٤) أي: إذا رحلت عن قوم وهم قادرون على إرضائك حتى لا تضطر إلى مفارقتهم، فهم المختارون لفراقك، فكأنهم هم الراحلون عنك.

(٥) الإقتار: ضيق العيش.

(٦) هو أبو الفتح، علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي: شاعر ولد في بُسْت قرب سجستان، وإليها نسبته، وكان من كُتّاب الدولة السامانية في خراسان. مات غريباً =

لا يَعْـدَمُ المـرءُ شيئـاً يَستعيـنُ بـهِ وَمنعـهُ بيـن أَهْليـهِ وَأَصحـابِـهْ
وَمـنْ نـأَى عَنْهُـمُ قَلَّـتْ مَهَـابَتُـهُ كَـاللَّيْـثِ يَحْقـرُ لَمَّـا غـابَ عـن غَـابِـهْ

[العزل والإبعاد والحجب بعد التقريب والمؤانسة]

بين المهدي وأبي عبيد الله

كتب أبو عبيد اللّه إلى المهدي بعد عَزْلِه إياه عن الدواوين: لم يُنْكِر أميرُ المؤمنين حالي في قُرْبِ المؤانسة وخصوص الخلطة، وحالِي عنده قَبْلَ ذلك في قيامي بواجب خِدمَته، التي أَدْنَتْني من نعمته، فلم أُبَدِّل ـ أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ حال التبعيد، ويقرّب في محل الإقصاء، وما يعلمُ اللهُ مني فيما قلت إلاَّ ما علمه أميرُ المؤمنين، فإن رأى أكرمه الله أن يُعَارِض قولي بعلمه بدءًا وعاقبةً فعل إن شاء الله.

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه، فقال: ظلمنا أبا عبيد الله، فيردّ إلى حاله، ويُعْلَم ما تجدّد له من حُسْنِ رأيي فيه.

بين المأمون والفضل بن الربيع

ولما أمر المأمونُ أن يُحْجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألَّمَ قلبُه منه كتب إليه:

يا أميرَ المؤمنين! لم يُنْسِني التقريبُ حالي أيامَ التبعيد، ولا أغفلتني المُؤَانسةُ عن شكر الابتداء؛ فعلى أيِّ الحالين أبعد من أمير المؤمنين، ويَلْحَقُنِي ذمُّ التقصير في واجب خدمته؟ وأميرُ المؤمنين أعْدلُ شهودي على الصِّدْق فيما وَصَفْت؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين ألا يكتم شهادتي فَعل إن شاء الله.

بين المنصور وأبي مسلم الخراساني

وقال أبو جعفر المنصور لأبي مسلم حين أَزْمَع قَتْله: هل كُنتَ قبل قيامك بدولتنا جائزَ الأمْرِ على عَبْدين؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. قال: فلِمَ لَمْ تَعْرِض حالَيْ عُسْرتك ومَهانتك على أيامنا، وَتَعْرِف لنا ما يَعْرِفُ غَيْرُك من إجلالنا وإعظامنا، حتى لا ينازعك الحين عِنَان الطمأنينة؟ قال: قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين؛ ولكنَّ الزمانَ وإساءتَهُ قَلَبَا ما كان

= ببخارى سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: ٤/٣٤٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦٨/٢٢).

من حُسْنِ صنيعتي، قال: فلا مرغوبَ فيك، ولا مأسوفَ عليك، وفي الله خَلَفٌ منك! وأمر بقتله.

جملة من شعر أبي الفتح كشاجم في الأوصاف

من قوله في وصف أجزاء من القرآن الكريم

قال يصف أجزاء من القرآن:

مَنْ يَتُبْ خَشْيَةَ العقابِ فإنِّي ... تُبْتُ أُنْساً بهذهِ الأجزاءِ
بَعَثَتْنِي على القراءة والنُّسْـ ... ـكِ وما خِلْتُني مِنَ القُرَّاءِ
حِينَ جاءتْ تَرُوقني باعتدالٍ ... مِنْ قُدُودٍ وَصيغَةٍ واستواءِ
سَبْعَةٌ أَشْبَهَت لِيَ السبعةَ الأنـ ... ـجمَ ذاتَ الأنوارِ والأضواءِ[1]
كُسِيتْ من أَديمِها الحالِك اللَّوْ ... نِ غِشاءً أَحْبِبْ به من غِشَاءِ[2]
مُشْبِهاً صِبْغَةَ الشَّبابِ ولَمَّا ... تِ العَذارى وَلِبْسَةَ الخُطباءِ
وَرأتْ أَنها تَحْسُنُ بالضدِّ ... فَتَاهَتْ بِحِلْيَةٍ بيضاءِ
فَهي مُسْودَّةُ الظهورِ، وفيها ... نُورُ حقٍّ يَجْلُو دُجَى الظَّلْمَاءِ
مُطبقاتٌ على صحائفَ كالرَّيْـ ... ـطِ تُخُيِّرْنَ من مُسوكِ الظباءِ[3]
وَكأَنَّ الخطوط فيها رياضٌ ... شَاكِراتٌ صَنيعةَ الأَنْوَاءِ
وَكأَنَّ البياضَ والنُّقَطَ السُّو ... دَ عَبِيرٌ رَشَشْتَهُ في مُلاءِ
وَكأَنَّ العُشورَ والذَّهَبَ السا ... طعَ فيها كواكبٌ في سَماءِ
وَهي مَشْكُولةٌ بِعِدَّةِ أَشْكا ... لٍ وَمَقْروءةٌ على أَنْحاءِ
فإذا شِئْتَ كان حَمْزَةُ فيها ... وَإذا شِئْتَ كان فيها الكِسَائي
خُضْرةٌ في خلالِ حُمْرٍ وَصُفْرٍ ... بينَ تلكَ الأضْعَافِ والأَثْناءِ

---

(١) في رواية:
سَبْعَةٌ شُبِّهَتْ بها الأنـ ... ـجمُ السبعةُ ذاتُ الأنوارِ والأضواءِ
(٢) في رواية: «الحالك الجون».
(٣) الرَّيْطُ: جمع الرائطة: المُلاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، وكل ثوب ليِّن رقيق. والمسوك: جمع مَسْك، وهو الجلد. وفي رواية: «من متون الظباء».

مِثْـل مـا أَثَّـر الـدَّبيـبُ مـن الـذَّرّ   علـى جِلْـدِ بَضَّـةٍ عَـذْراءِ[١]
ضُمِّنـتْ مُحْكَـمَ الكتـابِ كِتَـابَ   الله ذي المَكْـرُمـات والآلاءِ
فَحقيـقٌ علـيَّ أنْ أَتلـوَ القـر   آنَ فيهـنَّ مُصْبِحِـي ومَسَـائـي

من قوله في وصف تخت حساب

وقال يصفُ التخت الذي يُضْرَب عليه حِسَاب الهند[٢]:

وَقلـمٍ مِـدادُهُ تُـرَابُ   فـي صُحُـفٍ سُطُـورُهـا حِسـابُ[٣]
يَكْثُـرُ فيهـا المَحْـوُ والإضـرابُ   مـن غيـر أنْ يُسَـوّدَ الكتـابُ[٤]
حَتّـى يَبِيـنَ الحـقُّ والصـوابُ   وَليـس إعجـامٌ ولا إعـرابُ
فيـه ولا شَـكٌّ ولا ارتيـابُ

من قوله يصف بركاراً

وقال يصف بَرْكاراً استهداه[٥]:

جُـدْ لـي بِبَـرْكَـارِك الـذي صَنَعَـتْ   فيـه يَـدَا قَيْنِـهِ الأعـاجيبـا[٦]
مُلْتَئِـمُ الشُّعبتَيْـن مُعْتَـدِلٌ   مـاشِيـنَ مـن جـانـبٍ ولا عِيـا[٧]
شَخْصـانِ فـي شَكْـلٍ وَاحـدٍ قـدرا   وَرُكّبـا بـالعقـولِ تَـرْكِيبـا
أَشبـه شيئيـن فـي اشتكـالِهمـا   بصـاحـبٍ لا يـزالُ مَصْحُـوبـا[٨]
أُوثِـقَ مِسْمـارُهُ وَغُيِّـبَ عَـنْ   نَـواظـرِ النـاقـديـن تَغْيِيبـا

---

(١) بَضَّ البدنُ بَضاضَةً وَبُضوضةً: امتلأ ونضر، ويقال: بَشْرَةٌ بَضَّةٌ وَبَضيضةٌ: رقيقة نضرة.
(٢) الأبيات في «العمدة في محاسن الشعر»: ٢/٢٩٩.
(٣) المداد: الحبر.
(٤) الإضراب: مصدر أضرب، وفي العُرْف: الكفّ عن عملٍ ما.
(٥) أنظر هذه الأبيات في «العمدة»: ٢/٢٩٩ ـ ٣٠٠، مضافاً إليها ستة أبيات لم ترد أعلاه.
(٦) البِركار: البَرْجَل، وهو آلة مركبة من ساقين متصلتين تُثَبَّتُ إحداهما، وتدور حولها الأخرى، ترسم بها الدوائر والأقواس، وهو في الفارسية: «پَرْكار». والقين: الحدَّاد.
(٧) في العمدة: «ملأم الشفرتين».
(٨) في العمدة: «في اشتباههما»، و «لا يَمَلُّ مَصْحُوبا».

فَعَيْنُ مَنْ يَجْتَلِيه يَحْسُبُهُ   في قالبِ الاعتدالِ مَصْبوبَا
قد ضَمَّ قَطْرَيه مُحْكِماً لهما   ضَمَّ مُحِبٌّ إليه محبوبا[1]
يَزْدادُ حِرْصاً عليه مُبصِره   ما زاده بالبَنانِ تَقْليبا
ذو مُقْلَةٍ بَصَّرتهُ مَذْهَبَهُ   لَمْ تَألُهُ رِقَّةً وتهذيبا[2]
ينظرُ فيها إلى الصوابِ فما   بها يزالُ الصوابُ مطلوبا[3]
لولاه ما صَحَّ خَطُّ دائرةٍ   ولا وَجَدْنَا الحسابَ محسوبا[4]
[الحَقُّ فيه فإن عَدَلْتَ إلى   سِواهُ كان الحسابُ تقريبا]
لَوْ عَيْنُ إقليدسٍ به بَصُرَتْ   خرَّ لهُ بالسجودِ مكبوبا
فابعَثْهُ واجْنُبْه لي بِمَسْطَرةٍ   تُلْفِ الهوَى بالثناءِ مَجْنُوبا[5]

من قوله يصف بيكاتا

وقال يصف بيكاتا[6]:

رَوْحٌ من الماءِ في جِسْمٍ من الصُّفُرِ   مُولّدٍ بلَطيفِ الحِسِّ والنظرِ
مُنْتَعِبرٌ لم يَغِبْ عن طَرْفِه سكنٌ   ولم يَبِتْ من ذَوِي ضِغْنٍ على حَذَرِ[7]
لَهُ على الظهرِ أَجفانٌ مُحَجَّرةٌ   وَمُقْلَةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ
تُنْشَا له حركاتٌ من أسافلهِ   كأنها حركاتُ الماءِ في الشجرِ
وَفي أعاليه حسبانٌ يُفَصِّلهُ   للناظرين بلا ذِهْنٍ ولا فِكَرِ
إذا بكى دارَ في أحشائهِ فَلَكٌ   خافي المسيرِ وإن لم يَبْكِ لم يَدُرِ
مُترجمٌ عن مَوَاقيتٍ يُخَبِّرُنا   بها فَيُوجَدُ فيها صادقُ الخبرِ

(١) في العمدة: «وَضَمَّ شَطْرَيْه».
(٢) في العمدة: «لم تأله زينةً وتذهيبا».
(٣) رواية العمدة:
ينظر منه إلى الصواب به   فلا يزال الصواب مطلوبا
(٤) في العمدة: «شَكْلُ دائرة».
(٥) في العمدة: «تَلْقَ الهوى».
(٦) روى صاحب العمدة هذه القطعة (٢/ ٣٠٠)، وذكر أنه يصف فيها بنكاماً، وهو ساعة الرمل.
(٧) في العمدة: «عن إلفه» و «لم يبت قَطُّ من طعنٍ على حذر».

تُقْضَى به الخمسُ في وَقْتِ الوجوب وإن غَطَّى على الشمس سِتْرُ الغَيْمِ وَالمَطَرِ
وَإن سَهِرْتُ لِأوقاتٍ تُؤَرِّقني عَرَفْتُ مقدارَ ما ألقَى من السَّهَرِ (١)
مُحَدَّدٌ كلَّ ميقاتٍ تخيَّرَهُ ذَوو التَّخَيُّرِ للأسفار والحَضَرِ (٢)
وَمُخْرِجٌ لكَ بالأجزاء ألْطَفَها من النهارِ وقوسُ الليلِ والسَّحَرِ
نَتيجةُ العلمِ والتفكيرِ صُورَتُهُ يا حَبَّذا أبْدع الأفكار في الصورِ (٣)

من قوله يصف اسطرلاباً

وقال يصفُ اسطرلاباً(٤):

وَمُستديرٍ كَجِرْم البَدرِ مَسْطوحِ عن كلِّ رافعةِ الأَشكالِ مَصْفُوحِ (٥)
صُلْبٌ يُدَارُ على قُطْبٍ يُثَبِّتُهُ تِمثالُ طرفٍ بِشُكْرِ الحذقِ مَكبُوحِ (٦)
مِلءُ البَنَانِ وقد أَوْفَتْ صَفائِحُهُ على الأقاليمِ من أقطارِهَا الفِيحِ (٧)
تُلْفى به السبعةَ الأفلاكَ مُحْدِقةً بالماء والنارِ والأرْضِينَ والريحِ (٨)
تُنْبيك عن طائحِ الأبرَاجِ هَيئَتُهُ بالشمس طَوْراً، وطَوْراً بالمصابيح (٩)
وَإن مَضَتْ ساعةٌ أو بعضُ ثانيةٍ عَرفْتَ ذاك بعلمٍ فيه مَشْرُوحِ (١٠)
وَإنْ تَعرَّض في وَقْتٍ يُقَدِّرهُ لكَ التَّشكُّكُ جَلَّاهُ بتصحيحِ

---

(١) في العمدة: «وإن سهرت لأسبابٍ».
(٢) في العمدة: «مُحرَّرٌ».
(٣) في العمدة: «نتيجة العلم والأفكار» و «يا حبذا بدعُ الأفكار».
(٤) الاسطرلاب أو الاصطرلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية، ومعرفة الوقت، والجهات الأصلية. والأبيات في العمدة: ٢/ ٤٤٤.
(٥) مصفوح: يقال صَفَّح الشيءَ: كساه بالصفيح أو الفولاذ.
(٦) في العمدة: «تمثال طرف بشكم الحذق مشبوح». وقد شكم الفرس ونحوه: وضع الشكيمة في فمه، والشُّكْمُ: العطاء على سبيل الجزاء والمكافأة. ومشبوح: مصلوب، وقد شبح الشيء شَبْحاً: بدا غير جَلِيٍّ.
(٧) الفيح: جمع أفيح وفيحاء: الواسع أو الواسعة.
(٨) في العمدة: «كأنما السبعة الأفلاك محدقةٌ».
(٩) في العمدة: «عن طالع الأبراج».
(١٠) في العمدة: «بعلمٍ منه».

مُمَيَّـزٌ فـي قيـاسـاتِ الضلـوعِ بـهِ بيـن المَشَـائِـم منهـا والمَنَـاجِيـحِ[١]
لـه علـى الظهـر عَيْنَـا حِكمـةٍ بِهِمَـا يَحْـوِي الضيـاء وَتُنْجِيـه مـن اللـوحِ[٢]
وَفـي الـدواويـن مـن أَشكـالـهِ حِكَـمٌ تَـنـقَّـح العقــلُ فيهـا أيَّ تَنْقيــحِ[٣]
لا يَسْتَقِــلُّ لمــا فيـه بمعــرفـةٍ إلَّا الحصيفُ اللطيفُ الْحِسّ والرُّوحِ[٤]
حَتَّى تـرى الغَيْبَ فيه وَهـو مُنْغلِقُ الْـ ـأَبـوَابِ عَمَّـنْ سِـواهُ جِـدّ مفتـوحِ[٥]
نَتيجـةُ الـذهـنِ وَالتفكيـر صَـوّرهُ ذَوُو العقـولِ الصحيحـاتِ المَرَاجِيحِ[٦]

* * *

أبو إسحاق الصابي
يهدي اسطرلاباً إلى عضد الدولة ويبعث معه بشعر

وكان أبو شجاع فَنَاخَسْرو عَضُدُ الدولة قد نكب أبا إسحاق الصابي، على تقدمه في الكتابة، ومكانه في البلاغة، واستصفى أمواله من غير إيقاعٍ به في نفسه، فأهدى إليه في يَوْم مهرجان اسطرلابا في دَور الدرهم، وكتب إليه:

أَهْدَى إليكَ بنـو الحـاجـاتِ واحْتَشَـدُوا فـي مِهْـرَجَـانٍ عظيـمٍ أَنْـتَ تُعْلِيـهِ
لَكِــنَّ عَبْـدَكَ إبـراهيـم حيـنَ رأى سُمُـوَّ قَـدْرِكَ عَـنْ شـيءٍ يُسَـامِيـهِ[٧]
لَمْ يَرْضَ بالأرض يُهْدِيها إليك، فقد أهْـدَى لـك الفَلَـكَ الأعْلَـى بمـا فيـهِ

* * *

(١) في العمدة: «مميزٌ في قياسات النجوم لنا». والمناجيح: يقال: أَنجح فلان: صار ذا نجاح، وأنجح الله طلبته: أظفره بها.
(٢) في العمدة: «ويجنيه من اللوح». واللوح: الهواء بين السماء والأرض.
(٣) في العمدة:
«وَفـي الـدَّوائِـر مِـنْ أَشْكَـالِـهِ حِكَـمٌ تُلَقِّــحُ الفَهْــمَ مِنَّــا أَيَّ تَلْقِيــحِ
(٤) في العمدة: «لما فيها بمعرفةٍ». والحصيف: المُحْكَمُ العقل، الجيد الرأي.
(٥) في العمدة: «حَتَّى تَرى الغَيْبَ عَنْهُ».
(٦) المراجيح: جمع مرجاح: الحليم. وفي العمدة: «نتيجة الدهر».
(٧) يُساميه: يُعاليه وَيُباريه.

[من أوصاف النساء]

لابن الرومي

وقولُ أبي الفتح: «ملء البنان... ... البيت» نظيرُ قولِ علي بن العباس الرومي يصف هَن[1] امرأة[2]:

يَسَعُ السبعة الأقاليم طُرًّا وَهو في أصبعين من إقليم
كَضَمِيرِ الفؤادِ يَلتَهِمُ الدنـ ـيا وتحويه دَفَّتَا حَيْزُومِ[3]

لبعض الشعراء يصف القلم

وإنما أخذه ابن الرومي من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً:

في كَفّهِ أَخْرَسُ ذُو مَنطقٍ بقافِهِ واللام والميمِ
شِبْرٌ إذا قِيسَ، وَلكنهُ في فِعْلِهِ مِثْلُ الأَقاليم
مُحذَّف الرَّأْسِ وَمُسْوَدُّهُ كإبرةِ الرَّوْقِ مِنَ الرِّيمِ[4]

قلب المعنى ليس من السرقة

وهذا البيت الأخير مقلوب من قول عدي بن الرقاع العاملي[5]، وقد وصف قَرْنَ ريم، وشبهه بقلم عليه مداد، وذكر ظبية:

تُزجِي أَغَنَّ كأنَّ إبرَةَ رَوْقِهِ قَلمٌ أصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقلبُ المعنى إذا تمكن الشاعرُ من إخفائه لا يَجْرِي مَجْرَى السرقةِ.

---

(١) الهن: الفرج.
(٢) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ١١٦. والبيتان من قصيدة طويلة قالها في ابن الخبازة وأمه بوران.
(٣) الحيزوم: الصدر.
(٤) روق الريم: قرن الظبي.
(٥) هو أبو داوود، عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع بن عاملة، ونسبه الناس إلى الرقاع جدّ جدّه لشهرته، وهو شاعر مقدم عند بني أمية، واختص بالوليد بن عبد الملك. توفي بدمشق سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥١٥؛ الأصفهاني، الأغاني: ٩/ ٣٠٠؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ١٦٦).

وقد ترى تكثيرَ الشعراءِ من تشبيه أوراك النسوان بالرَّملِ والكُثبان.

لشاعر يصف نساء بالعبالة والسمن

قال الشاعر:

وَبِيضٍ نَضِيرَاتِ الوُجُوهِ كأنَّما تَأَزَّرْنَ دُون الأُزرِ رَمْلاَتِ عالِجِ
خِدَالِ الشَّوَى لا تحتشي غير خَلقها إذا الرُّسْحُ لم يَصْبِرْنَ دون المَنَافِجِ[1]
يَذَرْنَ مُرُوطَ الخزِّ مَلأى كأنها قِصَارٌ وإنْ طَالَتْ بِأيْدِي النَّوَاسِجِ

وهذا المعنى مُتداوَل مُتناقَل في الجاهلية والإسلام، فأغرب ذو الرمة في قلبه وأحسن، فقال يصف رملا:

وَرَمْلٍ كأَوْرَاكِ العذارى قَطَعْتُهُ وَقدْ جَلَّلَتْهُ المُظلِمَاتُ الحَنَادِسُ[2]

لخالد بن يزيد بن معاوية

وكذلك مدحهم ضُمُورَ الكَشْح، وجولان الوُشُح، وصُمُوت القُلْب والخلخال، وامتناع الخِدَام من المَجَال؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية، وذكر رملة بنت الزبير بن العوام:

تَجُولُ خَلاخيلُ النساءِ، ولا أرَى لِرَمْلَةَ خَلْخَالاً يَجُولُ ولا قُلْبا[3]
أُحِبُّ بني العوَّام طُرًّا لِحُبّها وَمِنْ أَجْلِها أحببتُ أخوالها كَلْبا

للنابغة

وقال النابغة[4]:

على أَنَّ حِجْلَيْهَا وَإنْ قُلْتُ أوسعا صَمُوتانِ من مَلْءٍ وَقلَّةِ مَنْطِقِ

(١) خدال الشوى: ممتلئة الأطراف. والرسح: جمع رسحاء، وهي قليلة لحم العجز والفخذين. والمنافج: حشايا توضع فوق الأرداف.
(٢) الحنادس: جمع حندس: الظلمة، أو الليل الشديد الظلمة.
(٣) القُلْبُ: السوار.
(٤) لم نجد هذا البيت في ديوان النابغة، ولكن وجدنا بيتاً مفرداً يشبهه وزناً وقافية هو:
إذا غَضِبَتْ لَمْ يَشْعُر الحَيُّ أَنَّها غَضُوبٌ وإنْ نالتْ رِضىً لم تُزَهْزِقِ
ونظن أن البيتين قد قيلا في امرأة واحدة.

لأبي تمام الطائي

وقال الطائي[١]:

مَهَا الـوَحْـشِ إلاَّ أنَّ هَـاتَـا أَوانِـسٌ قَـنَـا الخـطِّ إلاَّ أنَّ تِلْـكَ ذَوَابِـلُ[٢]
مـن الهِيـفِ لـو أنَّ الخَـلاخيـلَ صُيِّـرَتْ لهـا وُشُحـاً جَـالـتْ عليهـا الخَـلاخِـلُ[٣]

لابن أبي زرعة الدمشقي

وقال ابن أبي زُرْعة الدمشقي:

اسْتَكْتَمَـتْ خَلْخَـالهـا ومَشَـتْ تَحْـتَ الظـلام بـه فَمـا نَطَقـا
حَتَّـى إذا رِيـحُ الصَّبَـا نَسَمَـتْ مَـلأَ العبيـرُ بِسَيْـرِهـا الطُّـرُقَـا

للمتنبي

وقال المتنبي[٤]:

وَخَصْـرٍ تَـثْـبُـتُ الأبصـارُ فيـهِ كـأَنَّ عليـهِ مـن حَـدَقٍ نِطَـاقَـا[٥]

لأبي عثمان الناجم

قَلَبَ هذا كله أبو عثمان الناجم، فقال يهجو قَيْنَة:

مَنْلُـولَـة الكُـلِّ غَيْـرَ بَطْـنٍ مُثقَّـلٍ فَهـي عَنْكَبُـوتُ
حُجـولُهـا الـدَّهْـرَ فـي اصْطِخَـابٍ وَوُشْحُهَـا كُظَّـمٌ صُمُـوتُ[٦]

وقال أبو عثمان يمدح قَيْنَة:

مُحْسِنَـةٌ فـي كـلِّ أَلْحَـانهـا لا كـالتـي تُحْسِـنُ فـي النَّـدْرَه[٧]

---

(١) لم نجد هذين البيتين في ديوانه (دار صادر).
(٢) قنا الخط: رماح مجلوبة من الخط، وهو موضع تنسب إليه الرماح. ورماح ذوابل: دِقاقٌ.
(٣) الوُشُحُ: جمع وشاح.
(٤) المتنبي، الديوان: ٢/ ٤٤. والبيت من قصيدة قالها في سيف الدولة الحمداني، وقد أمر له بفرس وجارية.
(٥) أي لشدة استحسان العيون له، تشخص إليه دائرة حوله حتى تصير كالنطاق عليه.
(٦) كُظُمٌ: جمع كاظم، وهو الممسك على ما في نفسه عند الغضب.
(٧) النَّدْرَةُ: الأحيان القليلة.

ثم قلبه في هجاء، فقال:

عَجِبْتُ منها وَيْحَها كيف لا تُخْطِىء بالإحسانِ في النَّدْرَه

لمحمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق

وهذا مأخوذٌ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق، وكان قد تقلد قضاءَ البصرة:

يا عجباً من خالدٍ كيْفَ لا يُخْطِىءُ فينا مَرَّةً بالصوابْ
كان قضاةُ الناسِ فيما مَضَى مِنْ رَحْمَةِ الله، وهذا عَذَابْ

لمسلم بن الوليد

وهذا أيضاً من قلب الهجاء مديحاً، والمديح هجاء؛ كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوماً:

قَبُحَتْ مَنَاظِرُهم فَحينَ خَبَرْتُهُمْ حَسُنَتْ مَناظرهم بِقُبْحِ المَخْبَرِ

للمتنبي

قلبه أبو الطيب المتنبي فقال(١):

وَأَسْتَكْثِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ(٢)

لأبي تمام

وقال أبو تمام(٣):

عبأَ الْكَمِينَ له فَضَلَّ لِحَيْنِهِ وَكَمِينُه المُخْفَى عليهِ كَمينُ(٤)

للبحتري

قلبه البحتري فقال(٥):

---

(١) المتنبي، الديوان: ١/٣٤٧. والبيت من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي.
(٢) في الديوان: «وأستكبر الأخبار». يقول: ما زلت استعظم ما يُذْكَرُ لي من أخباره حتى لقيته، فصغرت عندي تلك الأخبار بالنسبة إليه، لأني وجدته أعظم مما وصفوا.
(٣) أبو تمام، الديوان: ٢/١٦٦. والبيت من قصيدة يمدح بها الأفشين.
(٤) عبأ: جهز. الكمين: القوم يستخفون في مكمن ثم ينتهزون غرة العدو فينهضون عليه. حَيْنُهُ: هلاكه.
(٥) البحتري، الديوان: ١/٢٢٥. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا العباس بن بسطام.

لا يَيْـــأَسِ المـــرءُ أَنْ يُنَجِّيَـــهُ ما يَحْسَـبُ النـاسُ أَنـه عَطَبُـهْ[١]

لأبي تمام

وقال أبو تمام[٢]:

وَحْشِيَّـةٌ تَـرْمـي القلـوبَ إذا غَـدَتْ وَسْنَـى فمـا تَصْطَـادُ غَيْـرَ الصِّيـدِ[٣]

للبحتري

قلبه البحتري فقال[٤]:

علـى أننـي أَخشَـى علـى دارِ أَمْنِهـا فَـوارسَ يَصْطَـاد الفَـوارسَ صِيـدُهـا[٥]

لأبي تمام

وقال أبو تمام[٦]:

يُشْنَـأُ الغيـثُ وهـو جـدُّ حبيـبِ رُبَّ حَـزْمٍ فـي بِغْضـةِ المَـوْمُـوقِ[٧]

للبحتري

قلبه البحتري فقال[٨]:

---

(١) العَطَبُ: الهلاك، والفساد.
(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢١٩. والبيت من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد، ويعتذر له، ويستشفع بخالد بن يزيد.
(٣) وحشية: أراد أنها في حسنها كالوحشية، أو أنها تنفر من الريب. وَسْنَى: ناعسة من النعمة. الصيد: جمع أصيد، وهو الذي يرفع رأسه، أو يميل به كِبْراً.
(٤) البحتري، الديوان: ٢/ ٧٦. والبيت من قصيدة يمدح بها علي بن مرّة.
(٥) في الديوان:
علـى أَنني أَخْشَـى علـى دَارِ أَمْنِهـا بني الرَّوْعِ يَصْطَادُ القوارسَ صِيدُهَا
(٦) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٥٢. والبيت من قصيدة طويلة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف.
(٧) في الديوان: «تَشْنَأُ الغَيْثَ وَهْوَ حَقٌّ حَبِيبِ». وتشنأ: تبغض. الغيث: المطر. أي: تبغض المطر لأجل البرد وصعوبة الطرق. والحزم: حسن التدبير. والموموق: المحبوب.
(٨) البحتري، الديوان: ١/ ٢٢٥.

يَسُرُّني الشيء قَدْ يَسُوءكُمُ ... نَوَّهَ يَوْماً بِخَامِلٍ لَقَبُهْ[1]

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر: المعنى في المصراع الأول أَبْيَنُ منه في الثاني؛ ألا ترى أنه لو قال: إنه ليسوءك الشيء قد يسر، كان مثل ذلك المعنى مستوياً، إلا أنه قلبه لحاجته.

لابن الرومي

قال ابن الرومي يهجو مغنية[2]:

قَيْنَةٌ ملعونةٌ من أَجْلِها ... رَفَضَ اللَّهْوَ معاً مَنْ رَفَضَهْ
فإذَا غَنّت ترى في حَلْقِها ... كُلَّ عِرْقٍ مثل بَيْتِ الأَرَضَهْ[3]

لابن المعتز

فقلبَهُ ابن المعتز فقال يصف أَرَضة أكلت له كتاباً.

تَثْني أَنابيبَ لها فيها سَبَلْ ... مِثْلَ العُروقِ لا تَرَى فيها خَلَلْ

وهذا كثير يُكْتَفَى منه باليسير.

[من المعاني ما لا ينقلب]

بعض ما أخذ على أبي نواس

ومن المعاني ما لا ينقلب: ألا تَرَى أنك تقول: نام القوم حتى كأنهم موتى، ولا يحسن أن تقول: ماتوا حتى كأنهم نيام؛ وقد أُخِذ على أبي نواس قوله يصف داراً وقف بها:

كأنها إذ خَرِسَتْ جَارِمٌ ... بَيْنَ يَدَيْ تَفْنِيدِهِ مُطْرِقُ[4]

---

(١) نَوَّهَ بفلان أو باسمه: شَهَرَهُ ورفع ذِكْرَهُ وعَظَّمهُ، وَنَوَّه بالحديث: أَشاد به وأَظهره. والخامل: الخَفيُّ الساقط الذي لا نباهة له.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٥٢.

(٣) في الديوان: «فإذا غَنَّتْ بدا في جيدها». والأرضة: دويبة قارضة تعيش في مختزن الثياب والورق والخشب.

(٤) الجارم: المذنب، الذي اقترف جُرْماً، أو جنى جنايةً. والتفنيد: التكذيب. والمُطْرِقُ: الذي يُميل رأسه إلى صدره ويسكت فلا يتكلم، أو هو الساكت لحيرة أو خوف.

قالوا: إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حُجَّتُه بالدار الخالية التي لا تُجيب.

وأخذوا عليه قوله:

كـأن نِيـرانـنـا فـي جَنْـبِ حِصْنِهِـمُ ... مُعَصفـراتٌ علـى أَرْسَـانِ قَصَّـارِ[١]

وقد تبعه أبو تمام الطائي فقال في الأفشين لما أحرق[٢]:

مـا زالَ سِـرُّ الكُفْـرِ بَيْـنَ ضُلُـوعِـه ... حتـى اصْطَلَـى سِـرَّ الـزِّنـادِ الـوَارِي[٣]

نَـارٌ يُسـاورُ جِسْمَـهُ مِـنْ حَـرِّهـا ... لَهَـبٌ كمـا عَصْفَـرْتَ شِـقَّ إزارِ[٤]

طَـارَتْ لـه شُعَـلٌ يُهَـدِّم لَفْحُهـا ... أَركـانَـهُ هَـدْمـاً بِغَيْـرِ غُبَـارِ[٥]

فَصَّلْـنَ منـه كـلَّ مَجْمَـعِ مَفْصِـلٍ ... وَفعلْـنَ فَـاقِـرةً بِكُـلِّ فَقَـارِ[٦]

صَلَّـى لهـا حَيًّـا، وكـان وَقُـودَهـا ... مَيْتـاً، وَيَـدْخُلهـا مـع الكُفَّـارِ[٧]

وَكـذاك أَهْـلُ النـارِ فـي الـدنيـا هُـمُ ... يَـوْمَ القيـامـةِ جُـلُّ أهْـلِ النَّـارِ[٨]

أردت البيت الثاني، قالوا: وإنما تشبه الثيابُ المعصفرة بالنار؛ فهذا وما أشبهه لا يتوازنُ انعكاسه، وتتضادّ قضاياه؛ وإنما يصح القلبُ فيما يتحقق تضادّه أو يتقارب.

---

(١) القَصَّارُ: المُبَيِّضُ للثياب.

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٣٩.

(٣) اصطلى: لقي النار. الواري: المشتعل.

(٤) في الديوان: «ناراً». يـاور: يواثب. عصفرت: صبغت بالعصفر، وهو نبت صبغه أصفر. شق إزار: أي نصف إزار. يقول: إن لهب النار كان يثب إلى الخشب المصلوب عليه الأفشين فيوقده طولاً، يُشبّهُ اشتعال الجانب الذي استند إليه الجسم بإزارِ عُصْفِرَ أَحد شِقَّيْهِ طولاً.

(٥) في الديوان: «طارت لها». لفحها: إحراقها. بغير غبار: أي دون أن يثير تهدمها غباراً.

(٦) فصَّلن: الضمير يعود إلى الشعل. الفاقرة: الداهية تكسر الفقار، وهي خرزات الظهر. أي إن شعل النار فصلت مفاصله، وفككت فقرات ظهره.

(٧) صلَّى لها حيًّا: أي للنار. وكان وقودها ميتاً: أي وقوداً للنار التي أوقدت لحرقه. يدخلها مع الكفار: أي نار جهنم. وهذا نوع من البديع المعنوي، يقال له: الاستخدام، فقد استخدم النار لثلاث معانٍ: نار المجوس، ونار الإحراق، ونار جهنم. وفي الديوان: «مع الفُجَّارِ».

(٨) أهل النار في الدنيا: أي المجوس وأهل النار وَعُبَّادُها. جُلُّ: أكثر. أهل النار الثانية: سكان جهنم.

قطعة من شعر أهل العصر في ذكر النجوم

لأبي الفتح البستي

قال أبو الفتح البستي:

قَدْ غَضَّ مِن أملي أني أرى عَمَلي ... أَقْوَى من المُشْتَري في أوَّلِ الحَمَلِ
وَأَنني رَاحِلٌ عمّا أُحَاوِلُهُ ... كأنني أَسْتَدِرُّ الحظَّ من زُحَلِ

وقال:

إذا غدا مَلِكٌ بِاللَّهْوِ مُشْتَغِلاً ... فَاحْكُم على مُلْكِه بالوَيْلِ والحرَبِ
أَلم تَرَ الشَّمْسَ في الميزان هَابِطةً ... لما غدا بُرْجُ نَجْمِ اللَّهْوِ والطَّرَبِ

وقال:

وَقد تُدْنِي الملوكُ لَدَى رِضَاهَا ... وَتُبْعِدُ حين تَحْتَقِدُ احْتِقَادا[١]
كما المَرِّيخُ في التثليثِ يُعْطي ... وَفي التَّرْبِيعِ يَسْلُبُ ما أَفَادا

وقال:

ألا فَثِقُوا بي فإنِّي كَما ... تَمَدَّحْتُ فَلْيمتحن مَنْ يُحِبْ
فما كَوْكَبي راجعاً في الوفاءِ ... وَلا بُرْجُ قلبيَ بِالمُنْقَلِبْ[٢]

وقال:

لَئِنْ كَسَفُونا بلا عِلَّةٍ ... وَفازتْ قِداحُهُمُ بالظفَرْ
فَقد يَكْسِفُ المرءَ مَنْ دُونَهُ ... كما يَكْسِفُ الشَّمْسَ جِرمُ القَمَرْ

وقال:

شَرَفُ الوَعْدِ بِوَعْدِ مِثْلِهِ ... مِثْلُ ما فيهِ بزيغٍ وخَلَلْ[٣]

---

(١) في «يتيمة الدهر» للثعالبي: «تحتفد احتفاداً»، والحفد: التسرع أو الاستخدام.
(٢) في اليتيمة: «فلا كوكبي راجعٌ في الوفا».
(٣) في اليتيمة: «شرف الوعد بوعد مثله».

وَدليلُ الصدقِ فيما قُلْتُهُ شَرَفُ المرّيخِ في بيتِ زُحَلْ

وقال:

قُلْ للذي غَرَّتْهُ عِزَّةُ مُلْكِهِ حتى أَخَلَّ بِطاعةِ النُّصَحاءِ
شَرَفُ الملوكِ بِعلْمِهِمْ وَبِرأْيِهِمْ وَكذاك أوْجُ الشمسِ في الجوزاءِ

وقال:

وَقَدْ يَفْسُدُ المَرْءُ بعد الصَّلاحِ فَسادَ الأماكنِ، والشرُّ يُعْدِي
كما السَّعْدُ يَقْبَل طَبْعَ النُّحوسِ إذا كان في مَوْضِعٍ غَيْرِ سَعْدِ

وقال:

ما أُنْسُ ظمآنٍ بماءٍ باردِ من بَعْدِ طولِ العهد بالمواردِ
إلا كأُنْسي بِكتابٍ واردِ مِنْ سَيّدٍ مَحْضِ النِّجار ماجِدِ[١]
كأنما اسْتَمْلاهُ مِنْ عُطاردِ

وقال:

يا مَعْشَرَ الكُتَّابِ لا تَتَعَرَّضُوا لِرياسةٍ، وَتصَاغَرُوا وتَخَادَمُوا
إن الكَواكبَ كُنَّ في أَشْرافِها إلا عُطاردَ حِينَ صُوِّرَ آدَمُ

وقال:

دَعَاني إلى بَيْتِه سيّدٌ لَهُ الْخُلُقُ الأشرفُ الأظرفُ
فلازَمْتُ بيتي وَلاطَفْتُهُ بِعُذْرٍ هو الأَظْرَفُ الأطرفُ
عُطَارِدُ نَجْمي، وَلا شَكّ أَنْ عُطاردَ في بَيْتِهِ أَشْرَفُ

وقال:

لَئِنْ تَنَقَّلْتُ مِنْ دارٍ إلى دارِ وَصِرْتُ بعد ثَوَاءٍ رَهْنَ أسفارِ[٢]
فَالحرُّ حرٌّ عزيزُ النفس حيث ثَوَى والشَّمْسُ في كل بُرْجٍ ذاتُ أنوارِ

---

(١) محض النجار: صافي الأصل.
(٢) الثواء: الإقامة.

وقال:

لَئِنْ صَدَّعَ الدهرُ المُشَتِّتُ شَمْلَنا ... وَلِلدَّهْرِ حُكْمٌ للجميعِ صَدُوعُ[١]

فلِلنَّجْمِ مِن بعد الرجوعِ استقامةٌ ... وَللشمسِ من بعد الغروبِ طُلوعُ

وقال لمحبوس:

حُبِسْتَ وَمِنْ بعد الكُسوفِ تَبَلّجٌ ... تُضيءُ به الآفاقُ لِلبَدْرِ وَالشمسِ[٢]

فلا تَعْتَقِدْ للحبسِ غمًّا وَوَحْشَةً ... فأَوّلُ كَوْنِ المرءِ في أضْيَقِ الحَبْسِ

وقال أيضاً:

يا من تَولَّى المُشْتَرِي تَدْبِيرَهُ ... حَاشَاكَ أَنْ تَنْقَادَ لِلمرّيخِ

وقال:

لا تَفْزَعَنْ من كُلِّ شيء مُفْزِعٍ ... ما كلُّ تدبيرِ البُروجِ بِضَائِرِ

وقال يرثي أبا القاسم الصاحب:

فَقَدْناهُ لما تمَّ واعتمَّ بالعُلاَ ... كذاك كُسوفُ البدرِ عند تَمامِهِ

لابن دوست

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست[٣] لأبي الفضل الميكالي:

إذا ما غَابَ وَجْهُ البَدْرِ عَنَّا ... فَوَجْهُكَ عِنْدَنَا البَدْرُ المُقِيمُ

فَإِنْ رَجَعَتْ نُجُومُ السَّعْدِ يَوْماً ... فَوَجْهُكَ نَجمُ سَعْدٍ مُستقيمُ

لمسكويه

وقال مسكويه الخالدي:

لا يُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ القصرِ تَنْزِلُهُ ... فَضيلةُ الشمسِ لَيْسَتْ في مَنازِلِها

---

(١) صدعهم الدهر: فَرَّقهم.

(٢) التَّبَلُّجُ: الوضوح والإنارة، ومنه: بَلَجَ الصبح بُلُوجاً: أَسفر فأنار.

(٣) هو أبو سعيد، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عزيز، الحاكم، المعروف بـ «ابن دُوسْت»: عالم بالعربية من أهل خراسان. أخذ اللغة عن الجوهري، وأخذ عنه الواحدي. وكان أَصمّ. توفي سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م. (الزركلي، الأعلام: ٣/ ٣٢٦).

لَوْ زِيدَتِ الشمسُ في أَبراجها مائةً ... ما زادَ ذلك شَيْئاً في فَضائِلها

للخوارزمي

وقال أبو بكر الخوارزمي:

رَأَيْتُكَ إن أَيسرت خَيَّمْتَ عندنا ... لِزاما، وَإنْ أعْسَرت زُرْتَ لِماما[1]
فما أَنْتَ إلا البدرُ: إن قلَّ ضَوْءُهُ ... أغَبَّ، وإن زادَ الضياءَ أَقاما

للصولي

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات:

أَسَدٌ ضَارٍ إذا مَانَعْتَهُ ... وَأبٌ بَرٌّ إذا ما قَدِرَا
يَعْرِفُ الأَبعدَ إن أَثْرى، ولا ... يَعْرِفُ الأَدنى إذا ما افْتَقَرا

لابن المعتز

وقال ابن المعتز:

إذا ما أراد الحاسدون انْهِدامَهُ ... بَنَاهُ إلٰهٌ غالبُ العزّ قَاهِرُهْ
وَماذا يُريد الحاسدون مِن امرئٍ ... تَزِينُهُمُ أَخلاقُهُ وَمآثِرُهْ[2]
إذا ما هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدى لافْتِقارهِمْ ... وَلا تهتدي يَوْماً إليهم مَفَاقِرُهْ[3]
وَكانوا كَرَامٍ كَوْكَباً بِبُصَاقِهِ ... فَرُدَّ عليهم وَبْلُهُ وَمَوَاطِرُهْ[4]

وهذا البيت كما قال بعض العرب في إحدى الروايات:

رَماني بِأَمرٍ كُنْتُ منه وَوَالدي ... بَرِيًّا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَاني

الجُوَل والجَال: الناحية، والطويّ: البئر؛ يريد رماني بما عاد عليه، والرواية المشهورة: ومن أجل الطَّوِيّ، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز.

---

(١) اللِّمامُ: اللقاء اليسير، وزار لِماماً: في الأحايين.
(٢) المآثر: جمع مَأْثُرة، وهي المَكْرُمَةُ المتوارثة.
(٣) المفاقر: وجوه الفقر، يقال: سَدَّ الله مفاقره: أغناه.
(٤) الوَبْلُ: المطر الشديد، الضخم القطر.

[الأصمعي وبعض الأعراب]

قال بعضُ الرواة: كنا مع أبي نصر رَاوِية الأصمعي في رياضٍ من المذاكرة نَجْتَني ثمارَها، ونَجْتَلِي أنوارَها، إلى أن أفَضْنَا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعي؛ فقال: رحم اللهُ الأصمعيّ! إنه لَمَعْدِنُ حِكَم، وبَحْرُ عِلْم، غيرَ أنه لم نر قطّ مثلَ أعرابي وقف بنا فسلّم، فقال: أيكم الأصمعي؟ فقال: أنا ذاك، فقال: أتأذنون بالجلوس؟ فأذِنّا له، وعجبنا من حُسْن أدبه مع جفاء أدب الأعراب.

قال: يا أصمعي، أنتَ الذي يزعمُ هؤلاء النَّفر أنك أثقبُهم مَعْرِفةً بالشعر والعربية، وحكايات الأعراب؟ قال الأصمعي: فيهم مَنْ هو أعلم مني، ومَنْ هُوَ دوني، قال: تنشدونني من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسَهُ على شعر أصحابنا؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك:

أَمَسْلَمَ أنتَ البحرُ إن جاءَ واردٌ ... وَليثٌ إذا ما الحربُ طَارَ عُقَابُها
وَأَنت كَسَيْفِ الهِنْدُوانيّ إن غَدَتْ ... حَوادثُ من حَرْبٍ يَعبُّ عُبابُها[١]
وَما خُلِقَتْ أُكْرومَةٌ في امْرِئٍ لَهُ ... وَلا غايَةٌ إلاّ إليكَ مَآبُها[٢]
كَأَنَّكَ دَيّانٌ عليها مُوَكَّلٌ ... بها، وعلى كَفَّيكَ يَجْرِي حِسابُها[٣]
إليك رَحَلْنَا العِيسَ إذْ لم نَجِدْ لَهَا ... أَخا ثِقَةٍ يُرْجَى لَديهِ ثَوابُهَا

قال: فتبسَّم الأعرابي، وهزَّ رأسه، فظنّنا أنّ ذلك لِاسْتِحْسانه الشعر، ثم قال: يا أصمعيّ؛ هذا شعرٌ مُهَلْهلٌ خَلَقُ النَّسج، خَطَؤُهُ أكثرُ من صوابه، يغطي عيوبَه حسنُ الرَّوِيّ، ورواية المنشد؛ يُشَبِّهون الملك إذا امْتُدح بالأسد، والأسد أبْخَر شَتِيمُ المَنْظَر[٤]، وربما طرده شِرْذِمَةٌ من إمَائِنا، وتَلاَعَب به صِبْيانُنا، ويشبهونه بالبحر، والبحرُ صَعْبٌ على مَنْ رَكبه، مُرٌّ على من شربه، وبالسيف وربما خان في الحقيقة، ونَبَا عند الضَّريبة! ألا أنشدتني كما قال صبيٌّ من حيّنا! قال الأصمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده:

---

(١) العُباب: كثرة الماء والسيل، وارتفاع الموج واصطخابه، وعبَّ البحر عُباباً: ارتفع موجه واصطخب، ومنه يقال: عَبَّ عُبابُهُ، لمن مَرَّ في كلامه فأكثر.
(٢) الأكرومة: الفعلة الكريمة. والمآب: المرجع.
(٣) الديّان: القاضي أو الحاكم أو الحاسب، أو المجازي بالخير والشرّ. والديّان (في الأصل): اسم من أسماء الله تعالى.
(٤) البخر: الرائحة الكريهة من الفم. وشتيم المنظر: كَرِيهُهُ.

إذا سَألتَ الوَرَى عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ لم يُعْزَ إكرامُها إلا على الهَوْلِ(١)
فَتًى جَوادٌ أذابَ المالَ نائِلُهُ فَالنَّيْلُ يُشْكَرُ منه كَثْرَةَ النَّيْلِ
الموتُ يَكْرَهُ أَنْ يلقى مَنِيَّتَهُ في كَرِّهِ عِنْدَ لَفِّ الخَيْلِ بالخَيْلِ(٢)
وَزاحمَ الشمسَ أَبقى الشمسَ كاسِفةً أو زاحم الصُّمَّ أَلْجَاها إلى المَيْلِ
أَمضَى من النجمِ إن نابَتْه نَائِبةٌ وَعِنْدَ أعدائِه أجْرَى من السَّيْلِ
لا يَسْتَريحُ إلى الدنيا وَزينَتِهَا وَلا تَراهُ إليها سَاحِبَ الذَّيْلِ
يُقَصِّرُ المجدُ عَنْهُ في مَكارمِهِ كما يُقَصِّرُ عَنْ أَفعالِهِ قَوْلِي!

قال أبو نصر: فأَبْهَتَنَا والله ما سمعنا من قوله، قال: فتأنَّى الأعرابي، ثم قال للأصمعي: ألا تنشدني شعراً ترتاحُ إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟ فأنشده لابن الرِّقاع العاملي:

وَناعمةٍ تَجْلُو بِعُودِ أَراكةٍ مُؤَشَّرَةٍ يَسْبي المُعَانِقَ طِيبُها(٣)
كأنَّ بها خَمْراً بماءِ غَمامةٍ إذا ارْتُشِفَتْ بعد الرّقادِ غُروبُها
أَراكَ إلى نَجْدٍ تَحِنُّ، وَإنما مُنَى كلِّ نفسٍ حَيْثُ كان حَبيبُها

فتبسَّم الأعرابي وقال: يا أصمعي، ما هذا بدون الأول، ولا فوقه، ألا أنشدتني كما قلت؟ قال الأصمعي: وما قلت؟ جعلت فداك! فأنشده:

تَعلَّقْتُها بِكْراً، وَعُلِّقْتُ حُبَّها فَقلبيَ عن كُلِّ الوَرَى فارغٌ بِكْرُ(٤)
إذا احْتَجبَتْ لم يَكْفِكَ البَدْرُ ضَوْءَها وَتكْفيكَ ضَوْءَ البدر إن حُجِبَ البَدْرُ
وَما الصبرُ عنها، إنْ صَبَرْتَ، وَجَدْتَهُ جَميلاً، وَهلْ في مثلها يَحْسُنُ الصَّبْرُ؟
[وَحَسْبُكَ من خَمْرٍ يَفُوتُك رِيقُها وَوالله ما مِنْ رِيقها حَسْبُكَ الخَمْرُ]
وَلو أَنّ جِلْدَ الذَّر لامَسَ جِلْدَها لَكانَ لِمَسِّ الذَّر في جِلْدِها أَثْرُ(٥)
وَلَوْ لم يكُنْ لِلبَدْرِ ضِدًّا جَمالُها وَتَفْضُلُهُ في حُسْنِها لَصَفا البَدْرُ

---

(١) لم يُعْزَ: لم يُنْسَب.
(٢) الكَرُّ: الرجوع.
(٣) مؤشرة: في أسنانها أُشُرٌ، وهو التحزيز في الأسنان خِلْقةً أو صناعةً، وقد أشرت أسنانها: حَزَّتها ورققت أطرافها.
(٤) تعلقتها: أحببتها. والبكر: العذراء.
(٥) الذَّرُّ: النَّمْلُ.

قال أبو نصر: قال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَى[١] في رِقاق الأكباد!.

قال: وأقامَ عندنا شهراً، فجمَع له الأصمعيُّ خمسمائة دينار، وكان يتعاهدنا في الْحِين بعد الْحِين، حتى مات الأصمعي وتفرّق أصحابنا!.

فِقَرٌ من كلام الأعراب في ضروب مختلفة

قال الجاحظ: ليس في الأرضِ كلامٌ هو أمْتَع، ولا أنْفَع، ولا آنَقُ، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشدّ اتّصالاً بالعقول السليمة، ولا أفْتَق لِلّسان، ولا أجود تقويماً للبيان، من طُولِ استماع حديث الأعراب العقلاءِ الفصحاءِ.

قال ابنُ المقفع، وقد جرى ذِكْرُ الشعرِ وفضيلته: أي حكمة تكون أبلغ، أو أحسن، أو أغرب، أو أعجب، من غلام بدويّ لم ير رِيفاً، ولم يشبع من طعام؛ يستوحشُ من الكلام، ويَفْزَع من البشر، ويأوِي إلى القَفْرِ واليرابيع[٢] والظِّباء، وقد خالط الغِيلاَن، وأنِسَ بالجانِ؛ فإذا قال الشعر وصف ما لم يَرَه، ولم يُغَذَّ بِهِ ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها، ويمدح ويهجو، ويذمّ ويعاتب، ويشبّب ويقول ما يُكتبُ عنه، ويروى له، ويبقى عليه.

وقال بعض الأعراب:

وَإنّـي لأَهْـدَى بـالأوانـس كـالـدُّمـى ... وَإنـي بـأطـرافِ القَنَـا لَلَعُـوبُ[٣]
وَإنّـي علـى مـا كـانَ مـنَ عُنْجُهيّتـي ... وَلُـوثَـةِ أعـرابيتـي لأَدِيـبُ[٤]

كأنَّ الأدبَ غريبٌ من الأعراب، فافتخر بما عنده منه.

وقال الطائي في فطنتهم، يستعطف مالك بن طَوْق على قومه بني تغلب[٥]:

---

(١) المُدَى: جمع مُدْيَة، وهي السِّكِّين.
(٢) اليرابيع: جمع يربوع، وهو حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير، له ذنب طويل، ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين طويل الرجلين.
(٣) الأوانس: جمع آنسة، وهي الفتاة الجميلة التي يُؤنس بحديثها وجمالها. والقنا: الرماح. وقوله: «لأهدى» أي: لأعرف، أي لأَشدُّ معرفةً.
(٤) العُنْجُهيَّةُ: الكِبْرُ والعظمة والجفاء. واللَّوْثَةُ: الحُمْقُ والهَيْجُ.
(٥) أبو تمام، الديوان: ١/١٠٧.

لا رِقَّةُ الحَضْرِ اللَّطيفِ غَذَتْهُمُ وَتباعدوا عَنْ فِطْنَةِ الأعرابِ[1]
فإذا كَشَفْتَهمُ وَجدْتَ لَديْهِمُ كَرَمَ النفوسِ وَقِلَّةَ الآدابِ

ووصف أعرابي رجلاً فقال: هو أطهرُ من الماء، وأرقُّ طباعاً من الهواء، وأمضى من السيل، وأهدى من النّجم.

ووصف أعرابيّ رجلاً فقال: ذاك والله من ينفع سِلْمُه، وَيَتَوَاصَفُ حِلْمُه، ولا يُسْتَمْرَأُ ظُلْمُه.

وقال أعرابي: جلستُ إلى قومٍ من أهل بغداد فما رأيتُ أَرجَحَ من أحلامهم، ولا أطيَشَ من أقلامهم.

وذكر أعرابي من بني كلاب رجلاً فقال: كان واللهِ الفهمُ منه ذا أُذَنين، والجواب ذا لِسَانين؛ ولم أرَ أحداً أرْتقَ لخلَلِ رَأْي، ولا أبعد مسافة رويّة، ومَرادَ طَرْفٍ منه؛ إنما كان يرمي بهمّته حيث أشار إليه الكرم، وما زال يتحسَّى مرارةَ أخلاق الإخْوَان، ويسقيهم عذوبةَ أخلاقه.

وذكر أعرابيٌّ رجلاً فقال: والله لكأنّ القلوبَ والألسُن رِيضَتْ له، فما تُعقَد إلا على وُدِّه، ولا تنطق إلاَّ بحمده.

وقال أعرابي: أقبحُ أعمال المقتدرين الانتقامُ، وما استنبط الصوابُ بمثل المُشَاوَرة، ولا اكتُسِبت البغضاءُ بمثل الكبر.

قال الأصمعي: وخطَبنا أعرابي بالبادية، فقال: أيُّها الناس؛ إن الدنيا دارُ مفرّ، والآخرة دار مقرّ؛ فخذوا من مفرِّكم لِمقَرِّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسرارُكم.

قال المعافر بن نعيم: وقفتُ أنا ومعبد بن طوق العنبري على مجلس لبني العنبري، وأنا على ناقة وهو على حمار، فقاموا فبدءوني فَسَلَّمُوا عليّ؛ ثم انكفئوا على معبد، فقبض يده عنهم؛ وقال: لا، ولا كَرَامة! بدأتم بالصغير قبل الكبير، وبالمَوْلَى قبل العربيِّ، وبالمُفْحَم قبل الشاعر، فأسكت القومُ، فانبرى إليه غلام، فقال: بدَأْنا بالكاتب قبل الأُميّ، وبالمهاجر قبل الأعرابي، وبراكبِ الراحلة قبل راكب الحمار.

---

(١) يقول: إنهم لم يتغذوا برقة الحضر، ولم تكن لديهم فطنة الأعراب، فهم قليلو الخبرة بالأمور.

ووصف أعرابي قومَه فقال: لُيُوثُ حَرْب، وغُيوث جَدْب، إنْ قاتلوا أَبْلَوْا، وإنْ بذلوا أَغْنَـوْا.

ووصف أعرابي قوماً فقال: إذا اصطفُّوا سفَرَتْ بينهم السهام، وإذا تَصافَحُوا بالسيوف فَغَر فَمَه الْحِمامُ.

وسُئل أعرابيٌّ عن صديق له، فقال: صَفِرَت عِيَابُ الودّ[1] بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرّتْ وجوهٌ كانت بمائها.

وقال الأصمعي: وسمعت أعرابياً يقول: إنَّ الآمالَ قَطَعَتْ أعناقَ الرجال، كالسراب غَرَّ مَنْ رآه، وأخلف من رَجَاه، ومَنْ كان الليلُ والنهار مَطِيَّته أسرعا السير والبلوغ به.

وَالمــرءُ يَفْــرَحُ بِــالأيــام يَقْطَعُهــا ... وَكـلُّ يـومٍ مضـى يُـدْني مـن الأَجَـلِ

وذكر أعرابيٌ مصيبة نالَتْهُ، فقال: إنها والله مصيبة جعلت سُودَ الرُّؤوس بيضاً، وبيضَ الوجوه سودا، وهوّنت المصائب، وشيَّبَت الذوائب.

وهذا كقول عبد الله بن الزُّبَيْرِ الأسدي[2]:

رَمَــى الحِــدْثَــانُ نِسْــوَةَ آل حَــرْبٍ ... بِمِقْــدَارٍ سَمَــدْنَ لَــه سُمُــودَا[3]
فَــردَّ شُعــورَهُــنَّ السُّــودَ بيضــاً ... وَردَّ وُجــوهَهُــنّ البيــضَ سُــودا
وَإنّــكَ لــو رَأَيْــتَ بُكــاءَ هِنْــدٍ ... وَرَمْلَــةَ إذ تَصُكَّــانِ الخــدُودَا
بَكَيْــتَ بُكــاءَ مُعْــوِلَــةٍ حَــزِيــنٍ ... أَصــابَ الــدهــرُ وَاحِــدَهــا الفقيــدا

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبياض، وإن لم يكن من هذا المعنى، قولُ ابن الرومي[4]:

يــا بَيَــاضَ المَشِيــبِ سَــوَّدْتَ وَجْهِـي ... عِنْـدَ بِيـضِ الـوُجـوهِ سُـودِ القـرونِ[5]

---

(١) صَفِرَت: خلَت. وعياب الود: الصدور والقلوب.

(٢) هو أبو كثير، عبد الله بن الزبير بن الأشم الأسدي: شاعر مكثر مجيد، من شعراء الدولة الأموية. عمي في أواخر عمره، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٤/ ٢٠٨؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٤٦١).

(٣) سَمَدْنَ: تلوّت له رؤوسهن، وسمد فلان: قام متحيراً. وهذا البيت والذي يليه في العمدة: ٢/ ٦.

(٤) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٢٣٠.

(٥) أي عند النساء. والقرون: جمع قَرْن، وهو من رأس المرأة: جانبه.

فَلَعَمْـرِي لأُخفينَّـكَ جَهْـدِي عـن عِيـانـي وَعـنْ عِيـان العُيـونِ
وَلعَمْـري لأَمنعنَّـكَ أن تَضْـحَـكَ فـي رَأْسِ آسـفٍ مَحْـزُونِ(١)
بِسـوادٍ فيـه ابْيِضَـاضٌ لِـوَجْهـي وسَـوادٌ لِـوَجْهِـكَ المَلْعُـونِ(٢)

سأل أعرابيان رجلاً، فحرمهما، فقال أحدُهما لصاحبه: نزلتَ والله بوادٍ غير ممطور، وأتيتَ رجلاً بك غير مسرور، فلم تدرك ما سألْت، ولا نِلْتَ ما أمَّلْت؛ فارتَحِلْ بندم، أو أَقم على عَدَم.

قال الأصمعي: وسمعتُ أعرابياً يقول: غَفَلْنا ولم يَغْفُلِ الدهرُ عنا، فلم نَتَّعِظْ بغيرنا حتى وُعِظ غيرُنا بنا، فقد أدركتِ السعادةُ من تنبّه، وأدركت الشقاوة من غفَل، وكفى بالتجربة واعظاً.

وقال أعرابي لرجل: أُشكر للمنعم عليك، وأنْعم على الشاكر لك، تَسْتَوْجِب من ربك زيادته، ومن أخيك مُناصَحتَهُ.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذلك والله فَسيحُ الأدب، مُسْتَحْكِم السبب، من أيِّ أقطاره أتيته تُثْني عليه بكرم فعال، وحُسْن مقال.

وذمّ أعرابي رجلاً فقال: أفسد آخِرتَه بصلاح دُنْياه، ففارقَ ما أصْلح غيرَ راجعٍ إليه، وقدم على ما أفسد غَيْرَ منتقلٍ عنه، ولو صدق رجلٌ نفسه ما كَذَبَتْهُ، ولو ألقى زمامهُ أَوْطأه رَاحِلَتَهُ.

وقال أعرابي: خرجت حين انحدرَتْ أيْدِي النجوم، وشَالَتْ أرجلها، فما زلْتُ أصدع الليلَ حتى انصَدَع الفجر.

وقال أعرابي:

وَقَـدْ تعَـالَلْـتُ ذَميـلَ العَنْـسِ بـالسَّـوْطِ فـي دَيْمُـومـةٍ كـالتُّـرْسِ(٣)
إذ عَـرّج الليـلُ بُـرُوجَ الشَّمْـسِ

---

(١) أن تضحك: أي أن تظهر، يقال: ضحك المشيب: برز.

(٢) في الديوان: «بخضاب». و «واسودادٌ لوجهك».

(٣) تعاللت: أعطيت أقصى ما عندك من السير. والذميل: ضرب من السير سريع، يقال: ذَمَل البعير ذُمُولاً وَذَميلاً وَذَمَلاناً: سار سيراً سريعاً ليّناً؛ فهو ذامل، وهي ذاملة. والعَنْسُ: الناقة القوية، شُبِّهت بالصخرة لصلابتها. والديمومة: الصحراء الواسعة البعيدة الأطراف.

ومن مليح الاستعارة في نحو هذا قولُ الحسن بن وهب: شربت البارحة على وَجْهِ الجَوْزَاء؛ فلما انتبه الفَجْرُ نِمْت، فما عقلت حتى لَحَفَنِي قَمِيصُ الشَّمْسِ.

وقال أعرابي لصاحبه في شيء ذكره: قل إن شاء الله، فإنها تُرْضِي الربَّ، وتُسْخِط الشيطان، وتُذْهِب الحِنْثَ[1]، وتَقْضِي الحاجة.

وروى العتبيُّ عن أبيه قال: سمعت أَعرابياً يقول لأخيه في معاتبة جرَتْ بينهما: أما والله لَرُبَّ يوم كتنُّور الطاهي، رقّاص بالحمامة، قد رميتُ نَفْسي في أَجِيج سَمُومِهِ، أحْتَمِلُ منه لما أكره ما أحبّ.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: وأحسب العتبي صنع هذا الكلام، وأخذه من قول بَشَّار[2]:

وَيَوْمٍ كَتَنُّورِ الإماء سَجَرْنَهُ ... وَأَوْقَدْنَ فيه الْجَزْلَ حتى تَضَرَّما[3]
رَمَيْتُ بِنَفْسي في أَجِيجِ سَمُومِهِ ... وَبِالعيسِ حتى بَضَّ مِنْخَرُهَا دَمَا[4]

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبي العباس ثعلب فقال يهجو المبرد:

وَيَوْمٍ كَتَنُّورِ الطّهاةِ سَجَرْتُه ... على أنه مِنْهُ أحَرُّ وأوقدُ
ظَلِلْتُ بهِ عند المبرِّدِ جالِساً ... فَمَا زِلْتُ في ألفاظِه أتبرَّدُ

قال الأصمعي: حجَّت أعرابيةٌ ومعها ابنٌ لها، فأصيبت به، فلما دُفِن قامت على قبره، وهي مُوَجَعة فقالت: والله يا بنيّ لقد غَذَوْتُك رضيعاً، وفقدتُك سريعاً، وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذُّ بعيشك فيها، فأصبحتَ بعد النَّضارة والغَضَارة ورونق الحياة والتنسّم في طِيب روائحها، تحت أطباق الثَّرَى جَسداً هامداً، ورُفَاتاً سحيقاً، وصعيداً جُرُزاً[5]؛ أي بني! لقد سَحَبَت الدنيا عليك أَذيال الفناءِ، وأسكنَتْك دارَ البِلَى، ورمتني بعدك نَكْبَةُ الرَّدَى، أي بني! لقد أسفر لي وجهُ الدنيا عن صباح دَاجٍ ظلامُه.

---

(١) تذهب الحنث: أي إذا حلفت وقلت «إن شاء الله» ثم لم تفعل ما حلفت عليه لم يحنث.
(٢) بشّار بن برد، الديوان: ٤/ ١٦٢.
(٣) التنور: الفرن يخبز فيه. وسجر التنور: ملأه حطباً وأحماه. والجزل: الحطب الغليظ.
(٤) الأجيج: التهاب النار، استعاره للسموم، وهي الريح الشديدة الحرارة. وبَضَّ: سال سيلاناً قليلاً.
(٥) الصعيد: التراب، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ (سورة المائدة، آية ٦). والجُرُز: الأرض المجدبة، قال تعالى: ﴿أو لَمْ يروا أَنَّا نَسُوقُ الماء إلى الأرض الجُرُزِ﴾ (سورة السجدة، آية ٢٧)، وقال تعالى: ﴿وإنا لَجَاعِلونَ ما عليها صَعِيداً جُرُزاً﴾ (سورة الكهف، آية ٨).

ثم قالت: أي ربّ ومنك العدل، ومن خَلْقِك الْجَوْر، وهَبْتَه لي قُرَّةَ عين، فلم تُمَتِّعني به كثيراً، بل سَلَبْتَنِيه وَشِيكا؛ ثم أمرتني بالصبر، وَوَعَدْتَنِي عليه الأجْر، فصدقت وَعْدَك، ورضيت قضاءك، فرحم الله من ترحَّم على من استودَعْتَه الرَّدْم، ووسَّدْتَه الثَّرَى؛ اللهم ارحم غربته، وآنِسْ وَحْشَته، واسْتُرْ عَوْرَته، يوم تُكْشَف الهَنَات والسَّوءات.

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره، فقالت! أي بنيّ! إني قد تزوَّدْتُ لسفري، فليت شعري ما زادُك لِبُعْدِ طريقك، ويوم مَعَادِك؟ اللهم إني أسألُكَ له الرضا برضائي عنه. ثم قالت: استودَعْتُك مَن استودَعَنِيك في أَحْشَائي جنيناً؛ وَاثُكْلَ الوالدات! ما أمضَّ حرارةَ قلوبهن، وأَقْلَق مضَاجِعهنّ، وأطولَ ليلهنَّ، وأقصرَ نهارهن، وأقلَّ أنسهن، وأَشدّ وحشتهنَّ، وأَبعدهنَّ من السرور، وأقربهن من الأحزان.

لم تَـزَلْ تقولُ هـذا ونحوه حتى أبكتْ كلَّ مَنْ سمعها. وحمدت الله عز وجل واسترجعَتْ[١] وصلت ركعات عند قَبْره وانطلقت.

وأنشد المُفضَّلُ الضَّبِّي لامرأةٍ من العرب ترثي ابناً لها:

يـا عمـرُو مـالِـي عَنْـكَ مـن صَبْـرِ	يـا عَمْـرُو يـا أسَفـي علـى عَمْـرِو
لله يــا عمــرٌو، وأَيَّ فتًــى	كُفّنْـت يـوم وُضِعْـتَ فـي القَبْـرِ؟
أحْثُـو التـرابَ علـى مَفَـارقـه	وعلـى غَضـارَةِ وَجْهِـهِ النَّضْـرِ[٢]
حِيـن اسْتَـوى وَعَـلا الشبـابُ بـه	وبـدا مُنِيـرَ الـوجـهِ كـالبَـدْرِ
وَرَجـا أقَـارِبُـهُ مَنَـافِعَـهُ	وَرأوا شمـائـل سَيّـدٍ غَمْـرِ[٣]
وَأَهمَّـهُ هَمِّـي فَسَـاوَرَهُ	وَغَـدَا مـع الغـادِيـنَ فـي السّفـرِ[٤]
تَغْـدُو بـه شَقـراءُ سـامِيـةٌ	مَـرَطَـى الْجِـراءِ شَـديـدةُ الأسْـرِ[٥]
ثَبْـت الجَنَـان بـه، ويقـدمها	فَلِـجٌ يُقلّـبُ مُقْلَتَـيْ صَقْـرِ[٦]

(١) استرجعت: قالت: إنّا لله وإنا إليه راجعون.
(٢) حثا التراب ونحوه: هاله. المفارق: مواضع فرق الشعر من الرأس، الواحد مفرق.
(٣) الغمر: الجزيل العطاء.
(٤) ساوره: واثبه.
(٥) مرطى: سريعة. والأسر: القوة.
(٦) الجنان: القلب. فلج: حليف النصر.

رَبَّيْتُــــه دَهْــــراً أُفَتِّقُـــــهُ فــي اليُسْــر أغْــذُوه وفــي العُسْــرِ
حتــى إذا التــأميــلُ أمكنني فيــه قُبَيْــلَ تــلاحُــقِ الثغــرِ
وَجَعَلْــتُ مــن شَغَفــي أُنقِّلـهُ فــي الأرض بيــن تَنَــائِـفٍ غُبْــرِ[١]
أَدَعِ المَــزارِعَ والحصــونَ بــه وأُحِلُّـه فــي المَهْمَــهِ القَفْــرِ
مــا زلــتُ أُصْعِــده وأُحْــدِرُهُ مــن قُتْــرِ مَــوْمَــاةٍ إلــى قُتْــرِ[٢]
هَــربــاً بــه والمَــوْتُ يَطْلُبُــهُ حيــث انْتَــويْــتُ بــه ولا أدْري[٣]
حتــى دَفَعْــتُ بــه لِمَصْــرَعِــه سَــوْقَ المعيــز تُسَــاق للعَتْــرِ[٤]
مــا كــان إلا أن هَجَعْــتُ لــهُ ورَمَــى فــأَغْفَــى مَطْلــعَ الفَجْــرِ
وَرَمَــى الكَــرَى رَأْســي وَمــالَ بــهِ رَمْــسٌ يُسَــاوِرُ مِنْــهُ كــالسُّكْــرِ
إذ راعنــي صَــوْتٌ هَبِبــتُ بــهِ وَذُعِــرْتُ منــه أيّمــا ذُعْــرِ
وَإذا مَنِيَّتُــهُ تُســاوِرُهُ قَــد كَــدَّحــت فــي الــوَجْــه والنَّحْــرِ[٥]
وإذا لــهُ علَــق وحَشْــرَجَــةٌ مِمّــا يَجِيــشُ بــه مــن الصَّــدْرِ[٦]
والمــوتُ يَقْبِضُــهُ ويَبْسُطُــهُ كــالثــوبِ عنــد الطــيِّ والنَّشْــرِ
فَــدَعَــا لأَنْصُــرَه وكُنْــتُ لــهُ مِــنْ قَبْــل ذلــكَ حَــاضِــرَ النَّصْــرِ
فَعجِــزْتُ عنــهُ وهــي زَاهِقــةٌ بيــن الــوريــد وَمَــدْفَــعِ السَّحْــرِ[٧]
فَمَضــى، وأَيّ فتــى فُجِعْــتُ بــه جَلَّــت مُصيبتُــه عــن القَــدْرِ
لَــوْ قيــلَ تَفْــدِيــه بَــذلْــتُ لــهُ مــالــي ومــا جَمَّعــتُ مــن وَفْــرِ
أو كُنْــتُ مقتــدراً علــى عُمُــري آثــرتُــه بــالشَّطْــرِ مــن عُمْــرِي[٨]

---

(١) التنائف: جمع تنوفة، وهي الصحراء، أو القفر من الأرض. والغُبْرُ: جمع غبراء، وأراد المظلمة.
(٢) القُتْرُ: الجانب. والموماة والموماء: المفازة الواسعة.
(٣) انتويت: قصدت.
(٤) العتر هنا: الذبح.
(٥) كَدَّحَتْ وجهه: خَدَّشَتْهُ.
(٦) الحشرجة: تَردُّد النَّفَس في الحلق، يقال: حشرجت روحه في صدره: أوشك أن يموت.
(٧) زاهقة: خارجة، يقال: زهقت نفسه: خرجت، والأصل في الزهوق: الخروج بصعوبة. والسَّحْرُ والسُّحارَةُ: كل ما تعلق بالحلقوم من قلب ورئة.
(٨) شطر الشيء: نصفه.

قَــد كُنْــتُ ذا فَقْـــرٍ لـــه، فَعـــدَا وَرَمَـــى علـــيٌّ وقـــد رأى فَقْـــرِي
لَـــوْ شَـــاءَ رَبِّـــي كـــان متَّعنـــي بـــابْنِـــي وَشَـــدَّ بـــأَزْرِه أَزْرِي
بُنَيَّــتْ عليــك بُنَــيَّ، أحــوج مــا كنّــا إليــكَ، صَفــائــحُ الصَّخْــرِ
لا يُبْعِــدَنْــكَ الله يـــا عُمَـــري إمَّـــا مَضَيْـــتُ فَنَحْـــنُ بـــالإثْـــرِ
هٰـــذِي سبيـــلُ النـــاسِ كُلّهـــم لا بـــدّ ـــالكهـــا علـــى سَفْـــرِ
أوَلا تَـــراهُـــمْ فـــي ديـــارهـــمُ يَتـــوقَّعـــون وَهُـــمْ علـــى ذُعْـــرِ
وَالمـــوتُ يُـــورِدُهـــم مَـــوَارِدَهُـــمْ قَسْـــراً؛ فقـــد ذَلّـــوا علـــى القَسْـــرِ[١]

وقال أعرابي يمدح رجلاً:

يَمُــدُّ نِجــادَ السّيــفِ حتَّــى كَــأَنَــهُ بِــأَعلــى سَنــامَــيْ فَــالــجٍ يَتَطَــوَّحُ[٢]
وَيُـدْلِـجُ فـي حـاجـاتِ مَـنْ هُـوَ نـائـمٌ وَيُـوري كـريمـاتِ النـدى حيـن يَقْـدَحُ
إذا اعْتَـمَّ بـالبُـرْدِ اليمـانِـي حَسِبْتَـهُ هِـلالاً بَـدَا فـي جـانـبِ الأفْـقِ يَلْمَـعُ
يَـزيـدُ علـى فَضْـلِ الـرجـال فضيلـةً وَيَقْصُـرُ عنـه مَـدْحُ مَـنْ يَتَمـدَّحُ

وأنشد ابنُ أبي طاهر لأعرابي:

وَقَبْلِـيَ أَبكـى كُـلَّ مَـنْ كـان ذَا هَـوًى هَتُـوفُ البـواكـي والـديـارُ البَـلاَقِـعُ[٣]
وَهُـنَّ علـى الأطـلال مـن كُـلّ جـانـبٍ نَـوَائـحُ مـا تَخْضَـلُّ منهـا المَـدَامِـعُ
مُـزَبْـرَجَـةُ الأَعْنَـاقِ نُمْـرٌ ظهـورُهـا مُحطَّمَـةٌ بِـالـدُّرِّ خُضْـرٌ رَوَائـعُ[٤]
تَـرَى طُـرُزاً بيْـنَ الخَـوَافـي كـأنّهـا حَـوَاشِـيّ بُـرْدٍ زَيَّنَتهـا الـوَشَـائـعُ[٥]
وَمـنْ قِطَـعِ اليـاقـوتِ صِيغَـتْ عُيُـونُهـا خَـواضـب بِـالحِنَّـاءِ منهـا الأصَـابِـعُ

---

(١) القَسْرُ: القهر والغلبة.
(٢) فالج: اسم موضع. وتطوّح: جاء وذهب في الهواء وغيره، وتطوح في البلاد: رمى بنفسه فيها وذهب ههنا وههنا.
(٣) البلاقع: جمع بلقع، وهي الأرض الخالية لا أنيس فيها.
(٤) مُزَبْرَجَةٌ: مزيّنةٌ بالزِّبْرِج، وهو الحلية والزينة من وشي أو جوهر أو نحو ذلك. ونَمِرَ نَمَراً وَنُمْرَةً: كان على شبه النَّمر، وهو أن تكون فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى على أي لونٍ كان. مُخطَّمَةٌ: وُضِع على أنفها الخطام، وهو الزمام، يريد أن أخطمتها مرصعة بالدرّ.
(٥) الوشائع: جمع وشيعة، وهي الطريقة في البرد، وقد وَشَّعَ الثوب: رقمه بعلم ونحوه.

ومن جيد ما قيل في الحمام قول ابن الرومي(١):

وَقَفْتُ بِمِطْرَابِ العشيَّاتِ والضُّحَى فَظَلْتُ أَسُحُّ الدمع مني وَأَسْجِمُ(٢)
حَليفةَ شَجْوٍ هَاجَ ما بي وما بها تَباريحُ شَوْقٍ يَشْتكيها المتيّمُ
فَباحَ به فُوهَا وأخفَتْه عَيْنُها وَباحَتْ به عَيْني وَكتَّمهُ الفَمُ(٣)

ودخل أعرابي على الرشيد، فأنشده أُرجوزةً مدحه بها، وإسماعيل بن صبيح يكتبُ كتاباً بين يديه ـ وكان من أَحسنِ الناسِ خطّاً، وأَسرعهم يداً ـ فقال الرشيد للأعرابي: صف الكاتب فقال:

رَقيقُ حَواشي العلم حينَ تبورهُ يُريكَ الهُوَيْنا والأُمورُ تَطيرُ(٤)
لـه قَلَمَا بُؤسَى وَنُعْمَى كِلاهُما سَحابَتُهُ في الحالتَيْنِ ذَرُورُ(٥)
يُنَاجيكَ عما في ضَميرِكَ خَطّهُ وَيَفْتَحُ بابَ النُّجْحِ وَهُوَ عَسِيرُ(٦)

فقال الرشيد: قد وجب لك يا أعرابي عليه حق، كما وجب لك علينا يا غلام؛ ادفَعْ له دِيَة الحُرّ، فقال إسماعيل: وعلى عبدِك دِيَة العَبْد.

وقال أعرابي من بني عقيل:

أَحِنُّ إلى أَرْضِ الحجاز، وحَاجَتي خِيامٌ بنَجْدٍ دونها الطَّرْفُ يَقْصُرُ
وَما نَظَري نحو الحجازِ بِنافعي فَتيلاً، وَلكنِّي على ذَاك أَنْظُرُ
أَفي كلِّ يومٍ نَظْرَةٌ ثم عَبْرَةٌ لِعينَيْكَ يجري ماؤُها يَتحَدَّرُ
متى يَسْتَريحُ القلب إمَّا مُجَاوِرٌ حَزينٌ وَإِمَّا نازحٌ يتذَكَّرُ

وقال أعرابي:

وَإنّي لأُغْضِي مُقلتيَّ على القَذَى وَأَلبَسُ ثوبَ الصَّبْرِ أبيَض أبْلَجا

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٤٤.
(٢) في الديوان: «فَظِلْتُ أَسحُّ الدَّمْعَ وهي تُرنِّمُ».
(٣) في الديوان: «وكاتمه الفَمُ».
(٤) تبوره: تختبره وتبلوه.
(٥) ذرور: كثيرة الهطل.
(٦) النُّجْحُ: الظَّفَرُ.

وَإنّـي لأدْعـو اللهَ والأمـرُ ضَيّـقٌ علـيَّ، فمـا يَنْفَـكُّ أنْ يَتفـرَّجَـا
وَكـمْ مِـنْ فتًـى ضـاقَـتْ عليـه وُجـوهُـهُ أَصـاب لهـا مـن دَعْـوَةِ اللهِ مَخْـرَجَـا

وقال آخر:

ذَكَـرْتُـكَ ذِكْـرى هـائـم بـكَ تَنْتَهِـي إليـك أَمـانيـهِ وإن لَـمْ يكُـنْ وَصْـلُ
وَليسَـتْ بِـذِكْـرَى سـاعـةٍ بعـد سـاعـةٍ وَلكنهـا مَـوْصُـولـةٌ مَـالَهَـا فَصْـلُ

وقال آخر:

أَريتُـكِ إنْ شَطَّـتْ بـكِ العـامَ نِيَّـةٌ وَعَـالَـكِ مُصْطَـافُ الحِمَـى وَمرابِعُـهْ[١]
أتـرعَيْـنَ مـا استُودعتِ أم أنتِ كـالـذي إذا مـا نَـأَى هَـانَـتْ عليـكِ وَدَائِعُـهْ
أَلا إنَّ حَسْيـاً دونـه قُلَّـةُ الحِمَـى مُنَى النفسِ لو كانت تُنَالُ شَرَائِعُهْ[٢]

أخذتْ أَزْدُ العتيك شاعراً من قَيْس بن ثعلبة اسمه المعذَّل في دَم، فأتاه البَيْهَس بن ربيعة فحمله، وأمره أن يَنْجُو بنفسه، وأسلم نفسه مكانه، فقال له المعذَّل: أُخيِّرك بين أن أمْدَحَك أو أمدح قومَك؛ فاختار مدحَ قومه فقال:

جَـزَى الله فِتْيَـانَ العَتيـكِ، وإن نَـأَتْ بـيَ الـدَّارُ عنهـم، خيرَ مـا كـان جازِيـا
هُـم خَلَطُـوني بـالنفـوس وأحسنـوا الصّـ ـحـابـةَ لَمّـا حُـمَّ مـا كـان آتِيَـا[٣]
مَتَـاعُهـم فَـوْضَـى فَضـاً فـي رِحـالِهِـمْ ولا يُحْسِنُـون الشَّـرَّ إلاَّ تَبَـادِيَـا
كـأن دنـانيـراً علـى قَسَمَـاتِهِـمْ إذا المـوتُ فـي الأبطـال كـان تَحَـامِيـا

وذكرت الرواة أنَّ المهلب بن أبي صُفْرَةَ عرض جُنْدَه بخراسان، فعرض جيش بكر بن وائل، فمر به المعذّل فقال: هذا المعذل القيسي الذي يقولُ، وأنشد الأبيات، فقالوا: أيها الأمير؛ احسبه علينا، فانطلق مائةٌ منهم، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا: أعْطِه هذا وليعذرنا.

قوله: «كأنَّ دنانيراً على قسماتهم» نظيرُ قول أبي العباس الأعمى:

---

(١) شطَّت: بعدت. النية: الوُجْهَة والقصد.
(٢) الحَسْيُ: السهل فيه ماء قليل. والشرائع: جمع شريعة، وهي مكان ورود الماء.
(٣) حُمَّ الأمر: قُضِيَ، وَحُمَّ الشيء: قَرُبَ.

لَيْتَ شِعْرِي مِن أيْنَ رائحة الْمِسْـ ـكِ وما إنْ إخَالُ بالخَيْفِ إنْسِي؟[١]
حِينَ غابت بنو أمية عَنْهُ وَالبهاليلُ من بني عَبْدِ شمس[٢]
خُطباءُ على المنابرِ، فُرْسَا نٌ عليها، وَقَالَةٌ غيرُ خُرْسِ
في حُلومٍ إذا الحلوم اسْتُفِزَّتْ وَوُجوهٍ مِثْلِ الدنانيرِ مُلْسِ

[بعضُ أخبار أبي نواس]

المأمون يعير أخاه الأمين بصحبة أبي نواس

ولما خلع المأمونُ أخاه محمد بن زُبَيْدة ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته، كان يعملُ كتباً بعيوبِ أخيه تُقْرَأُ على المنابر بخراسان؛ فكان مما عابه به أن قال: إنه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً، يقال له الحسن بن هانيء، واستخلصه لِيَشْرَبَ معه الخمر، ويرتكبَ المآثم، ويَهْتِكَ المحارم، وهو الذي يقول[٣]:

أَلا فَاسْقِنِي خَمْراً وقُلْ لي هِيَ الخَمْرُ وَلا تَسْقِنِي سِرًّا إذا أمْكَنَ الجَهْرُ[٤]
وَبُحْ باسم مَنْ تَهْوَى ودَعْنِي عن الكُنَى فلا خَيْرَ في اللَّذّاتِ مِنْ دُونِها سِتْرُ[٥]

ويذكر أهلَ العراق فيقول: أَهل فسوق وخمور، ومَاخُور وفجور؛ ويقوم رَجلٌ بين يديه فيُنْشِد أشعار أبي نواس في المجون؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة؛ فنهى الحسنَ عن الخمر، وحبسه ابنُ أبي الفضل بن الربيع؛ ثم كلّمه فيه الفضل، فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألاّ يشربَ خمراً، ولا يقول فيها شعراً، فقال:[٦]

ما مِنْ يَدٍ في الناسِ واحِدةٍ كَيَدٍ أبو العباسِ مَولاَها[٧]

(١) الخيف موضع بمنًى قرب مكة، سمّي بذلك لانحداره عن الغِلَظ، وارتفاعه عن السيل.
(٢) البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لصفات الخير.
(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٢٨.
(٤) يريد أبو نواس من قوله: «وقل لي هي الخمر» استمتاع حواسه كلها بلذة الخمر، فيده تلمس، وفمه يذوق، وعينه ترى، ولم يبق إلاّ الأذن، فترديد اسم الخمر عليها لذة يطالب ساقيه بها.
(٥) يطلب من الساقي أن يسقيه جهراً ما أمكن ليستمتع بلذة الحرية بشربها، ولذة رؤية تشَهيها في عيون الآخرين.
(٦) أبو نواس، الديوان: ص ٤٥٩.
(٧) اليد: النعمة. أبو العباس: كنية الفضل بن الربيع. مولاها: صاحبها وسيدها.

نَامَ الثقاتُ على مَضاجِعِهِمْ وَسَرَى إلى نفسي فَأَحْيَاها(١)
قَدْ كُنْتُ خِفْتُكَ، ثم آمنني مِنْ أَنْ أَخافَكَ، خَوْفُكَ اللهَ
فَعَفَوْتَ عني عَفْوَ مُقْتَدِرٍ وَجَبَتْ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْغَاها(٢)

ومن قوله في تَرْكِ الشراب(٣):

أيُّها الرائحان باللَّوْمِ لُوما لا أذوقُ الْمُدَامَ إلاَّ شَمِيما(٤)
نَالَنِي بالملامِ فيها إمامٌ لا أرى لي خِلافَهُ مُسْتَقِيما(٥)
فَاصْرِفاها إلى سِوَايَ؛ فإنّي لَسْتُ إلاَّ على الحديثِ نَديما(٦)
جُلُّ حَظِّيَ منها إذَا هي دارتْ أنْ أراها وأَنْ أَشَمَّ النَّسيما(٧)
فَكأنّي وما أُزيِّنُ منها قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التحكيما
[كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السلاحَ إلى الحَرْ بِ فَأَوْصَى المُطِيقَ ألاّ يُقيما](٨)

القَعَدِيّة: فرقة من الخوارج، يأمرون بالخروج ولا يخرجون؛ وزعم المبرد أنه لم يُسْبَقْ إلى هذا المعنى.

وقال(٩):

عَيْنُ الخليفةِ بي مُوكَّلةٌ عَقَدَ الحِذارُ بَطَرْفِها طَرْفي(١٠)
صَحَّتْ عَلانِيَتي لَهُ، وأرى دِينَ الضميرِ له على حَرْفِ(١١)

---

(١) الثقاة: الخلصاء والأصدقاء.
(٢) ألغاها: أبطلها.
(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٢٩.
(٤) الشميم: الشمّ.
(٥) خلافه: مخالفته.
(٦) اصرفاها: رُدَّاها.
(٧) في الديوان: «كُبْرُ حَظِّي». وكبر حظي: معظمه وغايته.
(٨) كلَّ: ضعف.
(٩) أبو نواس، الديوان: ص ٦٦.
(١٠) موكلة بي: مراقبة إياي. الحذار: الحذر.
(١١) علانيتي: ظاهري. على حرف: على وشك، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ﴾ (سورة الحج، آية ١١).

وَلئــنْ وعَــدْتُــكَ تَــرْكهــا عِــدَةً إنــي عَلَيْــكَ لخَــائــفٌ خُلْفــي[١]
سَلبــوا قِنَــاع الــدَّن عــن رَمــقٍ حَــيِّ الحيــاةِ مُشَــارِفِ الحَتْــفِ[٢]
فَتنفّسَــتْ فــي البيــت إذ مُــزِجَــتْ كَتنفُّــسِ الــرَّيْحَــانِ فــي الأَنْــفِ

* * *

أخذ قوله: «ولئن وعدتك تركها عدة» الحسنُ بن علي بن وكيع[٣] فقال:

مَتى وَعَـدْتُـكَ فـي تَـرْكِ الصِّبا عِـدَةً فـاشْهَـدْ على عِـدَتي بـالـزُّورِ والكَـذِبِ
أمَـا تَـرى الليـلَ قـد ولَّـتْ عَسـاكِـرُهُ وَأَقْبلَ الصبحُ في جيشٍ لـه لَجِـبِ[٤]
وَجــدَّ فــي أثــر الجَــوْزَاءِ يَطْلُبُهــا فـي الجـوّ رَكْضـاً هِـلالٌ دَائـمُ الطلـبِ
كَصــولَجَـانِ لُجَيـنٍ فـي يَـدَيْ مَلِـكٍ أدنـاهُ مِـنْ كُـرَةٍ صِيغَـتْ مـن الـذهـبِ[٥]
فَقُـمْ بنـا نَصْطَبِـحْ صَفـراءَ صَـافيـةً كــالنــارِ لَكِنَّهــا نَــارٌ بــلا لَهَــبِ
عُـروسُ كَـرْمٍ أتـتْ تَخْتَـالُ فـي حُلَـلٍ صُفْـرٍ على رَأْسِهـا تـاجٌ مِـنَ الحَبَـبِ[٦]

وقال أبو الفضل الميكالي في اقتران الهلال بالزهرة:

أمَـا تَـرَى الـزُّهـرةَ قـد لاحَـتْ لنـا تَحْـتَ هـلالٍ لَـوْنُـه يَحْكِـي اللَّهَـبْ
كَكُــــرَةٍ مــــن فِضَّــــةٍ مَجْلــــوَّةٍ وَافَـى عليهـا صَـوْلَجـانٌ مـن ذَهَـبْ

وعلى قول أبي نواس:

صَحَّــــتْ عَــــلانِيَتــــي لــــه، وأرى ديــنَ الضميــر لــه علــى حَــرْفِ

---

(١) الخُلْفُ: أن تَعِدَ عِدَةً ولا تنجزها.
(٢) في الديوان: «قناع الطين» أي: الختم الذي تختم به. والرمق: بقية الحياة. مُشارف الحتف: مُشْرِفٌ عليه، قريب منه، والحتف: الموت.
(٣) هو أبو محمد، الحسن بن علي بن أحمد بن وكيع بن خلف التنيسي: شاعر بارع ظريف، أصله من بغداد، ومولده في تنيس قرب دمياط بمصر. توفي في تنيس سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٥٨١).
(٤) لجب: ذو صياح وجلبة.
(٥) الصولجان: عصا يحملها الملك ترمز إلى سلطانه.
(٦) الحَبَبُ والحَبَابُ: طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الريح.

كتب أبو العباس بن المعتز إلى أبي الطيب القاسم بن محمد النميري:

يـا أيها الجـافـي وَيَسْتَجْفـي ... ليس تَجَنِّيـك مـن الظَّـرفِ
إنَّـك فـي الشـوقِ إلينـا كَمَـنْ ... يُـؤْمِـنُ بـاللهِ علـى حَـرْفِ
مَحَـوْتَ آثـارَكَ مـن وِدِّنـا ... غَيْـرَ أساطيـرِكَ فـي الصُّحْـفِ
فَـإِنْ تحَـامَلْـتَ لنـا زَوْرَةً ... يَـوْمـاً تَحـامَلْـتَ علـى ضَعْـفِ

ضرب من الرياء

وحدث أبو عمر الزاهد قال: دَلَكَ بعضُ الزهاد المرائين جَبْهَتَهُ بِثُوْمٍ وعصبها، ونام لِيُصْبِح بها كَأَثَر السجود، فانحرفت العِصابة إلى صُدْغه، فأَخَذَ الأثر هناك، فقال له ابنُه: ما هذا يا أبت؟ فقال: أصبح أبوك ممن يَعْبُدُ الله على حرف!

* * *

من خمريات أبي نواس

وقال أبو نواس في الباب الأول[(١)]:

غَنِّنـا بـالطلـولِ كَيْـفَ بَلينـا ... واسْقِنَـا نُعْطِـكَ الثنـاءَ الثمينـا
مِـنْ سُـلافٍ كَـأنها كـلُّ شـيءٍ ... يَتمنَّـى مُخَيَّـرٌ أنْ يَكـونَـا[(٢)]
أَكَـلَ الـدَّهْـرُ مـا تَجسَّـمَ مِنْهـا ... وَتبقَّـى لُبَـابهـا المَكْنُـونَـا[(٣)]
فـإذا مـا اجْتَلَيْتُهَـا فَهَبَـاءٌ ... يَمْنَـعُ الكـفَّ مـا يُبِيـحُ العُيـونا[(٤)]
ثُـمَّ شُجَّـت فَـاسْتَضْحَكَـتْ عـن لآلٍ ... لـو تَجمَّعْـنَ فـي يـدٍ لاقْتُنِينـا[(٥)]
فـي كئـوسٍ كـأنهـنَّ نجـومٌ ... دائـراتٌ بُـرُوجُهـا أيْـدِينـا
طـالعـاتٌ مـع السُّقَـاةِ علينـا ... فـإذا مـا غَـرَبْـنَ يَغْـرُبْـنَ فينـا

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٣٠.
(٢) السلاف: الخمر، وسلاف كل شيء خالصه، وسلاف الخمر: أول ما يعصر منها.
(٣) اللباب: الخالص من كل شيء. والمكنون: المستور.
(٤) اجتليتها: نظرتها. الهباء: الغبار، أو ما يشبه الدخان منه منتشراً في الهواء.
(٥) شجَّ رأسه: كسره، وشجَّ الشراب: مزجه. لآل: أصلها لآلئ فخفف.

لَـوْ تَـرى الشَّـرْبَ حَـوْلَهـا مـن بعيـدٍ قُلْـتَ قـومـاً مـن قِـرَّةٍ يَصْطَلُـونَـا(١)
وَغـــزالٍ يُـــديــرُهـــا بِبَنَـــانٍ نـــاعمـاتٍ يَـزِيـدُهـا الغَمْـزُ لِينَـا
كُلَّمـا شِئْـتُ عَلَّنـي بِـرُضَـابٍ يَتْـرُكُ القلـبَ للسـرور قـرينـا(٢)
ذاكَ عَيْـشٌ، لـو دَامَ لـي، غيـرَ أَنّـي عِفْتُـهُ مُكْـرَهـاً وَخِفْـتُ الأَمِينـا

وقال(٣):

أَعـاذلَ أَعْتَبْـتُ الإمـامَ وَأَعْتَبَـا وَأَعْـرَبْـتُ عمَّا فـي الضمير وأعْـرَبا(٤)
وَقُلْـتُ لِسَـاقيهـا: أَجِـزْهَـا فلـم أكـنْ لِيـأبـى أميـرُ المـؤمنيـن وأشْـرَبـا(٥)
فَجـوَّزَهـا عنـي سُـلافـاً تَـرَى لهـا لـدى الشَّرَفِ الأعلى شُعَاعاً مُطَنَّبَا(٦)
إذا عَـبَّ فيهـا شـاربُ القـوم خِلْتَـهُ يُقَبِّـلُ فـي داجٍ مـن الليـل كَـوْكَبـا
تَـرَى حَيْثُمـا كـانَـتْ من البيـت مَشْرِقـاً ومـا لـم تَكُـنْ فيـه مِنَ البيتِ مَغْـرِبـا
يَـدُورُ بهـا رَطْـبُ البنـانِ تَـرَى لـهُ على مُسْتَدارِ الخـدِّ صُـدْغـاً مُعَقْرَبَا(٧)
سَقَـاهُـمْ ومَنَّـانِـي بِعَيْنَيْـهِ مُنْيَـةً فَكـانَـتْ إلـى قلبـي أَلَـذَّ وأطيَبـا(٨)

قال الحسين بن الضحاك الخليع: أنشدت أبا نواس قولي:

وَشَـاطِـريِّ اللسـانِ مُختلَـقِ التَّـ ـكْـرِيـهِ شـابَ المُجُـونَ بـالنُّسُـكِ

فلما بَلَغْتُ فيه:

(١) الشَّرْبُ: جماعة الشاربين. قرة: ما أصابك من البرد. يصطلون: يستدفئون.
(٢) علَّني: سقاني، من العَلّ وهو أول الشرب. والرضاب: الريق. وفي الديوان: «للسرور خدينا»، والخدين: الصاحب والرفيق.
(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٢٢.
(٤) أعتبه واستعتبه: طلبت إليه العتبى، أو أعطيته إياها، والعتبى: الرضا. وأعربت: أفصحت وأبنت.
(٥) أجزها: جُزْ بها، وابتعد بها عني.
(٦) الشرف: المرتفع. شعاعاً مطنباً: ممدوداً بأطنابه، والطنب: حبل طويل يُشَدُّ به سرادق البيت.
(٧) ساق أَغنّ: أي يخرج صوته من خياشيمه. والصدغ: ما بين العين والأذن، ويطلق على الشعر المتدلي في هذا الموضع. معقرباً: معقوفاً على هيئة العقرب، لأن العقرب حين تسير ترفع ذيلها وتلويه.
(٨) مَنَّاني: أعطاني مُنيةً، وهي الأمنية.

كَـأنَّمـا نُصْـبَ كَـأسِـهِ قَمَـرٌ يَكْـرَعُ فـي بَعْـضِ أنْجُـم الفَلَـكِ

نَعرَ نَعْرَةً منكرةً، فقلت: مالَك، فقد رعتني؟ قال: هذا المعنى أنا أحقُّ به منك؛ ولكن سترى لمن يُرْوَى! ثم أنشد بعد أيام:

إذا عَـبَّ فيهـا شـاربُ القـوم خِلْتَـهُ يُقَبِّـلُ فـي داجٍ مـن الليـلِ كَـوْكَبـا

فقلت: هذه مطالبة[1] يا أبا علي! فقال: أتظنّ أنه يُرْوى لك معنى مليح وأنا في الحياة؟

وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما[2]:

وَمُهفْهَـفٍ كَمُلَـتْ مَحَـاسِنُـهُ حَتَّـى تَجـاوزَ مُنْيَـةَ النَّفْـسِ[3]
تَصْبُـو الكُـؤوسُ إلـى مَـرَاشِفِـهِ وَتَضِـجُّ فـي يـدهِ مـن الحَبْـسِ[4]
أَبْصَـرْتُهـا والكـأسُ بَيْـنَ فـمٍ منْـهُ وَبَيْـنَ أنَـامِـلٍ خَمْـسِ
فَكـأنَّهـا وكـأَنَّ شَـارِبَهـا قَمـرٌ يُقَبّـلُ عَـارِضَ الشمـسِ

وقال أبو الفتح كشاجم:

وَسحـاب يجـرُّ فـي الأرضِ ذَيْلَـيْ مُطْـرَفٍ زَرَّهُ علـى الأرض زَرّا[5]
بَـرْقُـه لَمْحـةٌ، ولَكِـنْ لـه رَعْـ ـدٌ بطـيءٌ يكسـو المسـامِعَ وَقْـرا[6]
كَخَلـيٍّ منـافـقٍ لِلَّـذي يهـ ـواهُ يَبْكـي جَهْـراً ويَضْحَـك سِـرّا
قَـدْ سَقَتْنـي المُـدَامَ فيهـا فَتـاةٌ سَحَـرَتْنـي وليـس تُحْسِـنُ سِحْـرا
فـإذَا مـا رأيتُهـا تَشْـرَبُ الـرَّا حَ أرَتْنـي شَمْسـاً تُقبِّـلُ بَـدْرا

---

(١) كذا، ولعلها «مغالبة».
(٢) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٢٥٨.
(٣) في الديوان: «تمَّت محاسنه».
(٤) في الديوان: «وتَهشُّ في يده». ويروى:
تَـرْنُـو الكُـؤُوسُ إلـى مَـراشِفِـهِ وَتَجُـولُ بيـن أَنَـامـلٍ خَمْـسِ
(البغدادي، تاريخ بغداد: ١٢/ ٢٤).
(٥) المطرف: رداءٌ من خَزٍّ له أعلام.
(٦) الوَقْرُ: الصَّمَمُ.

[من أخبار بشار]

احتذاء أبي نواس على مثاله

وإنما احتذَى أبو نواس في هذه الأشعار التي وصف فيها تَرْكَ الشراب وطاعته لأمْرِ الأمين مثالَ بشّار بن بُرْد، وصب على قالبه؛ وذاك أنَّ بشاراً لما قال[١]:

لا يُــؤْيِسَنَّـكَ مـن مُخَبَّـأةٍ قَـوْلٌ تُغَلِّظُـهُ وإن جَـرَحَـا[٢]
عُسْـرُ النسـاءِ إلـى مُيَاسـرةٍ وَالصَّعْـبُ يُمْكِـنُ بعـد مـا جَمَحَـا[٣]

بلغ ذلك المهدي فغاظه؛ وقال: يحرّض النساءَ على الفجور، ويسهّل السبيل إليه! فقال له خالُه يزيد بن منصور الحميري: يا أميرَ المؤمنين؛ قد فتن النساء بشعره، وأيّ امرأة لا تَصْبُو إلى مثل قوله[٤]:

عَجِبَـتْ فَطْمَـةُ مـن نَعْتِـي لهـا هَـلْ يُجِيـد النَّعْـتَ مَكْفُـوفُ النَّظَـرْ[٥]
بِنْـتُ عَشْـرٍ وثـلاثٍ قُسِّمَـتْ بيـن غُصْـنٍ وَكَثِيـبٍ وقَمَـرْ[٦]
دُرّةٌ بَحْـرِيَّـةٌ مَكْنُـونـةٌ مَـازَهـا التـاجـر مـن بَيْـنِ الـدُّرَرْ[٧]
أَذْرَتِ الـدَّمْـعَ وَقـالـتْ: وَيْلَتِـي مِـنْ وَلُـوعِ الكـفِّ رَكَّـابِ الخَطَـرْ[٨]
أُمّتـي بَـدَّدَ هَـذَا لُعَبِـي وَوِشَـاحِـي حَلَّـه حتـى انْتَثَـرْ[٩]

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٢/ ٨٤. والبيتان من قصيدة قالها في النسيب بمحبوبته «سعدى».
(٢) في الديوان: «من مُخَدَّرةٍ»، والمخدرة: المرأة المصونة في خدرها عن الابتذال والخدمة.
(٣) في الديوان: «بعدما رَمَحَا»، وقد رمح الفرس: ضرب برجليه، رفس.
(٤) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٥٧.
(٥) فطمة: جارية مغنية، سمعها بشار تغني فهويها. والنعت: خاص بوصف المحاسن والكمالات. ومكفوف البصر: أعمى.
(٦) يشبهها بالغصن قدًّا، وبالكثيب رِدْفاً، وبالقمر وجهاً.
(٧) درة بحرية: منسوبة إلى البحر، أو إلى البحرين، وهي بلاد في بحرها أجود اللؤلؤ. والمكنونة: المخبوءة لنفاستها. ومازها التاجر: عزلها وفرزها.
(٨) أذرت الدمع: صَبّتْهُ. الولوع: مبالغة في الوالع، والولع: الخفة، والمراد أنه خفيف اليد في اللعب. والخطر: الإشراف على الهلاك.
(٩) في الديوان: «أُمّتَا». تخبر أُمها أنه فرّق لعبها، وَحلّ وشاحها، وهي غريرة لم تفطن لما يحاول استدراجها إليه.

فَـدَعِينـي مَعَـهُ يـا أُمتـي ... عَلَّنـا فـي خَلْـوَةٍ نَقْضِـي الـوَطَـرْ[1]
أقْبَلَـتْ فـي خَلْـوَة تَضْـرِبُهـا ... وَاعْتَـراهـا كَجُنـونٍ مُسْتَعِـرْ[2]
بِـأَبِـي واللهِ مـا أحْسَنَـهُ ... دَمْـعَ عيـنٍ غَسَّـلَ الكُحْـلَ قَطـرْ[3]
أيهـا النُّـوَّام هُبُّـوا وَيْحَكُـمْ ... وَسَلُـونِـي اليـومَ مـا طَعْـمُ السَّهَـرْ[4]

المهدي يأمر بشاراً بترك الغزل

فأمره المهدي ألاَّ يتغزل، فقال أشعاراً في ذلك، منها[5]:

يـا مَنْظَـراً حَسنـاً رأيْتُـهْ ... مـن وَجْـهِ جـاريـةٍ فَـدَيْتُـهْ
لَمَعَـتْ إلـيَّ تَسُـومنـي ... ثَـوْبَ الشبـابِ وقـد طَـوَيْتُـهْ[6]
واللهِ ربِّ مُـحـمَّـدِ ... مـا إن غَـدَرْتُ ولا نَـوَيْتُـهْ
أمْسَكْـتُ عنـكِ، وربمـا ... عَـرض البـلاءُ ومـا ابتغيتُـهْ[7]
إنَّ الخليفـة قـد أبـى ... وَإذا أبـى شيئـاً أَبَيْتُـهْ
قـام الخليفـةُ دُونَـهُ ... فَصبَـرْتُ عنـه ومـا قَلَيْتُـهْ[8]
وَنَهـانـيَ المَلِـكُ الهُمـا ... مُ عـن النسـاءِ فمـا عَصَيْتُـهْ[9]

---

(١) قوله: «عَلَّنا في خلوةٍ...» هو من كلام بشار، ويحتمل أن يكون هو قد سَوَّل لها الخلوة، وكان استئذانها لأمها من فرط غرارتها.
(٢) في الديوان: «أَقبلت مغضبةً». أي ضربتها أُمها لأنها خشيت عليها منه، وَجُنَّت من سذاجتها التي كادت توقعها في الخطر.
(٣) يغسل الكحل: يزيله عن عينها. يذكر دمعها الذي سال فأزال الكحل من عينيها، ويقسم أنه من أحسن ما يراه عاشق في محبوبته.
(٤) اللُّوَّامُ: جمع لائم، وليس لهذا البيت مناسبة مع ما سبق.
(٥) بشار بن برد، الديوان: ٢/ ٢١.
(٦) لمعت: يقال: لمع البرق والصبح وغيرهما ـ لَمْعاً ولمعاناً: برق وأضاء. وساومه مساومةً وسواماً: فاوضه في البيع والشراء، وساوم البائع بالسلعة: غالى بها. وطوى الشيء طيًّا: ضمَّ بعضه إلى بعض، أو لفَّ بعضه فوق بعض، ويقال: طوى فؤاده على الأمر: لم يظهره. وفي الديوان: «لعب الشباب».
(٧) عرض الشيء عَرْضاً وَعُروضاً: ظهر وأشرف. وفي الديوان: «وما بغيته».
(٨) قَلَى فلاناً قِلىً: أبغضه وهجره. قال تعالى: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (سورة الضحى، آية ٣).
(٩) الهمام: السيد الشجاع السخي من الرجال.

بَــلِ قَــدْ وَفيــتُ وَلــم أُضِــعْ عَهْــداً، ولا رأيــاً رَأَيْتُــهُ[١]

وقال أيضاً[٢]:

والله لَــوْلاَ رِضَــا الخليفَــةِ مــا أُعطيــتُ ضَيْمــاً عَلــيَّ فــي شَجَــنِ[٣]
قَــدْ عِشْــتُ بيــن النَّــدْمَـان والــرَّاحِ والْـ ـمِـزْهـرِ فـي ظِـلِّ مَجْلِـسٍ حَسَـنِ[٤]
ثُــمَّ نَهــانــي المَهْــديُّ فــانصــرَفَـتْ نَفْســيَ، صُنْــعَ المُــوفَّــقِ اللَّقِــنِ[٥]

وقال[٦]:

أفنيــتُ عُمْــري وتَقَضَّــى الشبــابْ بيــن الحميَّــا والجَــوَارِي العِــذَابْ[٧]
فــالآن شفَّعــتُ إمــام الهُــدَى وَرُبَّمــا طِبْــتُ لِحُــبٍّ وطَــابْ
لَهــوتُ حتــى رَاعَنــي دَاعيــاً صَـوْتُ أميـر المـؤمنيـن المُجَـابْ[٨]
لَبَّيــك لَبَّيــك! هَجَــرْتُ الصِّبــا وَنَــام عُــذَّالِــي وَمــاتَ العِتَــابْ
أَبْصَــرْتُ رُشْــدِي وَتــركــتُ المُنَــى وَرُبمــا ذَلَّــتْ لَهُــنَّ الــرِّقَــابْ[٩]

في كلمة طويلة يقول فيها:

يــا حــامِــدَ القــولِ، وَلــم يَبْلُــهُ سُبِقْـتَ بـالسَّيْـلِ مَسَـاكَ السَّحَـابْ[١٠]
الفِعْــلُ أَوْلَــى بِثَنَــاءِ الفَتَــى مـا جَـاءَهُ مِـنْ خَطـأ أوْ صَـوَابْ[١١]

---

(١) في الديوان: «وَلا وَأْياً وَأَيْتُه»، والوأي: الوعد.
(٢) بشار بن برد، الديوان: ٤/١٩٨؛ الأصفهاني، الأغاني: ٣/٦٩.
(٣) الضيم: الظلم، وغمط الحق، وأعطيت ضيماً: التزمت به. والشجن: الحزن.
(٤) في الديوان: «بين الريحان»، والريحان نبت طيب الرائحة. والراح: الخمر. والمزهر: العود.
(٥) اللَّقِنُ: الفَهِمُ، الحسن التلقن لما يسمعه، وهو من لقن فلان إذا عقل وفهم.
(٦) بشار بن برد، الديوان: ١/٦٦.
(٧) في الديوان: «والجواري الأواب»، والأَواب: السقَّاء أو الساقي.
(٨) في الديوان: «راعني غادياً».
(٩) ذلت لهن الرقاب: خضعت.
(١٠) لم يبله: لم يختبره أو يمتحنه. والمساك: بزنة السحاب: الموضع الذي يمسك فيه الماء. وفي الديوان: «انهلال السحاب».
(١١) في الديوان: «من خطل أو صواب»، والخطل: الكلام الفاسد المضطرب.

دَعْ قـولَ وَاءٍ وانتظـرْ فِعْلَـهُ يُثْنِي على اللِّقْحَةِ ما فِي الحِلاَبْ[١]
إذا غـدا المهـديُّ فـي جُنْـدِهِ وراحَ فـي آلِ الـرسـول الغِضَـابْ
بَـدَا لـك المعـروفُ فـي وَجْهِـهِ كـالظَّلْـمِ يَجْرِي في الثنايا العِذَابْ[٢]

من شعر بشار في الغزل

ومن شعر بشار في الغزل[٣]:

أيهـا السـاقيـانِ صُبَّـا شَـرَابـي وَاسقيـانـي مـن رِيـق بيضـاءَ رُودِ[٤]
إنّ دائـي الصَّـدى، وإنّ شفـائـي شَـرْبَـةٌ مـن رُضَـابِ ثَغْـرٍ بَـرُودِ[٥]
عِنْدَهـا الصبرُ عـن لقـائـي، وَعِنْدِي زفَـرَاتٌ يـأكُلْـنَ قَلْـبَ الجلِيـدِ[٦]
وَلهَـا مَبْسِـمٌ كَغُـرِّ الأقـاحـي وَحـديـثٌ كـالـوَشْـي وَشْـي البُـرُودِ[٧]
نَـزلَـتْ فـي الـسوادِ مـن حَبَّـةِ القلـ ـبِ وَنـالـتْ زِيـادةَ المُسْتَـزِيـدِ
ثُـمَّ قَـالـتْ: نَلْقَـاكَ بعـد لَيـالٍ والليـالِـي يُبْلِيـنَ كـلَّ جَـديـدِ
لا أُبـالـي مَـنْ ضَـنَّ عنـي بِـوَصْـلٍ إنْ قَضَـى الله منـك لـي يَـوْمَ جـودِ[٨]

---

(١) واءٍ: واعد، من وأى بمعنى وعد. اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. وفي الديوان: «ما في العلاب»، والعلاب: جمع عُلْبَة: قدح ضخم من خشب أو من جلود الإبل، وقد يكون لها طوق من خشب، يحلب به. والحلاب: الوعاء الذي يحلب فيه اللبن.
(٢) الظَّلْمُ: ماء الأسنان وبريقها. الثنايا: جمع الثنية، وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت. وفي الديوان: «في ثنايا الكعاب»، والكعاب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهد ثديها.
(٣) بشّار بن برد، الديوان: ٢/ ٢٤٥. والأبيات من قصيدة في محبوبته «عبدة».
(٤) صفراء: لون المرأة، وفي الديوان: «بيضاء». والرود: الشابة الناعمة الحسناء.
(٥) في الديوان:
إنَّ دائـي طَغَـى وَإنَّ شِفَـائـي غُبْـرَةٌ مِـنْ رُضَـابِ فيـكِ البَـرُودِ
والغُبْرَةُ: البقية من الشيء. والبرود: البارد.
(٦) في الديوان: «قلب الحديد». والحديد والجليد: المُتصبر المتجلد.
(٧) في الديوان: «لها مَضْحَكٌ»، والمبسم والمضحك: الثغر. والبُرُود: جمع برد، وهو ثوب مخططٌ موشًّى.
(٨) ضَنَّ: بخل، وفي الديوان: «ضَنَّ عَنّي بِنَيْلٍ».

وقال[١]:

تُلْقَى بِتَسْبِيحةٍ من حُسْنِ ما خُلِقَتْ ... وَتَسْتَفِزُّ حَشَا الرَّائي بإرْعَادِ
كأنما صُوِّرَتْ من ماءِ لؤلؤةٍ ... فَكُلُّ جَارحةٍ وَجْهٌ بِمِرْصَادِ[٢]

وقال[٣]:

وَهَبْتِ له على المِسْواكِ رِيقاً ... فَطَابَ له بِطِيبِه ثَنِيَّتيك
أُقَبِّلُهُ على الذِّكْرى كأنّي ... أُقَبِّلُ فيه فَاكِ وَمُقْلَتَيْكِ[٤]

وقال[٥]:

لا أستطيعُ الهوى وَهِجْرَتَها ... قَلْبي ضَعيفٌ وقَلْبُها حَجَرُ
كأنَّ وَجْدِي بها وَقدْ حُجِبَتْ ... في الرأس والعينِ والْحَشَا سُكُرُ

وأنشد له أبو تمام، وكان يقول: ما رأيتُ شعراً أغزل منه[٦]:

زَوِّدينا يا عَبْدَ قَبْلَ الفراقِ ... بِتَلاقٍ، وَكيْفَ لي بالتَّلاَقِ[٧]
أنا واللهِ أشتهي سِحْرَ عَيْنَيْـ ... ـكِ وأَخْشَى مَصَارِعَ العشاقِ
أمَتي من بني عُقَيْلِ بن كَعْبٍ ... مَوْضِع السّلْكِ في طُلاَ الأعْنَاقِ[٨]

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٢/ ٢٢٣، والبيتان من قصيدة في محبوبته «سلمى».

(٢) في الديوان:

كَأَنَّما خُلِقَتْ في قِشْرِ لُؤْلُؤةٍ ... فَكُلُّ أكنافِها وَجْهٌ بِمِرْصَادِ

والأكناف: النواحي والأجزاء.

(٣) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٣٠.

(٤) في البيت إشارة إلى أن تقبيل العين لم يكن مشؤوماً في عصر بشار، وذلك بخلاف ما يزعم البعض من أنه يورث الفراق. وقد بنى ابن زيدون الأندلسي على معنى هذا البيت فأبدع وأجاد بقوله:

يُدْني خَيالكِ حِينَ شَطَّ به النّوى ... وَهْمٌ أَكادُ به أُقَبِّلُ فَاكِ

(٥) بشار بن برد، الديوان: ٣/ ٢٥٩ و٤/ ٧٥.

(٦) المصدر نفسه: ٤/ ١٢٥.

(٧) في الديوان: «عَبْدَ إني إليك بالأشواقِ».

(٨) في الديوان:

إنني من بَنِي عُقَيْلِ بن كَعْبٍ ... مَوْضِعَ السَّيْفِ من طُلَى الأعناقِ

والطُّلَى: جمع طُلْيَة، وهي أصل العنق. يريد أنه من عقيل، وأنه في منتهى الشرف والعزة فيهم.

وقال[١]:

لقد عَشِقَتْ أذُني كلاماً سَمِعْتُهُ ... رَخيماً، وقَلْبي للمليحةِ أعْشَقُ[٢]
وَلَوْ عَايَنُوها لم يَلومُوا على البُكى ... كَريماً سقاهُ الخَمْرَ بَدْرٌ مُحَلِّقُ[٣]
وَكيفَ تناسي مَنْ كأنَّ حَديثَهُ ... بأذني وإن غُنِّيتُ قُرْطٌ مُعَلَّقُ[٤]

وقال[٥]:

وَقدْ كُنْتُ في ذاكَ الشبابِ الذي مَضَى ... أُزَارُ ويَدْعُونِي الهوَى فَأَزُورُ
فَإنْ فاتَني إلْفٌ ظَلِلْتُ كَأنّما ... يُديرُ حياتي في يَدَيْهِ مُديرُ
وَمُرْتَجَّةِ الأَرْدافِ مَهْضُومةِ الحشَا ... تَمُورُ بسِحْرٍ عَيْنُهَا وَتَدُورُ[٦]
إذا نَظَرَتْ صَبَّت عَلَيْكَ صَبابةً ... وَكادَتْ قُلوبُ العالمينَ تَطِيرُ[٧]
خَلَوْتُ بها لا يَخْلُصُ الماءُ بيننا ... إلى الصُّبْحِ دوني حَاجِبٌ وَسُتُورُ[٨]

لعلي بن الجهم

ومن هذا أخذ علي بن الجهم قوله:

رَعَى اللهُ دَهْراً ضَمَّنَا بعد فُرْقَةٍ ... وَأدْنَى فُؤاداً من فؤادٍ مُعَذَّبِ
عِناقاً وَضمَّا والتزاماً كَأنَّما ... يُرَى جَسَدَانَا جِسْمَ رُوحٍ مُركَّبِ
فَبِتْنَا وإنَّا لو تُراقُ زُجَاجةٌ ... من الْخَمْرِ فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٢٣.
(٢) رخم الكلام والصوت رَخْماً: لان وسهل.
(٣) بدر محلق: يقال: حَلَّق البدر إذا دارت حوله هالة، وذلك من شدّة نوره.
(٤) القرط: حلي تعلقه المرأة في أذنها. عُنِّيتُ: أُتْعِبْتُ، وفي الديوان: «غُيِّبْتُ».
(٥) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٦٧.
(٦) الأرداف: جمع ردف: العجز، الكفل. مهضومة الحشا: ضامرة البطن، لطيفة الكشحين. تمور: تتحرك وتضطرب.
(٧) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
(٨) أي: بتنا متلاصقين، لا يمرُّ الماء بيننا من شدّة الالتحام.

منزلة شعر بشار ومقداره

وشعره في هذا المعنى كثير.

وَرُوِي أنه قال: أنا أشْعَرُ الناسِ؛ لأنَّ لي اثني عشر ألفَ قصيدة، فلو اختير من كل قصيدة بيتٌ لاستندر، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعرُ الناس؛ وقد نثرتُ نَظْمَهُ في أضعاف الكتاب استدعاءً لنشاط القارىء وكراهة في إملاله.

وكان بشارٌ أرقّ المُحْدَثين ديباجةَ كلام، وسُمّي أبا المُحْدثين؛ لأنه فَتَقَ لهم أكمام المعاني، ونهَج لهم سبيل البديع، فاتّبعوه؛ وكان ابن الرومي يُقَدّمهُ، ويزعمُ أنه أَشعرُ من تقدَّم وتأخر.

ولاؤه

وهو يتعلق في شعره بولاء عَقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ويفتخرُ بالمضرية. قال له المهدي: فيمن تَعْتَزِي؟ قال: أمَّا اللسان فعربيّ، وأما الأصل فكما قلت في شعري! قال: وما قلت؟ فأنشده[١]:

وَنُبِّئْتُ قوماً لهم إحْنَةٌ ... يَقُولون مَنْ ذا وَكُنْتُ العَلَمْ[٢]
ألا أيها السائلي جَاهِلاً ... لِيَعْرِفَني أنا إلْفُ الكَرَمْ[٣]
نَمَتْ في المكارمِ بي عامرٌ ... فُرُوعي وأصلي قُريشُ العَجَمْ[٤]
وَإني لأُغني مَقَام الفَتَى ... وَأُصْبي الفَتَاةَ فلا تَعْتَصِمْ[٥]

البيت الأول من هذه الأبيات ينظرُ إلى قول جميل[٦]:

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ١٥٨/٤، الأصفهاني، الأغاني: ٢١/٣، ٣٢، ٤٦.
(٢) في الديوان: «بِهِمْ جِنَّةٌ». والإحنة: الحقد والبغض، والجِنَّةُ: الجنون.
(٣) في الديوان: «أنا أنف الكرم».
(٤) أراد بقريش العجم: أهل خراسان، ووجه الشبه بينهم وبين قريش، أنهم لم يؤدوا إتاوة ولا خراجاً مثلها.
(٥) إصباء الفتاة: جعلها تصبو، أو تقبل على الحب. لا تعتصم: أي لا تَتَعَفَّف. وفي الديوان: «ما تعتصم».
(٦) جميل بن معمر، الديوان: ص ١٢٥.

إذا مـا رأونـي طَـالعـاً مـن ثَنِيَّـةٍ ... يقـولـون مَـنْ هـذا وَقـدْ عَـرَفُـونـي[١]

وفي هذه القصيدة يقول بشار[٢]:

وَبَيْضَـاء يَضْحَـكُ مـاءُ الشبـا ... ب فـي وَجْهِهَـا لَـكَ إذ تبْتَسِـمْ[٣]

دُوارُ العَـذَارى إذا زُرْنَهـا ... أطَفْـنَ بِحَـوْرَاء مِثْـلِ الصَّنَـمْ[٤]

يَـرُحْـنَ فَيَمْسَحْـنَ أركـانَهـا ... كمـا يَمْسَـحُ الحَجَـرَ المُسْتَلِـمْ[٥]

أَصفـراءُ لَيْـسَ الفتـى صَخْـرَةً ... وَلكنّـهُ نُصْـبُ هَـمّ وغَـمّ[٦]

صَبَيْـتِ هَـواكِ علـى قلبـهِ ... فَضـاقَ وأَعْلَـنَ مـا قَـدْ كَتَـمْ

ويقال: إنه مولى لأم الظباء السَّدُوسية، ولذلك قال أبو حُذَيفة واصِلُ بن عطاء الغزَّال رئيس المعتزلة لما هجاه بشار: أمَا لهذا الأعمى المُلْحِد المشَنَّف المكتني بأبي معاذ مَنْ يَقْتُله؟ والله لولا أنَّ الغِيلة من سجَايَا الغَالِية، لبعثتُ إليه من يَبْعَجُ بطنه في جوف منزِله، ولا يكون إلا سَدُوسِيّا، أو عُقَيْلِيّا.

شيء من خبر واصل بن عطاء المعتزلي

وكان واصلُ بنُ عطاء أَحَد أعاجيب الدنيا؛ لأنه كان ألثغ في الراء؛ فأسقطها من جميع كلامه وخطبِهِ؛ إذ كان إمامَ مَذْهَب، وداعيَ نِحْلة، وكان محتاجاً إلى جَوْدَةِ البَيَانِ، وفصَاحَةِ اللِّسَانِ. قال الجاحظ: فانظر كثرةَ ترداد الراء في هذا الكلام وكيف أسقطها؟ قال: الأعمى، ولم يقل الضرير، وقال: الملحد، ولم يقل الكافر، وقال: المشنَّف، ولم يقل المرَعَّث، وقال: المكتَني: بأبي معاذ، ولم يقل بشاراً ولا ابن برد، وقال: الغالية، ولم يقل المغيرية، ولا المنصورية، وهم الذين أراد، وقال: لبعثت، ولم يقل لأرْسلت، وقال: يبعَج، ولم يقل يَبْقُر، وقال: في جوف منزله، ولم يقل في داره، وأراد بذكر عُقَيْل وَسَدُوس ما ذكر من اعتزائه إليهم.

---

(١) الثنية: العقبة في الجبل، وطَلاَّعُ الثنايا: كناية عمَّن يقدم على مشاق الامور.

(٢) هذه الأبيات، والأبيات التي سبقتها من قصيدة قالها بشار في مدح الأمير عمرو بن العلاء.

(٣) ماء الشباب: حسنه ونضارته.

(٤) الدوار: الكعبة، البيت الحرام، المنزل. والحوراء: البيضاء.

(٥) في الديوان: «يَظَلْنَ يُمَسِّحْنَ أركانها».

(٦) صفراء: اسم المحبوبة أو لونها. والنصب: الشيء المنصوب. والهم: الحزن، والغم: الكرب.

عود إلى أخبار بشار بن برد

وزعم الجاحظ أن بشاراً كان يَدِين بالرَّجعة، ويكَفِّر جميعَ الأُمة؛ وأنشد له أشعاراً صوّب بها رَأْيَ إبليس في تقديم النار على الطين، منها قولُه[١]:

الأَرضُ مُظْلِمَــةٌ، والنــارُ مُشْــرِقَــةٌ والنــارُ مَعْبُــودةٌ مُــذْ كــانــتِ النــارُ

وقال داود بن رَزِين: أتينا بشاراً، فأذِنَ لنا والمائدةُ بين يديه، فلم يَدْعُنَا إلى الطعام، ثم جلسنا فحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصلّ، ودعا بِطَسْتٍ فَبالَ بحضرتنا، فقلنا له: أنت أستاذُنا، وقد رأينا منك أشياءَ أنكرناها، قال: ما هي؟ قلنا: دَخَلْنَا والطعامُ بين يديك فلم تَدْعُنَا، قال: إنما أذِنْتُ لتأكلوا، ولو لم نُرِدْ ذلك لم نَأْذَن لكم، قلنا له: ودعوت بالطَّست ونحن حضور، قال: أنا مكفوف، وأنتم مأمورون بغضّ الأبصار دوني، قلنا: وحضرت الصلاة فلم تصلّ! قال: الذي يقبلها تفارِيقَ يقبلها جملة! هذا وهو القائل[٢]:

كَيْــفَ يبكــي لِمَحْبَــسٍ فــي طُلــولِ مــن سَيُفْضِــي لِحَبْــسِ يَــوْمٍ طَــويــلِ
إنَّ فــي البَعْــثِ والحســابِ لَشُغْــلاً عَــنْ وُقــوفٍ بِــرَسْــمِ دَارٍ مُحيــلِ[٣]

وقال[٤]:

ذَكَــرْتُ بهــا عَيْشــاً فَقُلْــتُ لِصــاحبــي: كَــأَنْ لــم يكُــنْ مــا كــانَ حيــنَ يَــزُولُ
وَما حاجتي لو ساعد الدهرُ بالْمُنَى كِعَــابٌ عليهــا لُــؤلــؤٌ وَشُكُــولُ[٥]
بــدا لــيَ أن الــدَّهْــرَ يَقْــدَحُ فــي الصّفَــا وأَنَّ بَقَــائــي إن حَيِيــتُ قَلِيــلُ
فَعِــشْ خــائفــاً للمــوتِ أو غَيْــرَ خَــائِــفٍ علــى كُــلِّ نَفْــسٍ لِلحمــامِ دَلِيــلُ
خَلِيلُــكَ مــا قَــدَّمْــتَ مــن عَمَــلِ التُّقَــى وَلَيْــسَ لأيَّــامِ المَنُــون خَليــلُ

بين بشار وعقبة بن رؤبة بن العجاج

وكان بشَّارٌ حاضرَ الجواب، سجَّاعاً، خطيباً، صاحبَ منثور وَمُزْدَوَج ورَجز ورسائل

(١) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٧١؛ الأصفهاني، الأغاني: ٣/ ٢٤.
(٢) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٥٣.
(٣) في الديوان: «إن في الحشر»، و«بِكُلِّ رسمٍ مُحِيلِ». والمحيل: الذي غاب عنه أهله منذ أحوال.
(٤) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٤٣.
(٥) الكعاب: الجارية التي نهد ثديها. والشكول من النساء: ذات الشَّكْل، وهو الغنج والدلال.

مختارة على كثير من الكلام، ودخل على عُقْبة بن مسلم بن قتيبة، فأنشده مديحاً وعنده عقبة بن رُؤْبة، فأنشده أرجوزة، ثم أقبل على بشار فقال: هذا طِرازٌ لا تحسنه يا أبا معاذ! فقال: والله لأنا أرجز منك ومن أبيك! ثم غدا على عقبة من الغَد، فأنشده أرجوزته[١]:

يـا طَلَـلَ الحَـيّ بـذاتِ الصَّمْـدِ   بـاللهِ خَبِّـرْ كيـف كُنْـتَ بَعْـدي

يقول فيها:

صَـدَّت بخـدٍّ وَجلَـتْ عـن خَـدِّ   ثـم انْثَنَـتْ كـالنَّفَس المُـرْتَـدِّ[٢]
وَصـاحـبٍ كـالـدُّمَّـلِ المُمِـدِّ   حَملتُـهُ فـي رُقْعَـةٍ مـن جِلْـدِي[٣]
حَتّـى اغتـدى غَيْـرَ فقيـدِ الفَقْـدِ   وَمـا دَرَى مـا رَغْبَتـي مـن زُهْـدِي[٤]

وهذا كقول الآخر:

يَـودّون لـو خَـاطُـوا عليـك جُلـودَهُـمْ   وَلا يَـدْفـعُ المـوتَ النفـوسُ الشَّحـائـحُ

وفيها يقول:

الحـرّ يُلْحَـى والعصـا لِلْعَبْـدِ   وَليـس لِلْمُلْحِـفِ مِثْـلُ الـردِّ[٥]
أسلَـمْ وحُيِّيـتَ أَبَـا المِلَـدِّ   مفتـاحَ بـاب الْحَـدث المُنْسَـدِّ[٦]
وَالْبَـسْ طِـرَازي غيـرَ مُسْتَـرَدِّ   للهِ أيـامُـك فـي مَعَـدِّ

وهي طويلة، فأجزلَ صلته، فلما سمع ابن رؤبة ما فيها من الغريب قال: أنا وأبي وجدّي فَتَحْنَا الغريبَ للناس، وإني لخليق أن أسدّه عليهم، فقال بشار: ارحمهم رحمك الله! قال: تستخفّ بي، وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر؟ قال: إذاً أنت من أهل البيت الذين أَذهب الله عنهم الرِّجْس وطهَّرهم تطهيراً! فضحك كلّ مَنْ حضر.

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٢/ ٢٢٧.
(٢) في الديوان: «ضَنَّت بخدٍّ».
(٣) في الديوان:
وَصـاحـبٍ كـالـدُّمَّـلِ المُمِـدِّ   أَرْقُـبُ مِنْـهُ مِثْـلَ يَـوْمِ الـوِرْدِ
المُمِدُّ: الذي تخرج منه المِدّة أي القَيْح. ويوم الورد: يوم نوبة الحُمَّى.
(٤) في الديوان: «حتى انطوى».
(٥) في الديوان: «الحُرُّ يُوصَى». وَيُلْحَى: يُشْتم، يُعاب. والملحف: الذي يلحّ في المسألة.
(٦) أبو المِلَدّ: عقبة بن مسلم. والملد: سيف عمرو بن عبد ودٍّ، كني به عقبة.

بين بشار ويزيد بن منصور الحميري عند المهدي

ودخل على المهدي وعنده خالُه يزيد بن منصور الحميري، فأنشده قصيدة، فلما أتمَّها قال له يزيد: ما صناعتك يا شيخ؟ قال: أَثْقُبُ اللُّؤْلُؤَ، فقال له المهدي: أَتَهْزَأُ بخَالِي؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، فما يكونُ جَوَابي لمن يَرَى شَيْخاً أعمى يُنْشِدُ شعراً فيسأله عن صِناعته؟

بشار وجواري المهدي

وقالت جَوَاري المهدي للمهدي: لو أذِنْتَ لبشَّار يدخلُ إلينا يؤانسنا ويُنْشِدنا فهو محجوب البَصَرِ، لا غيرة عليكَ منه، وأمره فدخل إليهن واستظرَفْنَه، وقلن له: وددنا واللهِ يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارِقك، قال: ونحن على دينِ كسرى[1]! فأمر المهدي ألاّ يدخل عليهن.

وكأن المتنبي نظر إلى هذا فقال[2]:

يا أخْتَ مُعتَنِقِ الفوارسِ في الوَغَى ... لأَخُوكِ ثَمَّ أرَقُّ مِنْكِ وأرْحَمُ[3]
يَرْنُو إليكِ مع العَفَافِ وعِنْدَهُ ... أنَّ المجوسَ تُصِيبُ فيما تَحْكُمُ[4]

[كلمات مأثورة]

قال علي بن عبيدة الريحاني: الموَدَّةُ تَعَاطُفُ القلوب، وائتلافُ الأرواح، وحَنين النفوس إلى مَثَابة السرائر؛ والاسترواحُ بالمستكنَّات في الغرائز، ووحشة الأشخاص عند تَبَايُن اللقاء، وظاهر السرور بكثرة التَّزوار، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاقُ الخِصَال.

وقال: العِتابُ حدائقُ المتحابِّين، وثمارُ الأَوِدّاء، ودليل الظنّ، وحركات الشَّوق، وراحةُ الوَاجد، ولسان المُشْفِق.

---

(١) كان كسرى مجوسياً يستبيح زواج البنات والأخوات.
(٢) المتنبي، الديوان: ١/ ٣٧.
(٣) الوغى: الحرب. يقول: أنت قاسية القلب، وأخوك على بسالته إذا لقي عدواً في الحرب، كان أرق على عدوه وأرحم منك على العاشق.
(٤) سقط هذا البيت من الديوان.

قال بعض الكتاب: العِتاب عَلاَمةُ الوَفاء، وخاصَّة الْجَفَاء، وسلاحُ الأكْفَاء.

وقال علي بن عبيدة: التجنّي رسولُ القطيعة، وداعي القِلَى، وسبب السلوّ، وأوّلُ التجافي، ومنزل التهاجر.

وقال: الصدقُ ربيعُ القلب، وزكاة الْخَلْقِ، وثمرة المروءة، وشُعَاعُ الضمير وعن جلالة القدر عبارته، وإلى اعتدالِ وَزْن العقل يُنْسَب صاحبه، وشهادتُه قاطعةٌ في الاختلاف، وإليه ترجع الحكومات.

وقال: الكذبُ شِعارُ الخيانة، وتحريفُ العلم، وخواطر الزّور، وتسويلُ أضغاث النفس، واعوجاجُ التركيب، واختلافُ البنية، وعن خمول الذكر ما يكون صاحبه.

وعلي بن عبيدة كثيرُ الإغارة عَلَى ما كان غَيْرُهُ قد استَثَارَه.

فقر في الكذب لغير واحد

بعض الفلاسفة: الكذَّاب والميّتُ سواء؛ لأن فضيلة الحيِّ النُّطق، فإذا لم يُوثَق بكلامه فقد بطلت حياته.

الحسن بن سهل: الكذّاب لِصّ؛ لأن اللصّ يسرقُ مالك، والكذّاب يسرقُ عقلك، ولا تأمن مَنْ كذب لك أنْ يَكْذِب عليك، ومن اغتاب غيرَك عندك فلا تَأمَنْ أن يغتابَك عند غيرك.

قال إبراهيم بن العباس في هذا النحو.

إنّــــي متـــــى أَحْقِـــــدْ بِحِقْـ ـــدِكَ لا أَضُـــرُّ بـــه سِـــوَاكـــا
وَمتــــى أَطَعْتُـــــكَ فـــــي أخـ ـيــكَ أطعــتُ فيـك غــداً أخــاكــا
حَتَّـــــى أُرَى مُـتَـقَسّمـــــاً يَـــوْمِـــي لِـــذا، وغَـــداً لِـــذَاكـــا

حَسْبُ الكاذب بعقله سَقَما وبقلبه خصما.

ابن المعتز: علامةُ الكذاب جُوده باليمين لغير مستحلف، وقال:

وَفـي اليميـنِ علـى مـا أنـتَ فَـاعِلـهُ مـا دلّ أنَّـكَ فـي الميعـادِ مُتَّهَـمُ

وقال: اجتنِبْ مُصاحبةَ الكذّابَ، فإن اضطررت إليه فلا تصدّقه، ولا تُعلِمه أنك تكذّبه، فينتقل عن وُدّه، ولا ينتقل عن طبعه. يَعْتَرِي حديثَ الكذَّاب من الاختلاف ما لا

يعتري الْجَبانَ من الارتعاد عند الحَرْب. لا تَصِحُّ للكذّاب رُؤْيا؛ لأنه يُخْبِر عن نفسه في اليقظة بما لم يَرَ، فتريه في النوم ما لا يكون، وأنشد:

لا يكــذبُ المــرءُ إلا مِــنْ مَهَــانتــهِ أو عَــادِةِ الســوءِ، أو مِــنْ قِلَّــةِ الأدَبِ

ولأهل العصر: فلانٌ مُنْغَمِسٌ في عيبه، يكذب لذيله على جَيْبه، يقول بَهْتاً، وزُوراً وبحتاً، قد ملأ قلبه رَيْنا، وقوله مَيْناً؛ يدين بالكذب مَذْهباً، ويستثير الزّور مركباً. أقاويلُ يتمشّى الزُّورُ في مناكِبها، ويَبْرُزُ البهتانُ في مذاهبها.

وقال أعرابي لابنه وسمعه يَكْذِب: يا بني، عجبتُ من الكذَّاب المُشِيد بكَذبه، وإنما يدلُّ على عَيْبِه، ويتعرَّضُ للعقاب من رَبّه؛ فالآثامُ له عادة، والأخبارُ عنه متضادّة، إن قال حقاً لم يُصَدَّق، وإن أراد خيراً لم يوفَّق؛ فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدّالُّ على فضيحته بِمقَالِه. فما صحَّ من صدقه نُسِب إلى غيره، وما صحّ من كذب غَيْرِه نُسِب إليه، فهو كما قال الشاعر:

حَسْــبُ الكَــذُوبِ مــن المَهَــا نــة بَعْــضُ مــا يُحْكَــى عليــهِ
مــا إِنْ سَمِعْــتُ بِكِــذْبــةٍ مــن غَيْــرِه نُسِبَــتْ إليــهِ

[جزاء الشكر]

بين الحسن بن سهل والمامون

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون، بعد أن زُفَّت إليه بوران وتوهَّم القوادُ أن هذا التزويجَ قد أَنْسَى الحسَن حالَه قبل ذلك: قد تولّى أميرُ المؤمنين من تَعْظيم عبده في قبول أَمَتِه شيئاً لا يَتّسعُ له الشكرُ عنه إلا بمعونة أميرِ المؤمنين، أدام الله عزّه، في إخراج توقيعه بتزيين حَالِي في العامة والخاصة، بما يراه فيه صواباً إن شاء الله.

فخرج التوقيع: الحسنُ بن سهل زمامٌ على ما جمع أُمور الخاصة، وَكنَفَ أسبابَ العامة، وأحاط بالنفقات، ونفذ بالولاة، وإليه الخراجُ والبريدُ واختيارُ القُضَاة، جزاءً بمعرفته بالحالِ التي قَرَّبَتْهُ منا، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا.

[من خطب النكاح]

خطبة للمامون

قال يحيى بن أكثم: أراد المأمون أن يزوّج ابنته من الرضا فقال: يا يحيى؛ تكلم،

فأجلَلْتُه أن أقولَ: أنكحت، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنت الحاكم الأكبر، والإمام الأعظم، وأنْتَ أوْلى بالكلام، فقال:

الحمدُ لله الذي تصاغرت الأمورُ بمشيئته، ولا إلهَ إلا هو إقراراً بربوبيته، وصلى الله على محمد عند ذكره.

أما بعد، فإنَّ اللهَ قد جعل النكاح دِينا، ورَضِيَه حُكْماً، وأنزله وَحْياً؛ ليكونَ سببَ المناسبة؛ ألاَ وإني قد زوّجت ابنة المأمون من عليّ بن موسى، وأمهرتها أرْبَعَمِائَةِ درهمٍ، اقتداءً بسنةِ رسول الله ﷺ، وانتهاءً إلى ما دَرَج إليه السّلفُ، والحمدُ لله رب العالمين.

ما يستحب من الخاطب والمخطوب إليه

قال الأصمعي: كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حُرمته الإطالَة؛ لتدلّ على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز، ليدلّ على الإجابة.

وخطب رجل من بني أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته، فأطال؛ فقال عمر:

الحمدُ لله ذي الكبرياء، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء؛ أما بعد فإن الرغبةَ منك دَعَتْك إلينا، والرغبة منا فيك أجابَتْ وقد زوّجناك على كتاب الله: إمساكٌ بمعروف، أو تسريحٌ بإحسان.

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن يَخْطُب له، فاستفتح بحمد الله وأطال، وصلّى على النبيّ عليه السلام وأطال، ثم ذكر البَدء وَخَلْقَ السموات والأرض، واقتصّ ذِكْرَ القرون حتى ضَجر مَنْ حضر، والتفت إلى الخاطب، فقال: ما اسمُكَ أعزَّك الله؟ فقال: الله قد أُنسيت اسمي من طول خطبتك، وهي طالقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة؛ فضحك القوم، وعَقَدُوا في مجلس آخر.

[الكتب والأقلام والخط]

لابن المعتز

وقال ابن المعتز: الكتاب وَالِجُ الأبواب، جريءٌ على الحجّاب، مُفْهِم لا يَفْهَمُ، وناطقٌ لا يتكلم، به يشخص المشتاق، إذا أقعده الفراق، والقلم مجهِّزٌ لجيوش الكلام، يخدم الإرادة، ولا يملّ الاستزادة، ويسكتُ واقفاً، ويَنْطِقُ سائراً، على أرض بياضُها مُظْلِم، وسوادُها مُضِيء، وكأنه يقبّل بِسَاط سلطان أو يفتح نُوَّار بُسْتان.

وله في القاسم بن عبيد الله

وهذا كقوله في القاسم بن عبيد الله، قال الصولي: لما عُرِض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه، قال ابن المعتز:

قَلَـــمٌ مـــا أَرَاهُ أم فلـــك يَجْـ ـــري بمـا شـاءَ قـاسـمٌ وَيسيـرُ
خَـاشِـعٌ فـي يَـدَيْـه يَلْثِـمُ قِـرْطـا سـاً كمـا قبَّـلَ البسـاطَ شَكُـورُ
وَلطيـفُ المعنـى جَليـلٌ نَحِيـفٌ وكبيـر الأفعـال وَهْـوَ صغيـرُ
كَـمْ مَنـايـا وَكَـمْ عَطـايـا وَكَـمْ حَتْـ ـفٍ وَعيـشٍ تَضُـمُّ تلـكَ السُّطُـورُ
نَقشَـتْ بـالـدُّجَـا نهـاراً فمـا أدْ ري أخـطٌّ فيهـنَّ أم تَصْـويـرُ
هكـذا مَـنْ أبـوه مِثْـلُ عُبَيْـدِ الْـ لَّـه يُنْمَـى إلـى العُـلاَ وَيَصِيـرُ
عَظُمَـتْ مِنَّـةُ الإلٰـهِ عَلَيْـهِ فَهُنَـاكَ الـوزيـرُ وَهْـوَ الـوَزِيـرُ

لبعض البلغاء

وقال بعض البلغاء: صورةُ الخطّ في الأبصار سواد، وفي البصائر بَيَاض.

للمتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي[١]:

دَعـانِـي إليـكَ العلـمُ والحِلْـمُ والحِجَـى وهـذا الكـلامُ النَّظْـمُ والنّـائِـلُ النَّثْـرُ[٢]
وَمـا قُلْـتُ مِـنْ شِعْـرٍ تَكَـادُ بُيـوتـهُ إذا كُتِبَـتْ يَبْيَـضُّ مِـنْ نُـورِهَـا الحِبْـرُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وهب:

عَليـمٌ بـأعْقَـاب الأمـورِ، كـأنـهُ بِمُختلسـاتِ الظـنّ يسمـعُ أَو يَـرى
إذا أخـذ القـرطـاسَ خِلْـتَ يمينـهُ يُـفـتِّـح نَـوْراً أو يُنَظِّـمُ جَـوْهَـرا

---

(١) المتنبي، الديوان: ١/٣٤٨. والبيتان من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي.

(٢) الحجى: العقل. والنائل: العطاء. يقول: دعاني إلى زيارتك ما عندك من هذه الفضائل، ومالك من الشعر المنظوم والعطايا المنثورة. وقيل: أراد بالنظم شعر نفسه.

مفاخرة بين صاحب سيف وصاحب قلم

فاخرَ صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم، فقال صاحب القلم: أنا أقتلُ بلا غَرَر، وأنت تقتلُ على خَطَر. فقال صاحب السيف: القلمُ خادِمُ السيف، إن تَمَّ مرادُه وإلا فإلى السيف مَعاده؛ أما سمعت قول أبي تمام[(١)]:

السيـفُ أصْـدَقُ إنبـاءً مـن الكتُـبِ ... فـي حَـدِّه الحَـدُّ بَيْنَ الجِـدِّ واللَّعِـبِ[(٢)]

بِيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصَّحَائفِ في ... مُتُـونِهِـنَّ جَـلاَءُ الشَّـكِّ والـرِّيَـبِ[(٣)]

للمتنبي

وقال أبو الطيب[(٤)]:

مَـا زِلْـتُ أُضْحِـكُ إبْلِـي كُلَّمـا نَظَـرَتْ ... إلـى مَـن اخْتَضَبَـتْ أَخْفـافُهـا بِـدَمِ[(٥)]

أُسيـرُهَـا بَيْـنَ أَصنـامٍ أُشَـاهِـدُهَـا ... ولا أشَـاهِـدُ فيهـا عِفَّـة الصَّنَـمِ[(٦)]

حَتَّـى رَجَعْـتُ وَأَقـلامِـي قَـوائِـلُ لـي ... المجـدُ لِلسَّيـفِ لَيْـسَ المجـدُ لِلقلَـمِ

أُكْتُـبْ بنَـا أبـداً بعـدَ الكِتَـابِ بِـهِ ... فـإنَّمـا نَحْـنُ لِـلأسيـافِ كـالخَـدَمِ

للنوبختي

هذا مقلوبٌ من قول علي بن العباس النوبختي، وقد رواه أبو القاسم الزجاجي لابن الرومي، وإنما وهم لاتّفاق الاسمين:

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/٩٦. والبيتان من قصيدة طويلة يمدح بها المعتصم، ويذكر انتصاره على الروم في موقعة عمورية سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٧ م.

(٢) الكتب: أي كتب السحر والتنجيم. الحد: الفاصل. يقول: حدّ السيف يفصل بين الجدّ واللعب لأنه أصدق من المنجمين ورواياتهم.

(٣) الصفائح: جمع الصفيحة: السيف العريض. والصحائف: جمع الصحيفة: القرطاس المكتوب.

(٤) أبو الطيب المتنبي، الديوان: ٢/٣١٥. والأبيات من قصيدة يرثي بها أبا شجاع فاتك، ويذكر مسيره من مصر.

(٥) في الديوان: «من اختضبت».

(٦) يقول: أسيرها بين أناس كالأصنام يُطاعون وَيُعظمون، ولا فهم لهم، ولكنهم ليسوا كالأصنام في العفة واجتناب المحرمات والمنكرات.

إن يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الذي خَضَعَتْ ... له الرقابُ وَدانَتْ خَوفَهُ الأُمَمُ
فالموتُ ـ والموتُ لا شيءٌ يُغَالبه ـ ... ما زال يَتْبَعُ ما يَجْرِي به القلمُ
بذا قَضَى الله للأقلامِ مذْ بُرِيَتْ ... أنّ السيوفَ لها ـ مُذْ أُرْهِفَتْ ـ خَدَمُ(١)

لابن الرومي

وقال ابن الرومي(٢):

لَعَمْرُكَ ما السَّيْفُ سَيْفُ الكَمِيِّ ... بأخْوَفَ مِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ(٣)
لَهُ شَاهِدٌ إنْ تأمَّلْتَهُ ... ظَهَرْتَ على سِرِّهِ الْغَائِبِ
أداةُ المَنِيَّةِ في جَانبيهِ ... فَمِنْ مِثْلِهِ رَهْبَةُ الرَّاهِبِ(٤)
سِنَانُ المنيةِ في جَانِبٍ ... وَحَدُّ المنِيَّةِ في جَانِبِ(٥)
ألم تَرَ في صَدْرِهِ كالسِّنَانِ ... وَفي الرِّدْفِ كالمُرْهَفِ الْقَاضِبِ(٦)

للبستي

وقال أبو الفتح البستي:

إذا أَقْسَمَ الأبطالُ يوماً بِسَيْفِهِمْ ... وَعدّوه مما يكْسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كَفَى قَلَمُ الكتّابِ مَجْداً ورفعةً ... مدَى الدَّهرِ أنّ الله أقْسَم بالقَلَمْ

وقد قيل: صريرُ الأقلام، أشدّ من صليل الحُسام.

لطلحة بن عبيد اللّه

قال الصولي: أنشدني طلحة بن عبيد اللّه:

---

(١) أُرْهِفَتْ: رُقِّقَتْ.
(٢) ابن الرومي، الديوان: ١/١٦٩.
(٣) الكميّ: الشجاع، أو لابس السلاح، لأنه يكمي نفسه، أي يسترها بالدرع والبيضة، والجمع كُماة.
(٤) أداة المنية في جانبيه: آلة الهلاك في طرفيه.
(٥) في الديوان: «وسيف المنية».
(٦) المرهف القاضب: السيف المُرقّق القاطع.

وإذا أمـــرَّ علـــى المَهـــارِقِ كَفَّـــهُ بـأنـامـلٍ يَحْمِلْـنَ شَخْتـاً مُـرْهَفـا[١]
مُتقـــاصـــراً مُتَطـــاوِلاً وَمُفصّـــلا وَمُـــوَصّـــلاً وَمُشتَّتـــاً وَمُـــؤَلّفـــا
تَـــرِكَ العُـــدَاةَ رَواجفـــاً أحشـــاؤُهَـــا وَقِـــلاَعَهـــا قِلَعـــاً هنـــالِـــكَ رُجَّفـــا
كـــالحيـــةِ الـــرَّقْشَـــاءِ إلا أنَّـــهُ يَسْتَنـــزِلُ الأَرْوَى إليـــه تلطُّفـــا[٢]
يَـــرْمـــي بـــه قلمـــاً يَمـــجُّ لُعـــابَـــه فَيعـــودُ سَيْفـــاً صـــارِمـــاً وَمُثقَّفـــا[٣]

لمحمود الأصبهاني

وقال محمود بن أحمد الأصبهاني:

أَخْـــرَسُ يُنْبِيـــك بـــإطْـــرَاقِـــهِ عَـــنْ كُـــلِّ مـــا شِئْـــتَ مِـــنَ الأمْـــرِ
يُـــذْرِي علـــى قِـــرْطـــاسِـــهِ دَمْعَـــةً يُبْـــدِي بهـــا الســـرَّ ومـــا يَـــدْري
كَعَـــاشـــقٍ أخْفَـــى هَـــواهُ وقَـــدْ نَمَّـــتْ عليـــه عَبْـــرَةٌ تَجْـــرِي
تُبْصِـــرُه فـــي كـــلِّ أحـــوالـــهِ عُـــرْيَـــانَ يَكْسُـــو النـــاس أو يُعْـــرِي
يُـــرَى أسيـــراً فـــي دوَاةٍ وَقـــدْ أطلَـــق أقـــوامـــاً مـــن الأسْـــرِ
أخْـــرَقُ لَـــوْ لَـــمْ تَبْـــرِه لـــم يَكُـــنْ يَـــرْشُـــقُ أقـــوامـــاً ومـــا يَبْـــرِي
كـــالبَحْـــرِ إذْ يجـــري، وَكَـــاللَّيْـــلِ إذْ يَغْشَـــى، وَكَـــالصَّـــارمِ إذْ يَفْـــرِي[٤]

لأحمد بن جرار

وقال أحمد بن جِرَار:

أَهْيَـــفُ ممشـــوقٌ بِتَحْـــريكـــهِ يَحـــلُّ عقـــد الســـرِّ إعـــلانُ
لـــه لِســـانٌ مُـــرْهَـــفٌ حَـــدُّهُ مـــن رِيقَـــة الكُـــرْسُـــفِ رَيَّـــانُ[٥]
تَـــرَى بسيـــطَ الفِكْـــرِ فـــي نَظْمِـــهِ شَخصـــاً لـــه حَـــدٌّ وَجُثْمَـــانُ

(١) المهارق: الصحائف البيضاء، واحدها مهرق. والشخت: الضامر الدقيق من غير هزال.
(٢) الأروى: جمع أُرْوِيّة، تقع على الذكر والأنثى من الوعل، وهو تيس الجبل.
(٣) صارم: باتر، قاطع. مُثَقَّف: مُقَوَّم، مُسَوَّى.
(٤) يفري: يَشُقُّ، يقطع.
(٥) الكُرْسُفُ: القطن.

كَـــأَنَّمـــا يَسْحَـــبُ فـــي إِثْـــرِهِ ذَيْـــلاً مـــن الْحِكْمـــةِ سُحْبَـــانُ
لَـــوْلاهُ مـــا قَـــامَ مَنَـــارُ الهـــدى ولا سَمَـــا لِلْمُلْـــكِ ديـــوانُ

لأبي تمام

ومن أجود ما قيل في صفة القلم قول أبي تمام لمحمد بن عبد الملك الزيات(١):

لَـكَ الْقَلَـمُ الأعْلـى الّـذِي بِشَبـاتـهِ تُصابُ من الأمْرِ الكُلَى والمفاصِلُ(٢)
لَـه رِيقَـةٌ طَـلٌّ وَلَكِـنَّ وَقْعَهَـا بـآثـارِهِ فـي الشَّرْقِ والغَـرْبِ وَابِـلُ(٣)
لُعَـابُ الأفَـاعِـي القَـاتِـلاَتِ لُعَـابُـهُ وَأَرْيُ الْجَنَى اشْتَـارَتْـهُ أَيْـدٍ عَـوَاسِـلُ(٤)
لَـهُ الخلـواتُ الـلاءِ لَـوْلاَ نَجِيُّهـا لما اخْتلَفَتْ لِلمُلكِ تِلْكَ المَحَافِلُ(٥)

لتميم بن المعز الفاطمي

وقال الأمير تميم بن المعز(٦):

وَذي عَجبٍ مِنْ طُولِ صَبْرِي على الذي أُلاَقِـي مـن الأَرْزَاءِ وَهْـوَ جَليـلُ
يقولون: ما تَشْكو؟ فقلتُ: مَتَى شَكَا شَبَا السيفِ عَضْبُ الشفرتَيْنِ صَقيلُ(٧)

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٥٧.
(٢) شباته: حدّه، أي رأس القلم. شبّه حَدّ قلمه بحدّ السيف، وجعله يفتك بالأمر المفصل فيفصله ويذلل صعابه، وينال منه ما لا ينال الحسام.
(٣) الطل: الندى أو المطر الخفيف. والوابل: المطر الغزير الضخم القطر.
يقول: إن ما يجري من ريق هذا القلم على القرطاس تافه يحكي الندى في قلته، ولكنه يشبه المطر الغزير بقوته إذا نظرت إلى خيره، ووقع آثاره في الشرق والغرب.
(٤) لعاب الأفاعي: سُمُّها. لعابه: ريقه، أي مداده. والأري: العسل. والجنى: كل ما يجنى ويقطف. اشتارته: جنته. عواسل: مفردها عاسلة: التي تجني العسل. يقول: مداد قلمه في تهديد الأعداء قاتل كَسُمِّ الأفاعي، وفي التلطّف للإخوان كالعسل.
(٥) نَجِيُّها: حديثها السرّي. احتفلت: أحسنت القيام بالأمور. المحافل: المجالس، الواحد محفل. يقول: لولا سرّ هذه الأقلام لما انتظم الملك.
(٦) هو أبو علي، تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي الفاطمي: شاعر ماهر، لطيف، ظريف. توفي سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٥ م بمصر. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٣٠١).
(٧) العَضْبُ: القاطع. صقيل: أي مصقول: مَجْلُوٌّ.

وإنَّ امرأً يشكو إلى غَيْرِ نافعٍ ... وَيَنْخو بما في نفسه لَجَهولُ
عَذابِيَ أَنْ أشكو إلى الناس أنني ... عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عليلُ
وَيمنعني الشكوى إلى الله عِلْمُهُ ... بجُمْلَةِ ما أَلْقَاه قَبْلَ أقولُ
سَأَسْكُتُ صَبْراً واحتساباً فإنني ... أَرى الصَّبْرَ سيفاً ليس فيه فُلُولُ(١)

وقال:

يا دَهْرُ ما أقساك من مُتلوِّنٍ ... في حَالتيكَ، وما أقلَّك مُنْصِفَا
أَتروحُ لِلنِّكسِ الجهولِ مُمهِّدا ... وَعلى اللبيبِ الحرِّ سيفاً مُرْهَفَا(٢)؟
وَإذا صَفوْتُ كَدُرْتَ، شيمةَ باخلٍ، ... وإذا وَفَيْتُ نَقَضْتَ أَسبابَ الوَفَا
لا أرتضيكَ، وإن كَرُمْتَ؛ لأنني ... أدْري بأنك لا تدومُ على الصَّفَا
زَمَنٌ إذا أَعْطَى استردّ عَطاءَهُ ... وإذا استقام بَدَا له فَتَحرَّفَا
ما قام خَيْرُكَ يا زمانُ بِشَرِّهِ ... أَوْلَى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

[الصدق في النصيحة]

بين أحمد بن يوسف وغسان بن عباد

وكان أحمدُ بنُ يوسف منصرفاً عن غسَّان بن عباد، وجرَتْ بينهما هَنَات بِحَضْرَةِ المأمون، فقال يوماً بحضرة خاصَّة أصحابه: أخبروني عن غسَّان بن عباد؛ فإني أُريده لأمرٍ جسيم؛ وكان قد عَزَم على تقليده السِّند مكانَ بِشْرِ بن داود؛ فتكلّمَ كلُّ فريقٍ بما عنده في مَدْحِه؛ فقال أحمد بن يوسف: هو يا أميرَ المؤمنين رجلٌ محاسنُه أكثرُ من مساويه، لا يتطرَّفُ به أمرٌ إلاّ تقدَّم فيه، ومهما تُخوّف عليه فإنه لن يَأْتِي أمراً يَعْتذر منه؛ لأنه قسم أيامه بين أفعال الفَضْل؛ فجعل لكلِّ خُلُق نَوبة، إذا نظرتَ في أمْرِه لم تَدْر أَي حالاته أعجب؛ مَا هَدَاهُ إليه عَقْلُه أمْ ما اكتسبه بأدبه؟

فقال له المأمون: لقد مدحته على سوءِ رَأْيك فيه! قال: لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر:

كَفَى ثَمَناً لِمَا أَسْدَيْتُ أَنّي ... نَصَحْتُك في الصَّديقِ وفي عِدَائي

---

(١) فُلُولٌ: ثُلُومٌ.
(٢) النِّكْسُ: الضعيف، أو الرَّذِل المُقصِّرُ عن غاية النجدة والكرم. وَسيْفٌ مُرْهَفٌ: مُرقَّقٌ.

وَأَنّـــي حيـــنَ تَنْـسـدُبُنـــي لأَمْـــرٍ   يَكُـونُ هَـواكَ أَغْلَـبَ مِـنْ هَـوائـي

قال الصولي: وقد رُوِي هذا لغير أحمد، ولعلّ أحمد استعاره؛ فأعجب المأمون ذلك منه، وشكره غسان بن عبّاد له، وتأكَّدت الحالُ بينهما.

من ترجمة أحمد بن يوسف ومنزلته في البلاغة

وكان أحمدُ بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى عِجْل بن لجيم عَالِيَ الطبقة في البلاغة، ولم يكن في زمانه أكْتَب منه، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الكتاب، وَوَزَرَ للمأمون بعد أحمد بن أبي خالد، وكان أول ما ارتفع به أحمد أن المخلوعَ محمد بن الرشيد لما قُتِلَ أمر طاهرُ بن الحسينِ الكتَّاب أن يكتبوا إلى المأمون؛ فأطالوا، فقال طاهر: أريد أخصَرَ من هذا، فَوُصِفَ له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة، فأحضره لذلك، فكتب: أمَّا بعد فإنْ كان المخلوعُ قَسمَ أمير المؤمنين في النَّسَب واللّحْمَة، فقد فرَّق بينهما حُكْمُ الكتاب في الولاية والخدمة، بمفارقته عِصمة الدين، وخروجه عن الأمْرِ الجامعِ للمسلمين؛ لقول الله عزّ وجل فيما اقتص [علينا] من نبأ نوح وابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾(١)، ولا طاعة لأحدٍ في معصيةِ الله، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعةُ في ذاتِ الله؛ وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز اللَّهُ له ما كان ينتظرُ من سابق وَعْدِه، والحمدُ لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلومَ حقّه، الكائد له فيمن خَتَرَ(٢) عَهْدَه، ونَقَضَ عَقْدَه، حتى رَدّ به الأُلْفَةَ بعد فُرْقَتِها، وجَمَع به الأمةَ بعد شتَاتِها، وأضاء به أَعْلام الدين بعد دُرُوسِها؛ وقد بعثتُ إليك بالدنيا وهي رَأْسُ المخلوع، وبالآخرة وهي البُرْدَةُ والقَضيب؛ والحمدُ لله الآخِذِ لأمير المؤمنين حقَّه، الراجع إليه تُـرَاثَ آبائه الراشدين.

وكان أحمد بن أَبي خالد كثيراً ما يَصِفُ أحمد للمأمون ويحثُّه عليه، فأمره المأمونُ بإحضاره، فلما وقف بين يديه قال: الحمدُ لله يا أميرَ المؤمنين الذي استخصَّك فيما استحفظَكَ من دينه، وقلَّدَك من خلافته، بسوابغ نِعَمِه، وفضائل قِسَمِه، وعرّفَكَ من تيسير كلِّ عسيرٍ حاولك عليه متمرّد، حتى ذلَّ لك ما جعله تكملة لما حَبَاك به من مواردِ أموره بِنُجْحِ مصادرها، حَمْداً نامياً زائداً لا يَنْقَطِعُ أُولاه، ولا يَنْقَضِي أُخْرَاه، وأَنَا أسأَلُ الله يا أميرَ

---

(١) سورة هود، آية: ٤٦.

(٢) خَتَرَ: غدر، وقيل: الخَتْرُ: أقبح الغدر، قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُور﴾ (سورة لقمان، آية: ٣٢).

المؤمنين من إتمام بلائه لديك، وَمِنَنِه عليك، وكفايتِه ما ولاَّك واسترعاك، وتحصين ما حازَ لك، والتمكينِ من بلادِ عدوِّك، ما يمنعُ به بَيْضَةَ الإسلام[١]، ويُعِزُّ بك أَهْلَه، وَيُبيحُ بك حِمَى الشِّرْكِ، ويجمعُ لك مُتَباين الأُلْفَة، ويُنْجِز بكَ في أهل العِنَادِ والضلالة وَعْدَهُ؛ إنه سميع الدعاء، فعّال لما يشاء.

فقال المأمون: أحسنتَ، بُورك عليك ناطقاً وساكتاً! ثم قال بعد أنْ بَلاه واختبره: يا عجباً لأحمد بن يوسف! كيف استطاع أن يَكْتُمَ نَفْسَه!

وكتب إلى المأمون يَسْتَجْدِي لزوّار على بابه: إن داعي نَدَاك، ومُنَادِي جَدْوَاك، جَمَعا ببابك الوُفُود، يرجون نائِلكَ العَتِيد، فمنهم من يَمُتُّ بِحُرْمَة، ومنهم من يُدْلِي بسالفِ خِدْمَة، وقدْ أَجْحَفَ بهم المقام؛ فإن رأَى أميرُ المؤمنين أن يَنْعَشهم بِسَيْبِه، ويحقّق ظنَّهُم بِطَوْلِه، فَعَلَ[٢].

فوقَّعَ المأمونُ في عرض كتابه:

الخيرُ مَتَّبَع، وأموالُ الملوك مَظَانّ لطلاَّبِ الحاجات؛ فاكتُبْ أسماءَهم، وبيِّن مرتبةَ كلّ واحد منهم، ليصيرَ إليه على قَدْرِ استحقاقه؛ ولا تُكَدِّرَنَّ معروفنا بالمَطْلِ والحجاب؛ فقد قال الشاعر:

فإنّك لَنْ تَرَى طَرْداً لِحُرّ كإلصاقٍ بِهِ طَرَفَ الهَوَانِ
وَلَم تُجْلَبْ مَوَدَّةُ ذِي وَفَاءٍ بِمْثِلِ الوُدِّ أو بَذْلِ اللِّسَانِ

قال أحمد بن يوسف: أمرني المأمون أن أكتبَ في زيادة قناديل شهر رمضان؛ فأَعْيا عليَّ، ولم أجِدْ مثالاً أَحْتَذِي عليه؛ فبتّ مغموماً، فأتاني آتٍ في النوم فقال: اكتب: فإنّ فيها إضاءة للمتهجّدين، ونفياً لمكان الرِّيب، وأنْساً للسابِلة[٣]، وتنزيهاً لبيوت الله من وَحْشَةِ الظّلم، فأخبرت بذلك المأمون، فاستظرفه، وأمر أن تمضي الكُتُبُ عليه.

وأهدى إلى المأمون في يوم نوروز طبقَ جَزْعٍ عليه ميل من ذَهَب، فيه اسمه منقوش، وكتب إليه:

---

(١) بيضة الإسلام: أصله.
(٢) السَّيْبُ: العطاء، المعروف. والطَّوْلُ: الفضل والغنى واليُسْر.
(٣) السابلة: المارَّةُ.

هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ، بإلطاف العبيد السادة، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميل[١].

فلما قرأ المأمون الرقعة قال: أجاءت هديةُ أحمد بن يوسف؟ قالوا: نعم. قال: هي في داري أمْ داري فيها؟ فلما رفع المنديل استظرف الهديّة واسترجح مُهْدِيها.

وأهدى إلى إبراهيم بن المهدي هدية وكتب إليه: الثقةُ بك قد سهّلت السبيلَ إليك؛ فأهْدَيْتُ هديةَ من لا يَحتَشِم إلى من لا يَغْتَنِم.

وكتب إلى بني سعيد بن سلم: لولا أنَّ الله عزّ وجل ختم نبوّته بمحمد ﷺ، وَكُتُبَهُ بالقرآن، لنزَّل فيكم نبيَّ نِقْمَة، وأنزل فيكم قرآنَ غَدْر؛ وما عَسيت أن أقولَ في قومٍ محاسنهم مساوىء السُّفْل، ومساويهم فَضَائحُ الأمم، وألسنتُهم معقولة بالعِيِّ، وأيديهم معقودة بالبُخْل، وهم كما قال الشاعر:

لا يَكْبُـرونَ وَإنْ طَـالَـتْ حَيَـاتهُـمُ ... ولا تَبِيـدُ مَخَـازِيهـم وإنْ بَـادُوا

وغنَّى مُغَنٍّ بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحْسناً، فلم يُنْصِتوا له، وتحدَّثوا مع غِنائه، فغضب المغنّي؛ فقال أحمد بن يوسف: أنت عافاك الله تُحمِّل الأسماع ثقلاً، والقلوب مَلَلا، والأَعْيُن قَبَاحة، والأنف نَتَانة، ثم تقولُ: اسمعوا مني، وأنصِتوا إليّ! هذا إذا كانت أفهامُنا مُقْفلة، وآذاننا صَدِئة، فإما رضيت بالعَفْو منا، وإلا قمت مذموماً عنا.

ألفاظ لأهل العصر في ذم المغنين

يَترنَّمُ فيُتْعِبُ ولا يُطْرِب. إذا غنَّى عَنَّى، وإذا أدَّى آذى. يميت الطَّرَب، ويحيي الكُرَب. ضَرْبُه يُوجِب ضَرْبَه. من عجائب غِنائه أنه يُورِد الشتاء في الصيف. ما رؤي قطّ في دارٍ مرتين. وحضر جحظة مجلساً فيه عليّ بن بسام[٢]، فتفرّق القومُ المخادّ، فقال جحظة: فما لي لم تعطوني مخدَّة؟ فقال علي بن بسام: غنِّ فالمخادّ كلها إليك تصير! وفيه يقول ابن بسام:

(١) الجَزْعُ: ضرب من العقيق، يُعْرَف بخطوط متوازية، مستديرة، مختلفة الألوان.

(٢) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن نصر بن بسّام، المعروف بالشاعر البسّامي: شاعر لسن، مطبوع، هجّاء، هجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته، ولم يسلم من لسانه أمير ولا وزير. وكان عالماً بالأدب والأخبار. توفي سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٤ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ١٢/٦٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٣٦٣).

يـا مَـنْ هَجَـوْنَـاه فَغَنّـانـا ... أنـتَ، وَبَيْـتِ الله، أهجـانـا
سِيَّـان إن غنّـى لنـا جَحْظَـةٌ ... أو مَـرَّ مَجْنُـونٌ فَـزنَّـانَـا

وكان خالد يُستَبرد، فبعث بعضُ الظرفاء غُلامَهُ يشتري له خمسة أرطال ثلج، فأتاه بخالدٍ وقال: يا مولاي، طلبت خمسة أرطال، وهذا حِمْل!

وتغنّى بِحَضْرَة محموم، فقال: ويحك! دَعْنا نعرق!

وقال بعض المحدثين في قريس المغني:

ألا فَـاسْقِنـي قَـدَحـاً وافـراً ... يُعِيـنُ علـى البَلْغَـمِ الهـائـجِ
أَكَلْنـا قَـرِيسـاً وغَنّـى قَـرِيـسٌ ... فَنَحْـنُ علـى شَـرفِ الفَـالـجِ(١)

ولقي أبو العباس المبرد برد الخيار المغنّي في يوم ثَلْج بالجسر، فقال: أنت المبرّد وأَنا برد الخيار، واليوم كما تَرى، اعْبُرْ بنا لا يهلك الناس بالفالج بسببنا.

وقال ابن عباد الصاحب في مغنّ يعرف بابن عذاب:

أَقـولُ قـولاً بـلا احتشـامِ ... يَعْقِلُـه كـلُّ مَـنْ يَعِيـهِ
ابـنُ عـذَابٍ إذا تَغنّـى ... فـإنـي مِنْـهُ فـي أبيـهِ

* * *

[عود إلى أحمد بن يوسف]

ومن شعر أحمد بن يوسف:

ضَمِيـرُ وَجْـدٍ بِقَلْـبِ صَـبٍّ ... تَـرْجَـمَ دَمْعِـي بِـهِ فَشَـاعَـا
فَصَـار دَمْعِـي لِسـانَ وَجْـدي ... ضَيّـع سِـرِّي بـهِ فَـذاعَـا
لَـوْلاَ دُمـوعِـي وَفَـرْطِ حُبِّـي ... مـا كـان سِـرِّي كـذا مُضَـاعـا

وقال:

وَعـامـلٍ بـالفجـورِ يَـأمُـر بـالْـ ... ـبِـرِّ كَهـادٍ يَخُـوضُ فـي الظُّلَـمِ

(١) القَرِيسُ (من الطعام): المبرد الجامد، ويقال: سمك قريس: طُبخ واتُّخِذ له صِباغٌ وتُرِك فيه حتى جَمَدَ.

أو كطبيــــبٍ قــــد شفَّـــه سَقَـــمٌ وَهْــوَ يُــدَاوي مــن ذلــك السَّقَــم[1]
يـــا واعــظَ النــاسِ غيــر مُتَّعــظٍ ثَــوْبَــكَ طَهِّــرْ أوْ لاَ فــلا تَلُــمِ

وقال:

إذا مــا التقينــا والعيــونُ نَــواظــرٌ فَــأَلْسُنُنــا حَــرْبٌ وأَبصــارنــا سَلْــمُ

وقال في الحزن:

كَثيــرُ هُمــومِ القَلْــبِ حتــى كــأَنمــا عليــه سُــرورُ العــالَميــن حَــرَامُ
إذا قِيــلَ مــا أَضْنَــاك! أَسْبَــلَ دَمْعَــهُ فَــأَخْبَــرَ مــا يَلْقَــى وَلَيْــسَ كــلامُ

وقال:

كَــرِيـــمٌ لـــه نَفْـــسٌ يَليـــنُ بِلينِهـــا لِيَــرْدَعَ عَــنْ سلطــانِــه سُنَــنَ الكِبْــرِ
إذا ذَكَّــرَتْــهُ نَفْسُــهُ عُظْــمَ قَــدْرِهَــا دَعــاهُ إلــى تَسكِينهــا عِظَــمُ القَــدْرِ

ووقَّع في كتابِ رجل يحثُّه على استتمام صنائعه عنده: مستتمُّ الصنيعةِ من عَدَّل زَيْغَها، وأقام أَوَدها، صيانةً لمعروفه، ونصرةً لرأيه؛ فإن أَول المعروف مستخفّ، وآخره مُسْتَثْقَل، يكاد أَول الصنيعة يكون للهوى، وآخرها للرَّأْي، ولذلك قيل: رَبُّ الصنيعة أشد من ابتدائها[2].

وكان أبو العتاهية له صديقاً قبل ارتفاع حالِه، فأحسّ منه في حين وزارته تغيّراً، فكتب إليه:

أَمِنْــتَ إذ اسْتَغْنَيْــتَ مــن سَــوْرةِ الفَقْــرِ فَصِرْتَ تَرَى الإخوانَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ[3]
أبـــا جعفـــر إنَّ الشـــريـــفَ يُهينُـــهُ تَتَـــايُهـــهُ دُونَ الأخـــلاءِ بـــالـــوَفْـــرِ[4]
فإنْ تِهْـتَ يـوماً بـالـذي نِلْـتَ من غنًى فَـــإنَّ غِنـــائـــي بـــالتجمُّـــل والصَّبْـــرِ

---

(١) شَفَّهُ السقم: أنحله وأهزله.
(٢) الربُّ: التعهد بالإصلاح.
(٣) السورة: الوثبة، ومن المجد: أثره وعلامته، ومن الشراب أو البرد: شدّته وحدّته وهياجه. والشَّزْرُ: نظرة الإعراض، أو الغضب أو الاستهانة.
(٤) الوَفْرُ: الغِنى.

أَلـم تَـرَ أَنَّ الفقـرَ يُـرْجَـى لَـهُ الغِنَـى ... وَأَنّ الغِنَـى يُخْشَـى عليـه مِـنَ الفَقْـرِ

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال: حجب أحمدُ بن يوسف أبا العتاهية، ثم عاد، فقيل: هو نائم، فكتب إليه:

لَئِـنْ عُـدْتُ بَعْـدَ اليـومِ إنـي لَظَـالـمٌ ... سَأَصْرِفُ وَجْهي حَيْثُ تُبْغَى المكارِمُ
مَتَـى يَظفـرِ الغـادي إليـكَ بِحَـاجـةٍ ... وَنِصْفُـك مَحْجُـوبٌ وَنِصْفُـك نـائـمُ

وقال:

في عِـدَادِ المَـوْتَـى وفـي سَـاكنـي الـدنـ ... ـيـا أبــو جَعْفَــرٍ أَخـي وخَليلــي
مَيِّــتٌ مــات وَهْــوَ فــي وَرقِ العَيْـ ... ـشِ مُقيمـاً فـي ظِـلِّ عَيْـشٍ ظليـلِ
لــم يَمُــتْ مِيتــةَ الــوَفَــاةِ، ولَكِــنْ ... مَــاتَ عَــنْ كـلِّ صــالــحٍ وجَميــلِ

وخاصم أحمدُ بنُ يوسف رجلاً بين يدي المأمون، وكان صَغَا المأمون إليه[١] على أحمد، ففطن لذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنه يَسْتَمْلي من عينيك ما يَلْقَاني به، ويستَبِينُ بحركته ما تُجِنّه له[٢]، وبلوغُ إرادتك أَحبُّ إليّ من بلوغ أَملي، ولذةُ إجابتك أَمتَعُ عندي من لذَّةِ ظفري؛ ولقد تركتُ له ما نازعني فيه، وسلَّمتُ له ما طالبني به. فاستحسن ذلك المأمون.

ومن كلام أحمد بن يوسف: مجالسةُ البُغَضَاء تُثِيرُ الهمومَ، وتَجْلِبُ الغموم، وتُؤْلم القَلْبَ، وتقدح في النّشاط، وتَطْوي الانبساط.

ألفاظ لأهل العصر في صفات الثقلاء

فلان ثقيل الطَّلْعَةِ، بَغيضُ التفصيل والجُمْلَةِ، باردُ السكونِ والحركَةِ؛ قد خرج عن حدِّ الاعتدال، وذهب مِن ذات اليمين إلى ذات الشّمال. يحكي ثقل الحديث المعَاد، ويَمْشِي في القلوب والأكباد، ولا أَدْري كيف لم تحمل الأمانةَ أرضٌ حَمَلَتْهُ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعد ما أقلَّتْه؟ كأنّ وجهَه أيمُ المصائب، وليالي النوائب، وكأنما قُربه فَقْدُ الحبائب، وسوء العواقب. وكأنما وَصْلُه عُدْمُ الحياة، وموتُ الفجأة، وكأنما هَجْره قوة المنّة، وريحُ الجنّة. يا عجبي من جِسْمٍ كالخيال، وروحٍ كالجبال. كأنه ثقل الدَّيْنِ، على

(١) صغى إليه: مال.
(٢) تُجِنُّه لي: تكتمه وتخفيه.

وَجعِ العين. هو ثقيلُ السكون، بغيضُ الحركَةِ، كثيرُ الشؤم، قليلُ البركة. هو بين الجَفْنِ والعينِ قَذَاة، وبين الأخمص والنَّعْلِ حصاة. ما هو إلا غداةُ الفراق، وكتابُ الطلاق، وموتُ الحبيب، وطلوعُ الرقيب. ما هو إلاّ أربعاء لا تَدُورُ في صفَر، والكابوسُ في وَقْتِ السَّحَر، وأثْقَل من خَرَاجٍ بلا غلّة، ودَوَاءٍ بلا عِلَّة، وأبْغَض من مثلٍ غيرِ سائر، وأجْمَع للعيوبِ من بغلة أبي دُلامة، وحمار طيّار، وطيلسان ابْنِ حَرْب، وأير أبي حكيمة، وأنشد:

مَشَى فَدَعا مِن ثِقْلِهِ الحوتُ ربَّهُ ... وَقال: إلهي زِيدَتِ الأرضُ ثانِيَه[١]

وأنشد:

تَحْمِلُ منه الأَرْضُ أَضعافَ ما ... يَحْمِلُه الحوتُ مِنَ الأَرْضِ

وأنشد:

مُشْتَمِلٌ بالبُغْضِ لا تَنْثَني ... إليه لَحْظاً مُقْلَةُ الرَّامِقِ[٢]
يَظَلُّ في مَجْلِسنا قاعِداً ... أَثْقَلُ مِن وَاشٍ على عَاشِقِ

وقال الحمدوني:

سَأَلتكَ بِاللَّهِ إلاّ صَدقْتَ ... وَعِلْمي بأَنَّك لا تَصْدُقُ
أتُبْغِضُ نَفْسَكَ مِنْ ثِقْلها ... وَإلا فأَنْتَ إذاً أَحْمَقُ

وكتب أبو عبد الرحمن العطوي[٣] إلى بعض إخوانه:

إذا أَنْتَ لم تُرْسِلْ وَجِئْتَ فلم أصِلْ ... مَلأت بِعُذْرٍ مِنْكَ سَمْعَ لَبِيبِ
أَتَيْتُكَ مُشْتاقاً فلم أرَ حاجِباً ... وَلا صاحِباً إلا بِوَجْهٍ قَطُوبِ
كأنّي غَرِيمٌ مُقْتَضٍ، أو كأنَّني ... طُلُوعُ رَقيبٍ أَو نُهُوضُ حَبيبِ

---

(١) في هذا البيت والبيت الذي يليه إشارة إلى الخرافة التي تزعم أن الأرض يحملها حوت!

(٢) مشتمل: يقال: اشتمل بثوبه: أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده، واشتمل بسيفه: تقلده. والرامق: اسم فاعل من رمقه رمقاً إذا نظر إليه، أو أتبعه بصره مُتعهداً مُراقباً.

(٣) هو أبو عبد الرحمن، محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية، مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أحد المتكلمين المتقدمين. ولد ونشأ بالبصرة، وفاق بالشعر جميع نظرائه، وخفَّ شعره على كل لسان، واستعمله الكُتَّاب. توفي نحو ٢٥٠ هـ/ ٨٦٥ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٩٤؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢٢/ ٥٧٢).

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقلُ جليساً اسمه زنباع، فقال له رجل يوماً: ما الزنبعة في كلام العرب؟ قال: التثاقُل، ولذلك سُمِّي جليسُنا زنباعاً.

وقد كَثَّر الناس في الثقلاء، وأنا أستحسن قول جحظة، وإن كان غيره قد تقدّمه في مثله:

يــا لفظَــةَ النَّعْــي بِمَــوْتِ الخليــلْ ... يــا وقفــة التَّــوْديــع بيــن الحُمُــولْ
يــا شَــرْبَــةَ اليــارج يــا أُجــرة الـ ... ـمَنْــزِل يــا وَجْــهَ العَــذُولِ الثقيــلْ
يــا طَلْعَــةَ النّعْــش ويــا منــزلاً ... أقْفَــر مِــنْ بَعْــدِ الأنيــسِ الْحُلُــولْ
يــا نَهْضَــةَ المحبــوبِ عَــنْ غَضْبــةٍ ... يــا نِعْمَــةً قــد آذَنَــتْ بــالــرَّحيــلْ
يــا كتــابــاً جــاء مــن مُخْلِــفٍ ... للــوعــدِ مملــوءًا بعــذرٍ طــويــلْ
يــا بُكْــرَةَ الثَّكْلَــى إلــى حُفْــرةٍ ... مُسْتَــودعٍ فيهــا عــزيــزُ الثكُــولْ
يــا وَثْبَــةَ الحــافــظِ مُسْتَعْجِــلا ... بِصَــرْفِــه القَيْنــاتِ عنــد الأصيــلْ
ويــا طبيبــاً قَــدْ أتــى بَــاكــراً ... علــى أخــي سُقْــمٍ بمــاءِ البُقــولْ
يــا شَــوْكَــةً فــي قــدمٍ رَخْصَــةٍ ... ليــس إلــى إخــراجهــا مِــنْ سبيــلْ
يــا عِثْــرَةَ المجــذوم فــي رَحْلــهِ ... ويــا صُعــودَ السِّعْــر عنــد المُعِيــلْ
يــا رَدَّة الحــاجــبِ عــن قَسْــوَةٍ ... ونَكْسَــةً مــن بعــدِ بُــرْءِ العليــلْ

* * *

من ترجمة جحظة البرمكي ومن شعره

وجَحْظَة هذا هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، وقال أبو الحسن علي بن محمد بن مُقْلَة الوزيرَ: سألْتُ جَحْظَة مَنْ لقَّبه بهذا اللقب؟ فقال: ابنُ المعتز، لقيني يوماً، فقال لي: ما حيوان إنْ نَكَّسُوه أتانا آلة للمراكب البحرية، فقلت: عَلَقٌ، إذا نُكِّس صَارَ قِلْعاً، قال: أحسنت يا جحظة؛ فلزمني هذا اللقب، وكان ناتىء العينين جدّاً، قبيحَ الوجه، ولذلك قال ابن الرومي[١]:

نُبِّئْــتُ جَحْظَــةَ يَسْتَعِيــرُ جُحــوظَــهُ ... مِــنْ فِيــل شِطْــرَنْــجٍ ومــن سَــرطــانِ[٢]

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٢٥٦.
(٢) السرطان: حيوان من القشريات، عشاري الأقدام، قصير الذيل، يعيش على شواطىء البحر، أو في المياه العذبة، وتسميه العامة: الــلطعون.

يــا رَحْمَتــى لِمُنَـادِميــه تَحمَّلــوا ... ألـــمَ العيـــونِ للـــذَّةِ الآذانِ(١)

وكان طيِّبَ الغناء، ممتدَّ النفَس، حسن المسموع؛ إلا أنه كان ثقيلَ اليدِ في الضرب؛ وكان حُلْوَ النادرة، كثير الحكاية، صالح الشِّعْرِ؛ ولا تزال تندر له الأبيات الجيدة، وهو القائل:

جَـانَبْـتُ أَطْيَـب لَـذَّتِـي وَشَـرابـي ... وَهَجَـرْتُ بَعْـدَكَ عَـامِـداً أصحـابـي
فـإذا كَتبـتُ لِكَـيْ أُنـزِّه نـاظـري ... فـي حُسْـنِ لَفْظِـكَ لـم تَجُـدْ بجـوَابِ
إِنْ كُنْـتَ تُنْكِـرُ ذِلَّتِـي وَتَـذلّلِـي ... وَنُحُـولَ جِسْمِـي وَامْتِـدادَ عَـذَابـي
فَـانْظُـرْ إلـى بَـدَنِـي الـذي مَـوَّهْتُـهُ ... لِلنـاظـريـن بِكَثْـرةِ الأثـوابِ

وقال:

وَإذا جَفـانـي صَـاحِـبٌ ... لـم أَستَجِـزْ مـا عِشْـتُ قَطْعَـهْ
وَتَـركْتُـهُ مِثْـلَ القُبُـو ... رِ أَزورهـا فـي كُـلِّ جُمْعَـهْ

وقال:

ضَـاقـتْ علـيَّ وجـوهُ الـرأي فـي نَفَـرٍ ... يَلْقَـوْنَ بـالْجَحْـدِ والكُفْـرَانِ إحسـانـي
أُقلِّـب الطَّـرْفَ تَصْعِيـداً وَمُنْحَـدراً ... فمـا أُقـابـلُ إنسـانـاً بـإنسـانـي

وقال:

لَقَـدْ مـاتَ إخـوانـيَ الصـالحـون ... فمـا لـي صَـديـقٌ وَمَـا لـي عِمـادْ
إذا أَقبـلَ الصبـحُ وَلَّـى السُّـرورُ ... وإن أقبـلَ الليـلُ وَلَّـى الـرقـادْ

وقال يهجو رجلاً:

لا تَعْـذِلـونـي إن هَجَـرْتُ طَعـامَـهُ ... خَـوْفـاً علـى نَفْسـي مِـنَ المـأكـولِ
فَمَتَـى أَكَلْـتُ قَتلتُـهُ مـن بُخْلِـهِ ... وَمتـى قَتَلْـتُ قُتِلْـتُ بـالمَقْتُـولِ

ومن حكاياته ما حَدّثني خالدٌ الكاتبُ قال: جاءني يوماً رسولُ إبراهيم بن المهدي، فصرت إليه، فرأيت رجلاً أَسْوَدَ على فُرُش قد غاص فيها، فاستجلسني وقال: أنشدني من شعرك، فأنشدته:

---

(١) يهجوه بقبحه، ويمدحه بغنائه.

رَأَتْ منه عَيْني مَنظَرَيْنِ كما رأَتْ ... من الشمسِ والبدرِ المنيرِ على الأرضِ
عَشِيّةَ حيَّاني بِوَرْدٍ كأنهُ ... خُدودٌ أُضِيفَتْ بَعْضُهن إلى بَعْضِ
وَنازعني كَأْساً كأنَّ حَبَابَها ... دُموعيَ لمّا صَدّ عَنْ مَقْتَلي غُمْضِي[١]
وَراح وَفِعْلُ الراحِ في حَرَكاتِه ... كَفِعْلِ نَسيمِ الريحِ بالغُصُنِ الغَضِّ[٢]

فزحف حتى صار في ثلثي الفراش، وقال: يا فتى، شبهوا الخُدودَ بالوَرْدِ، وأنت شبهت الورد بالخدود، زِدْني فأنشدته:

عَاتبتُ نَفْسي في هَوا ... كَ فلم أَجِدْهَا تَقْبَلُ
وَأَطَعْتُ داعيَها إليـ ... ـكَ فلم أُطِعْ من يَعْذِلُ
لا والذي جَعَلَ الوُجُو ... هَ لِحُسْنِ وَجْهِكَ تَمْثُلُ
لا قُلْتُ إنّ الصبرَ عَنْـ ... ـكَ من التَّصَابي أَجْمَلُ

فزحف حتى انحدر عن الفرش ثم قال لي: زدني، فأنشدته:

عِشْ فَحُبِّيكَ سَرِيعاً قاتلي ... وَالضَّنَى إن لم تَصِلْني وَاصِلي
ظَفِرَ الحُبُّ بقَلْبٍ دَنِفٍ ... فيكَ والسُّقْمُ بِجِسْمٍ ناحِلِ
فَهُما بين اكْتِئابٍ وَضَنًى ... تَركاني كالقضيبِ الذَّابلِ
وَبكى العاذِلُ لي من رَحْمَةٍ ... فَبُكائي لِبُكاءِ العاذِلِ

فَنَعر طرباً[٣] وقال: يا يَلْبَق[٤]؛ كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً. قال: أقسمها بيني وبين خالد، فدفع إليَّ نصفها.

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسمّ قائله:

لا يُبْعِد الله إخواناً لنا سلفوا ... أَفناهُم حَدَثَانُ الدَّهْرِ والأبدُ
نُمِدُّهُمْ كلَّ يَوْمٍ مِنْ بَقِيَّتِنا ... وَلا يَؤُوبُ إلينا مِنْهُمْ أَحَدُ

---

(١) نازعني: جاذبني. الحباب: الفقاقيع التي تطفو على وجه الشراب. والغُمْضُ: النوم.
(٢) الراح: الخمر. والغضّ: الطريّ.
(٣) نَعَرَ فلان نَعْراً وَنُعاراً وَنَعيراً: صاح وصوَّت بِخَيْشُومه.
(٤) يلبق: لعله أراد الظريف اللبيب، من اللَّبَق، وهو الظَّرْف والرِّفْق. ومنه اللَّبِقُ: الحُلْوُ اللّيّن الأخلاق.

[السكاكين]

بين المأمون وأحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف جالساً بين يدي المأمون، فسأل المأمونُ عن السكّين فناوله أَحمد السكين، وقد أمسك بِنصَابها، وأشار إليه بالحدّ، فنظر إليه المأمون نظر مُنْكِر؛ فقال: لعل أميرَ المؤمنين أَنكر عليَّ أَخْذِي النّصَاب؛ وإشارتي إليه بالحدِّ؛ وإنما تفاءلت بذلك أن يكونَ له الحدُّ على أعدائه، فعجب المأمون من سُرْعَةِ فطنته، ولطيف جوابه.

وقال بعضُ الكتاب: السكين مسُّ الأقلام يشحذها إذا كلت، ويَصْقُلُها إذا نَبَتْ، ويُطْلِقُها إذا وقفت، ويلمّها إذا شَعِثت، وأَحْسَنُها ما عَرُضَ صَدْرُه، وأُرْهِفَ حَدُّه، ولم يفصل على القبضة نِصَابُه.

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي سكيناً سرقت له:

يا قَاتَلَ اللَّهُ كُتّابَ الدواوين ... ما يَسْتَحِلُّونَ من أَخْذِ السكاكينِ
لقد دَهاني لَطيفٌ مِنهمُ خَتِلٌ ... في ذاتِ حدٍّ كحدِّ السيفِ مَسْنُونِ[1]
فأَقْفَرَتْ بعد عُمْرانٍ بِمَوْقِعها ... منها دَواةُ فتًى بالكُتْبِ مَفْتُونِ
تَبكي على مُديَةٍ أودى الزمانُ بها ... كانت على جائرِ الأقلام تُعْدِيني
كانت تُقدِّمُ أَقلامي وَتَنْحَتُها ... نَحتاً وَتُسْخِطها بَرْياً فَتُرْضِيني
وَأُضْحِك الطِّرْسَ والقِرْطَاسَ عن حَلَلٍ ... يَنُوبُ للعين مِنْ نَوْرِ البساتينِ
فإن قَشَرْتَ بها سوداءَ من صُحُفي ... عادت كبعضِ خُدودِ الْخُرَّدِ العِينِ[2]
جُزْعُ النصابِ لطيفاتٌ شَعَائرُها ... مُحسَّناتٌ بأَصنافِ التَّحاسِينِ
هَيفاء مُرْهَفَةٌ بيضاءُ مُذْهَبَةٌ ... قال الإلٰهُ لها سبحانه: كُوني
لَكِنْ مِقطّيَ أَمسى شامتاً جَذِلاً ... وكانَ في ذِلَّةٍ منها وَفي هُونِ[3]
فَصِينَ حتى يُضَاهِي في صِيَانته ... جَاهِي لِصَوْنيهِ عَمَّنْ لا يُدَانيني

---

(١) الخَتِلُ: المخادع، الماكر.

(٢) الخُرَّدُ: جمع الخريدة، وهي الفتاة البكر. والعين: جمع عيناء، وهي الواسعة العينين.

(٣) المِقَطَّةُ والمِقطُّ: ما يُقَطُّ عليه القلم، وقيل: هو عُظَيْمٌ يكون مع الوراقين يقطون عليه أطراف أَقلامهم، والقَطُّ: القطع.

وَلسْتُ عنها بِسَالٍ ما حَيِيتُ، ولا بِوَاجِدٍ عِوَضاً منها يُسَلِّيني
وَلو يَرِدُّ فِدَاءً ما فُجِعْتُ بِهِ منها فَدَيْنَاهُ بالدنيا وَبالدينِ

ألفاظ لأهل العصر في صفات السكاكين

سكّين كأنَّ القدرَ سائقُها، أو الأجَل سابقها، مُرْهَفَة الصَّدْرِ، مُخْطَفَة الْخَصْر، يجولُ عليها فِرنْدُ العِتْق، ويموج فيها ماء الْجَوْهر؛ كأنّ المنيةَ تبرق من حدِّها، والأجل يَلْمَع من مَتْنِها، رَكِّبَتْ في نِصَاب آبنوس، كأنَّ الحَدَقَ نفضَت عليه صِبْغَهَا، وحَبَّ القلوب كَسَتْهُ لباسها. أخذ لها حديدها الناصح بحظٍّ من الروم، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج، فكأنها ليلٌ من تحتِ نَهار، أو مجمر أبْدَى سَنَا نَار، ذات غِرار ماضٍ، وذُبَاب قاضٍ. سكين ذات مَنْسَر بَازِيّ، وجَوْهر هوائي، ونِصَاب زنجي، إن أُرضِيت أولت مَتْناً كالدِّهَان، وإن أُسْخِطتْ اتَّقَتْ بنابِ الأفعوان. سكّين أحْسَنُ من التَّلاقْ، وأقْطَع من الفِرَاق، تفعل فِعْلَ الأعْدَاء، وتنفعُ نَفْعَ الأصدقاء. هي أمْضَى من القَضَاء، وأنْفَذُ من القَدَر المُتَاح، وأقْطَعُ من ظُبَةِ السيف الحُسَام، وألمع من البَرْقِ في الغَمام. جمعت حُسْنَ المنظر، وكَرَمَ المَخْبَر، وتملَّكَتْ عِنان القلب والبصر، ولم يُحْوِجْهَا عِتْقُ الْجَوْهَر إلى إمْهَاءِ الحجر[1].

[السَّمَرُ والمنادمة]

بين محمد بن أنس والقاسم بن صبيح

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح: ما زِلنا في سَمرٍ نَصِلُ فصولَه بتشوّقك، فَيُذْهِب ذِكْرُك مَلَلَ السامر، ونَعْسَة الساهر. فقال القاسم: مِثْلُكَ ذكر صديقه فأطراه، واعتذر إليه فأرضاه، ولو كنتم آذَنْتُمُوني كنت أحدكم، مسروراً بما بِهِ سُرِرتم، مُفيضاً فيما فيه أفَضْتُم.

شرط المنادمة

قال بعضُ الظرفاء: شَرْطُ المنادمة قِلّة الخلاف، والمعاملةُ بالإنصاف، والمسامحةُ في الشراب، والتغافل في ردّ الجواب، وإدمان الرضا، واطِّرَاح ما مَضَى، وإسقاط التحيّات، واجتناب اقتراح الأصوات، وأكل ما حضر، وإحضار ما تيسّر، وسَتْر العَيْبِ، وحفظ الغيب.

---

(١) إمهاء: مصدر من أَمهى السلاح: أَحَدَّه. والحجر: المِسَنّ.

وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوي في قوله:

حُقُوقُ الكاس والنَّدْمَانِ خمسٌ فأَوّلُها التَّزيُّنُ بالوَقَارِ[١]
وَثانيها مُسامَحَةُ التَّدَامَى فَكَمْ حَمَتِ السماحةُ مِنْ ذِمارِ[٢]
وَثالثها، وإن كُنْتَ ابنَ خَيْرِ الْـ ـبَرِيّة مَحْتِداً، تَرْكُ الفَخَارِ[٣]
وَرابعها وَللنَّدْمَانِ حَقٌّ سِوَى حقّ القرابة وَالجِوَارِ
إذا حَدَّثْتهُ فَاكْسُ الحديث الَّـ ـذي حَدّثْته ثَوْبَ اختصارِ
فما حُثَّ النبيذُ بمثلِ حُسْنِ الْـ ـأغَاني والأحاديثِ القِصارِ
وَخامسةٌ يَدُلُّ بها أَخوها على كَرمِ الطبيعةِ والنِّجارِ[٤]
حَديثُ الأمس نَنْسَاهُ جميعاً فَإنَّ الذَّنْبَ فيه لِلْعُقَارِ[٥]
ومَنْ حَكَّمتَ كاسَكَ فيه فاحْكُمْ له بإقالةٍ عِنْدَ العِثارِ[٦]

وقال حسان بن ثابت:

نُوليِّها الملامةَ إنْ أَلْمِنَا إذا ما كان مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ[٧]

بين اليزيدي والمأمون

وشرب اليزيدي عند المأمون فلما أخذَتْ منه الكأس أقبل يعتزّ عليه بتعليمه إياه، وأساء مُخاطبته؛ فلما أفاق من سُكْرِه عُرِّف ما جرى، فلبس أكفانه، ووقف بين يدي المأمون فأنشده:

أنا المُذْنِبُ الخطَّاءُ والعفوُ واسعٌ وَلوْ لم يكُنْ ذَنْبٌ لما عُرِفُ العَفْوُ
ثَمِلْتُ فَأَبْدَتْ مِنّيَ الكاسُ بعضَ ما كَرِهْتَ وما إن يستوي السُّكْرُ والصَّحْوُ

(١) النَّدْمَانُ: الصاحب على الشراب.
(٢) الذِّمَارُ: ما ينبغي حياطته والذود عنه كالأهل والعرض.
(٣) المحتد: الأصل.
(٤) النِّجارُ: الأَصْلُ والحَسَبُ.
(٥) العقار: الخمر، سُمِّيت بذلك لأنها تعقر صاحبها.
(٦) العثار: الزَّلَلُ.
(٧) المَغْثُ: الشَّرُّ والقتال. واللحاء: الملاحاة: المنازعة والمُلاومة.

وَلا سيما إنْ كُنْتُ عِنْدَ خَليفةٍ وَفي مجلِسٍ ما إنْ يجوز به اللَّغْوُ[١]
فإنْ تَعْفُ عني أُلْفِ خَطْوِيَ واسعاً وإلا يكن عَفْوٌ فقد قَصُرَ الْخَطْوُ[٢]

فقال المأمون: لا تثريبَ عليك، فالنبيذُ بساط يُطْوَى بما عليه.

بين كوران والشريف الرضيّ

وشرب كورَان المغني عند الشريف الرضي، فافتقد رِدَاءَه، وزعم أنه سُرِق. فقال له الشريف: ويحك! مَنْ تَتّهم منا؟ أما علمتَ أنّ النبيذَ بِساط يُطْوَى بما عليه؟ قال: انشروا هذا البساط حتى آخذَ ردائي واطْوُوه إلى يوم القيامة!

بين أحمد بن جدار وعمر بن أيوب

وكان أبو جعفر أحمد بن جَدَار كاتب العباس بن أحمد بن طولون ينقل أخبارَ أبي حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون على الشراب إلى العباس، فصار إليه أبو حفص فقال: يا أبا جعفر؛ إنما مجلس المُدَام مجلس حُرمة، وداعيةُ أُنْس، ومسرح لُبانة، ومَذَادُ هَمّ، ومَرْتَع لهو، ومَعْهَد سرور، وإنما توسطته عند من لا يُتَّهم غَيْبُه، ولا يُخْشَى عَتْبه، وقد اتصل بي ما تُنْهِيه إلى أميرنا أبي الفضل أعز الله أمره، من أخبار مجالستي، فلا تَفْعَل، وأنشده:

وَلقدْ قُلْتُ لِلأخِلاَّءِ يوماً قَولَ ساعٍ بالنُّصْح لو سَمِعوهُ
إنما مَجْلِسُ المُدَام بِساطٌ لِلموَدَّاتِ بَيْنَهُمْ وَضَعُوهُ
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا مِنْ نَعيمٍ وَلَذَّةٍ رَفعوه
وَهُمُ أَحْرِياءُ، إنْ كان مِنْهُمْ حَافظٌ، ما أتوه أَنْ يَمْنعوهُ

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل، وقام من مجلسه.

وأنشد أبو حفص:

كم من أخٍ أَوْجَسْتُ منه سَجيّةً فَأَنِسْتُ بَعْدَ وِدَادِهِ بِفراقهِ
لم أَحمَدِ الأيامَ منه خَليقةً فَتركتُهُ مُسْتَمْتِعاً بِخَلاَقهِ[٣]

---

(١) اللَّغْوُ: ما لا يُعْتَدُّ به من كلام وغيره، ولا يُحْصَل منه على فائدة ولا نفع.
(٢) قَصُرَ الخطو: أي دنا الأجل.
(٣) الخَلاَقُ: الحَظُّ والنصيب من الخير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٠٢). والخِلاَقُ (بالكسر): ضرب من الطيب، أعظم أجزائه الزعفران.

عوّل أبو حفص في أكثر كلامه على نَقْل كلام أبي العباس الناشىء في الشراب، والأبيات التي أنشد أولاً له.

أبو القاسم الصاحب: قدماً حُملَتْ أَوْزَارُ السُّكْرِ، على ظهور الخمر، وَطُوِيَ بساطُ الشراب، على ما فيه من خطأ أو صواب. متابعة العُقار، تعذر في خَلْعِ العِذَار، وتُغْني عن الاعتذار. متابعة الأرطال، تبطل سورة الأبطال، وتَدَعُ الشيوخ كالأطفال.

من إسحاق الموصلي إلى بعض الجلة

كتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي إلى بعض الْجِلَّة يستدعيه: يَوْمُنا يومٌ لَيِّنُ الحواشي، وَطِيءُ النواحي؛ وسماؤنا قد أَقْبلت، ورعدت بالخير وبَرَقَتْ، وأنت قُطْبُ السرور، ونظام الأمور؛ فلا تُفْرِدْنا فنقلّ، ولا تنفرد عنا فنذلّ.

للسري الموصلي

وكتب بعض أهل العصر ـ وهو السَّرِيُّ الموصلي[١] ـ إلى أخ له يستدعيه إلى مؤانسته:

خِلاَلُك، ما اختلّ الصديقُ، سَحَائِبُ ... وَبِشْرُكَ، ما هبَّتْ رِياحٌ، مَوَاهِبُ
وأنت شقيقُ الرّوحِ تُؤْثِرُ وَصْلَهَا ... إذا رَاعَهَا بالهَجْرِ خِلٌّ وصَاحِبُ
وَنحن خلالَ القَصْفِ وَالعَزْفِ نَجْتَني ... ثِمارَ مَلاَهٍ كُلُّهُنَّ أَطَايِبُ[٢]
وَعِنْدي لكَ الرّيحان زِينَ بِسَاطُهُ ... بِزَهْرٍ كما زانَتْ سَمَاءً كَواكِبُ
وجَيْشٌ كما انْجَرَّتْ ذُيولُ غَلاَئِلٍ ... مُصَنْدَلة تختالُ فيها الكَوَاعِبُ[٣]
وقد أُطْلِقَتْ فيه الشمائِل، وانثَنَتْ ... مُقَنَّدَةً عن جَانِبِيها الْجَنَائِبُ
وَحَافِظَة ماءَ الحياةِ لِفتْيَةٍ ... حَيَاتُهُمُ أن تُسْتَلَذَّ المشارِبُ
نُسَرْبِلُها أَخْفَى اللباسِ، وَإِنَّما ... يُلَفُّ بها أَفْوَاهُهُ والتَّبائِبُ

---

(١) هو أبو الحسن، السريّ بن أحمد بن السريّ الكندي الموصلي: شاعر ظريف، مليح المأخذ، كثير الافتنان في التشبيهات والأوصاف. توفي سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ١٨٢؛ الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ١٣٧).

(٢) القَصفُ: اللهو واللعب والافتنان في الطعام والشراب.

(٣) مُصَنْدَلةٌ: ضُمِّخت بالصندل، وهو شجر خشبه طيب الرائحة، يظهر طيبه بالدلك والإحراق. والكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهد ثديها.

على جَسَدٍ مِثْلِ الزَبَرْجَدِ لم تَزَلْ تُشاكِلُهُ في لَوْنِهِ وَتُناسِبُ
إذا اسْتُودِعَتْ حُرّ اللُّجَيْنِ سَبائكاً تَصَوَّبَ في أحشائِها وَهْوَ ذائِبُ
وَفَوْقَ رُؤوس القَوْمِ غَيمٌ مُعلَّقٌ من النَّدِّ لا يَجْرِي ولا هُوَ ذَاهِبُ[1]
بَوارِقُهُ خَمْرُ الكؤوسِ وَرَعْدُهُ أناملُ بيضٌ للطبولِ تُلاَعِبُ
وَلا عائقٌ يَثْنِي عِنَانَكَ عَنْ هَوًى رَغَى جانبٌ منه وأوْمَضَ جَانبُ[2]
فبادِرْ؛ فإن اليوم صافٍ من القَذَى، ويا رُبَّ يومٍ بادَرَتْهُ النوائبُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز:

لا شَيْءَ هَمِّي سِوَى قَدَحٍ تَدْمَى عليه أَوْدَاج إبْريقِ
في غَيْمِ نَدّ يُزجي سَحائِبَهُ بَرْقُ ابْتِسَامٍ وَرَعْدُ تَصْفيقِ

للحسن بن محمد الكاتب

وقال الحسن بن محمدٍ الكاتب يصف طبلاً:

يا حَبَّذَا يومنا نَلْهُو بِمُلْهِيَةٍ تُلْهِى بشيءٍ له رَأْسَانِ في جَسَدِ
قَدْ شُدَّ هذا إلى هذا كَأَنَّهُما من شِدَّةِ الشدِّ مَقْرُونَانِ في صَفَدِ[3]
نَظَلُّ نَلْطِمُ خَدَّيهِ إذا ضَرَبَتْ بِكُلِّ طاقتها لَطْماً بلا حَرَدِ[4]
فَتسمعُ الصوتَ منه حين تَضْرِبُهُ كأنه خارجٌ من ماضِغَيْ أسَدِ

ومن ألفاظهم في الاستدعاء

نحن في مَجْلِسٍ قد أبت رَاحُه أن تصفوَ لنا أو تتناولَهَا يُمْنَاك، وأقسم غِنَاؤُه لا طاب أو تَعِيَه أُذُناك، فأمّا خدودُ نارنجه فقد احمرّتْ خجَلاً لإبطائك، وعيون نَرْجِسه قد حدَّقَتْ تأميلاً للقائك، فبحياتي عليك إلاّ تعجّلْت، وما تمهّلْت.

---

(١) النَّدُّ: ضرب من النبات يُتبخَّرُ بعُوده.
(٢) رغا رغواً: صَوّت وضجَّ.
(٣) الصَّفَدُ: القيد والوثاق.
(٤) الحرد: الغضب.

نحن بغيبتك كَعِقْدٍ تغيَّبَتْ وَاسِطَتُهُ، وشبابٍ قد أخْلَقَتْ جِدَّتُه؛ وَإِذْ قد غابت شمسُ السماء عنَّا، فلا بد أن تَدْنُوَ الأرض منا. أنت من ينتظم به شَمْلَ الطرَب، وبلقائه يُبْلَغُ كلُّ أرَب. طِرْ إلينا طَيَرَانَ السَّهْم، واطلُعْ علينا طُلوعَ النَّجم. ثِبْ إلينا وُثُوبَ الغزال، واطلُعْ علينا طلوعَ الهلال، في غُرّة شوَّال. كن إلينا أسرعَ من السهم إلى ممرّه، والماء إلى مقرّه. جشم إلينا قدمك، واخلَعْ علينا كرَمَك، وإن رأيتَ أن تحضرنا لِتتَّصِل الواسِطَة بالعِقْد، ونَحْصل بِقُرْبِك في جَنَّةِ الْخُلْدِ، وتُسْهم لنا في قُرْبِك الذي هو قوتُ النّفس، ومادةُ الأُنْس.

ولهم في استدعاء الشراب

قد تألّف لي شَمْلُ إخوانٍ كاد يفترق لِعَوَز المشروب، واعتدنا فَضْلَكَ المعهود، وَوَرَدْنا بَحْرَكَ المورود، وأنا ومَنْ سامحني الدهرُ بزيارته من إخواني وأوليائك وقوفٌ بحيث يقفُ بنا اختيارُك من النشاط والفتُور، ويَرْتَضيه لنا إيثارك من الهمّ والسرور، والأمرُ في ذلك إليك، والاعتمادُ في جَمْعِ شمْلِ المسرَّةِ عليك؛ فإن رأيتَ أن تَكِلَني إلى أوْلى الظّنَّين بك فعلت. ألطفُ المِنَنِ مَوْقعاً، وأجَلُّها في النفوس موضعاً، ما عَمَرَ أوْطَانَ المسرَّة، وطرد عوارض الهمِّ والفِكْرَة، وجمع شَمْلَ المودةِ والأُلْفَة. قد انتظمتُ في رُفْقَةٍ لي في سِمْط الثريا، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المُدَام عُدْنا كبنات نَعْش، والسلام. فرأيك في إرواء غلَّتنا بما ينقعها، والطَّوْل على جماعتنا بما يجمعها.

ولهم في الكناية عن الشراب

قد نَشِطَ لتناول ما يستمدّ البِشر، ويشرح الصَّدْر. قد استمطر سحابةَ الأنس، واستدرّ حَلُوبة السرور، وقَدَح زَنْدَ اللهو، فهو يَمْرِي دِماءَ العناقيد، ويَقْصد عروقَ الدِّنان، ويَنْظم عِقْدَ النَّدْمَان.

من الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب

كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح في يوم دَجْن لم يمطر: أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليَأس في يومنا هذا بِقُرْبِ المطر وبعده، كأنه قول كثير:

وَإنّـي وَتَهْيَـامِـي بِعـزَّة بَعْـدَمـا ... تَخَلَّيْـتُ ممـا بَيْنَنَـا وتَخَلّـتِ[1]

---

(١) التهيام: شدّة الهيام، العشق الذي يؤدي بصاحبه إلى الوسوسة والجنون. وتخليت: تركت.

لَكَالمُرْتَجي ظِلَّ الغمامةِ، كُلَّما تَبَوَّأَ منها لِلمَقِيلِ اضْمَحلَّتِ[١]

وما أصبحَتْ أُمنيتي إلاّ في لِقائك، فليت حِجابَ النَّأي هُتِك بيني وبينك! رُقْعَتِي هذه وقد دارت زجاجاتٌ أَوقعَتْ بعقلي ولم تَحَيّفه، وبعثَت نشاطاً حرَّكني للكتاب؛ فرأيك في إمطاري سروراً بسارِّ خَبَرِك؛ إذ حُرِمْت السرور بِمَطَر هذا اليوم، موفقاً إن شاء الله.

من الحسن بن وهب إلى الحسن بن سهل

وكتب الحسنُ بن وهب: وصل كتابُ الأمير أيّده الله وفَمِي طَاعِمٌ ويدي عَامِلة؛ ولذلك تأخّر الجوابُ قليلاً، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استوجب ذنباً استحق به دماً؛ لأنه إذا أشمس حكى حُسْنَكَ وضياءك، وإن أمطر حكى جودَك وسخاءَك، وإن غام أشبه ظِلَّك وفِنَاءَك، وسؤالُ الأمير عني نعمةٌ من نعم الله عزَّ وجل أُعَفِّي بها آثارَ الزمان السيىء عندي؛ وأنا كما يُحِبُّ الأمير صرف اللَّهُ الحوادثَ عنه، وعَنْ حَظّي منه.

وذمّ رجلٌ رجلاً فقال: دعواته وَلائم، وأَقْدَاحُه مَحَاجِم، وكؤوسُه مَحَابر، ونوادره بوادر.

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم: كان عندي بعض المُجَّانِ من النبيذيِّينَ، فسمعني وأنا أَحمدُ الله جلَّ ذِكرُه في وسط الطعامِ لشيءٍ خطر ببالي من نِعَم الله التي لا تُحْصَى، فنهض وقال: أُعْطِي اللَّهَ عهداً إن عاودْتُ! وما معنى التحميد هنا؟ كأنك تُعْلِمُنا أنا قد شبعنا. ثم مال إلى الدواة والقرطاس، وكتب ارتجالاً:

وحَمْدُ الله يَحْسُنُ كلَّ وَقْتٍ وَلَكِنْ ليس في أولَى الطعامِ
لأنَّكَ تُحْشِمُ الأَضيافَ فيهِ وَتَأمُرُهمْ بإسراعِ القِيَامِ[٢]
وَتُؤْذِنُهمْ، وما شَبِعُوا، بِشَبْعٍ وَذلك لَيْسَ مِنْ خُلُقِ الكِرَامِ

وكتب المَرِيمي إلى بعض إخوانه وقد ترك النبيذ:

---

(١) الغمامة: السحابة. تبوأ: نزل. المقيل: النوم نصف النهار. اضمحلت: انقشعت. يقول: أنا في حبها مثل الذي يريد أن يستظل من حرّ الشمس بظل الغيمة المارة، كلما جلس في ظلها تابعت سيرها، وظلّ هو في حرِّ الشمس.

(٢) أحشم الضيف وحشمه: أخجله، ويقال للمنقبض على الطعام: ما الذي أحشمك: نفَّرَكَ.

إنْ كُنْتَ تُبْتَ عن الصَّهْباءِ تَشْرَبُها ... نُسْكاً فما تُبْتَ عَنْ بِرٍّ وإحسانِ
تُبْ راشداً، واسقِنَا منها، وإن عَذَلوا ... فيما فَعلْتَ فَقُلْ ما تابَ إخواني

وقال بعض النبيذيِّينَ، وقد ترك الشرب:

تحامَوْني لِتَرْكي شُرْبَ رَاحٍ ... أَقَمْتُ مكانَها الماءَ القَرَاحَا
وَما انْفَرَدُوا بها دُوني لِفَضْلٍ ... إذَا ما كُنْتُ أكثَرَهُمْ مِرَاحَا
وأرفعَهُمْ على وَتَرٍ وَصَنْجٍ ... وَأَطْرَفهُمْ وأظْرَفهم مُزَاحَا
إذا شقُّوا الجيوبَ شَقَقْتُ جَيْبي ... وإنْ صَاحُوا عَلَوْتُهُمُ صِيَاحَا

فِقر للنبيذيين

ما جُمِشَتْ الدنيا(١) بأَظْرَفَ من النبيذ، ما للعُقَارِ والوَقَارِ. إنما العيشُ مع الطَّيْش، الراح ترياق سمِّ الهَمّ. النبيذ ستر فانظرْ مع مَنْ تهتكه. اشرب النبيذ ما استبشعتَهُ، فإذا استطَبْتَهُ قدَعْهُ. لولا أنَّ المخمورَ يعلم قصَّته لقدّم وصيَّته. الصاحِي بين السكارى كالحيّ بين الموتى، يضحك من عَقْلِهم، ويأْكلُ من نَقْلهم. أحمق ما يكونُ السَّكْرَان إذا تعاقل. التبذل على النبيذ ظَرْف، والوقار عليه سُخْف، حدّ السَّكْران أن تَغْرُبَ الهموم، ويظهر السرَّ المكتوم.

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يَعْبِسُ عند الشراب: ما أَنْصَفتَها، تَضْحَكُ في وجهك، وتَعْبِسُ في وَجْهِها.

وقال الطائي(٢):

إذا ذَاقَهَا، وَهْيَ الحياةُ، رأيتَهُ ... يُعَبِّسُ تَعْبِيسَ المُقَدَّمِ لِلقَتْلِ

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال:

وَأَنْ أُقَطِّبَ وَجْهي حينَ تَبْسِمُ لي ... فَعِنْدَ بَسْطِ المَوالي يُحْفَظُ الأدبُ

وترك رجلٌ النبيذَ، فقيل له: لم تركتَهُ، وهو رسولُ السرورِ إلى القلب؟ قال: ولكنه رسولُ بأسٍ يُبْعَثُ إلى الْجَوْفِ فيذهب إلى الرأس.

(١) الجَمْشُ: المُغازلة بقرصٍ أو ملاعبة.
(٢) أبو تمام، الديوان: ٢/٣٨٦. والبيت من قصيدة يصف فيها تعذّر الرزق عليه بمصر.

وقيل لبعضهم: ما أصبّك بالخمر! فقال: إنها تُسْرج في يَدِي بنورها، وفي قلبي بسرورها كأنَّ الناشىء نظر إلى هذا الكلام فقال:

رَاحٌ إذا عَلَتِ الأكفَّ كُؤوسُها ... فَكأنَها مِنْ دُونها في الرَّاحِ[١]
وكأنما الكَاسَاتُ مِمَّا حَوْلَها ... مِنْ نُورِها يَسْبَحْنَ في ضَحْضَاحِ[٢]
لو بُثَّ في غَسَقِ الظلامِ ضِياؤُها ... طَلَعَ المَساءُ بِغُرَّةِ الإصباحِ
نَفضَتْ على الأجسامِ ناصعَ لَوْنِهَا ... وسَرَتْ بِلَذَّتها إلى الأرواحِ

البيت الأول كقول البحتري[٣]:

يُخْفي الزجاجةَ ضَوْءُها، فَكأنَّها ... في الكفِّ قائمةٌ بِغَيْرِ إناءِ

وللناشىء في هذا المعنى:

وَمُدامةٍ يَخْفَى النهارُ لِنُورِها ... وَتَذِلُّ أَكْنَافُ الدُّجا لِضِيائِها
صُبَّت فأَحْدَقَ نُورُها بِزُجَاجِها ... فَكأَنها جُعِلَتْ إناءَ إنائِها
وَتُرَى إذا صُبَّت بَدَتْ في كأسِها ... مُتَقاصِرَ الأرْجَاءِ عَنْ أرْجَائِهَا
وَتَكَادُ إنْ مُزِجَتْ لِرِقَّةِ لَوْنِها ... تَمْتَازُ عند مِزاجِهَا من مَائِها
صَفْراء تُضْحِي الشمسُ، إن قِيسَتْ بها ... في ضَوْئِها، كاللَّيْلِ، في أضْوائِها
وإذا تَصفَّحْتَ الهواءَ رأيتَهُ ... كَدِرَ الأدِيمة عند حُسْنِ صفائِها
تَزْدَادُ مِنْ كَرمِ الطباعِ بقَدْرِ ما ... تُودِي بهِ الأيامُ مِنْ أجْزَائِها
لا شيء أَعْجَبُ من تَوَلُّدِ بُرْئِها ... من سُقْمِها، ودَوَائِها مِنْ دَائِها

وقال:

إنْ رُمْتَ وَصْفَ الراحِ فَأْتِ بما ... فيها مِنَ الأوْصَافِ مِنْ قُرْبِ
هِي ماءُ ياقوتٍ، وإن مُزِجَتْ ... في كَأسِها بالباردِ العَذْبِ
فَكأنَّها وَحبَابُها ذهَبٌ ... كَلَّلْتَهُ باللُّؤلُؤِ الرَّطْبِ

(١) الراح (الأولى): الخمر، والراح (الثانية): الكفّ.
(٢) الضحضاح: الماء القليل.
(٣) البحتري، الديوان: ٢/ ٣٨٢. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا سعيد.

ولأهل العصر: الدنيا معشوقةٌ رِيقُها الراح. أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في صاعد بن مخلد(١):

فتًى هاجرَ الدنيا وحَرَّم رِيقَها وَهل رِيقُهَا إلاَّ الرحيقُ المُوَرَّدُ
وَلو طَمِعَتْ في عَطْفِهِ وَوِصالِهِ أبَاحَتْهُ منها مَرْشَفاً لا يُصَرَّدُ(٢)

الخمرُ أشبهُ شيء بالدنيا؛ لاجتماع اللذاتِ والمرارة فيها. الخمر مصباحُ السرور، ولكنها مفتاح الشرور. لكل شيء سرٌّ، وسرُّ الراحِ السرور. لا يطيبُ المُدَام الصافي، إلاّ مع النديم المُصَافِي.

ومن ألفاظهم في صفات مجالس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر

مَجْلِسٌ رَاحُه ياقوت، ونَوْره وَرد، ونَارَنْجُه ذَهَبٌ، ونرجِسه دينار ودرهم، يحملها زَبَرْجَد. عندنا أُتْرُج كأنه من خَلْقِك خُلِق، ومن شَمَائِلك(٣) سُرِق، ونَارَنج كَكُرَاتٍ من سَفَن ذُهِّبت(٤)، أو ثدي أبكار خُلِّقت. مجلسٌ أَخَذَتْ فيه الأوتارُ تتجاوب، والأقداح تتناوب. أَعْلامُ الأُنْس خافقةٌ، وأَلْسُن الملاهي ناطقة. ونحن بين بدور، وكاساتٍ تَدُور، وبروق رَاحٍ، وشموس أَقْدَاح. قد نشأت غَمامة النَّدِّ، على بساط الوَرْدِ. مجلسٌ قد تفتَّحتْ فيه عيونُ النرْجِس، وفاحت مَجامِير الأُتْرُجِّ، وفتقت فَارَات النَّارَنْج، ونطقت أَلسُنُ العِيدان، وقامت خطباءُ الأَوتار، وهبَّت رياحُ الأقداحِ، وطَلَعَتْ كواكبُ النَّدْمَان، وامتدّتْ سماء النَّدّ. مجلسٌ من رآه حسب الجِنَانَ قد اصْطَفَّت عيونُهَا، فجعلت في قدر من الأرض، وتخيّرت فصوصها، فَنُقِلَتْ إلى مجلس الأُنْس واللَّهْو. قد فضّ اللَّهْوُ ختامه، ونشر الأُنْس أعلامه. قد هَبَّت للأنْس ريحٌ بَرْقها الراح، وسحابها الأقداح، ورعودها الأوتار، ورياضها الأقمار. قد فرغنا للهو والدهرُ عنا في شغل.

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ١٢٤. والبيتان من قصيدة طويلة يمدح بها صاعد بن مخلد، وهو وزير من أهل بغداد، أسلم على يد الموفق العباسي، واستكتبه الموفق سنة ٢٦٥ هـ، ووجهه في المهمات، ولقب بذي الوزارتين. سجنه الموفق سنة ٢٧٢ هـ، ثم نقل إلى دارٍ في الجانب الغربي من بغداد، وتوفي فيها سنة ٢٧٦ هـ.
(٢) لا يُصَرَّدُ: لا يقطع، ومنها الشراب المُصرَّد: الذي يؤخذ على جرعات متتابعة.
(٣) الشمائل: السجايا والطباع.
(٤) السَّفَنُ: جلد سميك خشن، يسفن به الخشب حتى تذهب عنه آثار المبراة.

جُلُّ هذا من قولِ بعض أهل العصر:

كَــمْ جَــوًى مَثّلَــهُ رَسْــمٌ مَثَــلْ وَدَمٍ قَــدْ طُــلَّ أَثْنــاء طَلَــلْ[١]
وَلآلٍ كُلِّــلَ الخــدُّ بِهــا لَعِــبَ البيــنُ بِــربَّــاتِ الكِلَــلْ[٢]
حَبَّــذا عَيْــشُ الليــالــي بــاللِّــوى لــو تجــافَــى الــدّهْــرُ عنَّــا وَغَفَــلْ
إذ فَــرَغْنــا فيــه لِلَّهــو وَقَــدْ بــاتَــتِ الأقْــدَارُ عنَّــا فــي شُغُــلْ
وَأدرْنَــا ذهبــاً فــي لَهَــبٍ كلمــا أُخْمِــدَ بــالمــاءِ اشتَعَــلْ

قد اقْتَعدْنا غاربَ الأُنْسِ، وجرينا في مَيْدَانِ اللهو. عمدنا إلى أقْدَاحِ اللهو فأجَلْنَاها، ولمراكبِ السرور فامتطَيْنَاها. قد امتطينا غواربَ السرور بالأقداح. مُدَامة تُورِد رِيحَ الوَرْدِ، وتَحْكِي نَارَ إبراهيم في اللَّون والبَرْدِ، ولستُ أدري أشقيق أم عقيق، أم رحيق أم حريق. راحٌ كأنَّ الدُّيوكَ صبَّتْ أحداقَها فيها. راح كأنما اشتقّت من الرَّوْح والراحة.

قال ابن الرومي[٣]:

والله مــا نَــدْري لأيَّــةِ عِلَّــةٍ يَــدْعُــونَهَــا فــي الــرَّاحِ بِــاسْــمِ الــرَّاحِ[٤]
أَلِسرِيحِهَــا أمْ رَوْحِهــا تَحْــتَ الحَشَــى أَمْ لارْتِيَــاحِ نَــدِيمِهَــا المُــرْتَــاحِ[٥]

راحٌ كالنار والنُّورِ والنَّوْرِ، أَصْفَى من البَلُّور، ومن دَمْعِ المهجور. روح نور لها من الكَأْس جسم، كأنها شمسٌ في غِلالَةِ سَرابٍ. شراب أكادُ أقولُ: هو أَصْفَى من مودَّتي لك، ومِنْ نعم اللهِ عندي فيك، وأَطْيَبُ من إسعافِ الزمان بلقائك. مُدَامة قد سبك الدهرُ تِبْرَها فصَفَا. كأسٌ كأنها نورٌ ضميرهُ نَارٌ. راح كياقوتة في دُرَّةٍ، أَصْفَى من ماءِ السماء، ودَمْعِ العاشقة المَرْهَاء[٦]، أَحسن من الدنيا المُقْبِلة، والنعم المكملة. أَحْسن من العافية في البدَن، وأَطْيَب من الحياة في السرور. أَرَقّ من نسيم الصَّبا، وعَهْدِ الصِّبا. أَرَقّ من دَمْع محبّ، وشَكْوَى صَبّ. أَرقّ من دموع العشّاق، مَرَتْها لَوْعَةُ الفراق. مُزِجَ نَارُ الرَّاح بِنُورِ الماء. راحٌ

---

(١) طُلَّ دَمُ فلانٍ: أُهْدِر، فهو مطلول.
(٢) الكِلَلُ: جمع كِلَّة، وهي ستر رقيق يُتَوَقَّى به من البعوض وغيره.
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٨٢. والبيتان من قصيدة يمدح بها أحمد بن عيسى بن شيخ.
(٤) في الديوان: «تالله ما أدري».
(٥) في الديوان: «أَلريحها ولروحها».
(٦) المرهاء: البيضاء.

كأنها معصورة من وَجْنَةِ الشمس، في كَأْسٍ كأنها مخروطة من فِلْقَة البَدْرِ. كَأسها مِلْء اليدِ، وريحها ملء البَلَد، تصبُّ على الليل ثَوْبَ النهار، كأنها في الكأس معنى دقيق في ذِهْنٍ لطيف. كأنَّ الراح من خَدِّه معصورة، وملاحَةُ الصورةِ عليها مقصورةٌ. وهذا من قول الطائي:

كَـــأَنَّهـــا مِـــنْ خَـــدِّه تُعْصَـــرُ

وقال عبد السلام بن رَغْبان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور[١]:

مُعتَّقَـــةٌ مِـــنْ كَـــفِّ ظَبْـــيٍ كَـــأَنَّمـــا ... تَنَـــاوَلهـــا مـــن خَـــدِّه فـــأَدَارَهـــا

تمشَّت الصَّهباءُ في عِظَامِهم، وترَقَّت إلى هَامِهِمْ، وماسَتْ في أَعطافِهم، ومالَتْ بأَطْرَافهم. سارَتْ فيهم الكُؤوس، ونالَتْ منهم سَوْرَةُ الخَنْدَريس[٢]. شربت عقولَهم، وملكت قلوبَهم.

وقال أبو نُوَاس، وهو أستاذ الناس في هذا الشأن[٣]:

صِفَـــةُ الطـــولِ بَـــلاَغَـــةُ القَـــدْمِ ... فَـــاجْعَـــلْ صِفَـــاتِـــكَ لابْنَـــةِ الكَـــرْمِ
تَصِـــفُ الطلـــولَ علـــى السمـــاع بهـــا ... أَفَـــذُو العِيـــانِ كَئَـــابِـــتِ العِلْـــمِ
وَإذا وصَفْـــــتَ الشـــــيءَ مُتَّبِعـــــاً ... لـــم تَخْـــلُ مـــن غَلَـــطٍ وَمِـــنْ وَهْـــمِ

وقال[٤]:

الكَـــأْسُ أَهـــــواهـــــا وإن رَزَأَت ... بُلَـــغَ المعـــاشِ وَقَلَّلَـــتْ فَضْلـــي[٥]
صَفْـــراءُ مَجَّـــدهـــا مَـــرَازِبُهـــا ... جلَّـــت عـــنِ النظـــراءِ والمِثْـــلِ[٦]
ذُخِـــرَتْ لآدَمَ قَبَـــــل خِلْقَتِـــــهِ ... فَتقـــدَّمَتْـــهُ بِخَطْـــوَةِ القَبْـــلِ[٧]

---

(١) هو أبو محمد، عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن تميم الكلبي، الملقب بـ «ديك الجن»: شاعر ماجن خليع، من شعراء الدولة العباسية. ولد بحمص، ولم يفارق الشام، ولا رحل منتجعاً بشعر، ولا متصدياً لأحد. توفي سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٤/ ٤٩؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٧٧).

(٢) الخندريس: من أسماء الخمر.

(٣) أبو نواس، الديوان.

(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٤٢.

(٥) رزأت: أصابت بالرزيئة، وهي المصيبة. بلغ المعاش: جمع بلغة، وهي ما يُتَبلَّغُ به من العيش.

(٦) المرازب: رؤساء الفرس.

(٧) ذخرت: اتخذت واختيرت ذخيرةً.

فَـاعْـذِرْ أَخـاكَ فـإنـهُ رَجُـلٌ مَـرِنَـتْ مَسـامِعُـه علـى العَـذْلِ

وقال[١]:

فَتسلَّيْـتُ بِشُـرْبِ عُقَـارٍ نَشَـأَتْ فـي حِجْـرِ أُمِّ الـزمـانِ[٢]
فَتنـاسـاهـا الجـديـدانِ حتَّـى هـي أَنصـافُ شطـورِ الـدِّنَـانِ[٣]
وَافتـرعْنَـا مُـرَّةَ الطَّعْـم بِهـا نَـزَقُ البِكْـرِ وَلِيـنُ العَـوَانِ[٤]
وَاخْتَبَيْنَـا مـن رحيـقٍ عتيـقٍ وَشـديـدٍ كـامـلٍ فـي لِيـانِ[٥]
لـم يُجِفهَـا مِبْـزَلُ القـوم حتـى نَجَمَـتْ مثـلَ نجـومِ السنـانِ[٦]
أو كَعِـرْقِ السـام تَنْشَـقُّ منـه شُعَـبٌ مثـل انفِـراجِ البنـانِ[٧]

وقال[٨]:

وَخَـدِيـنِ لَـذَّاتٍ مُعلِّـلِ صَـاحِـبٍ يَقْتَـاتُ منـه فُكـاهـةً وَمُـزَاحـا[٩]
قـال: أَبْغِنـي المصباحَ، قلتُ لـه: اتَّئِدْ حَسْبي وَحسْبُك ضَـوْءُها مِصْباحـا[١٠]

---

(١) أبو نواس، الديوان: ص ١٨.
(٢) في الديوان: «فتعزَّيْتُ بِصرْفِ عُقَارِ».
(٣) الجديدان: الليل والنهار. شطور: جمع شطر، وهو من كل شيء نصفه.
(٤) افترع البكر: افتض بكارتها، يريد بذلك أنه أول من أزال خواتم الدنان وشرب منها. وفي الديوان: «مُزَّة الطعم»، أي: فيها حموضة. ونزق البكر: طيشها. والعوان من النساء: التي كان لها زوج.
(٥) في الديوان:
وَاخْتَبَيْنَـا مِـنْ عَتِيـقِ عُقَـارٍ خُسْـرَوِيٍّ كـامِـنٍ فـي لِيَـانِ
والعقار: الخمر، سميت بذلك لعقرها شاربها عن المشي. والخسروي: نوع من الثياب الحريرية، لين المس، سَخيُّه، وقد تُسمَّى به الخمر على التشبيه.
(٦) أجفته الطعنة: بلغت بها جوفه. والمبزل: المثقب. ونجمت ظهرت.
(٧) عرق السام: السام: جمع سامة: الذهب والفضة أو عروقهما في الحجر. شُعَبٌ: جمع شعبة، وهي الصدع. انفراج البنان: تباعد ما بينهما قصداً لا طبيعة.
(٨) أبو نواس، الديوان: ص ١.
(٩) الخدين: الصاحب. معلل: التعلة والعلة والعلالة: ما يُتعلّل به، وَتعلَّل بالشيء: تشاغل به وتلهَّى، فَمُعلّل معناها: ملهى، فهي اسم مكان. ويقتات: يطعم.
(١٠) ابغني: اطلب لي. اتئد: تأن.

فَسكبتُ منها في الزجاجة شربةً كانتْ لهُ حتَّى الصباحِ صَبَاحَا

وهذا كقوله[١]:

وَخَمَّارٍ أنَخْتُ عليه لَيْلاً قَلائصَ قد تَعِبْنَ من السِّفارِ[٢]

فَترْجَمَ والكَرَى في مُقْلَتيهِ كَمَخْمورٍ شكا أَلَمَ الخُمَارِ[٣]

أَبِنْ لي كيفَ صِرْتَ إلى حَريمي وَجَفْنُ الليلِ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ[٤]

فَقُلْتُ له: تَرفّق بي؛ فإني رَأَيْتُ الصُّبْحَ من خَلَلِ الديارِ[٥]

فَكانَ جَوابُهُ أنْ قال: كلاّ وَما صُبْحٌ سوى ضوءِ العُقَارِ[٦]

وَقامَ إلى الدِّنانِ فَسدَّ فَاهَا فَعادَ الليلُ مَسْدُولَ الإزارِ[٧]

وقال بعض المُحْدَثين:

ما زال يَشْرَبُها وَتُشْرِبُ عَقْلَهُ خَبلاً، وتُؤْذِنُ رُوحَهُ بِرَوَاحِ[٨]

حَتَّى انْثَنَى مُتوسِّداً بيمينِهِ سَكَراً، وأَسْلَمَ رُوحَهُ للرَّاحِ

وقال الصنوبري وذكر شَرْباً[٩]:

نَازعتُهمْ كأساً تَخالُ نَسيمَها مِسْكاً تَضوَّعَ في الإناء عَتِيقَا

شَقَّتْ قِناعَ الفَجْرِ لمَّا غادَرَتْ كَفُّ النديم قِناعَها مَشْقُوقَا

صَبغَتْ سَوادَ دُجَاهُ حُمْرَةُ لونِها فَكأَنَّهُ سَبَجٌ أُعِيدَ عَقِيقَا[١٠]

---

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٧٧.

(٢) القلائص: جمع قلوص، وهي الفتية من النوق، القوية على المسير. وفي الديوان: «وَنِينَ» أي تعبن. والسّفار: السفر.

(٣) في الديوان: «فَجمْجَمَ»: أي تكلم بكلام غير واضح. والخُمَارُ: صداع الخمر.

(٤) في الديوان: «ونجم الليل». والقار: الزفت.

(٥) خَلَلُ الديار: خلالها.

(٦) في الديوان: «فكان جوابه أن قال صُبْحٌ.. ولا صُبْحٌ».

(٧) في الديوان: «وقام إلى العقار»، و «مُسْوَدَّ الإزار».

(٨) الخَبَلُ: الفساد.

(٩) الشَّرْبُ: القوم يجتمعون على الشراب.

(١٠) السَّبَجُ: خرز أسود.

وقال أبو الشِّيصِ[١]:

وَكأسٍ كَسَا الساقي لنا بَعْدَ هَجْعةٍ حَواشِيها ما مجَّ من ريقةِ العِنَبْ
كأنَّ اطِّرادَ الماءِ في جَنَباتِها تَربُّعُ ماءِ الدرّ في سُبُكِ الذَّهَبْ
سقانِي بها، واللَّيْلُ قد شابَ رَأْسُهُ، غزالٌ بِحنَّاءِ الزجاجةِ مُختَضِبْ

وقال أبو عدي الكاتب:

لَيْسَ لها حَدٌّ تُحيطُ بِوَصْفِهِ لُغاتٌ، ولا جِسْمٌ يُباشِرهُ لَمْسُ
وَلكنهُ كالبرقِ أَوْمَضَ ماضياً فلم يَبْقَ منه غيرُ ما تَذْكُرُ النَّفْسُ

وقال ابن المعتز:

أَلا فَاسْقِنيهَا قد مَشَى الصبحُ في الدُّجَىٰ عُقَاراً كمثلِ النارِ حَمراءَ قَرْقَفا[٢]
فَناولني كأساً أَضاءت بَنَانَهُ تَدَفَّقُ ياقوتاً وَدُرًّا مُجَوَّفا
وَلما أَرَيْناها المِزاجَ تَسعَّرتْ وَخِلْتُ سنَاهَا بارقاً قد تَكَشَّفا
يَطُوفُ بها ظَبْيٌ من الإنسِ شادِنٌ يُقلِّب طَرْفاً فاسِقَ اللَّحْظِ مُدْنَفا[٣]
عَليمْ بأسرارِ المُحيَّنَ حَاذقٌ بِتَسليمِ عَيْنيهِ إذا ما تَخَوَّفا
فَظلَّ يُنَاجيني يُقَلِّبُ طَرْفَهُ بأطيَبَ مِنْ نَجْوى الأماني وأَلْطَفا

وقال:

أَلا عُجْ على دارِ السرورِ فَسلِّمِ وَقُلْ: أينَ لذَّاتي وأينَ تَكَلُّمي[٤]؟
وَقُلْ: ما حَلَتْ بالعينِ بعدك لذةٌ سِواكِ، وإنْ لم تعلمي ذاك فاعلمي
وَصفراءَ من صبغِ المِزَاجِ برأسها، إذا مُزِجَتْ، إكليلُ دُرٍّ منظمِ
قَطعتُ بها عُمْرَ الدُّجى وَشربتُها ظَلاميّةَ الأحشاءِ نُوريةَ الدَّمِ

---

(١) هو أبو جعفر، محمد بن عبد الله بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعي، المعروف بأبي الشيص: شاعر مطبوع، سريع الخاطر. انقطع إلى أمير الرقة جعفر بن الأشعث الخزاعي، ومدحه بأكثر شعره. قتله بعض غلمانه وهو سكران سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٧٢١؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٧٢).
(٢) القرقف: الخمر.
(٣) المدنف: الذي براه المرض حتى أشفى على الموت.
(٤) عاج: مال.

[من رسائل بديع الزمان الهمذاني]

إلى أبي عدنان بن محمد الضبي

كتب أبو الفضل بديع الزمان إلى أبي عدنان بن محمد الضبي يعزّيه عن بعض أقاربه:

إذا ما الدهرُ جَرَّ على أُناسٍ حَوادِثَه أَناخَ بآخرينا[١]
فَقُلْ لِلشامتينَ بنا أَفيقوا سيَلْقى الشامتون كما لَقينا

أَحْسَنُ ما في الدهرِ عمومهُ بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يَدْعو الجَفَلَى[٢] إذا ساء، ويخصُّ بالنعمة إذا شاء، فليفكّر الشامت؛ فإن كان أَفلت، فله أَنْ يَشْمت، ولينظر الإنسانُ في الدهر وصُروفِهِ، والموتِ وصنوفِه، من فاتحةِ أَمْرِه، إلى خاتمة عُمْرِه؛ هل يجدُ لِنَفْسِه، أثراً في نَفَسِه؟ أم لتدبيره، عَوْناً على تَصْويره، أم لعلمه، تقديماً لأمله، أم لِحيَله، تأخيراً لأَجَلِه؛ كلا، بل هو العَبْدُ لم يكن شيئاً مذكوراً؛ خُلق مَقْهوراً، ورُزِق مقدوراً، فهو يَحْيَا جَبْراً، ويهلك صَبْرا، وليتأَمّل المرءُ كيف كان قَبْلا؛ فإن كان العَدَمُ أَصلاً، والوجودُ فضلاً، فليعلم الموت عَدْلاً؛ فالعاقل من رَقَّع من جوانب الدهر ما ساءَ بما سرّ، ليذهب ما نَفَع بما ضرّ؛ فإن أحبّ ألاّ يحزن فلينظر يَمنة، هَلْ يرى إلا مِحْنَة، ثم ليعطف يَسْرَة، هل يرى إلاّ حَسْرَة؟ ومثلُ الشيخ الرئيس ـ أطال الله بقاءَه! ـ من فَطِنَ لهذه الأسْرار، وعَرف هذه الديار، فأَعدَّ لنعيمها صَدْراً لا يملؤه فرحاً، ولبؤسها قَلْباً لا يطيره تَرَحاً؛ وصحب البريّة برأي من يعلم أنّ للمتعة حدّاً، وللعاريّة رَدّاً، ولقد نُعِيَ إليّ أبو قبيصة قدّس الله رُوحه، وبرّد ضريحه، فَعُرِضت عليَّ آمالي قُعوداً، وأمانيّ سوداً، وبكيت، والسخيُّ جودُه بما يملك، وضحكت، وشرُّ الشدائد ما يُضْحِك، وعضضت الأصبع حتى أَدْمَيْتُه، وذممت الموتَ حتى تمنَّيته؛ والموتُ أطال الله بقاء الشيخ الرئيس خَطْبٌ قد عظُم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لاَنَ، ونُكْرٌ قد عَمَّ حتى عادَ عُرْفَا؛ والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموت أخفَّ خطوبها، وقد خبثت حتى صار أقلَّ عيوبِها، ولعل هذا السهم قد صاب آخر ما في كِنَانتها، وأنكأ ما في

---

(١) أَناخ بالمكان: أقام، ويقال: أناخ به البلاء والذلُّ: حَلَّ به ولزمه.

(٢) الجفلى: الدعوة العامة التي لا يُخَصُّ بها واحد دون آخر.
قال طرفة بن العبد:
نَحْنُ في المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى لا تَرَى الآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ
(ديوانه: ص ٥٥).

خزانتها، ونحنُ معاشِرَ التَّبَع نتعلمُ الأدبَ من أخلاقه، والجميلَ من أفعاله، فلا نحثّه على الجميل وهو الصبر، ولا نرغّبه في الجزيل وهو الأجر؛ فَلْيَرَ فيهما رأيه إن شاء الله.

كتاب منه لبعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهنِّيه بمرض أبي بكر الخوارزمي وكانت بينهما مُقَارَعة، ومنازعة، ومنافَرة، ومهاتَرة؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديعُ فيها وَبَهَره، وبكّته حتى أَسْكَتَه، ليس هذا موضعها، لكني أَذْكُر بعد هذه الرسالة بعضَ مكاتبات جرَتْ بينهما؛ إذا كان ما لهما من الابتداء والجواب آخذاً بوَصلِ الحكمة وفَصْلِ الخطاب:

الحرُّ أطال الله بقاءك ـ لا سيما إذا عرف الدهرَ معرفتي، ووصف أَحوالَه صفتي ـ إذا نظر علم أنَّ نِعَمَ الدَّهْرِ ما دامت معدومة فهي أَمانيّ، وإن وُجِدت فهي عَوَاري، وأنَّ مِحَنَ الأيامِ وإن طالت فستنفد، وإن لم تُصب فكأنَّ قَدْ، فكيف يشمت بالمِحْنَة مَنْ لا يأمنها في نَفْسِه، ولا يَعْدَمُها في جِنْسِه، والشامت إن أفْلَتَ فليس يَفُوت، وإن لم يَمُتْ فسيموت؛ وما أَقْبَح الشماتة، بِمن أَمِن الإماتة، فكيف بمَنْ يتوقَّعُها بعد كل لحظة، وعَقِبَ كلِّ لفظة، والدَّهْرُ غَرْثَان طَعْمُه الخِيَار[(١)]، وظمآن شِرْبُه الأحرار، فهل يشمت المرءُ بأنياب آكِلِه، أم يُسَرُّ العاقل بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلاً، فقد باطَنَّاهُ وُدّاً جميلاً، والحرُّ عند الحميَّةِ لا يصطادُ، ولكنه عند الكرم يَنْقَادُ، وعند الشدائد تَذْهَبُ الأحقاد، فلا تتصور حالتي إلا بصورتها من التوجُّع لعلَّتِه، والتحزُّن لمرضته، وقَاهُ اللَّهُ المكروه، ووقاني سماعَ المحذور فيه، بِمَنِّه وحَوْلِه، ولُطْفِه وطَوْلِه.

قال البديع في سياقة أخباره مع أبي بكر الخوارزمي:

أولها أَنَّا وطئنا خُرَاسانَ، فما اخترْنَا إلاّ نيسابور داراً، وإلاّ جوار السادة جوَاراً، لا جرم أَنَّا حطَطْنَا بها الرَّحْلَ؛ ومدَدْنَا عليها الطُّنُبَ، وقديماً كُنَّا نَسْمَعُ بحديث هذا الفاضل فنتشوَّقه، وبخبرِه على الغَيْبِ فنتعشّقه، ونقدّر أَنَّا إذا وطئنا أَرْضَه، ووردْنا بلدَه، يخرج لنا في العِشْرَة عن القِشْرَة، وفي المودَّةِ عن الجلدة، فقد كانت كلمةُ الغُرْبَة جمعتنا، ولُحْمَةُ الأدب نَظَمَتْنَا، وقد قال شاعر القوم غير مدافع[(٢)]:

---

(١) غرثان: جوعان. والطعم: المطعوم.

(٢) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، أمير الشعراء في الجاهلية. والبيت في ديوانه: ص ٧٩، من أبياتٍ قالها حين رأى قبر امرأةٍ في سفح جبل عسيب الذي مات عنده.

أجَـارَتَنَـا إنّـا غَـريبـانِ هَـاهُنَـا   وَكُـلُّ غَـريـبٍ لِلغَـريـبِ نَسِيـبُ

فأخلف ذلك الظنّ كلَّ الإخلاف، واختلف ذلك التقدير كلَّ الاختلاف، وكان قد اتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق، لم يوجبه استحقاق، من بزّة بزوها، وفِضّة فضوها، وذهب ذَهَبُوا به، ووردنا نيسابور بِراحةٍ، أَنْقَى من الراحة، وَكِيسٍ أَخْلى من جَوْفِ حمار[١]، وزي أَوْحَشَ من طَلْعةِ المعلِّم، بل اطلاعة الرقيب، فما حَلَلْنَا إلا قصبة جواره، ولا وَطِئْنَا إلا عتَبَة دَارِه؛ وهذا بعد رُقْعَةٍ قدَّمْنَاها، وأحوالِ أُنْسٍ نظمناها.

ونسخة الرقعة: أنا بِقُرْبِ الأستاذ أطال اللّهُ بقاه كما طَرِب النّشْوَان مالَتْ به الخمرُ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العُصفور بلّله القَطْرُ، ومن الامتزاج بولائه كما التقَت الصَّهْباءُ والبارد العَذْبُ، ومن الابتهاج لِمَزَاره كما اهتزّ تحت البارِح الغُصُنُ الرَّطْبُ، فكيف نَشَاطُ الأستاذ سيدي لصديقٍ طرأ إليه ممَّا بين قَصَبتي العراق وخُراسان، بل عتبتي نيسابور وجرجان؟ وكيف اهتزازه لضيف:

رَثّ الشمـائـل مُخْلَـقِ الأثْـوَابِ   بَكَـرَتْ عليـه مُغِيـرَةُ الأعْـرَابِ[٢]

وهو ـ أيّدَه الله! ـ وليُّ إنعامه، بإنفاذ غُلاَمه، إلى مُسْتَقَرّي، لأُفْضِي إليه بما عندي ـ إن شاء الله ـ.

فلما أخذتنا عَيْنُه سقانا الدُّرْدِيّ[٣] من أوّلِ دَنّة، وأجْنَانا سُوءَ العِشرة من باكورة فنّه، من طَرْفٍ نَظَر بِشَطْرِه، وقيامٍ دَفَع في صَدْرِه، وصديقٍ استهان بقَدْرِه، وضيف استخفّ بأمره؛ لَكِنَّا أقطعناه جانب أخلاقه، ووليَّناه خُطَّة نفاقه؛ فواصلناه إذ جَانَب، وقارَبْنَاه إذ جاذب، وشَرِبنَاه على كُدُورته، وَلَبِسْناه على خُشُونته، وردَدْنا الأمر في ذلك إلى زِيّ استغثّه، ولباس استرثّه، وكاتبناه نَسْتَمِدُّ وِداده، وَنَسْتلينُ قيادَه، ونُقيمُ مُنْآدَه، بما هذه نسخته:

الأستاذ أبو بكر، واللّهُ يطيل بقاءه، أزْرَى بضيفه أن وجده يَضْرِبُ إليه آبَاطَ القِلَّة، في

(١) الحمار: الحيوان المعروف، وخلو جوفه كناية عن كونه لا ينتفع منه بشيء، وقيل: الحمار رجل من عاد، وجوفه: واد كان يحل فيه، وكان ذا ماءٍ وشجر، فكفر بنعم الله عليه، فأهلكه الله وأقفر واديه.

(٢) مغيرة الأعراب: أي كتيبة مغيرة (مقاتلة).

(٣) الدُّرْدِيُّ: ما رسب أسفل العسل والزيت ونحوهما من كل شيء مائع كالأشربة والأدهان.

أطمار الغُرْبة(١)، فأعمل في رُتْبَتِه أعمالَ المصارفة، وفي الاهتزاز إليه أصناف المضايقة، من إيماء بِنِصْفِ الطّرْف، وإشارة بِشَطْرِ الكفّ، ودَفْعٍ في صدر القيام عن التمام، ومَضْغ للكلام، وتكلُّفٍ لردِّ السلام؛ وقد قبلت ترتيبه صَعَراً(٢)، واحتملته وزراً، واحتضَنْتُهُ نكراً، وتأبّطته شرّاً، ولم آلهُ عُذْراً؛ فإن المرءَ بالمال وثياب الجمال، ولستُ مع هذه الحال وفي الأسمال(٣)، أتقزّز من صَفِّ النعال، فلو صَدَقْتُهُ العتّاب، وناقشته الحساب، لقلت: إنَّ بِوَادِينا ثاغية صباح، ورَاغية رَوَاح(٤)، وناساً يجرّون المَطارِف، ولا يمنعون المعارف:

وَفيهِمْ مقاماتٌ حِسَانٌ وُجوهُهمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القَوْلُ والفِعْلُ

قلو طوّحت بأبي بكر ـ أيّدَه اللَّهُ ـ إليهم مطارِحُ الغُرْبَة، لوجد منزلَ البِشْرِ رحيباً، ومحطّ الرَّحْل قريباً، وَوَجْهَ المُضِيف خَصيبا؛ فرأي الأُستاذ أبي بكر أيده الله في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه وُدّ، والمرِّ الذي يَتْلُوه شَهْد، موفقٌ إن شاء الله.

فأجاب بما نسخته: وصلتْ رُقْعَةُ سيدي ورئيسي أطال الله بقاه إلى آخر السِّكْبَاج(٥)، وعَرَفت ما تضمّنه من خَشِنِ خطابه، ومُؤْلِم عِتَابه، وصرفت ذلك منه إلى الضَّجْرةِ التي لا يخلو منها مَنْ مسّه عُسر أو نَبَا به دَهر؛ والحمد لله الذي جعلني موضعَ أُنْسِه، ومظنَّةَ مشتكى ما في نفسه، أما ما شكاه سيدي ورئيسي مِنْ مضايقتي إياه في القيام، فقد وفيته حقّه ـ أيَّدَه اللَّهُ ـ سلاماً وقياماً، على قَدْرِ ما قدَرْت عليه، ووصلت إليه، ولم أَرْفَعْ عليه إلا السيد أبا البركات [العلوي] أدام الله عزه، وما كنتُ لأرفع أحداً على مَنْ أبوه الرسول، وأمُّه البَتُول، وشاهداه التوراة والإنجيل، وناصراه التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل وميكائيل؛ فأما القوم الذين صدر عنهم سيدي فكما وصف: حسن عشرة، وسداد طريقة، وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاوَرْتُهم فأحمدت المَراد، ونلت المرّاد:

فإن كُنْتُ قَدْ فَارَقْتُ نَجْداً وأَهلَهُ فما عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنا بذميمِ

والله يعم نِيّتي للأحرار كافة، ولسيدي من بينهم خاصة؛ فإن أعانني الدهرُ على ما في

(١) يقال: ضرب آباط الأمور: عرف بواطنها. والأطمار: جمع طِمْر، وهو الثوب الخَلَق البالي.
(٢) الصَّعَرُ: داء في العنق لا يُستطاع معه الالتفات، وَصَعِرَ فلان صَعَراً: أعرض بوجهه كِبْراً.
(٣) الأسمال: جمع سَمَل، وهو الثوب الخَلَق البالي.
(٤) ثغت الشاة ونحوها ثُغاءً: صاحت، ورغا البعير رَغْواً وَرُغاءً: صَوَّت وضجَّ، ومنه يقال: ما له ثاغيةٌ ولا راغية، أي ما له شاة ولا بعير.
(٥) السكباج: طعام يتخذ من اللحم والخل والمرق، والمراد هنا: ألوان العتاب الذي قدّمه.

نفسي بلغتُ له ما في النيّة، وجاوَزْتُ به مسافَةَ القَدْر والأمنية، وإن قطع عليّ طريقَ عَزْمي بالمعارضة، وسوء المناقضة، صرفتُ عِنَاني عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار.

فَمَا النفسُ إلاّ نُطْفَةٌ بِقَرارةٍ إذا لم تُكَدّر كان صَفْواً غَديرُها

وبعد، فحبذا عتابُ سيدي إذا استوجَبْنَا عَتبا، واقْتَرفْنَا ذَنْباً؛ فأما أن يسلفنا العَرْبَدَة فنحن نَصُونُهُ عن ذلك، ونَصُونُ أنفسنا عن احتماله، ولست أسومه أن يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[1]، ولكن أسأله أن يقول: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2].

فحين وَرَدَ الجواب وَعَيْنُ العُذْر رَمِدَة تركناه بِعُرِّه، وطَوَيْنَاهُ عَلَى غَرّه، وعمدنا إلى ذِكْرِه فَسحَوْنَاه[3]، ومن صحيفتنا مَحَوْنَاه، وصِرْنا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه، وتنكّبْنَا خطته، وتجنبنا حِطّته[4]، فلا طرنا إليه، ولا صِرْنا به، ومضى على ذلك الأسبوع، ودبَّت الأيام، ودَرَجت الليالي، وتطاولَتِ المُدَّة، وتصرَّم الشهرُ، وصِرْنا لا نُعِيرُ الأسماعَ ذِكْرَهُ، ولا نودعُ الصدورَ حَديثَه؛ وجعل هذا الفاضل يستزيد، ويستعيد، بألفاظ تقطعها الأسماع من لسانه، وتؤديها إليّ، وكلمات تحفظها الألسنة من فمه، وتُعِيدها عليَّ؛ فكاتبناه بما هذه نسخته:

أنا أَرِدُ من الأستاذ سيدي ـ أطال الله بقاه ـ شِرْعَةَ وُدِّه وإن لم تَصْفُ، وألْبَسُ خلعة برِّه وإن لم تَضْفُ، وقصارَاي أن أكيله صاعاً عن مدٍّ؛ فإني وإنّ كُنْتُ في الأدب دَعِيَّ النَّسب، ضيق المُضْطَرَب، سيىء المُنْقَلَب، أمتُّ إلى عشرة أهله بِنِيقَةٍ[5]، وأنزع إلى خِدْمَة أصْحابِهِ بطريقة، ولكن بَقِي أن يكون الخليطُ مُنْصِفاً في الوداد، إذا زرتُ زَارَ، وإنْ عُدْتُ عاد، وسيدي ـ أبقاه الله ـ ناقشني في القبول أولاً، وصارَمَني في الإقبال آخراً؛ فأما حديثُ الاستقبال، وأَمْرُ الإنزال والأنزال[6]، فَنِطَاقُ الطمع ضيّق عنه، غيرُ متسع لتوقّعه منه، وبعد فكلفة الفَضْل بيِّنة، وفروض الودِّ متعيّنة، وأَرْضُ العشرة ليِّنة، وطرقها هيِّنة، فَلِمَ اختار قَعود

(١) سورة يوسف، آية: ٩٧.
(٢) سورة يوسف، آية: ٩٢.
(٣) سحا الشيء سَحْواً: جرفه وقشره، وسحا من القرطاس: أخذ منه شيئاً.
(٤) وفي رواية: «وتجنبنا خلطته».
(٥) النِّيقَةُ: المبالغة في التجويد، يقال: خرقاء ذات نيقة، يضرب للجاهل بالأمر، وهو مع جهله يدعي المعرفة، ويتأنق في الإرادة.
(٦) الإِنزال (بكسر الهمزة): مصدر أنزله، والأَنزال (بفتح الهمزة): جمع نزل، وهو ما يُقدّم للضيف.

التَّعالِي مركباً، وصعودَ النغالي[1] مَذْهَباً؛ وهلاّ ذاد الطير عن شجر العِشْرَة، وذاق الحُلْوَ من ثمرها؛ فقد علم الله أن شوقي إليه قد قدَّ الفؤادَ بَرْحاً إلى برح، ونكَأه قَرْحاً إلى قرح، ولكنه مِرّة مُرّة، ونَفْسٌ حرّة، لم تُقَد إلا بالإعظام، ولم تُلْقَ إلا بالإجْلاَلِ والإكرام، وإذا استعفاني من معاتبته، فأعْفَى نفسه من كُلَفِ الفَضْلِ يتجشّمها، فليس إلاَّ غصص الشوق أتجرَّعُها، وحُلل الصّبْرِ أتدرَّعُها، ولم أعره من نفسي، وأنا لو أُعِرْتُ جَناحَيْ طائر لما طِرْتُ إلاّ إليه، ولا وقعتُ إلا عليه:

أُحِبُّكِ يا شَمْسَ النهارِ وَبَدْرَهُ   وَإنْ لاَمَني فيكِ السُّها وَالفَرَاقِدُ
وَذاك لأَنَّ الفَضْلَ عِنْدَكِ باهِرٌ   وَلَيْسَ لأَنَّ العَيْشَ عِنْدَكِ بارِدُ

فلما وردت عليه الرُّقعة حَشَد تلاميذَه وخَدَمه، وجَشِم للإيجابِ قدمه، وطَلَع علينا مع الفجر طلوعُه، ونظمتنا حاشيتا دار الأمير أبي الطيب؛ فقلنا: الآن تُشْرِق الحشمةُ وتنوِّر، وَنُنْجِدُ في العشرة وَنُغَوِّر، وقصدناه شاكرين لما أَتاه، وانتظرنا عادةَ بِرِّه، وتوقَّعْنَا مادَّةَ فضله؛ فكان خُلَّبا شِمْنَاه، وآلاً وَرَدْنَاه[2]، وصرفنا في تأَخّره وتأَخُّرِنا عنه إلى ما قاله ابن المعتز:

إنَّا على البِعَادِ والتفرُّقِ   لَنَلْتَقِي بِالذِّكْرِ إنْ لَمْ نَلْتَقِ

وأنشدنا قول ابن عصرنا:

أُحِبّك في البَتولِ وفي أبيها   وَلكنّي أُحِبّك مِن بَعيدِ

وبقينا نَلْتَقِي خيالاً، ونقنع بالذكر وصالاً، حتى جعلت عواصفه تَهُبّ، وعقاربه تَدِبّ. والمجلس طويلٌ جداً.

قلت: إن كنتُ خرجتُ بطولِ هذا الكلام عن ضبط الشرط، فلعلي أُسامَح فيه لفضله، وعدم مثله، وهو وإن كان في باب الاتصال، فهو بتقدير الانفصال، لقيامِ كلّ رسالةٍ بذاتها، وانفرادِها بصفاتها.

كتاب منه لرئيس هراة

وكتب إلى رئيس هَرَاةَ عدنانَ بن محمد يصفُ ما جرى بينه وبين الخوارزميّ:

ما أَلُوم هذا الفاضل على بساط شَرٍّ طواه، وموقد حَرْبٍ اجتواه، ولكني أَلُومُه على ما

---

(١) نغِل قلبه على فلان: ضغن، ونغل بين القوم: نَمَّ وأَفسد، والنَّغِلُ: ولد الزِّنى.
(٢) الخُلَّبُ: البرق الذي لا يعقبه مطر. والآل: السراب.

نواه؛ ثم لم يتبع هواه، ورامَه، ثم لم يبلغ آثامه، وأقولُ: قد ضرب فأَيْنَ الإيجَاع؟ وأنْذَر فأين الإيقاع؟ وهذه بَوارِقه، فأَيْنَ صواعقه؟ وذلك وَعِيدُه، فأين عديده؟ وتلك بُنُودُه[١]، فأَين جُنودُه؟ وأنشد:

هَـذي مَعَـاهِـدُهُ فَـأَيْـنَ عُهُـودُهُ؟

وما أَهْول رَعْدَه، لو أمطر بعده! اللهمَّ لا كُفْرَانَ، ولعن اللَّهُ الشيطان، فإنَّه أشفق لغريب أن يُظْهِرَ عَوارَه، وإن طارَ طوارَه[٢]، وإنْ كان قصد هذا القَصْدَ فقد أساء إلى نفسه من حيث أحْسَنَ إليّ، وأَجْحَفَ بفضله من حيث أَبْقَى عَلَيَّ، وأَوْهم الناس أنه هاب البَحْر أن يخوضه، والأَسَدَ أنْ يُرُوضَه، وشجّعني على لقائه، بعد ما بَرَعَني بإيمائِه[٣]، فبينا كنت أُنشد:

إنَّ جَنْبِـي علـى الفـراشِ لَنَـابِ

إذ أنشدت:

طَـابَ لَيْلِـي وَطـابَ فيـه شَـرَابِـي

وبينا أنا أقول[٤]:

مـا لِقَلْبِـي كـأَنَّـهُ لَيْـسَ مِنّـي

إذْ قلت:

أَيْـنَ مَـنْ كـانَ مُـوعِـداً لـي بِـأَنّي

فلـو أنَّ هـذا الفـاضـلَ قضـى حقَّنـا بـالـزيـارة عنـد قـدومِنـا أو الاستـزارة، لكـان فـي الضّرب أحسن، وفي طريق المعاشرة أذهب، لا، ولكنه وَعَد بالمُباراة أولاً، وهدّدنا بـالمسـائـل ثـانيـاً، وأخلف بالتخلف ثـالثـاً؛ فـأَبْلِغْ وَجْـدي إليـه، واعْرِض شـوقـي عليـه، وقـل له إن كنت ندمت على النضال، فلا تَنْدَمْ على الإفضال، فإن طَوَيْتَـنَا حيث الجهاد،

(١) البنود: الأعلام والرايات.
(٢) العوار: العيب. والطوار: الحَوْمُ حول الشيء.
(٣) برعني: غلبني. والإيماء: الإشارة.
(٤) هو صدر بيت لعمر بن أبي ربيعة، والبيت بتمامه:
مـا لِقَلْبِـي كَـأَنَّـهُ لَيْسَ مِنِّـي وَعِظَـامِـي أَخَـالُ فِيهِـنَّ فَتْـرا
(ديوانه) ١/ ٢٢٣).

فانشُرْنا حيثُ الوداد، وإن لم تَلْقَنا في باب المكاشرة[١]، فَأْتِنا من بابِ المعاشرة.

كتاب منه للإمام سهل بن محمد

وله إلى الإمام أبي الطيب سهل بن محمد: قد كان الشيخُ يَعِدُني عن هذه الحضرة عِدَاتٍ أَشمّ لها الأنف، لا ذهاباً بتلك الفواضل عنها، لكن استحالةً من هذا الزمان أنْ يجودَ بها؛ فحين أَشْرَفْتُ على الْحَضْرَة ماجَتْ إليّ أمواجُ الشرف منها، وخلص إليّ نسيمُ الكَرَم عنها، وأتْحَفَني على رسم الإجلال بمركوب شامخ، ومركب ذهبٍ سابغ، وجنيبٍ[٢] شرف زائد؛ وسرتُ بحمد الله محفوفاً بأعيانِ الكتّاب، وعيونِ الرجال، حتى شافَهْتُ بِسَاطَ العزّ، مستقبلاً مَلِكَ الشرق أدَام الله عُلُوَّه، فجذب بضَبْعَيَّ عن أَرْضِ الخدمة، إلى جوارِ وليّ النعمة، حرس اللّهُ مكانه، فاهتزَّ اهتزازاً فات سِمَة الإكرام، وتجاوز اسْمَ الإعظام إلى القيام، فقبلت من يُمْناه مِفْتَاحَ الأرزاق، وفتَّاح الآفاق، ولحقت منه بقاب العقاب[٣]، وخاطبني بمُخَاطبات نَشَدْتُ بها ضالَّةَ الكِرام، وهلمّ جرّا إلى ما تبعها من جميل الإنزال، وسَنِيّ الأَجْزَال[٤].

وطرأت من الشيخ العميد على شَخْصٍ يَسَعُه الخاتم، ولا يَسَعُه العالَم، ويهتزُّ عند المكارم كالغُصن، ويثبت عند الشدائد كالرُّكْن، وسلطانٍ يحلم حِلْمَ السيفِ مُغْمَداً، ويغضب مجرّداً، فهو عند الكرم لَيِّنٌ كصَفْحَتِه، وعند السياسة خشِنٌ كَشَفْرَته، وملك يَأْتِي الكرمَ نيّة، والفضلَ سجيّة، ويفعل الشرّ كُلْفَةً أو خطيَّة، فهو ضَرُورٌ بآلاته، نَفُوعٌ بذاته، عطارد قَلَمُه ودَوَاتُه، والمريخ سَيْفُه وقَنَاتُه؛ عَيْبُه أَنْ لا عَيْبَ فيه، فيصرف عَيْنَ الكمال عن معاليه.

وصادفت من الشيخ الموفق أيَّده الله مَلَكاً يُشاهَدُ عِيَاناً، وجبلاً قد سُمِّي إنساناً، وحسناً قد مُلِيء إحساناً، وأسداً قد لُقِّبَ سلطاناً، وبَحْراً قد أمسكَ عِنَاناً، وَحَطَطْتُ رَحْلِي بفناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عِزَّه، فوجدت حكمي في ماله أَنْفَذَ من حكمه، وقَسْمِي من غِنَاه أَوْفَرَ من قَسْمه، واسْمِي في ذاتِ يده مُقدَّما على اسْمه؛ ويَدِي إلى خزانته أَسْرَعَ من يَدِه، وإن قصدت أَنْ أُفْرِدَ لكَ مدحاً، وأعبر الجملة شرحاً، أطَلْتُ، فَهَلُمَّ جرّا إلى ما افتتحت الكتاب لأجله.

---

(١) المكاشرة: من كاشره إذا ضحك في وجهه وباسطه.

(٢) الجنيب (في الاصل): الفرس تجنبه مع الذي تركبه، لتركبه إذا تعب المركوب.

(٣) قاب العقاب: هو بيضه الذي يُضرب به المثل في عِزَّة المنال.

(٤) الأجزال: النعم الجزيلة، وَسنيُّها: شريفها.

ورد للخوارزمي كتاب يتقلّب فيه على جَنْبِ الحردِ[١]، ويتقلّى على جَمْر الضّجَر، ويتأوّه من خُمار الخجل[٢]، ويتعثَّرُ في أَذْيالِ الكَلَل، ويذكر أنَّ الخاصة قد علمت لأينا كان الفَلْج[٣]، فقلت: است البائن أعلم، والخوارزمي أعْرَف، والأخبار المتظاهرة [أعدل، والآثار الظاهرة] أصْدَقُ، وحَلْبَة السباق أحْكم، وما مضى بيننا أشهد، والعَوْدُ إن نَشِطَ أحْمَد، ومتى استزاد زِدْنا، وإن عادت العقرب عُدْنا، وله عندي إذا ما شاءَ، كلٌّ مَا شَاء!

وهي طويلة فيها هَنات صُنْتُ الكتابَ عنها، وقد أعادَ البديع معنى قوله في صدر حكايته مع الخوارزمي، فقال في رقعة كتبها إلى سعيد الإسماعيلي، وقد وقفت به الضرورةُ على تلك الصورة من سلب العرب ماله:

كتاب منه للإسماعيلي

كتابي، بل رُقْعتي، أطال الله بقاءَ الشيخ، وقد بكرت عليَّ مُغِيرَةُ الأعراب، كمهلهل، وربيعة بن مُكَدَّم، وعتيبة بن الحارث بن هشام، وأنا أحمد الله إلى الشيخ الفاضل، وأَذمُّ الدهر؛ فما ترك من فِضَّةٍ إلاَّ فَضَّها، ولا ذهبٍ إلا ذَهب به، ولا عِلْق إلا عَلِقه[٤]، ولا عَقَار إلا عَقَرَه، ولا ضَيْعَة إلا أضاعها، ولا مالٍ إلا مال إليه، ولا سَبَدٍ إلا استبدَّ به، ولا لَبَدٍ إلا لَبَد فيه، ولا بِزّةٍ إلا بَزَّها[٥]، ولا عاريةٍ إلا ارتجعها، ولا وَديعةٍ إلا انتزعها، ولا خِلْعَةٍ إلا خلعها، وأنا داخلٌ نيسابور ولا حِلْية إلا الجلدة، ولا بُرْدَ إلا القِشْرَة، والله وليُّ الخلف يُعجِّله، والفرج يُسهِّله، وهو حَسْبي ونعم الوكيل.

وليس البديع بأبي عذرة هذا الخطاب، وسترى نظير هذا المعنى في هذا الكتاب.

---

(١) الحَرَدُ: الغَضَبُ، وقيل: هو داء يصيب عصب الإبل، فيضطرب مشيها. وانحرد فلان وتحرَّد: انفرد أو تَنحَّى.
(٢) الخُمار (من الناس): خَمَارهم، أي جماعتهم وكثرتهم، وَخُمار الخمر: ما يصيب شاربها من ألمها وصداعها.
(٣) الفَلْجُ: الظفر والغلبة.
(٤) العِلْقُ: الشيء النفيس الذي يضنُّ به، وعلقه: أي أخذه.
(٥) بَزَّها: سلبها وغلب عليها.

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح الإسكندري

المقامة الفزارية للبديع

قال: حدَّثني عيسى بن هشام قال: كنتُ في بعض بلاد بني فَزارة مرتحلاً نَجيبة، وقائداً جَنِيبَة، يَسْبَحانِ سَبْحاً، وأنا أهيم بالوطن، فلا الليل يَثْنِيني بوعيده، ولا البُعْد يُدْنيني ببيدِه، وظَلِلْتُ أخْبِط ورق النَّهار، بعصا التَّسيار، وأخوضُ بَطْنَ الليل، بحوافر الخيلِ، فبينا أنا في ليلةٍ يضلُّ بها الغَطَاط[١]، ولا يُبْصَر بها الوَطْوَاط، أَسْبَحُ ولا سانح إلا السبع، ولا بارح إلا الضَّبع، إذ عنّ لي راكب تامّ الآلات، يطوي منشور الفَلوات، فأخذني منه ما يأخذُ الأعْزَلَ من شاكي السلاح، لكني تجلَّدت فقلت: أرضَكَ لا أُمّ لك! فدونك شَرْطُ الْحِداد، وخَرْطُ القَتَاد[٢]، وخَصْمٌ ضخم، وحمية أَزْدِيَّة، وأنا سِلْمٌ إن شئت، وحَرْبٌ إن أردت، من أنت؟ قال: سلماً أصبت، قلت: خيراً أجبت، قلت: فمن أنت؟ قال: نصيح إن شاورت، فصيح إنْ حاوَرْت، ودون اسمي لِثام، لا تُميطه الأعلام. قلت: فما الطُعمة؟ قال: أَجُوب جُيوبَ البلاد، حتى أقع على جَفْنَة جَوَاد، ولي فؤاد يَخْدُمه لسان، وبيانٌ يَرقمه بَنَان، وقصارَايَ كريمٌ ينفض إليّ حقيبته، ويخفّف لي جَنِيبته، كابن حُرّة طلع إليّ بالأمس، طُلوع الشمس، وغرب عني بِغروبها؛ لكنه غاب ولم يَغِبْ تذكارُه، وودَّع وشيّعَتْني آثارُه، ولا ينبئك عَنْها أقْربُ منها، وأومأ إلى ما كان يَلْبسه، فقلت: شحاذ وربِّ الكَعبة أَخاذ، له في الصَّنْعة نَفَاذ، بل هو فيها أستاذ، ولا بد أن تَرْشَح له وتَسِحَّ عليه، وقلت له: يا فتى، قد أجليت عبارتك، فأَين شِعْرُك من كلامك؟ فقال: وأَين كلامي من شِعْرِي! ثم استمدّ غريزته، ورفع عقِيرته، بصوت ملأ الوادي، وأنشأ يقول:

وَأَرْوَعَ أَهْداه لِيَ الليلُ والفَلاَ ... وَخَمْسٌ تمسُّ الأَرْض لكن كلا وَلاَ[٣]
عَرَضْتُ على نسارِ المكارمِ عُودَهُ ... فكانَ مُعمّاً في السوابق مُخْولاَ
وَخادَعْتُهُ عَنْ مالِهِ فَخَدَعْتُهُ ... وَسَاهَلْتُه في بِرّهِ فَتَسهَّلاَ

---

(١) الغطاط: القطا، وهو مضرب المثل في الهداية، فيقال: «أهدى من قطاة» (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ٤٠٩).

(٢) القتاد: نبات صلب له شوك كالإبر.

(٣) كلا ولا: يريد في غاية السرعة، كسرعة النطق بلفظ «لا».

وَلمَّا تَجَالينا وأَحْمدَ مَنْطِقي ... بَلاَنيَ في نَظْمِ القريضِ بما بَلاَ[١]
فما هَزَّ إلا صَارِماً حين هزَّني ... ولم يَلْقَني إلاَّ إلى السَّبْقِ أَوَّلاَ[٢]
فَلَمْ أَرَهُ إلا أَغَرَّ محجّباً ... وَما تَحْتَهُ إلا أَغَرَّ مُحجَّلاَ

فقلت: على رِسْلِك يا فتى، ولك مما يصحبني حكمك. فقال: الجنية، قلت: إنَّ[٣] وما عليها. ثم قبضتُ بجُمْعي عليه، وقلت: لا والله الذي أَلهمها لَمسا، وشقّها من واحدة خَمْساً، لا تُزايلنا أو نَعْلَم عِلْمك، فحدَر لِثامَهُ عن وَجْهِهِ، فإذا واللهِ شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فما لبثت أن قلت:

تَوشّحتَ أَبا الفتح ... بهذا السيفِ مُخْتَالا[٤]
وَما تَصْنَعُ بالسيفِ ... إذا لم تَكُ قَتَّالا؟
[فَصُغْ ما أنتَ حَلَّيتَ ... به سَيفَكَ خُلْخَالا]

[من طرف الأدب]

بين عبد الله بن الزبير بن العوام وشاعر

وعلى ذكر قوله: «إنَّ وما عليها» قال أبو عبيدة: وَفَدَ عبدُ اللَّه بن الزَّبِيرِ الأسدي[٥] على عبد الله بنِ الزُّبَيْرِ بن العوام فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ بيني وبينك رَحِما من قِبَل فلانة الكاهلية؛ هي أُختنا، وقد ولدتكم، وأَنا ابنُ فلان؛ فلانة عمّتي. فقال ابنُ الزبير: هذا كما ذكرت، وإن فكّرت في هذا أصبت، الناسُ كلهم يرجعون إلى أبٍ واحد، وأم واحدة.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ نَفَقَتي قد ذَهَبَتْ. قال: ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أنْ تَرْجِع إليهم. قال: يا أمير المؤمنين؛ إن ناقتي قد نقِبت ودَبرَتِ[٦]. فقال له:

---

(١) بلاني: اختبرني، امتحنني.
(٢) الصارم: السيف القاطع.
(٣) إنّ، هنا بمعنى نعم.
(٤) تَوَشَّحَ بالسيف: تَقَلَّدَهُ.
(٥) هو أبو كثير، عبد اللَّه بن الزبير بن الأشم بن أسد بن خزيمة: شاعر مكثر مجيد، من شعراء الدولة الأموية، ومن المتعصبين لها. عُمي آخره عمره، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٤/٢٠٨؛ البغدادي، خزانة الأدب: ٢/ ٢٦٤).
(٦) نقبت: رقّ خُفُّها. ودبرت: أصابتها قرحة.

أَنْجِدْ بها يَبْرُدْ خفّها، وارقَعها بِسِبْت، واخْصِفْهَا بِهُلْب[١]، وسِر عليها البريدين. قال: يا أمير المؤمنين، إنما جئتك مُستَحْمِلاً، ولم آتِك مُسْتَوْصِفاً[٢] لعن اللَّهُ ناقةً حملتني إليك. قال ابنُ الزبير: إنَّ وراكِبَهَا! فخرج وهو يقول:

أَرَى الحاجاتِ عِنْدَ أبي خُبَيْبٍ ... نَكِدْنَ، ولا أُمَيَّةَ في البلادِ[٣]
مِنَ الأعياصِ أو مِنْ آل حَرْبٍ ... أَغَرّ كَغُرَّةِ الفرسِ الجوادِ
ومَالي حين أَقْطَعُ ذاتَ عِرْقٍ ... إلى ابنِ الكاهلية مِنْ مَعادِ[٤]
وَقُلْتُ لِصُحْبَتي أَدْنُوا رِكَابي ... أُفارِقْ بَطْنَ مَكَّةَ في سَوَادِ

فبلغ شعره هذا عبد الله بن الزبير، فقال: لو علم أنّ لي أُمًّا أَخَسَّ من عمته الكاهلية لنسبني إليها، وكان ابنُ الزبير يكنى أَبا بكر وأَبا خُبَيْب.

فرس ابن الزيات

قال الصولي: أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرساً أَشهب أَحمّ، كان عنده مَكِيناً، وكان به ضَنيناً، فقال يَرْثيه:

قالوا: جَزِعْتَ، فَقُلْتُ: إنّ، مُصِيبةٌ ... جَلَّتْ رَزِيَّتُها، وَضاقَ المَذْهَبُ

قال أبو بكر: هكذا أَنشدنيه ابنُ المعتز على أن (إنَّ) بمعنى نعم، وأنشد النحويون:

قالوا: كَبُرْتَ، فَقلْتُ: إنَّ، وَرُبَّما ... ذَكَرَ الكَبيرُ شَبَابَهُ فتَطَرَّبا

* * *

كَيْفَ العَزاءُ وقَدْ مَضَى لِسَبيلِهِ ... عَنَّا فَودّعنا الأَحمُّ الأَشْهَبُ[٥]
دَبَّ الوُشَاةُ فَبَاعدوهُ، وَرُبَّما ... بَعُدَ الفتى وَهو الحبيبُ الأَقْرَبُ[٦]

---

(١) السبت: الجلد المدبوغ. والهلب: الشعر، وقيل: شعر الخنزير خاصةً.
(٢) مستحملاً: طالباً أن تحملني بأن تعطيني ركوبة، ومستوصفاً: أي طالباً منك أن تصف الدواء.
(٣) نكد الأمر: عَسُرَ، ونكِد عيشه: اشتدّ، ونكِد الشيء: نَزَر.
(٤) ذات عرق: موضع.
(٥) الأَحمُّ: الأسود. والأشهب: الذي يخالط بياض شعره سوادٌ.
(٦) دَبَّ الوشاة: سعوا بالنميمة ونحوها، يقال: دبَّت عقاربه، أي: سَرَتْ نمائمه.

لله يـومَ غـدوتُ فيـهِ ظـاعنـاً ... وَسُلِبْتُ قُربَك، أيَّ عِلْقٍ أُسْلَبُ[1]؟
نَفْسـي مُقسّمـة أقـام فـريقُهـا ... ومَضـى لِطِيَّتِـه فَـريـقٌ يُجْنَـبُ[2]
الآن إذ كَمُلَـتْ أداتُـك كُلّهـا ... وَدعـا العُيونَ إليك حُسْنٌ مُعْجِبُ[3]
وَغـدوتَ طَنّـان اللّجـام كـأنَّمـا ... فـي كُلّ عُضْـوٍ منك صَنْجٌ يُضْرَبُ[4]
وَكـأنّ سَـرْجَكَ، إذْ عَـلاكَ، غَمَـامةٌ ... وَكـأنمـا تحـتَ الغمـامـةِ كَـوْكَبُ
أنْسـاكَ؟ لا زَالَـتْ إذاً مَنسِيـةً ... نَفْسـي، ولا بَـرِحَـتْ بمِثْلِـكَ تُنْكَبُ
أَضْمَـرْتُ منـك اليَـأْسَ حيـنَ رأيتني ... وَقُـوَى حبالـي مِـنْ حِبَالِـك تُقْضَبُ
يـا صـاحبـيَّ لِمثْـل ذَا مِـنْ أمـرِهِ ... صَحِبَ الفتى في دَهْرِه من يَصْحَبُ
إنْ تُسْعِـدا فَصنيعـةٌ مَشْكُـورةٌ ... أَوْ تَخْـذُلا فَصنيعـةٌ لا تَـذْهَـبُ
عُـوَجا فقـولا: مَـرْحبـاً، وَتـزوّدا ... نَظَـراً، وَقَـلّ لِمـنْ تُحِبُّ المَـرْحَبُ
مَنَـعَ الـرقـادَ جَـوًى تَضمَّنَـهُ الحَشَـى ... مِمَّـا أُكَـابِـدُهُ وهَـمٌّ مُنْصِـبُ[5]

[المزاح]

بين الحجاج وابن القرية

قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيَّة: ما زالت الحكماء تَكْرَهُ المُزَاح، وتَنْهَى عنه، فقال: المُزَاح من أدْنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب: المُزَاح أوله فَرَح، وآخره تَرَح. المزاح نقائضُ السفهاء، كالشِّعْرِ نقائض الشعراء. والمزاح يُوغِر صَدْرَ الصديق، وينفِّر الرفيق. والمزاح يُبْدِي السرائر؛ لأنه يظهر المَعَاير. والمزاح يُسْقِطُ المروءة، ويُبْدي الخنى[6]. لم يَجُرَّ المزح خيراً، وكثيراً ما جَرَّ شرّاً. الغالب بالمزاح وَاتِر، والمغلوب به ثائر. والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحربَ كبيرُه، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة.

فقال الحجاج: حسبك، الموت خيرٌ من عَفْوٍ معه قدرة.

---

(١) العِلْقُ: النفيس.
(٢) الطِّيَّةُ: الجهة، أو الناحية البعيدة، والطية: النِّيَّةُ، والحاجة.
(٣) الأداة: الآلة، وأداة السرج: عُدَّتُه.
(٤) الصَّنْجُ: آلة موسيقية ذات أوتار.
(٥) الجوى: شدّة الوَجْد في عِشْقٍ أو حزن. أكابده: أقاسيه، أعانيه. والمُنْصِبُ: المُتْعِبُ.
(٦) الخنى: الفحش في الكلام.

خالد بن صفوان يبين مساوىء المزاح للورّاق في هذا المعنى

وذُكِر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال: يُنْشِق أحدُكم أخاه مثل الخَرْدَل، ويُفرغُ عليه مثل المِرْجل[١]، ويَرْميه بمثل الجَنْدل[٢]. ثم يقول: إنما كنت أمزح!

أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال:

تَلْقَى الفتى يَلْقَى أَخاهُ وَخِدْنَهُ ... في لَحْنِ مَنْطِقِه بما لا يُغْفَرُ
وَيقولُ: كُنْتُ مُمازِحاً وَمُلَاعِباً ... هَيْهاتَ نارُك في الحشى تَتَسعَّرُ!
أَوَ مَا عَلِمْتَ وكان جَهْلُكَ غَالِباً ... أَنَّ المُزَاحَ هُوَ السِّبَابُ الأَصْغَرُ

فقر في هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

المزَاحة تَذْهَبُ بالمهابة، وتُورِثُ الضغينة. الإفراط في المُزَاح مُجون، والاقتصاد فيه ظَرْف، والتقصير عنه نَدَامة. أوكد أسباب القطيعة المِرَاء والمُزَاح.

لابن المعتز

ابن المعتز ـ من كثُر مُزَاحُه لم يَخْل من استخفافٍ به أو حِقْدٍ عليه.

لابن القرية

قال أيوب بن القِرِّيَّة: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر؛ فالعاقل الدِّينُ شريعته، والحلم طبيعته، والرأْيُ الحسنُ سجيَّته؛ إن سُئل أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سَمِعَ العلم وَعَى، وإن حدّث روى. وأما الأحمق فإنْ تكلّم عجِل، وإن حدّث وَهِل[٣]، وإن اسْتُنْزل عن رأيه نزل، فإن حُمِل على القبيح حَمل. وأَمَّا الفاجر فإن ائتمنته خانك، وإن حدّثته شَانَك، وإن وثقت به لم يَرْعَك، وإن استُكْتِم لم يَكْتُم، وإن عُلِّمَ لم يعلم، وإن حُدِّث لم يفهم، وإن فُقِّه لم يَفْقَه.

[الطيرة والزّجْر]

في التفاؤل لأبي حية النميري

قال أبو حية النميري[٤]:

---

(١) المِرْجَلُ: القِدْر من الطين المطبوخ أو النحاس، ومنه يقال: جاشت مراجله: اشتد غضبه.
(٢) الجندل: الصخرة.
(٣) وهل: غلط ونسي.
(٤) هو أبو حيّة، الهيثم بن الربيع بن زرارة، من بني نمير بن عامر: شاعر فصيح، مقصد راجز، من=

جَـرَى يَـوْمَ رُحْنَـا عـامـديـن لِأَرْضِنـا سَنيـحٌ، فقـال القـومُ: مَـرَّ سَنيـحُ[1]
فَهـابَ رجـالٌ منهـمُ فَتعيَّفُـوا فَقلـتُ لَهُـمْ: جـاري إلـيَّ رَبيـحُ
عُقَـابٌ بـأعقـابٍ مـنَ الـدارِ بَعْـدَمـا نَـأَتْ نَـأْيـةٌ بـالظـاعنيـن طَـرِيـحُ
وَقـالـوا: حَمَـامـاتٌ، فَحُـمَّ لِقَـاؤهـا وَطَلْـحٌ فَنِيلَـتْ والمطـيُّ طَلِيـحُ[2]
وقـال صحـابـي: هُـدْهُـدٌ فـوق بَـانـةٍ، هُـدًى وَبيـانٌ بـالنجـاح يلـوحُ
وقـالـوا: دمٌ، دَامَـتْ مـواثيـقُ بيننـا وَدام لنـا حُلْـوُ الصفـاءِ صَـرِيـحُ
لَعَيْنَـاكَ يـومَ البيـنِ أَسْـرَعُ واكفـاً مِـنَ الفَنَـنِ الممطـورِ وهـو مَـرُوحُ[3]
وَنِسْـوةِ شَحْشَـاحٍ غَيُـورٍ يَخَفْنَـهُ أخـي ثقـةٍ يَلْهُـونَ وهـو مُشِيـحُ[4]
يَقُلْـنَ، ومـا يَـدْرِيـن أَنِّـي سَمِعْتُـهُ وَهُـنَّ بـأبـواب الخِيـام جُنُـوحُ:
أهـذا الـذي غنَّـى بِسَمْـرَاءَ مَـوْهِنـاً أَتَـاحَ لـه حُسْـنَ الغِنـاء مُتِيـحُ
إذا مـا تغنَّـى أَنَّ مِـنْ بَعْـد زَفْـرَةٍ كمـا أنَّ مـن حَـرِّ السـلاح جَـرِيـحُ
وقـائلـةٍ: يـا دَهْـمَ وَيْحَـكِ! إنـهُ علـى مـا بـه مِـنْ غُنّـةٍ لَمَلِيـحُ[5]
فَلَـوْ أنَّ قـولاً يجـرحُ الجِلْـدَ قَـدْ بَـدا بِجلْـدِيَ مـن قـولِ الـوُشـاة قُـروحُ[6]

وهذا من غريب الزَّجْرِ مليحُ التفاؤل.

مما ينسب لذي الرمة

قال أبو العباس محمد بن يزيد: أنشدني أعرابيّ في قصيدة ذي الرمة التي أوّلها:

= أهل البصرة، ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. أخذ عن الفرزدق، وتعصَّب له، ومدح الخلفاء جميعاً في عصره. واشتهر بالكذب والبخل. توفي نحو ١٨٣ هـ/ ٨٠٠ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/٦٥٨؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٤٣).

(١) السنيحُ والسانح: الطائر أو الظبي يَمرُّ من مياسرك إلى ميامنك، والعرب يتيمنون به.
(٢) حُمَّ اللقاء: دنا، قَرُبَ. والطليحُ: المُعْيي، والمهزول، والمجهود (على وزن فعيل بمعنى مفعول).
(٣) الفنن: الغصن.
(٤) أشاح وَجْهَهُ أو بِوَجْهِهِ عنه: أعرض مُبدياً كُرْهاً أو ازدراءً.
(٥) غُنَّة: لعله أراد «غُنَّة»، وهي صوت يخرج من الخيشوم.
(٦) قُروح: جُروح.

ألا يَـا أسْلَمـي يـا دَارَمـيَّ عَلَـى البِلَـى وَلا زَالَ مُنْهَـلاً بِجَـرْعـائِـكِ الْقَطْـرُ[١]

بيتين لم يروهما الرواة في ديوانه، وهما:

رَأَيْـتُ غُـرابـاً سَـاقطـاً فـوق قَضْبـةٍ من القَضْبِ لم يَنْبُتْ لها وَرَقٌ خُضْرُ[٢]
فَقُلْـتُ: غُـرابٌ لِاغْتِـرابٍ، وَقَضْبَـةٌ لِقَضْبِ النَّوَى هـذي العِيَافةُ والـزَّجَرُ

وقال آخر:

دَعـا صُـرَدٌ يـومـاً على غُصْـنِ بـانـةٍ وَصـاح بـذاتِ البيـن مِنهـا غُـرَابُهـا[٣]
فَقُلْـتُ: أتَصْـرِيـدٌ وشَحْـطٌ وغُـرْبَـةٌ؟ فَهـذا لَعمْـري نَـأيُهَـا واغْتِـرابُهـا[٤]

عادة الجاهلية والنهي عنها

وقد أكثرت العرب من ذكر الطِّيَرة، والزَّجْرِ، وكانت تقتدي بذلك وتجري على حكمه، حتى ورد النَّهْيُ في سنة رسول الله ﷺ فقال: لا عَدْوَى ولا طِيرَة، وقد قال الأول:

لَعَمْرُكَ ما تَـدْري الضَّـوَارِبُ بِالحصَى وَلا زَاجِـراتُ الطَّيْـرِ مـا اللَّـهُ صـانـعُ

وقال ضابىء بن الحارث البرجمي[٥]:

وَما عاجلاتُ الطيرِ، تُدْنِي مِنَ الفتى نَجـاحـاً ولا عَـنْ رَيْثِهـنَّ يَخيـبُ
وَلا خَيْـرَ فِيمَـنْ لا يُـوطِّـنُ نَفْسَـهُ علـى نَـائبـاتِ الـدَّهْـرِ حيـن تَنُـوبُ
وَرُبَّ أُمـورٍ لا تَضِيـرُك ضَيْـرَةً وَلِلقَلْـبِ مـن مَخْشـاتِهـنَّ وَجِيـبُ[٦]

---

(١) مُنهلاً: متساقطاً. الجرعاء: الرملة المستوية، لا تنبت شيئاً.
(٢) القضب: كل شجرة طالت وبسطت أغصانها.
(٣) الصُّرَدُ: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات، وكانوا يتشاءمون به.
(٤) التصريد: مصدر من صَرَّد الشيء إذا قَلَّله، وصَرَّد شُرْبَهُ: تناوله جرعات متفرقة، ومنه: صَرَّد الإناء: وضع فيه ماءً لا يكفي الريّ. والشحط: البعد.
(٥) هو ضابىء بن الحارث بن أرطأة البرجمي: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان مولعاً بالصيد. حبسه عثمان بن عفان لخبث لسانه، وكثرة شروره. وفي سجنه قال أشعاراً كثيرة، فيها حكم وعبر، وتهديد ووعيد لعثمان، وبقي في السجن إلى أن مات نحو ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ١/ ٢٦٧؛ البغدادي، خزانة الأدب: ٤/ ٨٠).
(٦) تضيره: تضرُّ به، تؤذيه. والوجيب: الخفقان والاضطراب.

للكميت بن زيد

وقال الكميت بن زيد الأسدي[١]:

وَلا أنا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطيرَ هَمُّه أَصاحَ غُرابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ
وَلا السانحاتُ البارحاتُ عَشِيّةً أَمرَّ سَليمُ القَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْضَبُ

وقال شاعر قديم:

لا يَمنعنَّكَ مِنْ بُغَا ءِ الخيرِ تَعْقادُ التَّمائمْ
وَلا التشاؤمُ بالعُطَا س ولا التَّيامُنُ بالمقاسِمْ
فَلقد غَدَوْتُ وكُنْتُ لا أَغدو على وَاقٍ وحَاتمْ[٢]
فإذا الأشائمُ كالأَيَا مِن والأيامنُ كالأشائمْ
وَكذاكَ لا خَيْرٌ ولا شَرٌّ على أَحدٍ بدائمْ
قَدْ خُطَّ ذلِكَ في الزَّبُو رِ الأَوّليَّاتِ القدائمْ

لابن كناسة

ولقد أحسن ابن كناسة في رثاء ولده يحيى، أنشده أبو العباس ثعلب:

تَيَمّمتُ فيه الفألَ حتى رُزِئْتُهُ وَلمْ أَدْرِ أَنَّ الفال فيه يَفِيلُ[٣]
فَسمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا؛ فلمَ يكُنْ إلى رَدِّ أمرِ اللَّهِ فيه سَبيلُ

بين كثير ورجل نهدي

وروى المدائني قال: خرج كثيّر من الحجاز يريدُ مصر، فلما قَرُبَ منها نزل بمنزل، فإذا هو بِغُرَاب على شجرة بَانٍ يَنْتِف رِيشَه وَيَنْعَبُ؛ فأسرع الرحيل، ومضى لوجهه؛ فلقيه

(١) هو أبو المستهل، الكميت بن زيد بن الأخنس الأسدي: شاعر مقدم وخطيب مفوه، وفارس شجاع، وعالم بلغات العرب، وخبير بأيامها وأنسابها. عاش في أيام بني أمية، وتشيَّع لبني هاشم، وقصائده «الهاشميات» من أجود شعره. قتله جند يوسف بن عمر الثقفي سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م، ودفن في موضع يقال له «مكران». (ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٢/ ٤٨٥؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢١/ ١٠١، ١٦/ ٣٣٨ ـ ٣٦٠).

(٢) الواقي: الصُّرَد. والحاتم: الغراب.

(٣) الفأل: قول أو فعل يُسْتَبْشَرُ به. وفال رأيه يَفِيلُ فَيْلاً وَفُيولاً: أخطأ وضعف.

رجلٌ من بني نَهْد، فقال: يا أخا الحجاز؛ مالي أراكَ كاسِفَ اللون؟ قال: لا والله إلا في منزلي هذا، فإني رأيتُ غراباً يَنْتِف رِيشَه على بانة ويَنْعَبُ. قال: أما إنك تطلب حاجةً لا تدركها.

فقدم مصر والناسُ منصرفون من جنازة عزة، فقال:

رَأَيْتُ غُراباً سَاقِطاً فَوْقَ بانةٍ ... يُنَتِّفُ أعْلى رِيشِهِ وَيُطايِرُهْ
فَقُلْتُ - ولو أني أَشاءُ زَجَرْتُهُ ... بِنَفْسِيَ - لِلنهديّ: هل أنت زاجِرُهْ؟
فَقَالَ: غُراب لاغترابٍ من النَّوى ... وَفي البانِ بَيْنٌ من حَبيبٍ تُجَاوِرُهْ
فما أَعْيَفَ النهديَّ، لا دَرَّ دَرُّهُ! ... وأزجرَه للطيرِ، لا عَزَّ ناصِرُهْ

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل، وهو يقول:

أَقولُ وَنِضْوي واقفٌ عِنْدَ رَأْسِها ... عَلَيْكِ سلامُ الله والعَيْنُ تَسْفَحُ
فَهذا فِراقُ الحقِ لا أَن تُزيرني ... بِلادَك فَتْلاءُ الذراعين صَيْدَحُ[1]
وَقد كُنْتُ أَبكي من فِراقِكِ حيّةً ... وَأَنْتِ لَعَمْري اليومَ أَنأى وَأَنْزَحُ

لجرير

وقال جرير[2]:

بَانَ الخليطُ بِرامَتَيْن فَوَدَّعُوا ... أَوَ كُلَّما نَعبوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ[3]
إن السَّوانح بالضُّحَى هَيَّجْنَني ... في دارِ زَيْنَبَ وَالحمامُ الوُقَّعُ[4]

لعوف الراهب

وقال عوف الراهب خلاف هذا:

غَلِطَ الذين رَأَيتهم بجهالةٍ ... يَلْحَوْنَ كُلُّهم غُراباً يَنْعَقُ[5]

---

(١) فتلاء الذراعين: قويتهما. وصيدح: فرس شديد الصوت.
(٢) جرير بن الخطفى، الديوان: ص ٢٦٧. والبيتان من قصيدة طويلة يهجو بها الفرزدق.
(٣) الخليط: القوم أو الجماعة الذين أمرهم واحد.
(٤) في الديوان: «إنَّ الشّواحج»، والشواحج: الغربان، من شحج الغراب: صَوَّت.
(٥) يلحون: يُقَبِّحُون، يشتمون.

مـا الـذنـبُ إلاّ لِـلأبـاعِـرِ؛ إنّهـا ... مِمّـا يُشِـتّ جَميعَهُـمْ وَيُفَـرّقُ[1]
إنَّ الغـرابَ بِيُمْنِـه تَـدْنُـو النَّـوى ... وَتُشَتِّـتُ الشَّمْـلَ الجَميـعَ الأَيْنُـقُ[2]

لأبي الشيص

وقد تبعه في هذا المذهب أبو الشيص فقال:

مـا فَـرَّقَ الأحبـابَ بَعْـ ... ـد اللَّـهِ إلاّ الإبِـلُ
وَالنـاسُ يَلْحَـوْن غُـرا ... بَ البيـنِ لَمّـا جهلـوا
وَمـا علـى ظَهْـرِ غُـرا ... ب البَيْـنِ تُطْـوَى الـرّحـلُ
وَلا إذا صـاح غُـرا ... بٌ فـي الـديـار احتملـوا
وَمـا غُـرابُ البيـن إلْـ ... ـلاَ نـاقـةٌ أو جَمَـلُ

وما أملح ما قال القائل:

زَعمـوا بـأَنَّ مَطِيَّهُـمْ عَـوْنُ النَّـوى ... وَالمُـؤذِنـاتُ بِفُـرْقَـةِ الأَحبـابِ
وَلَـوَ أنهـا حَتْفِـي لمـا أَبْغَضْتُهـا ... وَلهـا بِهِـمْ سَبَـبٌ مِـنَ الأَسبـابِ

ابن الرومي كان شديد الطيرة

وكان علي بن العباس الرومي مُفْرِطَ الطِّيرَة، شديدَ الغلوّ فيها. قال عليّ بن عبد الله بن المسيب: وكان يحتجُّ لها، ويقول: إن النبي ﷺ كان يُحِبُّ الفأل، ويَكْرَه الطِّيرَة؛ أفتراه كان يتفاءلُ بالشيء، ولا يتطيَّر من ضدِّه؟ ويقول: إن النبي ﷺ مرّ برجل وهو يَرْحَل ناقةً ويقول: يا ملعونة، فقال: لا يَصْحَبُنا ملعون، وإن علياً رضي الله عنه كان لا يَغْزُو غَزاة والقمرُ في العقرب، ويزعم أنّ الطيرة موجودةٌ في الطباع قائمةٌ فيها، وأنّ بعضَ الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض، وأن الأكثرَ في الناس إذا لقي ما يكرهُه قال: على وَجْهِ من أصبحت اليوم؟.

فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى إليّ عدةٌ من جواري القيان، وكان فيهنّ صبيَّةٌ حَوْلاَء، وعجوزٌ في إحدى عينيها نكتة، فتطيَّر من ذلك، ولم يُظهِرْ لي

(١) الأباعر: جمع البعير.
(٢) الأنيق: جمع الناقة.

أمره، وأقام باقي يومه؛ فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه القاسم بن عبيد الله؛ فجعل سبَب ذلك المعنيين المغنيتين، وكتب إليَّ[(١)]:

أيهـا ٱلْمُتْحِفِـي بِحُـولٍ وَعُـورِ ... أَيـن كـانـتْ عَنْكَ الـوُجـوهُ الحِسـانُ[(٢)]

قـد لَعَمْـرِي رَكِبْـتَ أمـراً مهينـاً ... سَـاءنـي فيـك أيهـا الخُلْصَـانُ

فَتَحُـكَ المهـرجـان بـالحُـول والعُـو ... رِ أرانـا مـا أَعْقَـب المهـرجـانُ

كـانَ مِـنْ ذاك فَقْـدُك ابنَتَـكَ الْحُـ ... ـرَّة مصبـوغـةً بهـا الأكْفَـانُ

وتَجَـافِـي مُـؤَمَّـلٍ لـي جَليـلٍ ... لـجّ فيـه الجفـاءُ والهِجْـرَانُ

وَعـزِيـزٌ علـيَّ تقـريـعُ خِـلٍّ ... لا يُـدَانيـه عنـديَ الخُـلاَّنُ[(٣)]

غيـر أنـي رأيـت إذكـارَهُ الحـز ... مَ وإشعـارهُ شِعـاراً يُصَـانُ

لا تَهـاوَنْ بِطَيـرةٍ أَيّهـا النَّظَّـ ... ـارُ واعْلَـمْ بـأَنها عُنْـوَانُ[(٤)]

قِـفْ إذا طِيـرةٌ تلّقتـكَ وانْظُـرْ ... واستمـع ثـمَّ مـا يقـولُ الـزَّمـانُ

قَلمـا غـابَ مـن أمـورك عُنـوا ... نٌ مبيـنٌ وللـزَّمَـانِ لِسَـانُ

لا تَكُـنْ بـالهـوى تُكَـذّب بـالأخـ ... ـبـار حتـى تُهِيـنَ مـا لا يُهـانُ

لا يَقُـدْكَ الهـوى إلـى نصـرة الأخْـ ... ـبـارِ حتـى يُقَـدَّمَ البـرهـانُ[(٥)]

إنَّ عُقْبـى الهـوى هُـوِيٌّ، وعُقْبـى ... طـول تلـك المهـوِّنـات هَـوانُ[(٦)]

لا تُصَـدِّقْ عـن النبيـن إلاّ ... بحـديـثٍ يلـوحُ فيـه البيـانُ

خَبَّـر الله أنَّ مشـأمَـةً كـا ... نـت لقـومٍ وخبَّـر القـرآنُ

أَفَـزُورَ الحـديـثِ تَقْبَـلُ أم مـا ... قـالـه ذُو الجـلال والفُـرْقَـانُ؟

أَتـرى مـن يَـرَى البشيـرُ بشيـراً ... يَمْتَـري فـي النـذيـر يـا وَسْنَـانُ[(٧)]

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٢٠٢.

(٢) حول عور: جمع حولاء وعوراء: من كان فيها عيب في عينها أو في عينيها.

(٣) التقريع: اللوم والتأنيب.

(٤) الطيرة: ما يُتشاءم به.

(٥) في الديوان:

قَـدْ أَتَـى عَـنْ نَبِيِّنـا حُبُّـهُ الفَـأْ ... لَ مُضِيئـاً بِـذلـكَ البُـرْهَـانُ

(٦) هُوِيٌّ: سقوطٌ.

(٧) يمتري: يَشُكُّ. وسنان: نعسان.

فَدعِ الهزلَ والتضاحكَ بالطيرةِ والنصحُ مُثمنٌ مَجّانُ[١]

الفرق بين الطيرة والفال

وقد فرّق حُذّاقُ أهل النظر في المقال، بين الطيرة والفال، فقالوا: الطيرة كانت العرب ترجعُ إلى ما تمضيها، وتجري على تقضيها، وكان الذي يهُمُّ بهم إذا ما رأى ما يتطير منه رجع عنه؛ وفي ذلك ما يصرف عن الإحالة على المقادير الجارية بيد مُمْضيها، النازلة على حكم قاضيها، والفَأْل لا يردّ المريد عما يريد إنما يُقَوِّي مُنَّته، ويَسُرُّ مهجته؛ وليس هذا موضع تطويل، في إيراد الدليل.

* * *

من ابن الرومي للقاسم بن عبيد الله

وفي جفاء القاسم بن عبيد الله إياه يقول معاتباً[٢]:

أَلم ترني أَقْرَضْتُكَ الودَّ طائعاً وَلم ترَ قبلي مُعْسِراً قَطُّ أَقْرَضا[٣]
لَعَمْري لقد صَوّرت أَبيضَ مُشرِقاً فَلِمْ لا تُريني وَجْهَ نُعماك أَبْيَضا
فيا وَيْحَ مَولاكَ استغاثَ بِمَشْرَبٍ فَأَشرقَ فَاسْتَشْفَى شِفاءً فَأَفْرَضا[٤]
وَلولا اعتقادي أَنّكَ الخيرُ كُلُّهُ لأَزْمَعْتُ توديعاً، قَضَى الله ما قَضَى[٥]
وَإِنّي وإن دارَتْ عليَّ دوائرٌ لأُعْرِضُ عَمَّنْ صَدَّ عنّي وأَعْرَضا[٦]
وَما زِلْتُ عَرّافاً إذا الزاد رابَني بِخُبْثٍ وَعيّافاً إذا الماءُ عَرْمَضا[٧]

وهذا البيت كقول الآخر:

وَإِنّيَ لِلْمَاءِ المخالطِ للقَذَى إذا كَثُرَتْ وُرّادُهُ لَعَيُوفُ

(١) أي: أن النصح ثمين، وهو بلا ثمن.
(٢) ابن الرومي، الديوان: ٤/٢٧ ـ ٣٢.
(٣) الود والوداد: المحبة والإخلاص.
(٤) أفرض: شرب من المشرع، والمشرع يُسمَّى الفرضة. وفي الديوان: «فأَمرضا».
(٥) في الديوان: «لأجمعت توديعاً»، وأجمعت: صَمّمْتُ وعزمت.
(٦) دارت عليه الدوائر: أُحيط به، هُزِم.
(٧) عرمض الماء: خبث وعلاه الطحلب. يصف إباءَهُ، فهو يُعرض عن الطعام إن رابه فيه أمر، ويعاف الماء إن أصابه فساد.

ابن الرومي يرثي ابنة المسيبي

وفي ابنة المسيبي يقول ابن الرومي يعزّيه[١]:

أَخَا ثِقَتِي أَعْزِزْ عليَّ بنكبةٍ مَنَاك بها صَرْفُ القضاءِ المُقدَّرُ[٢]
أُصِبْتَ، وما للمرءِ من حُكْمِ ربّه مَحيدٌ، وأمرُ الله أعلى وأقهرُ[٣]
وَقد ماتَ من لا يخلفُ الدهر مِثْلَهُ عليكَ مِنَ الأسلافِ والحقُّ يَبْهَرُ
تَعزَّيْتَ عَمَّنْ أثمرتك حَياتُهُ وَوَشْكُ التعزِّي عَنْ ثِمارِكَ أجْدَرُ
لِأَنَّ احتيالَ الدهر في ابنٍ وفي ابنةٍ يَسيرٌ وكرُّ الدهر شَيْخيكَ أَعْسَرُ[٤]
تَعذَّر أن نَعْتَاضَ من أمهاتنا وآبائنا، وَالنسلُ لا يتعذَّرُ
فلا تَهلِكَنْ حُزْناً على ابنة جنةٍ مَضتْ وهي عند الله تحيا وَتُحْبَرُ[٥]
لعلَّ الذي أعطاك سِتْرَ حياتها كَساها من اللَّحْدِ الذي هو أسْتَرُ
فَكمْ مِنْ أَخي حريةٍ قَدْ رَأَيْتُه بِنارِ ذوي الأصهارِ يُكْوَى وَيُصْهَرُ
فلا تتهم لله فيها ولايةً وَلا نَظَراً فالله لِلعَبْدِ أنْظَرُ
وَأَنْتَ وَإنْ أبصرتَ رُشْدَكَ مرةً فَذُو النظرِ الأعلى بِرُشْدِكَ أبْصَرُ[٦]

وله يعزي علي بن يحيى في ابنته

ومن مليح تعازيه عن أَبْنَةٍ قوله لعليّ بن يحيى المنجم[٧]:

لا تَبعدنَّ كريمةٌ أودعتَها صِهْراً من الأصهار لا يُخزيكا
إني لأَرْجُو أَنْ يكونَ صَداقُها مِنْ جَنَّةِ الفردوس ما يُرضيكا
لا تَيأسنَّ لها فَقدْ زَوَّجتها كُفْؤاً وضَمَّنْتَ الصَّداقَ مَلِيكا

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٥٥.
(٢) في الديوان: «أعزز عليَّ بنوبةٍ».
(٣) في الديوان: «مَحِيصٌ». ومحيص: مهرب، محيد.
(٤) في الديوان: «لأن احتيال الدهر».
(٥) في الديوان: «غَدَتْ وَهي عِنْدَ اللّه تُحْبَى وَتُحْبَرُ». وَتُحْبَى: تُفَضَّل. وَتُحْبَرُ: تُسَرُّ.
(٦) في الديوان: «فذو المنظر الأعلى».
(٧) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ١٤.

[الرغبة في موت البنات]

لعبيد اللَّه بن عبد الله بن طاهر

وقال عبيد اللَّه بن عبد اللّه بن طاهر:

لِكُلِّ أبي بِنْتٍ يُرجَّى بَقاؤها ثَلاثةُ أصهار إذا ذُكِرَ الصِّهْرُ
فَبَيْتٌ يُغطيها، وَبَعْلٌ يَصُونُها، وَقَبْرٌ يُوارِيها، وخَيْرُهما القَبْرُ

لعقيل بن علفة

وقال عقيل بن عَلفَةَ وكان أغير العرب:

إني وَإنْ سِيقَ إليَّ المَهْرُ ألفٌ وَعُبدانٌ وَذَوْدٌ عَشْرُ
أَحَبُّ أصهاري إليَّ القَبْرُ

لابن خلف البهراني

ومنه أخذ عبيد اللَّه، قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: دخل علينا ابن خلف البهراني فأنشدنا:

لَولا أُمَيْمَةُ لم أجْزَعْ مِنَ العَدَمِ وَلم أَجُبْ في الليالي حِنْدِسَ الظُّلَمِ[1]
وَزادني رَغْبةً في العيشِ معرفتي أَنَّ اليتيمةَ يَحفُوها ذوو الرَّحِم
أُحاذِرُ الفقر يَوْماً أن يُلمَّ بها فَيَهْتِكَ السترَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ[2]
تَهْوَى حياتي وَأَهْوَى مَوْتَها شَفَقاً وَالموتُ أَكرمُ نَزَّالٍ على الحُرَمِ[3]

وكانت أميمة بنت أخته، وكان قد تبنّاها، ثم غابت غيبة، فسألناه عنها، فأنشد:

أَمسَتْ أُميمة مَغْمُوراً بها الرَّجَمُ لَدى صَعيدٍ عليه التُّربُ مُرْتَكِمُ[4]

---

(١) الحندس: الظلمة، وقيل: الليل الشديد الظلمة.
(٢) الوضم: كلُّ ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك، يُوقى به من الأرض.
(٣) شَفِقَ منه وعليه شَفَقاً: خاف وحذر، فهو شَفِقٌ، وَشَفِقَ عليه: رق له وعطف عليه، فهو شفيقٌ، والشَّفَقُ والشَّفَقةُ: الرحمة والحنان والخوف من حلول مكروه.
(٤) الرَّجَمُ: الحجارة التي تُوضع على القبر، وقيل: القبر. وارتكم: اجتمع.

يـا شِقّـةَ النفـسِ، إنَّ النفـسَ والهـةٌ حَرَّى عليك، ودَمْعُ العينِ مُنْسَجِمُ[1]
قَـد كُنْتُ أخشـى عليهـا أَنْ يُـؤَخِّـرهـا عنـي الحِمـامُ فَيُبْدِي وَجْهَهـا العُـدُمُ[2]
فـالآنَ نِمْـتُ فـلا هَـمٌّ يُـؤَرِّقُنـي تَهْـدَا العيـونُ إذا مـا أوْدَت الحُـرَمُ[3]
فـالآن نمـت، فـلا هَـمٌّ يُـؤَرِّقُنـي بعـد الهـدوء؛ ولا وَجْـدٌ ولا حُلُـم
لِلمَـوْتِ عنـدي أيـادٍ لَسْـتُ أُنكـرهـا أَحْيَـا سُـروراً وَبـي مِمَّـا أَتـى أَلَـمُ

[عَوْدٌ إلى تطير ابن الرومي]

بين ابن الرومي وأبي الحسن الأخفش

عادَ ذكر ابن الروميّ ـ وكانَ أبو الحسن عليّ بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرّد في عصر ابن الرومي شابًّا مترفاً، ومليحاً مستظرَفاً، وكان يعبث به، فيأتيه بِسَحَر؛ فيقرع الباب، فيقال له: مَن؟ فيقول: قولوا لأبي الحسن مُرَّة بن حنظلة، فيتطير لقوله، ويقيم الأيام لا يخرجُ من داره، وذلك كان سبب هجائه إياه، فمن أول ما عاتبه به[4]:

قُـولـوا لِنَحْـوِينـا أَبـي حَسَـنٍ إن حُسـامـي متـى ضَـرَبْـتُ مَضـى
وإنَّ نَبْلـي إذا هَمَمْـتُ بـأَنْ أرْمِـيَ نَصَّلْتُهـا بِجَمْـرِ غَضَـا[5]
لا تَحْسَبَـنَّ الهجـاءَ يَحْفِـلُ بـالـ ـرَّفْـع ولا خَفْـضِ خـافـضٍ خَفَضَـا
ولا تَخَـلْ عَـوْدَتـي كَبَـاديتـي سَـأُسعِـطُ السـمَّ مِـنْ أبـي الحُضَضَـا[6]
أَعْـرِفُ فـي الأشقيـاء بـي رَجُـلاً لا يَنتهـي أو يصيـر لـي غَـرَضَـا
يُليـح لـي صَفْحَـةَ السـلامـة والسـ ـلـم وَيُخْفـي فـي قلبـهِ مَـرَضـا[7]

---

(١) انسجم الدمع والماء ونحوهما: انصبَّ.
(٢) الحِمامُ: الموت.
(٣) أودت: هلكت.
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٥٥.
(٥) نَصَّلتُها: جعلت لها نصلاً. والغضا: شجر صلب، يضرب المثل بجمره. وفي الديوان: «متى هَمَمْتُ بأن».
(٦) الحُضَضُ: دواء يُتَّخذ من أبوال الإبل.
(٧) المرض هنا: الضغينة والحقد.

أَضْحَى مغيظاً عليّ أَنْ غَضِبَ الـ ـلـه عليه، وَنِلْتُ منه رِضَا
وَلَيْس تُجْدِي عليه موعظتي إن قدَّر الله حَيْنَهُ وَقضَى
كأنني بالشقيِّ مُعتذراً إن القوافي أذَقْنَهُ المَضَضَا[١]
يُنشدني العَهْدَ يوم ذلك والْـ ـعهدُ خِضابٌ إذا لَهُ قَبَضَا[٢]
لا يأمنَنَّ السفيهُ بَادِرَتي فإنني عارِضٌ لِمَنْ عَرَضَا
عندي لَهُ السَّوْطُ إن تلوّم في السـ ـيرِ وعندي اللّجامُ إن رَكَضَا[٣]
أَسْمَعْتُ إنْبَاضَتي أبا حَسَنٍ وَالصفحُ لا شكّ نُصْحُ من مَحَضَا[٤]
وَهو مُعافَى من السهاد فلا يحمل فَيُمْسي فِراشُهُ قَضَضَا[٥]
أقسمتُ بالله لا غَفَرْتُ لَهُ إنْ واحدٌ من عُروقِه نَبَضَا

فاعتذر إليه، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ـ وكان الأخفش أكثر الناس إخواناً ـ فقبل عذره، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها[٦]:

ذُكِرَ الأخفشُ القديمُ فَقُلْنا: إن لِلأَخْفَش الحديثِ لَفَضْلاَ
وَإذا ما حَكَمْتُ ـ والرومُ قومي ـ في كلامٍ مُعرَّبٍ كُنْتُ عَدْلاَ
أنا بَيْنَ الخُصومِ فيهِ غَريبٌ لا أرى الزّور لِلمُحاباة أَهْلا
وَمتى قُلْتُ باطِلا لم أُلَقَّبْ فَيْلَسُوفاً ولم أُسَمَّ هِرَقْلا

* * *

الأخفش القديم هو أبو الخطاب، وكان أستاذ سيبويه، وهو من المتقدمين في النحو،

---

(١) المضض: الألم.
(٢) ينشدني: يسائلني. وفي الديوان: «خِضابٌ أَذالَهُ فَنَضَا». وأذاله: لم يحسن القيام عليه. ونضا: ضعف ونصل لونه.
(٣) تَلَوَّمَ: تمهل وتمكث. وركض: أسرع. يقول: إنّه يلبس لكل حالة لبوسها، فهو يستعمل السوط لمن أبطأ في سيره، وشدّ اللجام لمن جمح.
(٤) إنباضتي: من أنبض السهم: أطلقه وله رنين، والمراد هنا: صوتي. ومَحَضَ فلاناً النصح أو الودّ: أخلصه إياه.
(٥) القضض: التراب أو صغار الحصى. ويمسي فراشه قضضاً: أي لا ينام.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٥/١٠٧.

ويُعْرَف بالأخفش الكبير، وكان في عصر سيبويه [أيضاً] أبو الحسن سعيد بن مسعدة، وهو الأَخْفش الصغير، وهو الذي قال: كان سيبويه يَعْرِض ما وَضَع من النحو عليَّ، ويَرى أني أعلَمُ منه، وكان في وقته ذلك أعلم مني.

ثم عاد علي بن سليمان إلى أذاه، واتصل به أنَّ رجلاً عرض عليه قصيدة من شعره فَطعَنَ عليها، فقال قصيدته التي يقولُ فيها[١]:

أعتقتُ عَبْدَيَّ في القَريضِ معاً ... عَبْدَةَ والفَحْلَ من بَني عَبَدَهْ
إن أَنا لم أَرم بالإساءة مَنْ ... زَاغَ عن القَصْد أو أبَى سُددَهْ[٢]
قُلْتُ لِمنْ قال لي عَرضْتُ على الْـ ... أَخْفَشِ ما قُلْتُهُ فَما حَمِدَهْ
قَصَّرْتَ بالشعرِ حين تَعْرِضُهُ ... على مُبِينِ العَمى إذا انتقَدَهْ
أَنشدتُه مَنْطِقي لِيَشْهَدَهُ ... فَغَابَ عنه عَمّى وَما شَهِدَهْ
ما بَلغَتْ بي الخُطوبُ رُتْبَةَ مَنْ ... تَفْهَمُ عنهُ الكلابُ والقِرَدَهْ
وَلا أنا المُفْهِمُ البهائمَ والطـ ... يْرَ سُليمانُ قاهرُ المَرَدَهْ
فإن يَقُلْ إنني حَفظتُ فكالد ... فتر جَهْلاً بِكلِّ ما اعْتَقَدَهْ[٣]
سَأُسْمِعُ الناسَ ذَمَّهُ أبداً ... ما سَمِع اللَّهُ حَمْدَ مَنْ حَمِدَهْ

عَبْدة بن الطبيب، وعلقمة بن عبدة الفحل، وكانا شاعرين مجيدين[٤]، وقال علقمة بن عَبْدة لرجل ورأى آخر يعتذرُ إليه وهو معبّس في وجهه: إذا اعتذر إليك المعتذر فتلقّه بوجه مُشْرِق، وبِشْر مطلَق؛ لينبسط المتذلّل، ويؤمّن المتنصّل.

ولابن الرومي في الأخفش إفحاش صُنْتُ الكتابَ عنه.

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢/٢٤٨.
(٢) في الديوان: «أو أَبَى رَشَدَهْ».
(٣) في الديوان: «إنني رويتُ».
(٤) عبدة بن الطبيب: شاعر فحل مجيد، من تميم. أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم، وترفع عن الهجاء، لما في تركه من مروءة وشرف. توفي نحو ٢٥ هـ/ نحو ٦٤٥ م. وعلقمة بن عبدة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، ولقب بالفحل تمييزاً له عن علقمة بن سهل الذي كان يطلق عليه «الخصيّ». صحب امرأ القيس، وله معه مساجلات، وكان بدوياً لا يألف الحضر. توفي سنة ٢٠ ق.هـ/ ٦٠٣ م. (الهواري، الشعر والشعراء في كتاب العمدة: ص ١٧٥ و ١٨٨).

من آثار تطير ابن الرومي

قال عليُّ بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي: كنت بداري جالساً فإذا حجارة سقطَتْ بالقرب مني، فبادرتُ هارباً، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السّطح، والنظر إلى كل ناحية؛ من أين تأتينا الحجارة، فقال: امرأةٌ من دارِ ابن الرومي الشاعر! قد تشوّفَتْ وقالت: اتقوا الله فينا، واسقونا جَرَّة من ماء، وإلاّ هلكْنَا، فقد ماتَ مَنْ عندنا عطشاً.

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذات عَقْل ومعرفة أَنْ تصعدَ إليها وتخاطبها، فَفعلَتْ وَبادَرتْ بالجرّة، وأتْبَعَتْها شيئاً من المأكول؛ ثم عادت إليّ فقالت: ذكرت المرأةُ أَنّ الباب عليها مُقْفَلٌ من ثلاث بسببِ طِيَرة ابن الرومي، وذلك أنه يَلْبَس ثيابَه كلَّ يوم، ويتعوَّذُ ثم يصيرُ إلى الباب، والمِفْتَاحُ معه، فَيضَعُ عَيْنَهُ على ثَقْبٍ في خشب الباب، فتقعُ عينُه على جارٍ له كان نازلاً بإزائه، وكان أَحْدَب يقعُد كل يومٍ على بابه، فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه، وقال: لا يفتح أحدٌ البابَ.

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخادمٍ كان يعرفه، فأمرتُه بأن يجلس بإزائه ـ وكانت العينُ تَميلُ إليه ـ وتقدّمت إلى بعض أعواني أن يَدْعوَ الجار الأحدب؛ فلما حضر عندي أرسلتُ وراءَ غلامي؛ لينهض إلى ابن الرومي، وَيَستَدْعيه الحضور؛ فإني لجالسٌ ومعي الأحدب إذْ وافى أبو حذيفة الطَّرَسُوسِيّ ومعه بِرْذَعَة الموسوس صاحبُ المعتضد، ودخل ابن الرومي، فلما تخطّى عتبة باب الصَّحن عَثَر فانقطع شِسْعُ نَعْلِه، فدخل مذعوراً؛ وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدلّ على تغيرِ حالٍ؛ فدخل وهو لا يَرَى جارَه المتطيّر منه، فقلت له: يا أبا الحسن، أيكون شيءٌ في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم، ونظرك إلى وجهه الجميل؟ فقال: وقد لحقني ما رَأَيت من العَثْرَة، لأني فكرت أنَّ به عاهة! وهي قطع انْثَيَيْه، قال بِرْذَعَة: وشيخُنَا يتطيّر؟ قلت: نعم ويُفْرِط، قال: ومن هو؟ قلت: علي بن العباس، قال: الشاعر؟ قلت: نعم، فأقبل عليه وأنشده:

وَلَمَّا رأيتُ الدهرَ يُؤذِنُ صَرْفُه ... بِتَفْرِيقِ ما بيني وَبَيْنَ الحَبائبِ[١]
رَجَعْتُ إلى نفسي فَوطَّنْتُها على ... رُكوبِ جميلِ الصَّبْرِ عند النوائبِ[٢]

(١) صرف الدهر: حدثانه.
(٢) وَطَّنَ نفسه على الأمر وله: حملها عليه. والنوائب: المصائب.

وَمَنْ صَحِبَ الدنيا على جَوْر حُكْمِها فـأيـامُـه مَحْفُـوفـةٌ بـالمصـائـبِ[١]
فَخُـذْ خُلْسَـةً مـن كـلِّ يـومٍ تَعيشُـهُ وَكُـنْ حَـذِراً مـن كـامِنَـاتِ العـواقـبِ[٢]
وَدعْ عنك ذِكْـرَ الفـأل والـزّجْرِ واطَّرِحْ تَطيُّـرَ جَـارٍ أو تَفَـاؤُلَ صَـاحِـبِ

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظرُ إليه ولم أَدْرِ أنه شَغَل قَلْبَه بحفظ ما أنشده، ثم قام أبو حذيفة وَبِرْذَعة معه، فحلف ابنُ الرومي لا يتطيَّر أبداً من هذا ولا مِنْ غيره، وأومأ إلى جاره، فقلت: وهذا الفكر أيضاً من التطيّر، فأمسك، وعجب من جودة الشعر ومعناهُ، وحُسن مَأْتَاهُ، فقلت له: ليتنا كتَبْنَاه؟ قال: اكتبه فقد حفظته، وأملاه عليّ.

من ابن الرومي إلى ابن ثوابة في التطيّر

ومن شدة حذره، وعظيم تطيّره، قوله لأبي العباس بن ثوابة[٣]، وقد نَدَبَه إلى الخروج إليه وركوب دجلة[٤]:

حَضَضْتَ على حَطْبِي لِنَارِي فَلاَ تَدَعْ لكَ الْخَيْرُ، تَحْذِيري شُرُورَ المَحاطِبِ
ومَـنْ يَلْـقَ مـا لاقَيْـتُ فـي كُـلِّ مُجْتَنًى من الشَّوْكِ يَزْهَدْ في الثمارِ الأطَايِبِ[٥]
أَذاقَتْنِـيَ الأسْفَـارُ مـا كَـرَّهَ الغِنَـى إلـيَّ، وأَغْـرَانِي بِـرَفْـضِ المَطَـالِـبِ[٦]
وَمِـنْ نَكْبَـةٍ لاَقَيْتُهَـا بعـد نكْبَـةٍ رَهِبْتُ اعتِسَاف الأرْضِ ذَاتِ المَناكِبِ[٧]
فَصَبْـرِي علـى الإقْتَـارِ أيْسَـرُ مَطْلَبـاً عَلَـيَّ مـنَ التَّغْـريـرِ بعـد التَّجَـارِبِ[٨]

(١) الجَوْرُ: الظلم. محفوفة بالمصائب: مُحاطة بها، من حفَّ الشيء: استدار حوله وأحدق به، ومنه في الحديث: «حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكاره».
(٢) الخُلْسَةُ: الفُرْصَةُ، أو ما يُخْتَلس.
(٣) هو أبو العباس، أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب النصراني الأصل. كتب للمعتضد، وكان من الثقلاء البغضاء، وله كلام مُسْتَهْجَنٌ مُسْتَثْقَلٌ. توفي سنة ٢٧٧ هـ/ ٨٩١ م.
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٢١٩ ـ ٢٣٦. والقصيدة طويلة جداً (٨١ بيتاً).
(٥) المجتنى: الكسب. والشوك: كناية عن المصاعب. والثمار الأطايب: الطيبة الشهية.
(٦) كرَّه: أبغض. وأغراني: رَغَّبني. والمطالب: المكاسب.
(٧) النكبة: النازلة والمصيبة. ورهبت: خفت. واعتساف الأرض: طرق مجاهلها. وذات المناكب: كناية عن وسعها.
(٨) في الديوان: «وصبري على الإقتار أيسر محملاً». والإقتار: ضيق العيش. وتغرير النفس: تعريضها للهلاك.

لَقِيتُ من البَرّ التَّبَارِيحَ بعدما ... لَقِيتُ منَ البَحْرِ ابْيضاضَ الذّوائِبِ[١]
سُقيتُ على ريٍّ به ألْفَ مَطرةٍ ... شُغِفْتُ لِبُغْضِيهَا بِحُبِّ المَجَادِبِ[٢]
وَلمْ أبْغِها، بل ساقَها لِمَكيدَتي ... تلاعُبُ دَهْرٍ جَدَّ بي كالمُلاعِبِ[٣]
أبَى أنْ يُغِيثَ الأرضَ حتى إذا رَمَتْ ... بِرَحْلي أتاهَا بالغُيوثِ السَّواكبِ[٤]
سَقَى الأرضَ من أجْلي فأَضحَتْ مَزَلَّة ... تَمايَلَ صَاحِيها تَمايُلَ شاربِ[٥]
فَمِلْتُ إلى خَانٍ مُرِثٍّ بِنَاؤُهُ ... مَميلَ غريقِ الثَّوْبِ لَهْفَانَ لاغِبِ[٦]
فما زِلْتُ في جوعٍ وخَوْفٍ وَوَحْشَةٍ ... وفي سَهَرٍ يَسْتَغْرِقُ الليلَ وَاصِبِ[٧]
يُؤَرِّقُنِي سَقْفٌ كأنِّيَ تَحْتَهُ ... من الوَكْفِ تَحْتَ المُدْجنَاتِ الهَوَاضِبِ[٨]
يَظَلُّ إذا ما الطِّينُ أَثْقَلَ مَتْنَهُ ... تَصِرُّ نَواحيهِ صَرِيرَ الجنادِبِ[٩]
وَكم خَانِ سَفْرٍ خَانَ فانْقَضَّ فَوْقَهُمْ ... كما انْقَضَّ صَقْرُ الدَّجْن فَوْق الأرانبِ[١٠]
ومَا زالَ ضاحِي البَرّ يَضْرِبُ أهْلَهُ ... بِسَوْطَيْ عذابٍ جامِدٍ بَعْدَ ذائبِ[١١]

---

(١) التباريح: التعب والمشقة والأذى. والذوائب: النواصي.
(٢) يقول: أُمْطِرُ على غير حاجةٍ إلى السُّقْيا حتى بغضت الخصب وأحببت الجدب.
(٣) في الديوان: «ولم أسقها». و «تحامقُ دهرٍ». والمكيدة: الخديعة. وتحامق الدهر: فساد أيامه وحوادثه.
(٤) يغيث الأرض: يسقيها الغيث، يمطرها. وفي الديوان: «إذا ارتمت برحلي» وارتمت برحلي: رحلت. والسواكب: الغزيرة.
(٥) أزلت الأرض: أصبحت زلقة، وتمايل: مال يميناً ويساراً. والصاحي: الذي لم يشرب خمراً، والشارب: الذي شرب خمراً حتى سكر.
(٦) الخان: محل نزول المسافرين، وهو النزل أو الفندق. والمُرِثّ: البالي. واللهفان: طالب العون. واللاغب: المُتْعَبُ.
(٧) السهر الواصب: الدائم.
(٨) يؤرقني: يُسهرني. الوكف: الماء الذي يرشح في سقف البيت. والمدجنات الهواضب: الدائمة المطر.
(٩) في الديوان: «تراه إذا ما الطيب». تَصِرُّ: تُصوّت. والجنادب: جمع جندب، وهو ضرب من الجراد، وتسميه العامة: القَبُّوط.
(١٠) خان السفر: خان المسافرين. وخان: غدر. وانقض فوقهم: سقط عليهم. والدجن: الظلمة.
(١١) ضاحي البرّ: البريّة.

فَإِنْ فَاتَهُ قَطْرٌ وثَلْجٌ فَإِنَّهُ رَهِينٌ بِسَافٍ تارةً وَبِحَاصِبِ[١]
فَذَاكَ بلاءُ البَرِّ عِنْدِيَ شاتِياً وكم لِيَ من صَيْفٍ به ذي مَثَالِبِ[٢]
ألا رُبَّ نارٍ بالفَضاءِ اصْطَلَيْتُها من الضِّحِّ يُودي لَفْحُها بالحَواجِبِ[٣]
فَدَعْ عنكَ ذِكْرَ البَرِّ إني رأيْتُهُ لِمَنْ خاف هَوْلَ البحرِ شرَّ المَهارِبِ[٤]
وما زالَ يَبْغِيني الحُتُوفَ مُوارِباً يَحُومُ على قَتْلِي وَغيْرَ مُوارِبِ[٥]
فَطَوْراً يُغادِيني بِلِصٍّ مُصَلِّتٍ وطوراً يُمَسِّيني بِوِرْدِ الشَّوارِبِ[٦]
وَأَمَّا بَلاءُ البحرِ عندي فإنَّه طَوانِي على رَوْعٍ مع الرَّوحِ وَاقِبِ[٧]
وَلو ثابَ عقلي لم أدَعْ ذِكْرَ بَعْضِهِ وَلكنَّهُ من هَوْلِهِ غَيْرُ ثائِبِ[٨]
وَلَمْ لا وَلَوْ أُلقِيتُ فيه وَصَخْرَةً لَوافَيْتُ منهُ القَعْرَ أَوَّلَ راسِبِ[٩]
ولم أتعلّمْ قَطُّ من ذي سِبَاحَةٍ سِوَى الغَوْصِ والمَضْعُوفُ غيرُ مُغَالِبِ[١٠]
وأيْسَرُ إشْفاقي مِنَ الماءِ أنَّني أمُرُّ به في الكوزِ مَرَّ المُجانِبِ[١١]
وَأخْشَى الرَّدَى منهُ على كُلِّ شارِبٍ فَكَيْفَ بأمْنِيهِ على نَفْسِ راكبِ[١٢]

أخذه من قول أبي نُوَاس وقد رأى التمساح بِمِصرَ أخذَ رجلاً[١٣]:

---

(١) سفت الريح التراب: ذَرَّته وحملته، فهي سافية، والتراب: مَسْفِيّ، وَسَافٍ، وَسَفِيّ. والحاصب: الريح الشديدة تحمل التراب والحصباء.
(٢) بلاء البرد: مصيبته. والمثالب: جمع مثلب، وهو العيب والاغتياب والشتم.
(٣) الضِّحُّ: الحرارة المنبعثة من الشمس. ويودي: يذهب. ولفحها: إحراقها.
(٤) في الديوان: «شر المهاوب»، أي المخاوف.
(٥) يبغيني: يطلب لي. والحتوف: جمع حتف: الموت. والموارب: المخادع والمُداهي. يحوم: يطوف، أو يحاول.
(٦) يغاديني: يباكرني. والشوارب: المشرفون على الماء.
(٧) البلاء: المصيبة. طواني: هزلني. والروع: الخوف. وواقب: مُتكنّ.
(٨) ثاب عقلي: رجع إليّ.
(٩) قوله: «وصخرة» أي: لو ألقيت فيه مع صخرة.
(١٠) المضعوف: الضعيف.
(١١) في الديوان: «فأيسر». وأيسر: أقلّ. والكوز: الإبريق.
(١٢) الردى: الموت.
(١٣) أبو نواس، الديوان: ص ٥٦١.

أَضْمَرْتُ للنيلِ هِجْرانا ومَقْلِيَةً مُذْ قِيلَ لي إنما التمساحُ في النيلِ[١]
فَمَنْ رأى النيلَ رَأْيَ العَيْنِ عن كَثَبٍ فما أرى النِّيلَ إلا في البَوَاقيلِ[٢]

رجع

أَظَلُّ إذا هَزَّتْهُ ريحٌ وَلألأتْ لَهُ الشمسُ أمْواجاً طِوالَ الغَوارِبِ[٣]
كأني أرى فيهنَّ فُرْسانَ بُهْمَةٍ يُلِيحُونَ نحوي بالسيوفِ القَواضِبِ[٤]
فإنْ قُلْتَ لي قد يُرْكَبُ اليَمُّ طامِياً وَدِجْلَةُ عند اليَمِّ بعضُ المَذانِبِ[٥]
فلا عُذْرَ فيها لامْرِئٍ هَابَ مِثْلَها وَفي اللُّجَّةِ الْخَضْرَاءِ عُذْرٌ لِهَائِبِ[٦]
لِدِجْلَةَ خِبٌّ لَيْسَ لِلْيَمِّ؛ إنَّها تَرَاءَى بِحِلْمٍ تَحْتَهُ جَهْلُ وَاثِبِ[٧]
تَطَامَنُ حَتّى تَطْمئِنّ قلوبُنا وَتَغْضَبُ من مَزْحِ الرِّياحِ اللَّوَاعِبِ[٨]
وَلِلْيَمِّ إنْذارٌ بِغَوْصِ مُتُونِهِ وَما فيهِ من آذِيِّهِ المُتَرَاكِبِ[٩]

وهي طويلة، وفيما مرّ كفاية تنبىء عنه وتدلّ عليه، ولو مددت أَطناب الاختيار لِتَتَبُّعِ هذا النحو من شعره لخرجتُ عن غَرَضِ الكتاب.

[من مليح العيافة والزجر]

أبو نواس وبعض أصحابه

ومن مليح العيافة والزجر ما رواه الصُّولي، قال: كان لأبي نواس إخْوانٌ لا يُفَارِقُهم،

---

(١) مقلية: بغض.
(٢) البواقيل: جمع بوقال، وهو كوز بلا عروة.
(٣) هزّته: حركته. لألأ: عكس الضوء. وغوارب الماء: أعالي موجه.
(٤) البُهْمَةُ: الصخرة الصلدة الملساء، والمُعْضِلُ من الأمور، والشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته، والبهمة من الليالي: التي لا يطلع فيها القمر. ويليحون: يشيرون. والسيوف القواضب: القواطع.
(٥) اليَمُّ: البحر. والطامي: العالي. والمذانب: القنوات، مسايل الماء، الواحد: مذهب.
(٦) اللُّجَّة الخضراء: ماء البحر. والهائب: الخائف.
(٧) الخِبُّ: المكر والخداع. والحلم: الأناة. والواثب: الثائر.
(٨) تطامن: تظهر الطمأنينة.
(٩) في الديوان: «ولليم إعذارٌ». والإعذار: المسامحة. والآذي: الموج. والمتراكب: الذي ركب بعضه فوق بعض.

فاجتمعوا يوماً في موضع أَخْفَوْه عنه، ووجَّهوا إليه برسولٍ معه ظهرُ قرطاس أبيض، لم يكتبوا فيه شيئاً، فَخزَمُوهُ بزير[١]، وختموه بقار، وتقدموا إلى رسولهم ليرمِيَ بالكتاب من وراء الباب؛ فلما رآه استعلم خَبَرَهُمْ، وعلم أنه مِنْ فِعْلِهِم، فتعرَّفَ موضِعَهم وآثارَهم، فأتاهم فأنشدهم[٢]:

وَجَدْتُ كِتابكم لمّا أتاني ... يَمُرُّ بِسانحِ الطيرِ الجَوارِي[٣]
نَظرت إليه مَخْزُوماً بزيرٍ ... على ظَهْرٍ، وَمختوماً بِقَارِ
فَقُلْتُ: الزِّير مُلْهيةٌ وَلَهْوٌ ... وَخِلْتُ القارَ من دَنِّ العُقَارِ[٤]
وَخِلْتُ الظَّهْرَ أَهْيَفَ قُرْطَقِيّا ... يُحيلُ العقلَ منه باحْوِرَارِ[٥]
فَهِمْتُ إليكمُ طَرَبا وشَوْقاً ... فما أخطأتُ دَارَكُمُ بِدَارِ
فَكيْفَ تَروْنَني وَتَروْنَ وَجْدِي ... أَلَسْتُ مِنَ الفَلاسفَةِ الكِبَارِ؟

لأبي تمام

وقال الطائي[٦]:

أَتَضَعْضَعتْ عَبَراتُ عَيْنِكَ أَنْ دَعَتْ ... وَرْقَاءُ حِينَ تَضَعْضَعَ الإِظْلاَمُ[٧]
لا تَنْشِجَنَّ لها؛ فَإِنّ بُكاءَها ... ضَحِكٌ، وَإِنَّ بكاءَك اسْتِغْرامُ[٨]

(١) الزير: الوتر (أحد أوتار العود).
(٢) أبو نواس، الديوان: ص ٢٦٥.
(٣) في الديوان: «زجرت كتابكم». والزجر: العيافة والتكهن، وزجر المرء الطير: تكهَّن به. وسانح الطير: الذي يُتيمَّنُ به.
(٤) في الديوان: «وقلت: الزير ملهاة لِمُلْهٍ»، و «طين الختم في زِقِّ العُقَار».
(٥) في الديوان:
فَقُلْتُ: الظَّهْرُ أَحْوَرُ قُرْطَقِيٌّ ... يُشابِهُ شَكْلُهُ شَكْلَ الجواري
والقرطقي: الذي يلبس القرطق، وهو ضرب من رقيق اللباس.
(٦) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٧٥. والأبيات من قصيدة يمدح بها الخليفة المأمون.
(٧) في الديوان: «أتصعصعت عبرات عينك»، و «حين تصعصع». وتصعصعت: تفرقت واضطربت. ورقاء: حمامة. أي: هل تناثرت عبراتك على صداح الحمام صباحاً؟
(٨) لا تنشجن: من النشيج، وهو ترداد البكاء في الصدر. يقول: لا تبك لها، لأن بكاءها ضحك، وبكاؤك سببه الغرام.

هُـنَّ الْحَمـامُ وإِنْ كَسَـرْتَ عِيَـافـةً ... مِـنْ حَـائِهِـنَّ فَـإنهـنَّ حِمَـامُ[١]

* * *

أحمد بن المدبر والجمل الشاعر المصري

وروى يموت بن المزرع قال: كان أحمدُ بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم يَرْضَ شِعْرَه قال لغلامه: امْضِ به إلى المسجد الجامع فلا تُفارِقْهُ حتى يُصلي مائةَ ركعة، ثم خَلِّهِ؛ فتحاماه الشعراءُ، إلا الأفرادَ المجيدين؛ فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال: قد عرفت الشَّرْط؟ قال: نعم، وأنشده:

أَرَدْنَـا فـي أَبـي حَسَـنٍ مَـديحـاً ... كَمَـا بِـالمَـدْحِ يُنْتَجَـعُ الـوُلاةُ[٢]
فَقلنـا: أَكـرَمُ الثَّقلَيْـنِ طُـرًّا ... وَمَـنْ كفَّـاهُ دِجْلَـةُ وَالفُـراتُ
فَقـالـوا: يَقْبَـلُ المـدحـاتِ لَكِـنْ ... جَـوائـزهُ عليهـنّ الصَّـلاَةُ
فَقُلْـتُ لَهُـمْ: وَمَـا تُغْنـي صَـلاَتـي ... عِيَـالـي! إنمـا الشـأْنُ الـزَّكَـاةُ
[فـأمـا إذْ أَبـى إلا صَـلاَتـي ... وَعَـاقتنـي الهُمـومُ الشـاغِـلاتُ]
فَيـأْمُـر لـي بِكَسْـرِ الصَّـاد منهـا ... فَتُصْبِـحُ لـي الصَّـلاةُ هـي الصِّـلاتُ[٣]

فضحك واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبي تمام الطائي:

هُـنَّ الحَمَـامُ فـإن كَسَـرْتَ عِيَـافـةً ... مِـنْ حَـائِهِـنَّ فـإنَّهـنَّ حِمَـامُ

فأحسن صلته.

لأبي الفضل الميكالي في أهل مرو

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي لقوم من أَهل مَرْو انخلعوا عن طاعته:

يـا راكبـاً أَضْحَـى يَخُـبُّ بِعَنْسِـهِ ... لِيـؤُمَّ مَـرْوَ علـى الطـريـق المَهْيَـعِ[٤]

---

(١) العيافة: التكهن بالطير. وفي الديوان: «فإن كسرت». يتطير الشاعر من دعاء الحمام لأنه يصير حِماماً، أي موتاً إذا كُسرت حاؤه.
(٢) انْتُجِعَ فلان: قُصِدَ طلباً للمعروف.
(٣) الصِّلاتُ: العطايا والهبات.
(٤) المَهْيَعُ من الطرق: البَيِّنُ، الجمع مهايع.

أَبْلِغْ بها قَوْماً أثارُوا فِتْنَةً ظَلَّتْ لها الأكبادُ رَهْنَ تَقَطّعِ
إذ أقدَموا ظُلْماً على سُلْطانهم بالغَدْرِ والخَلْعِ الذميمِ المُفْظِعِ
وَبِحَلِّ عَقْدِ لِوائِهِ وَإباحةٍ لِجَنابِهِ وَحَريمِهِ المُتمنِّعِ
أَبلغهمُ أَنِّي اتَّخذْتُ لِفِعْلِهِمْ فَأْلاً، له في القوم أَسْوَأُ مَوْقِعِ
أمَّ اللّواءُ وَحلُّهُ فَمخبِّرٌ عن حَلّ عقدِ بينهم مُسْتَجْمِعِ
وَالخلعُ يخبر أَنْ سَتُخْلَعُ عنهم الْـ أرواحُ بالقَتْلِ الأشدِّ الأشْنَعِ
وَالغدرُ ينبىء أَنْ تُغَادَرَ في الوَغى أَشْلاؤُهُمْ لِنُسورِه وَالأَضْبُعِ
وَالفرقتانِ فَشاهدٌ مَعْناهُما بتَفَرُّقٍ لِجميعِهِمْ وَتَصَدُّعِ
فَتسمَّعوا لِمقَالتي وتَأَهَّبُوا بِذَميمِ بَغْيكُمُ لِشرِّ المَصْرَعِ
فَاللَّهُ ليسَ بِغافلٍ عن أَمْرِكُمْ حَتّى تَحُلَّ بِكُمْ عُقوبةُ مُوجِعِ

الثقفي يصف رجلاً يرتاح إليه

قال أبو عثمان الجاحظ: سمعت النظام، وذكر عبد الوهاب الثَّقَفي، قال: هو أَحْلى من أَمْنٍ بعد خوف، وبُرْءٍ بعد سَقَم، ومن خِصْب بعد جَدْب، وغنًى بعد فَقْر، ومن طاعة المحبوب، وفرج المكروب، ومن الوصال الدائم، والشبابِ الناعِم.

[ابن أبي دواد يعفو عن الجاحظ]

ابن أبي دواد والجاحظ

وكان الجاحظ مائلاً عن ابنِ أبي دُواد إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فلما نُكِب محمد بن عبد الملك أُدْخِل الجاحظُ على ابنِ أبي دُواد مقيّداً، فقال له أحمد: والله ما أَعْلَمُك إلاّ مُتناسياً للنعمة، كفوراً للصَّنيعة، معدّداً للمساوىء، وما فُتّني باسْتِصْلاحي لك، ولكن الأيام لا تُصْلِح منك؛ لفسادِ طويّتك، ورداءة دَخيلتك، وسوء اختيارِك، وتَغَالُبِ طباعك.

فقال الجاحظ: خفّض عليك، أَصلحك الله، فوالله لأنْ يكونَ لك الأمرُ عليّ خيرٌ من أن يكونَ لي عليك، ولأنْ أُسِيء وتحسن أحسنُ في الأُحْدُوثَة من أن أُحْسِنَ فتسيء، ولأن تعفوَ عني على حالِ قُدْرَتِك عليّ أجْمَلُ بك من الانتقام مني، فعفَا عنه.

[عتبة بن أبي سفيان وأعرابي]

قال سعد مولى عُتْبَة بن أبي سفيان: خطب عُتْبَة الناسَ في الموسم سنة إحدى وأربعين، والناسُ إذ ذاك حديثو عَهْدٍ بالفتنة؛ فقال: قد وَلينا هذا المقام الذي يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأَجْرُ، وللمُسِيء الوِزْر؛ ونحن على سبيل قَصْد، فلا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا؛ فإنها تُقْطَع دوننا؛ فربَّ مُتَمَنٍّ أمراً حَتْفُهُ في أمنيته، فاقبلوا منا العافية ما قبِلْنَاها منكم[1]؛ وأنا أسأل الله يُعِين كُلًّا على كُلّ.

فناداه أعرابيٌّ من ناحية المسجد: أيها الخليفة، فقال: لستُ به ولم تُبْعِد، قال: يا أخاه، قال: سمعتُ فقل، فقال: والله لأنْ تحسنوا وقد أسأْنا خيرٌ من أن تسيئوا وقد أحسنّا، فإن كان الإحسان مِنْكُمْ فما أَوْلاَكم بإتمامه، وإن كان منّا فما أَوْلاَكم بمكافأتنا عليه، وأنا رجلٌ من بني عامر بن صعصعة يمتُّ بالعمومة ويختصُّ بالخؤولة، كَثُرَ عِيَاله، ووَطِئه زمانُه، [وبه فقر] وفيه أجر، وعنده شُكْر.

فقال له عتبة: أستغفر الله منك، وأستعين به عليك، وقد أَمَرْتُ لك بغناك، فليت إسراعي إليك يقوم بإبطائي عنك!

[بين الجاحظ وابن الزيات]

قال الجاحظ: تشاغلت مع الحسن بن وَهْب أخي سليمان بن وَهْب بِشُرْبِ النبيذ أياماً، فطلبني محمدُ بن عبد الملك لمؤانسته، فأُخْبِر باتصالِ شُغْلي مع الحسن بن وَهْب، فتنكَّر لي، وتلوَّن عليّ؛ فكتبتُ إليه رقعة نسختها: أعاذك الله من سُوءِ الغَضَب، وعَصَمَك مِن سَرَفِ الهوى[2]، وصَرَف ما أعارَك من القوّة إلى حبِّ الإنصاف، ورجّح في قلبك إيثار الأناة[3]، فقد خِفتُ ـ أيّدك الله! ـ أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَقِ السفهاء[4]، ومُجَانَبَة سُبُلِ الحكماء، وبعدُ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت[5]:

---

(١) زاد في الأمالي (١/ ٢٣٦): «وإياكم ولوا؛ فإنها أتعبت من كان قبلكم، ولن تريح من بعدكم».

(٢) السَّرَفُ: الضراوة بالشيء والولوع به، ومجاوزة الحَدِّ.

(٣) الأناة: الحلم والوقار.

(٤) النَّزَقُ: الخفة والطيش في كلِّ أمر.

(٥) هو عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي: شاعر ابن شاعر. سكن المدينة، ورافق أباه في كثير من المناسبات، وكانت بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم أهاج كثيرة ومناقضات كثر =

وَإن امــرأً أَمْسَــى وَأَصْبَــح ســالمــاً مِــنَ النــاسِ إلا مــا جَنَــى لَسَعِيــدُ

وقال الآخر:

وَمَــنْ دعــا النــاسَ إلــى ذَمِّــهِ ذَمُّــوهُ بِــالحــقِّ وَبــالْبَــاطِــلِ

فإن كنتُ اجترأْتُ عليك ـ أصلحك الله! ـ فلم اجترىءْ إلا لأنّ دوامَ تغافلك عني شبيهٌ بالإهمال، الذي يُورِثُ الإغْفَال، والعفو المتابع يؤمنُ مِنَ المكافأة، ولذلك قال عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيراً لِي منك، أرْهَبني فأَتْقَاني، وأعْطَاني فأَغناني، فإن كنت لا تَهَبُ عقابي ـ أيدك الله! ـ لِخدْمَةٍ فَهَبْهُ لأَياديك عندي؛ فإنّ النعمةَ تشفع في النِّقْمة، وإلا تَفْعَلْ ذلك لذلك فَعُدْ إلى حُسْنِ العادة، وإلاّ فافْعَلْ ذلك لِحُسْن الأحدوثة؛ وإلا فَأْتِ ما أنْتَ أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة، فسبحان مَن جعلك تَعْفُو عن المتعمّد، وتتجافى عن عقابِ المُصِرّ، حتى إذا صرت إلى مَنْ هَفْوَتُهُ ذِكْر، وذَنْبهُ نسيان، ومن لا يعرف الشُّكْرَ إلاّ لك، والإنعامَ إلا منك هَجَمْتَ عليه بالعقوبة. واعلم ـ أيّدَك الله! ـ أنَّ شَيْنَ غَضبِكَ عَليَّ كزَيْنِ صَفْحِك عني، وأنّ مَوْتَ ذِكْري مع انقطاع سببي منك كحياةِ ذكرك مع اتصال سببي بك، واعلم أنّ لكَ فطنة عليم، وَغَفْلة كريم، والسلام.

[من كلام علي ـ رضي الله عنه! ـ في أعجب ما في الإنسان]

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أَعْجَبُ ما في الإنسان قَلْبُه، وله موادّ من الحكمة، وأضْداد من خِلاَفها؛ فإنْ سَنَح له الرجاءُ أذَلَّه الطمع، وإن هاجه الطَّمَعُ أهلكه الحِرْص، وإن مَلَكه اليَأْسُ قتله الأسَف، وإن عرض له الغضب اشتدَّ به الغَيْظ، وإنْ أُسْعد بالرضا نَسِيَ التحفظ، وإن أتاه الخوفُ شَغلَـهُ الحذَر، وإن اتّسَع له الأمْن استلبته الغِرَّة، وإن أصابته مصيبة فَضَحَهُ الجَزَع، وإن استفاد مالاً أَطْغاه الغِنَى، وإنْ عضَّتْه فاقةٌ بلغ به البلاء، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضَّعْف، وإن أفرط في الشبع كَظَّتْه البِطْنَة[١]، فكلُّ تقصيرٍ مُضِرٌّ، وكلّ إفراطٍ له قَاتِل.

* * *

= الحديث عن أسبابها، وقيل: إنه شَبَّب بابنة معاوية «رملة». توفي سنة ١٠٤ هـ/ ٧٢٢ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٥/ ١٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٩٣).

(١) كَظَّ الطعامُ أو الشرابُ فلاناً: ملأه حتى لا يكاد يطيق النفس، وَكَظَّ الأمر فلاناً: بهظَهُ وَكَرَبَهُ.

لعبد الرحمن بن حسان

البيت الذي أنشده الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان في أبيات يقول فيها:

مَتَى ما يَرَى الناسُ الغَنيَّ وَجارُهُ فَقيرٌ يقولوا: عاجزٌ وجَليدُ
وَليس الغِنَى والفَقْرُ من حِيلَةِ الفتى وَلكِنْ أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وَجُدُودُ(١)
وَإِنَّ امرأً يُمْسِي وَيُصْبِحُ سالماً من الناسِ إلاّ ما جَنَى لَسَعِيدُ

لمحمد بن حازم الباهلي

والبيت الذي أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلي(٢) في أبياتٍ يقول فيها:

إنْ كُنْتَ لا تَرْهَبُ ذَمِّي لِمَا تَعْلَمُ مِنْ صَفْحِي عن الجاهلِ
فَاخْشَ سُكوتي آذِناً مُنْصِتاً فِيكَ لِمَسْمُوعِ خَنَى القَائِلِ(٣)
فَسامعُ الشرِّ شَرِيكٌ لهُ وَمُطْعِمُ المأْكُولِ كالآكِلِ
مَقالةُ السوءِ إلى أهلها أسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرٍ سائلِ
وَمَنْ دعا الناس إلى ذَمّهِ ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ
فلا تُهِجْ، إن كُنْتَ ذا إرْبَةٍ، حَرْبَ أخي التجربةِ الغَافِلِ
فإنَّ ذا العقلِ إذا هِجْتَهُ هِجْتَ بهِ ذا خَبَلٍ خابِلِ(٤)
تُبْصرُ في عاجلِ شَدَّاتِه عليكَ غِبَّ الضَّرَرِ الآجلِ

للجاحظ في ابن الزيات

وفي ابن الزيات يقول الجاحظ:

بَدَا حين أَثْرَى لإخوانِه فَفلَّلَ منهم شَباةَ العَدَمْ(٥)

---

(١) أَحاظٍ: جمع حَظّ، وهو النصيبُ، والجَدُّ، والبَخْتُ.
(٢) هو أبو جعفر، محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء: شاعر مطبوع هجّاء. ولد ونشأ بالبصرة، وانتقل إلى بغداد فسكنها، ومدح المأمون، وأكثر شعره في القناعة وذم الطمع. توفي ببغداد سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٠٧، المرزباني، معجم الشعراء: ٣٧١).
(٣) خنى القائل: فحشه وقبح مقالته.
(٤) الخَبَلُ: الفساد.
(٥) فَلَّ السيف وفَلَّلهُ: ثلمه وكسر حدّه. والشباة (من السيف): حَدُّ طرفه.

وَأَبْصَرَ كيفَ انتقالُ الزمانِ فَبادَرَ بالعُرْفِ قَبْلَ النَّدَمْ(١)

[الجاحظ ورجل من البرامكة في مرضه]

قال بعضُ البرامكة: كنتُ أتقلد السندَ، فاتصل بي أني صُرِفْتُ عنها، وكنت كسبت ثلاثين ألف دينار، فخِفْتُ أن يَفْجَأَني الصارف، ويُسْعَى إليه بالمال، فَصُغْتُه عشرة آلاف إهْلِيلَجَة(٢) في كل إهليلَجَة ثلاثةُ مثاقيل، وجعلتها في رَحْلي، ولم أبعد أن جاء الصارف؛ فَركِبْتُ البحرَ، وانْحَدرتُ إلى البصرةِ؛ فَخُبِّرْتُ أن بها الجاحظ، وأنه عليل؛ فأحببت أن أراه قبل وفاته، فَصِرْتُ إليه، فأفضيتُ إلى بابِ دارٍ لطيف، فَقَرَعْتُه، فَخرجَتْ إليَّ خادمٌ صفراء، فقالت: مَنْ أنت؟ فقلت: رجل غريب أَحَبَّ أن يدخل إلى الشيخ فَيُسَرّ بالنظر إليه، فأدت ما قلتُ، وكانت المسافة قريبة لصغر الدهليز والحجرة، فسمعته يقول: قولي له: وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون حائل؟ فأخبرتني، فقلت: لا بدَّ من الوصول إليه، فقال: هذا رجل قد اجتاز بالبَصْرَة، فسمع بي وَبِعلّتِي، فقال: أراه قبل موته؛ لأقول: قد رأيت الجاحظ.

فدخلت فسلمت فردَّ ردًّا جميلاً واستَدْنَاني، وقال: مَنْ تكون؟ أعزك الله! فانتَسَبْتُ له، فقال: رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد، الكرام الأمجاد، لقد كانت أيامُهم رَوْضَ الأزمنة، ولقد انجبر بهم خلق، فسقياً لهم ورعياً؛ فدعوت له، وقلت: أنا أسألُ الشيخ أن يُنْشِدَني شيئاً من الشعر أذكره به، فأنشدني:

لَئِنْ قُدِّمَتْ قبلي رِجالٌ فطالما مَشَيْتُ على رِسْلِي فَكُنْتُ المُقَدَّما(٣)
وَلكنَّ هذا الدهرَ تأتي صُرُوفُهُ فَتُبْرِمُ مَنْقُوضاً، وتَنْقُضُ مُبْرَما(٤)

ثم نهضتُ، فلما قاربتُ الدهليز صاحَ بي فقال: يا فتى؛ أرأيتَ مفلوجاً يَنْفَعُه الإهليلج؟ فقلت: لا، قال: فأنا ينفعني الإهليلج الذي معك، فأَنْفِذْ إليَّ منه، فقلت: السمع والطاعة، وخرجت مُفْرط التعجب من وقوعه على خَبَري، حتى كأنَّ بعضَ أحبابي كاتَبَهُ بِخَبَري حين صُغْتُه، فأَنْفَذْتُ إليه مائة إهليلجة.

---

(١) العُرْفُ: المعروف.
(٢) الإهليلج: ثمر قريب الشكل من البلح. يريد أنه صاغ الذهب على شكل الإهليلج.
(٣) الرِّسْلُ: الرفق والتؤدة، يقال: إفعل كذا على رِسْلِك: اتئد ولا تعجل.
(٤) المُبْرَمُ: المُحْكَمُ.

المقامة الجاحظية

[مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ]

قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: جمعتني مع رُفْقَةٍ وَليمةٌ، وأجَبْتُ إليها للحديث المأثور فيها عن رسول الله ﷺ: «لو دُعيتُ إلى كُراع[١] لأجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إليَّ ذراع لقبلت»، فأفضَى بنا المسيرُ إلى دار قد فُرِشَ بساطُها، وبُسِطت أنماطها، ومُدَّ سِمَاطُها[٢]، وقوم قد أخذوا الوقت بين آسٍ مخضود، وَوَرْدٍ منضود، ودَنّ مَفْصود[٣]، ونَاي وعود؛ فَصِرْنا إليهم وصاروا إلينا، ثم عكفنا على خِوَان قد مُلِئَتْ حياضُه، وَنَوَّرَت رياضُه، واصطفت جِفَانُه، واختلفت ألوانُه؛ فمن حالِك بإزائه نَاصع، ومن قانٍ في تلقائه فَاقعٌ، ومعنا على الطعام رَجلٌ تُسَافرُ يَدُه على الخِوَان، وتَسْفِرُ بين الألوان، وتأخذُ وجوهَ الرُّغفان، وتَفْقأُ عيونَ الجِفَان، وتَرْعَى أَرْضَ الجيران؛ يَزْحَم اللقمَة باللقمة، ويهزِمُ المَضْغَةَ بالمضغة، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنْبِس، ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على ذِكْرِ الجاحظ وخَطَابته، ووَصف ابن المقفَّع وذَرابته[٤]، ووافق أول الحديث آخرَ الخِوَان، وزُلْنا عن ذلك المكان، فقال الرجلُ: أين أنتم من الحديث الذي فيه كنتم، فأخذنا في وصف الجاحظ ولَسَنِه، وحُسْنِ سَنَنِه في الفصاحة وَسُنَنِه فيما عرفناه؛ فقال: يا قومُ؛ لكلِّ عمل رجال، ولكل مقام مَقَالٌ، ولكل دارٍ سُكَّان، ولكل زمان جاحظ، ولو انتقدتم، لَبطَلَ ما اعتقدتُمْ، فكلٌّ كَشَّرَ له عن ناب الإنكار، وضمَّ بأنْفِ الإكبار، وضَحِكْتُ إليه، لأجلبَ ما لَدَيه، وقلت: أَفِدْنا وزِدْنا، فقال: إنَّ الجاحظَ في أَحدِ شِقي البلاغة يَقْطِف؛ وفي الآخر يَقِف، والبليغُ من لم يُقَصِّر نظمُه عن نَثْره، ولم يُزْرِ كلامهُ بشعرِه، فهل تَرْوُونَ للجاحظ شعراً

(١) الكُرَاعُ (من البقر والغنم): مستدق الساق العاري من اللحم، وفي المثل: «لا تطعم العبد الكراع، فيطمع في الذراع».
(٢) الأنماط: البُسُط. والنَّمْط: ثوب من الصوف، الجمع أسماط.
(٣) خضد الشجر: نزع الشوك منه، قال تعالى: ﴿وأَصْحَابُ اليَمينِ ما أَصْحَابُ اليَمينِ. في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ (سورة الواقعة، آية: ٢٨).
ونضد الشيءَ: ضم بعضه إلى بعض متسقاً، ويقال: شجر نضيد ومنضود: نُضِّد بالورق والثمار من أسفله إلى أعلاه. ودن مفصود: مَشْقُوق، من فصد العِرْقَ إذا شَقَّهُ.
(٤) يقال: ذَرِبَ السيف ذَرَباً وَذَرَابةً: صار حديداً ماضياً، وذرب لسانه، إذا كان شتَّاماً فاحشاً. وذرب فلان: فَصُحَ لسانه بعد حَصَرٍ.

رائعاً؟ قلنا: لا، قال: فهلمّوا إلى كلامه؛ فهو بعيدُ الإشارات، قريبُ العبارات، قليل الاستعارات، منقادٌ لعريان الكلام يستعْمله، نَفورٌ من مُعْتاصِه يُهْمله، فهل سمعتم له بكلمةٍ غير مسموعة، أو لفظة غير مصنوعة؟ فقلت: لا، فقال: هل تحبّ أن تَسْمَعَ من الكلام ما يخفِّفُ عن مَنْكِبَيْك، وَيَنِمُّ على ما في يَدَيك؟ فقلت: إي والله، قال: فأطلق لي عن خِنْصَرِك ما يعين على شكرك، فأنلته ردائي، فقال:

لَعَمْــرُ الــذي أَلْقَــى إلــيَّ ثِيـابَــهُ ... لقـد كَسِبَـتْ تلـكَ الثيـابُ بـه مَجْـدا
وَقَــد قَمَــرَتْــهُ راحــةُ الجــودِ بِــزّةً ... فمـا ضَـرِبَتْ قِدْحاً ولا نَصَبتْ نَرْدَا[١]
أَعِــدْ نظـراً يـا مَـنْ كَسَـانـي ثِيَـابَـهُ ... وَلا تَــدَعِ الأيــامَ تَهْــدِمُنــي هَـــدًّا
وَقُـلْ لِلأُلَـى إنْ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضُحًى ... وَإِن طَلَعُــوا فــي غُمَّــةٍ طَلَعُــوا وِرْدَا
صِلُــوا رَحِــمَ العَلْيَـا وَبُلُّــوا لَهَـاتَهـا ... فَخَيْـرُ النَّـدَى مـا سَـحَّ وَابِلُـهُ نَقْـدَا[٢]

قال عيسى بن هشام: فارتاحت الجماعة إليه، وانثالت الصِّلاتُ عليه، وقلت لما تآنَسْنَا: من أين مطلع هذا البدر؟ فقال:

إسكنــــــدريـــــــةُ دَاري ... لـــو قَــرَّ فيهـــا قَــراري
لَكِـــنَّ لَيْلَـــي بِنَجْـــدٍ ... وَبِـــالحجـــازِ نَهَـــارِي

[من كلام الملوك]

من كرم أردشير بن بابك

تظلمت رعيَّة أردشير بن بابك إليه في سنة مُجْدِبة لِعَجْزِهم عن الخراج، وسألته أن يخففه عنهم؛ فكتب لهم ما نسخته: من أردشير المزيد بالبهاء، ابن الملوك العظماء، إلى الفقهاءِ الذين هم حَفَظَةُ البيضة[٣]، والكُتَّاب الذين هم سَاسَة المملكة، وذوي الحرث الذين هم عَمَرَةُ البلاد، أما بَعْدُ، فإنَّا نحمدُ الله تعالى حَمْدَ الصالحين، وقد وضعنا عن رعيتنا بِفَضْلِ رأفتنا إتاوَتنا الموظَّفة عليهم سنتنا هذه، ونحن كاتبون مع ذلك نُمليهم بوصية تنفعُ

---

(١) قمرته: غلبته في لعب القمار.
(٢) اللَّهاةُ من كلّ ذي حَلْق: اللحمة المشرفة على الحَلْق، أو الهَنَةُ المطبقة في أقصى الفم، والجمع لهوات ولهيات.
(٣) البيضة: الأصل، وبيضة القوم: حوزتهم وحِماهُم.

الكلَّ: لا تستشعروا الحِقْدَ لئلا يَغْلِبَ عليكم العدوّ، ولا تحبوا الاحتكار لئلا يشملكم القَحْط، وكونوا للغرباء مُؤْوين، لتؤووا غداً في المعاد، وتزوَّجُوا في القرابة فإنه أحْسَنُ للرحم، وأَثْبتُ للنَّسَبِ، ولا تعدُّوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تُبْقي على أحد، ولا تَرْفُضُوها مع ذلك؛ فإن الآخرة لا تُنَالُ إلا بها.

من كلام بزرجمهر

وقيل لبزرجمهر: أيُّ الاكتساب أفضل؟ قال: العلمُ والأدب كنزَانِ لا يَنْفَدان، وسِرَاجانِ لا يُطْفآن، وحُلَّتان لا تَبْلَيَان؛ مَنْ نالهما نَالَ أسبَاب الرشاد وعَرَفَ طريق المَعَاد، وعاش رفيعاً بين العِبَاد.

من كلام أنوشروان

وقال أنوشروان لبزرجمهر لما ظفر به: الحمد لله الذي أَظْفَرني بك، قال له: فكافِئْهُ بما يحبُّ كما أعطاك ما تحبّ. قال: وبم أُكافِئه يا فاسقُ؟ قال: بالعفو عمَّن أَظفرك به اليوم كما تحب أَنْ يعفوَ عنك غداً.

ونظيرُ هذا الكلام قد تقدّم لعليّ رضي الله عنه.

وقيل لكسرى: أَيُّ الملوك أَفضل؟ قال: الذي إذا جاوَرْتهُ وجَدْتَه عليماً، وإذا خبرته وجدتَهُ حكيماً، وإذا أغضب كان حليماً، وإذا ظفر كان كريماً، وإذا استمنح منح جسيماً، وإذا وعدَ وفى، وإن كان الوعد عظيماً، وإذا شُكِي إليه وُجد رحيماً.

[من رسائل الميكالي]

كتاب منه للثعالبي

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي إلى أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي: كتابي وأَنا أَشكو إليك شَوْقاً لو عالَجه أَعرابي لما صَبَا إلى رَمْل عالج، أو كَابَده الخَلِيُّ لانْثَنَى على كَبِدٍ ذَاتِ حُرَقٍ ولَوَاعِج؛ وأَذمُّ زماناً يفرِّقُ فلا يحسن جمعاً، ويخرق فلا ينوي رَقْعاً، ويُوجِعُ القلب بتفريق شَمْلِ ذوي الوِدَاد، ثم يبخلُ عليهم بما يَشْفِي الصدور والأَكْبَاد؛ قاسِي القلبِ فلا يلينُ لاستعطاف، جائر الحُكْمِ فلا يميلُ إلى إنصاف، وكم أَستَعْدِي على صَرْفِه وأَستَنْجِد، وأَتلَظَّى غيظاً عليه وأَنشد:

مَتَى وَعَسَى يَثْنِي الزمانُ عِنَانَهُ ... بِعَثْرَةِ حالٍ وَالزَّمَانُ عَثُورُ
فَتُدْرَكُ آمالٌ وَتُقْضَى مَآرِبٌ ... وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الأُمورِ أُمُورُ

وكَلاَّ، فما على الدهر عَتْب، ولا له على أَهْلِه ذَنْب؛ وإنما هي أقدار تَجْري كما شاء مُجْرِيها، وتَنْفُذ كالسهام إلى مَرَاميها؛ فهي تدورُ بالمكروه والمحبوب، على الحُكم المقدور والمكتوب، لا على شهوات النفوس وإرادات القلوب؛ وإذا أراد اللَّهُ تعالى أذن في تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصَّعب الجامح، فيعود الأُنْسُ بِلقائِكَ الإخوان كأتمّ ما لم يزل معهوداً، ويجدد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعهوداً؛ إنه الملبِّي به، والقادِرُ عليه.

كتاب منه إلى أبيه

وله إلى أبيه: ولو مَلَكْتُ عِنانَ اختياري، وأَسعفني ببعض ما أَقترحه القَدَرُ الجاري، لما غِبْتُ عن حضرته ـ آنسها الله! ـ ساعةً من دهري، كما لا أَعُدّ ساعاتِ بُعْدِي عنها وإخلائي لبابها من أيام عمري؛ ولكنت أبداً ماثِلاً بها في زمرة الخدم والعبيد، جامعاً بها بين حاشيتي العز المديد، والشرف العتيد؛ لا سيما في هذا الوقت وقد أشرقت البلاد بنور طلعته التي هي في ظلمة الدَّهر صباح، وعز مطالعته التي فيها لصدور ذوي الشَّنأ شجا[١] وَلِزَنْدِ الآمال اقتداح، ومعاودة ظِلِّهِ التي أَضْحَتِ الشمسُ من حساده، والزمان من عدد ساكنيه وعتاده، إلا أن الحريص ـ كما علمه مولانا ـ مُخلى عن أعذب موارده، وممنوع بالعوائق عن أكرم مطالعه ومقاصده.

كتاب منه يستفتح به مكاتبة أخ

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه:

أنا وإن لم تتقدم بيني وبينه المكاتبة، وعادة المساجلة والمفاوضة، من فرط حِرْصي على افتتاحها وتعاطيها، واعتراض العوائق دون المرادِ والغرض فيها، فإن قلبي بودِّه مَغْمُور، وضميري على مُصَافَاتِه مقصور، فاعتدادُه لفضائله التي أصبح فيها أَوْحَدِيّ العِنَان، وزاحم فيها مَنْكِب العَنَان[٢]، واستأثر فيها بالغُرَر والأَوْضَاح، ما أُوفى بها على غُرَّةِ الصباح، حتى تشاهدَتْ بها ضمائرُ القلوب، وتهادَتْ أنباءَها أَلسِنَة البعيد والقريب، اعتدادَ من يَجْمَعُ

---

(١) الشَّنْأ: البغض والتباعد. والشَّجا: ما اعترض وَنَشِبَ في الحلق من عظم أو نحوه.
(٢) العَنَانُ (بفتح العين): السحاب، والعِنَانُ (بكسر العين): ما تقاد به الدابة (الزمام).

بالاعتداد لها بين شهادةِ قلبه ولسانه، ومَنْ ينظم في إجلالِ قَدْرِها صفقةَ إسرارِه وإعلانه، فهو يتَنَسَّمُ الريح إذا هبَّتْ من ناحيته شوقاً ونزاعاً، ويَسْتَمْلي الوارد والصادِرَ خبرَ سلامته انصياعاً بالودِّ إليه وانقطاعاً.

فقر من كلامه

شذور من كلامه في أثناء رسائل شتى: أياديه التي غمرتني سِجَالُها، واتَّسَع عندي مَجَالها، وأعْيَا شكري عَفْوها وانثيالها، تناولت فيها المُنَى دانيةَ القطوف، واجتليت أنوار العيشِ مأمونة الكسوف، ليس يكادُ يبرد غليلُ شوقي وحنيني، أو ترجع نافرة أنسي وسكوني، أو تَخْلو من الاهتمام والفكرة فيه خواطري وظنوني، إلا بالتقاءٍ يدنو أمدُه، ويَقْرُبُ مَوْعِدُه، وتعلو على الفراق يَدُه، فنعاوِد العيشَ طَلْقاً غزيراً، ونجتني ثمرَ المُنَى غَضًّا نضيراً، ونَجْتَلي وجهَ الزمان مُشْرِقاً منيراً. فوائده لها عندي أثرُ الغَمام أو أنفع، ومحلُّ السِّمَاكِ أو أرفع. حالي في مفارقة حَضْرَته حالُ بناتِ الماء قد نَضب عنها الغَدير، ونباتِ الأرض أخطأها النَّوْءُ المطِيرُ. لهفي على دهر الحداثة إذ غُصْنُ شبابي غضّ وَريق، ونُقْلُ شرابي عضٌّ وريق. كلامٌ أحلى من رِيق النحل، وأصْفَى من ريقِ الوبل. من تسوّد قبل وقته وآلته، فقد تعرَّض لِمَقْتِه وإذالته. نظمُه له:

إنَّ مَــــنْ يلتمــــس الصَّــــدْ ... رَ بـــــلا وَقْــــتٍ وآلَـــــهْ
لَحقيـــــقٌ أنْ يُـلَـقَّـــــى ... كُـــــل مَقْـــــتٍ وَإذَالـــــهْ[١]

الشكلُ للكِتاب، كالحلي للكِعَاب. لو كان الشبابُ فِضّة لكان الشيبُ له خبثاً. النعمة عروسٌ مَهْرُها الشكر، وثوبٌ صَوْنُه النَّشر. الخضاب تذكرة الشباب. لا تقاسُ المَهاوي بالمَرَاقِي، ولا الأقدام بالتَّراقي[٢]، ولا البحورُ بالسواقي. كم أبلاني من عُرْفٍ[٣] جزيل لا يُبْلِي الدهرُ جِدّةَ رِدَائه، وقضاني من دَيْن تأميل لا يَقْضِي الشكرُ حقَّ نعمائه. الشكر للنعمة نتاج، والكُفْرَان لها رِتاج[٤]، وكلما زدت النعمةَ شكراً، زادت طيباً ونَشْراً.

---

(١) الإذالة: الإهانة والابتذال.

(٢) المراقي: جمع المَرْقَى: موضع الرُّقِيّ: الصعود. والتراقي: جمع ترقوة، وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان.

(٣) العُرْفُ: المعروف.

(٤) الرِّتَاجُ: الباب العظيم.

قطعة من شعره في تجنيس القوافي

قال في أبيه:

مُبْدِعاً في شمائل المجدِ خِيماً ... ما اهتدَيْنَا لأَخْذِه واقتباسِهْ[١]
فَهو فَظٌّ بالمالِ وَقْتَ نداهُ ... وَجَوادٌ بِالعَفْوِ في وَقْتِ بَاسِهْ

وقال فيه:

إذا ما جادَ بالأموالِ ثَنّى ... وَلم تُدْرِكْهُ في الجودِ الندامَهْ
وَإن هَجَستْ خَواطِرُه بِجَمْعٍ ... لِرَيْبِ حوادثٍ قال النَّدَى مَهْ[٢]

وقال فيه:

وَلما تَنَازعَ صَرْفُ الزمان ... فَزِعْنَا إلى سَيِّدٍ نَابِهِ[٣]
إذا كشَّرَ الدهرُ عَنْ نابِه ... كَشَفْنَا الحوادِثَ عَنَّا بِهِ

وقال فيه:

إنْ نابنا خَطْبٌ فآرَاؤهُ ... تُغني عَنِ الجيشِ وَتَسْرِيبِهِ[٤]
وَإنْ دَجَا ليلٌ بَدَا نُورهُ ... للرَّكْبِ نَجْماً فهو يَسْرِي بِهِ

وقال يفتخر:

وَكمْ حاسدٍ لي انبَرى فانْثَنَى ... لِغَصَّة نَفْسٍ شَجَاهَا شَجَاهَا[٥]
ومن أينَ يَسْمُو لِنَيْلِ العُلاَ ... وَما بَثَّ مالاً ولا رَاشَ جَاهَا[٦]

---

(١) الخيم: السجية والطبع.
(٢) الندى: الجود والكرم. ومه: اسم فعل بمعنى اكفف.
(٣) فَزِعْنَا: لجأنا. والنَّابِهُ: الشريف، ذو الذكر الحسن، وهو خلاف الخامل.
(٤) تسريب الجيش: خروجه متتابعاً، يقال سَرَبَ سُروباً: خرج، وسرب في حاجته: مضى فيها، وَسَرَّب الشيء: أرسله قطعة قطعة.
(٥) شجاها الأمر: أَحزنها، وأشجاها بكذا: أَغصَّها به. والشَّجا: ما اعترض وَنَشِب في الحلقِ من عظم أو نحوه.
(٦) راش فلان: استغنى، وارتاش أصاب خيراً فَرُئِيَ عليه أثر ذلك، وراشه الله: أنعشه.

ومنها قوله:

وَسائلةٍ تُسائِلُ عَنْ فِعَالي ... وَعمَّا حازَ في الدنيا جَمَالي
فَقُلْتُ: إلى المعالي حَنَّ قلبي ... وَفي سُبُلِ المكارم لَجَّ مَالِي
وَللعلياءِ نَهْجٌ مُسْتَقِيمٌ ... فمالي تارِكاً ذَا النَّهْجَ مَالِي
إذا أَسْرَجْتُ في فَخْرٍ سَما بي ... فَعالي والنِّجَارُ فأَلْجَمَالي[1]

وقال في نوع من هذا الجنس:

وَمَنْ يَسْرِ فوقَ الأرض يَطْلُبُ غايةً ... مِنَ المجد يَسْرِي فوق جُمْجُمَةِ النَّسْرِ
وَمنْ يَخْتَلِفْ في العالمين نِجارهُ ... فإنّا من العلياءِ نَجْرِي على نَجْرِ[2]
ومَنْ يَتَّجِرْ في المال يَكْسِبُ رِبْحَهُ ... فَبِالمالِ نَشْرِي رابحَ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ

* * *

لأبي الفتح البستي

وعلى نحو هذا الحذو يقول أبو الفتح البستي:

أبا العباس لا تَحْسِبْ بأنّي ... لِشيءٍ من حُلَى الأَشْعَارِ عارِ
وَلسي طَبْعٌ كَسَلْسَالِ المجاري ... زُلاَلٌ من ذُرَا الأحجارِ جَاري
إذا ما أكْبَتِ الأدوارُ زَنْداً ... فَلِي زَنْدٌ على الأدْوارِ وَارِي[3]

وقال أبو الفتح البستي أيضاً:

بِسَيْفِ الدولةِ اتَّسَقَتْ أُمُورٌ ... رَأَيْنَاهَا مُبَدَّدَةَ النِّظَامِ
سمَا وَحمى بني سَامٍ وَحَامٍ ... فَلَيْسَ كَمثْلِهِ سَامٍ وَحَامِ[4]

---

(١) النِّجارُ: الأصل والمتحد.
(٢) النَّجْرُ: النِّجارُ.
(٣) وَرَى الزند وَرْياً ووريّاً: خرجت ناره، فهو وارٍ وَوَرِيّ.
(٤) سام وحام: ولدا نوح عليه السلام. والسامي: العالي المرتفع، من سما سُمُوّاً وسماءً: علا وارتفع وتطاول. والحامي: المُدافع عن أرضه أو قومه أو عرضه أو نحو ذلك.

[أدب الحاجب]

بين ملك وحاجبه

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه: إنك عيني التي أَنْظُرُ بها، وجُنَّتي التي أستنيم إليها؛ وقد وَلَّيْتُك بابي، فما تراكَ صانعاً برعيَّتي؟

قال: أنظر إليهم بعينك، وأحملهم على قَدْرِ منازلهم عندك، وأَضَعهم لك في إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدْمتك مواضع استحقاقهم، وأُرَتِّبهم حيث جعلهم ترتيبك، وأُحسِنُ إبلاغَكَ عنهم، وإبلاَغهم عنك.

قال: قد وَفَيتَ بما عليك قولاً، إن وَفَيْتَ به فعلاً؛ والله وليّ كفايتك ومعونتك.

وصية المهدي للفضل بن الربيع

قال المهدي للفضل بن الربيع: إني قد وَلَّيْتُك سَتْرَ وجهي وكَشْفَه، فلا تجعل الستر بيني وبين خواصّي سبباً لِضِغْنهم بِقُبْح رَدِّكَ، وعُبُوسِ وَجْهِك؟ وقدّم أبناء الدعوة؛ فإنهم أَوْلَى بالتقديم، وثَنِّ بالأولياء، واجعل للعامة وَقْتاً إذا دَخلوا أَعجَلَهُمْ ضِيقُه عن التلبُّث، وصَرَفَهُم عَنِ التمكُّث.

للحسن بن سهل

وقال الحسنُ بن سهل: إذا كان الملك مُحْتَجِباً عن الرعيّة، ولم ينزل الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناس إليه أنفسَهم واستحقاقَهم دون الشفاعات والحرمات، حتى يختصَّ الفاضلَ دون المفضول، ويرتّب الناسَ على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم، امتزج التدبير، واختلَّت الأمور، ولم يميّز بين الصدور والأعْجَاز، والنواصِي والأذناب، وكان الناسُ فَوْضَى، ووَهتْ أَسبابُ المُلْك، وانتقَضَتْ مَرَائِرُهُ[1]، وشاعت سرائره، وإنّ أَقْرَبَ ما أَرجو به صلاحَ ما أتولاّه استماعي من المتنسِّمين بأنفسهم، المتوسلين بأَفهامهم، المتوصّلين بكفايتهم، وَابتذالُ نفسي لهم، وصبري عليهم، وتصفحي ما توسلوا به وانتحَلوه من العقول والآداب، والحِماية والكفاية. فمَنْ ثبتت له دَعْواه أَنزلْتُه تلك المَنْزِلة، ولم أَتحيَّفْه

(١) المرائر: جمع مريرة، وهي العزيمة، وعزّة النفس، وطاقة الحبل، يقال: استمرت مريرته على كذا: ألفه واستحكم أَمْرُهُ عليه.

حقَّه[١]، ولا نَقَصْتُه حَظَّهُ؛ ومن قَصَّر عما ادَّعى كانت منزلتُه مَنْزِلَةَ المقصرين، ولم أخيِّب أَمَلَه من مقدار ما يَسْتَحِقّه.

لبعض البلغاء

وقال بعضُ البلغاءِ: إذا أَسدَل الوالي على نفسه سِتْر الحِجَاب، وَهيَ عَمُودُ تدبيره؛ واسْتَرْخَتْ عليه حمائِلُ الحَزْم، وازدلَفَتْ إليه وفودُ الذمّ، وتولّى عنه رشد الرَّاجِي، ونال أمورَه خَلَلُ الانتشار، وآفةُ الإهمال، وتَسَرَّعَ إليه العائبون بلواذع ألسنتهم ودَبِيب قوارضهم.

بين سعيد بن عبد الملك وعبيد الله بن سليمان

وحُجب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب إليه: صِرْتُ إلى بابك ـ أَعزَّك اللَّهُ ـ عندما حدث من أمرك، فلم يُقْضَ لقاؤك، وعلمت أَنَّ ثِقتَك بما عندي، قد مَثَّلَتْ لك حالِي من السرور بنعمَةِ اللَّهِ عندك، وأَرَتْكَ موضعِي من الاعتداد بكل ما خَصَّك ووصَل إليك، فوكلت العُذْر إلى ذلك. ثم إنَّا نَأْتِيك مُتيمِّنين بطَلْعَتك، مشتاقين إلى رؤيتك، فيحجبنا عنك مُلاَحظ. وهو كما علمت زَنيم الصنيعة[٢]، لَئِيم الطبيعة، يَحْجُبُ عنك الكِرام، ويَأْذَنُ عليك لِلئام، كلما نَجَمَتْ له يدٌ بيضاء[٣]، أَتْبَعَهَا يداً سوداء؛ فإن رأيت ـ أعزّك الله ـ أن تَصْرِفَه عن باب مكارمك فعلت، إن شاء الله.

لأبي السمط بن أبي حفصة

وقال أبو السمط بن أبي حفصة[٤]:

فَتًى لا يُبَالِي المُدْلِجُونَ بِنُورِهِ ... إلى بابِهِ أَلَّا تُضِيءَ الكَواكِبُ
لهُ حَاجِبٌ في كلِّ خَيْرٍ يُعِينُهُ ... وَلَيْسَ لهُ عنْ طالبِ العُرفِ حَاجِبُ

---

(١) حاف عليه حَيْفاً: جار وظلم، وتَحيَّفَ الشيء: أخذ من حافاته وتَنَقَّصَهُ.
(٢) الزنيم: الدَّعِيُّ الملحق بالقوم، واللئيم المعروف بلؤمه وشرّه.
(٣) نجم الشيء نَجْماً وَنُجوماً: ظهر.
(٤) هو أبو السمط، مروان بن يحيى (أبي الجنوب) بن مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، ويعرف بمروان الأصغر تمييزاً له عن جدّه: شاعر من الولاة، اختص بالمتوكل العباسي فمدحه ونادمه، وقلده المتوكل اليمامة والبحرين وطريق مكة. توفي نحو ٢٤٠ هـ/ ٨٥٥ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٩٢؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٣/ ١٥٣).

لمروان بن أبي حفصة

أخذ البيت الأول من قول جده مَرْوان بن أبي حفصة الأكبر[(١)]:

إلى المُصْطَفى المَهْديِّ خَاضَتْ رِكابُنَا دُجَى الليل يَخْبِطْنَ السَّريحَ المُخدَّمَا[(٢)]
يكونُ لها نورُ الإمامِ مُحمدٍ دليلاً به تَسْري إذا الليلُ أَظلَمَا

لإدريس بن أبي حفصة

وقال إدريس بن أبي حفصة، وذكر إبلاً:

لها أَمامَكَ نورٌ تَسْتَضيءُ بهِ وَمِنْ رَجَائك في أَعْنَاقِها حَادي
لها أحاديثُ مِنْ ذِكْرَاك تَشْغَلُها عنِ الرُّتُوعِ وَتُلْهيها عنِ الزَّادِ[(٣)]

لعمرو بن شأس الأسدي

وأصله قول عمرو بن شأس الأسدي[(٤)]:

إذا نَحْنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْتَ أَمَامنا كَفَى لِمطايَانَا بِوَجْهِكَ هَادِيَا[(٥)]
أليس يَزِيدُ العِيسَ خِفّةَ أَذْرُعٍ، وإنْ كُنَّ حَسْرَى، أَنْ تَكُونَ أماميا[(٦)]

وقال بعض أهل العصر:

---

(١) هو أبو الهندام، مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة: شاعر مُجوّد، من أهل اليمامة. قدم بغداد، ومدح المهدي والرشيد، وله في معن بن زائدة مدائح ومراثٍ عجيبة، وكان يُنقّح شعره. توفي سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م، ودفن ببغداد. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/٦٤٩، ابن العماد، شذرات الذهب: ١/٣٠١).

(٢) المخدم: ذو الخدمة، وهو سير يُشدُّ في رسغ البعير.

(٣) الرُّتُوعُ: الرَّعْيُ في خصب وسعة. ويقال: خرجنا نلعب ونرتع: نلهو وننعم.

(٤) هو أبو عرار، عمرو بن شأس بن عبيدة بن ثعلبة بن أسد: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم وهو شيخ كبير، وشهد القادسية وله فيها أشعار، وكان من أهل المروءة والخير. توفي نحو ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١١/١٨٦؛ المرزباني، معجم الشعراء: ٢٢).

(٥) أدلج القوم: ساروا من أول الليل.

(٦) حَسْرَى: متعبات.

وَليْـلٍ وَصَلْنَـا بيـن قُطْـرَيـه بـالسُّـرى ... وَقدْ جَدَّ شوقٌ مُطْمِعٌ في وِصَالِك[١]
أَرَبَّـتْ علينـا مـن دُجَـاهُ حَنَـادِسٌ ... أَعَدْنَ الطريق النَّهْجَ وَعْرَ المَسالِكِ[٢]
فناديتُ يا أسماء، باسمكِ، فانْجَلتْ ... وأَسْفَـر منهـا كـلُّ أسـودَ حَـالِـكِ
بِنـا أَنـت مـن هـادٍ نَجَـوْنَـا بـذكـرهِ ... وَقـد نَشِبَـتْ فينـا أَكُـفُّ المهـالـكِ[٣]
مَنَحْتُـكِ إخـلاصـي وَأَصْفَيْتُـكِ الهـوى ... وَإِنْ كُنْـتِ لمّـا تُخْطِـريـنـي بِبـالِـكِ

للقطامي

وقال القطامي[٤]:

ذَكَـرْتُكُـمُ لَيْـلاً فَنَـوَّر ذِكْـرُكُـمْ ... دُجَى الليل حتى انجابَ عَنْه دَياجِرُه[٥]
فـوالله مـا أَدْرِي أَضَـوْءٌ مَسَجَّـرٌ ... لِـذِكْـرَاكُـمُ أم يَسْجُـر الليـلَ سَـاجِـرُه[٦]

للقيني

وقال القيني[٧]:

وَإنـي مـن القـومِ الـذيـن هُـمُ هُـمُ ... إذا مـاتَ منهـم سيِّـدٌ قـام صَـاحِبُـهْ
نُجـومُ سمـاءٍ كلمـا انقـضَّ كـوكـبٌ ... بَـدا كَـوْكَـبٌ تـأوي إليـه كَـواكِبُـهْ

---

(١) السُّرَى: السير ليلاً.
(٢) أَربَّت: زادت ولزمت. والدجى: جمع دُجْيَة: الظلمة. والحنادس: جمع حندس: الظلمة.
(٣) نشبت: علقت.
(٤) هو أبو سعيد، عُمير بن شُيم التغلبي، من بني بكر بن حبيب، وهم بطن من تغلب، والقطامي (بضم القاف وفتحها) لقب غلب عليه: شاعر مجيد، قدم دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان أحسن الشعراء ابتداء قصيد. توفي نحو ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٥٣٥؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٣٦).
(٥) الدياجر: جمع ديجور: الظلمة، وقد وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وديمة ديجور: مظلمة بما تحمل من الماء.
(٦) سَجَرَ التنُّور: ملأه وقوداً وأحماه.
(٧) هو أبو الطمحان، حنظلة بن شرقي، أحد بني القين، من قضاعة: شاعر، فارس. عاش في الجاهلية، وكان من عُشراء الزبير بن عبد المطلب. وأدرك الإسلام، ولم ير النبي ﷺ. توفي نحو ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م. (الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٢١؛ ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٢٤٩).

أضَـاءَتْ لهـم أحسـابُهـم وَوُجـوهُهـمْ   دُجَى الليـل حتى نَظَّـم الجَزْعَ ثَـاقِبُهْ[1]

للحطيئة

وقال الحطيئة:

نَمشـي على ضَـوْءِ أَحْسَـابٍ أَضَـأْنَ لَنَـا   كمـا أَضـاءتْ نُجـومُ اللَّيْـلِ للسَّـارِي

وقد ردَّده في موضع آخر فقال:

هُـم القَـومُ الـذيـن إذا أَلَّمـتْ   مِـنَ الأيـامِ مُظْلِمـةٌ أضـاءُوا

للقاسم بن حنبل المدني

وكلام القاسم بن حنبل المَدَني من هذا، حيث يقول:

مـن البيـضِ الـوجـوه بَنِـي سِنـانٍ   لَـوَ أنـك تستضـيءُ بهـم أَضَـاءُوا
فَلَـوْ أَنَّ السمـاءَ دَنَـتْ لِمَجْـدٍ   وَمَكْـرُمَـةٍ دَنَـتْ لهـمُ السّمـاءُ
هُـمُ حـازُوا مـن الشَّـرَفِ المُعلَّـى   وَمِـنْ كَـرَمِ العشيـرةِ حَيْـثُ شـاءُوا

وقال بعض المتقدمين:

إذا إشـرقَتْ في جُنْحِ لَيْلٍ وُجوهُهُمْ   كَفَـوْا خَـابِطَ الظلمـاءِ فَقْدَ المَصَـابِـحِ
وَإنْ نَـابَ خَطْـبٌ أَو ألمَّـتْ مُلِمَّـةٌ   فَكَـمْ ثَـمَّ مِنْ آسِـي جِـرَاحٍ وَجَـارِحِ[2]

للوضاح التيمي

وقال أبو بديل الوضاح بن محمد التيمي في المستعين:

وَقـائلـةٍ والليـلُ قـد نَشَـر الـدُّجَـى   فَغطّـى بهـا مـا بيـن سَهْـلٍ وقَـرْدَدِ[3]
أرى بـارقـاً يَبْـدُو مـن الجَـوْسَقِ الـذي   بِـهِ حَـلَّ مِيْـرَاثُ النبـيِّ مُحَمَّـدِ[4]
أضـاءت لـهُ الآفـاقُ حتـى كـأنَّمـا   رَأَيْنَـا بنصـفِ الليـلِ نُـورَ ضُحَـى غـدِ

---

(١) رواية العمدة (٢/ ١٣٩): «حتى نظم العقد ثاقبه».
(٢) الآسي: الطبيب، والجرّاح.
(٣) القردد: ما ارتفع من الأرض، والجمع قراديد.
(٤) الجوسق: القصر الصغير، والحصن، والجمع جواسق.

فَظَلَّ عَذَارَى الحيِّ يَنْظِمْنَ تَحْتَهُ سُلوكاً من الجَزْعِ الذِي لم يُسَرَّدِ[١]
فَقُلْتُ: هو البَدْرُ الذي تعرفونهُ وَإلا يَكُنْ فالنُّورُ من وَجْهِ أحمدِ

[حث الاشتياق]

لعمر بن أبي ربيعة

وقال عُمر بن عبد اللّه بن أبي ربيعة في معنى قول عَمْرو بن شأس في حثّ الاشتياق[٢]:

خَليليَّ ما بالُ المطايا كأنَّما تَراها على الأعْقَابِ بالْقَوْمِ تَنْكُصُ[٣]
فَقد أتْعَب الحادِي سُرَاهُنَّ، وَانْحَنَى بِهِنَّ - فما بالوا - عَجُولٌ مُقلِصُ[٤]
وَقدْ قُطِّعَتْ أعناقُهنَّ صَبَابَةً فأعْيُنُهَا مما تَكَلَّفُ تَشْخَصُ[٥]
يَزِدْنَ بنا قُرباً فيزدادُ شَوْقُنَا إذا ازدادَ قُرْبُ الدارِ والبُعدُ يَنْقُصُ[٦]

وقال بعض الرجاز، وذكر إبلاً:

إنَّ لها لسائقاً خَدَلّجا لم يُدْلجِ الليلةَ فيمَنْ أدْلَجا[٧]

مما أنشده إسحاق الموصلي

يريد امرأة يحبها فيحثه ما يجدُه من الشوق على إجهاد مطاياه بالسوق. كما أنشد إسحاق الموصلي:

صَبّ يحثُّ مطاياهُ بِذِكْرِكُمُ وَلَيْسَ يَنْسَاكُمُ إنْ حَلَّ أو سَارَا

---

(١) الجَزْعُ: ضرب من العقيق يُعْرَفُ بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، والحجر في جملته بلون الظُّفْرِ.

(٢) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ١٠.

(٣) المطايا: الدواب من إبل ونحوها. وفي الديوان: «على الأدبار»، والأدبار والأعقاب: الخلفيات. وتنكص: ترجع، ترتد.

(٤) الحادي: سائق الإبل. السُّرى: السير ليلاً. انتحى: تجنب. يألو: يُقصِّرُ. مُقلِّصٌ: مُشَمِّرٌ.

(٥) الصبابة: شدة الشوق وحرارته. وفي الديوان: «فأنْفُسنا مما يلاقين شُخَّصُ». وَشُخَّصٌ: جمع شاخصة: مشدودة حائرة مندهشة.

(٦) في الديوان: «إذا زاد طول العهد». وطول العهد: طول زمن الفراق. يقول: المطايا تزيد بنا اقتراباً، وشوقنا يزداد بازدياد أمد الفراق، على حين أن المسافة تتقاصر وتقلّ.

(٧) الخدلج: الممتلىء الذراعين والساقين.

لــو يَسْتَطِيــعُ طَــوَى الأيــامَ نَحْــوَكُــمُ حتــى يَبِيــعَ بِعُمْــرِ القُــرْبِ أعمــارا
يَــرْجُــو النَّجــاةَ مِــنَ البلــوى بِقُــرْبِكُــمُ وَالقُــرْبُ يُلْهِــبُ فــي أَحشــائِـه نَــارَا

هذا البيت يناسب أبيات ابن أبي ربيعة. يقول: كلما دنا ازدادَ حِرْصاً على اللقاء.

لإسحاق الموصلي

وشخَصَ إسحاقُ الموصلي إلى الواثق بِسُرَّ من رأى، وأَهْلُهُ ببغداد، فتصيد الواثق وهو معه إلى نواحي عُكْبَرَاء، فلما قرب من بغداد قال:

طَــرِبْــتَ إلــى الأُصَيْبِيَــة الصّغــارِ وهَــاجَــكَ مِنْهُــمُ قَــرْبُ المَــزَارِ
وَكُــلُّ مُسَــافِــرٍ يَــزْدَاد شــوقــاً إذَا دَنَــتِ الــديــارُ مِــنَ الــدِّيَــارِ

ولحنَّه وغنَّاه الواثق، فاستحسنه وأَطربه، فصرفه إلى بغداد على ما أَحَب، وكان إسحاقُ قال أولاً:

وَكُــلُّ مســافــر يَشْتَــاقُ يــومــاً إذا دَنَــتِ الــديــارُ مــن الــديــارِ

فعابوا قوله «يوماً»، وقالوا: هي لفظة قَلِقة في هذا الموضع، لم تحلّ بمركزها، ولا لها هنا موقع. قال: فَضَعُوا مكانها مِثْلَها لا خيراً منها. فما استطاعوا ذلك، فغيّرها إلى ما أنشدت أولاً.

لأبي نواس

وقال أبو نواس[١]:

أمــا الــدِّيــارُ فقَلَّمــا لَبِثُــوا بهــا بيــن اشتيــاقِ العِيــس وَالــرّكبــانِ[٢]
وَضَعُــوا سيــاطَ الشَّــوْقِ فــوق رِقَــابِها حتــى طَلَعْــنَ بِهــا علــى الأوْطَــانِ[٣]

لمخلد بن بكار الموصلي

وقال مَخلَد بن بكار الموصلي[٤]:

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٢٩٢.
(٢) في الديوان: «بين استباق العيس بالركبان». والعيس: النوق. والركبان: المسافرون.
(٣) في الديوان: «وضعو سياط الشوق في أعناقها»، و«حتى اطلعن بِهِمْ». واطلع عن وطنه: ارتحل عنه.
(٤) هو مخلد بن بكار الموصلي: شاعر عباسي، عاصر أبا تمام وهجاه، فلم يلتفت إليه أبو تمام، =

أقـولُ لِنِضْـوٍ أَنْفَـدَ السَّيْـرُ نَيَّهـا وَلـمْ يُبْـقِ منهـا غَيْـرَ عَظْـمٍ مُجَلَّـدِ(١)
خِدِي بي ابتلاك الله بالشَّوْقِ والهوَى وَشَاقَـكِ تَحْنَانُ الحَمـامِ المغَـرّدِ(٢)
فَمرَّت سريعاً خَوْفَ دَعْوَةِ عَاشِقٍ تَشُقُّ بِيَ المَوْمَاةَ في كلِّ فَدْفَدِ(٣)
فَلما وَنَتْ في السير ثَنَّيْتُ دَعْوَتي فَكانتْ لها سَوْطاً إلى ضَحْوَةِ الْغَدِ(٤)

وكان مخلد حلو الطبع، وهو القائلُ يمدحُ رجلاً:

يَطْلُـعُ النَّجْـمُ علـى صَعْـدَتِـهِ فـإذا وَاجَـهَ نَحْـراً أَفَـلا(٥)
مَعْشَـرٌ إن ظَمِئَـتْ أَرماحهُـمْ أَوْرَدُوهـنَّ مُجَـاجَـاتِ الطلـى(٦)
تَحْسُـنُ الألْـوانُ مِنْهُـمْ فـي الـوَغَـى حيـنَ تُسْتنكـرُ لِلـرُّعْـبِ الحُلَـى(٧)
سُخْـطُ عبـد اللّـه يُـدْنِـي الأجـلا وَرِضَـاهُ يَتَعَـدَّى الأمَـلاَ
يُعْشِـبُ الصَّلْـدُ إذا سـالمـهُ وَإذا حـارَب رَوْضـاً أَمْحَـلاَ(٨)
[مَلِـكٌ لـو نُشِّـرتْ آلاؤُهُ وأيـاديـهِ علـى الليـل انْجَلَـى]
حَـلَّ بـالبَـأْس ابـنُ عَمْـرٍو مَنْـزِلاً طـال حتـى قَصُـرَتْ فيـه العُـلاَ
حَـطَّ رَحْلِـي فـي ذَرَاه جُـودهُ وتَمشَّـى فـي نَـداهُ الْخَيْـزَلَـى(٩)

[جَوْدَة الخط]

صفة الخط الجيد

سُئِل بعضُ الكتاب عن الخطِّ: متى يَسْتَحِقُّ أن يُوصَفَ بالجودة؟ فقال: إذا اعتدلَتْ

= ولو هجاه لشرفت حاله ونبه ذكره. قدم العراق، ومدح المعتصم العباسي. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٩٨).

(١) النضو: المهزول من الإبل. والنيُّ: الشحم.
(٢) خِدِي: فعل أمر من الوخد، وهو ضرب من السير سريع.
(٣) المومّاة: المفازة. والفدفد: الصحراء.
(٤) ونت: ضعفت، فترت.
(٥) الصَّعْدَةُ: القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف.
(٦) الطُّلَى: الأعناق، مفردها: طُلاَةٌ.
(٧) الوغى: الحرب.
(٨) الصَّلْدُ: الأرض لا تنبت شيئاً، والصخرة العريضة الملساء.
(٩) الخَيْزَلَى: مشية فيها تثاقل.

أقسامُه، وطالت ألِفُه ولاَمُه، واستقامت سُطورُه، وضَاهَى صُعودَهُ حُدورُهُ، وتفتَّحَتْ عيونُه، ولم تشتبه رَاؤه ونونُه، وأشْرَقَ قِرْطَاسه، وأظلمت أنْفاسه، ولم تختلف أَجْناسه، وأسرع إلى العيون تَصوُّرُه، وإلى العقول تَثَمُّرُه، وقُدِّرت فصوله، وانْدمَجَتْ وُصُوله، وتناسب دقيقهُ وجَليله، وخرج من نَمَطِ الورّاقين، وبَعُدَ عن تَصَنُّعِ المحررين، وقام لصاحبه مقام النسبة والحِلْيَة، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف في صفة خط[1]:

إذا مـا تَجلَّـلَ قِـرْطَـاسَـهُ ... وَسَـاوَرَه القلـمُ الأَرْقَـشُ[2]

تَضَمَّـنَ مِـنْ خَطِّـهِ حُلـةً ... كَنَقْـشِ الـدنـانيـر، بَـلْ أَنْقَـشُ

حُـروفٌ تُعِيـدُ لِعَيْـنِ الكَليـلِ ... نَشَـاطـاً وَيقْـرؤُهَـا الأَخْفَـشُ[3]

ورّاق يصف عيشه

قال أبو هفّان: سألت ورَّاقاً عن حاله فقال: عيشي أضْيق من مِحْبَرَة، وجسمي أدقّ من مِسْطَرة، وجَاهِي أرقُّ من الزجاج، ووَجْهي عند الناس أشدّ سواداً من الحبر بالزَّاج، وحظي أخْفَى من شقّ القلم، ويَدَاي أضْعَف من قَصَبَة، وطعامي أمرّ من العَفْص[4]؛ وشَرَابي أحرّ من الحبر، وسوءُ الحال ألزمُ لي من الصَّمْغ؛ فقلت له: عَبَّرْتَ عن بلاء ببلاء!

لإسماعيل الحمدوني

وقال الحمدوني:

ثِنْتَـانِ مِـنْ أدَوَاتِ العِلْـمِ قَـد ثَنَتَـا ... عِنَـانَ شَـأْوِيَ عَمَّـا رُمْـتُ مِنْ هِمَمي

أمَّـا الـدَّواةُ فـأَدْمَـى جُـرْمُهـا جَسَـدِي ... وَقلّـمَ الحـظَ تَحْـرِيـفٌ مِـنَ القَلَـمِ

وَحَبَّـرَتْ لِـيَ صُحْـفُ الحَـرْفِ مِحْبَـرةٌ ... تَـذُودُ عَنِّـي سَـوَامَ المَـالِ والنّعَـمِ

والعِلْـمُ يَعْلَـمُ أنـي حِيـنَ آخـذُهُ ... لِعِصْمَتـي نَـافِـرٌ خِلْـوٌ مـن العِصَـمِ

وللحمدوني في الحرفة أشعار مُستظرفَة، وكان مليحَ الافتنان، حُلْوَ التصرّف؛ وهو

(١) الأبيات في نهاية الأرب للنويري: ٧/ ١٥.

(٢) الأرقش من الأفاعي: ما فيه نقط سوداء وبياض، شبّه به القلم في قوة فعله، وبلوغ أثره، أو هو من رقش الكتاب إذا كتبه وزينه.

(٣) الأخفش: الضعيف البصر.

(٤) العَفْصُ: شجرة البلوط، وثمرها، وهو دواء قابض مُجفِّفٌ، وربما اتخذوا منه حِبْراً أو صِبغاً.

إسماعيل بن إبراهيم بن حَمْدَويه، وحمدويه جدّه، وهو صاحب الزنادقة في أيام الرشيد، والحمدوني هو القائل:

مَنْ كان في الدنيا له شَارَةٌ ... فَنَحْنُ من نَظَّارةِ الدنيا
نَرْمُقُها مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً ... كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى

وقال:

قَدْ قُلْتُ إذ خرجوا لكي يَسْتَمْطِروا: ... لا تَقْنَطوا واسْتَمْطِرُوا بثيابي
لو في حَزِيرانٍ هَمَمْتُ بِغَسْلِها ... غَطَّى ضياءَ الشمس جَوُّ سَحابِ
فكأنها العباسُ يَسْتَسْقِي به ... عُمَرٌ فَيَرْوِيهِمْ دُعاءُ مُجَابِ(١)

[حرفة الأدب]

لبعض الشعراء

وقال آخر في المعنى الأول:

لما أَجَدْتُ حُروفَ الخطِ حَرَّفَني ... عن كُلِّ حظٍّ وجاءت حِرْفَةُ الأدبِ
أقْوَتْ منازلُ مالي حين وَطّنَها ... مُخَيِّماً سَفَطُ الأقلامِ والكُتُبِ(٢)

للخريمي

وقال يعقوب الخريمي:

ما ازْدَدْتُ في أدَبي حَرْفاً أُسَرُّ به ... إلا تَزيَّدْتُ حَرْفاً تحته شُومُ
كذاك مَنْ يَدَّعي حِذْقاً بِصَنْعَتِهِ ... أنَّى تَوجَّهَ فيها فَهْوَ مَحْرُومُ

لعلي بن بسام

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز، وزعم أنه مات حَتْفَ أنفه، قال عليّ بن محمد بن بسام:

---

(١) يروى أن المطر كان قد احتبس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فاستسقى عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب، فسقاهم الله تعالى.

(٢) أقوت المنازل: خلت من ساكنيها. السَّفَطُ (في الأصل): وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء، وقيل: هو وعاء من قضبان الشجر ونحوها، توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها.

لِلَّــهِ درُّكَ مِــنْ مَيْــتٍ بِمَضْيَعَــةٍ ... نَاهيكَ في العلم والآداب والحَسَبِ
مــا فيــه لَــوٌّ ولا لَيْــتٌ فينقصــهُ ... وَإنمــا أدركَتْــهُ حِــرْفَــةُ الأدَبِ

[رزق الحمقى والعقلاء]

لابن الرومي

قال ابن الرومي[١]:

يــا لَيْــتَ أَهْــلَ البيــتِ إذْ حُــرِمــوا ... عُصِمُــوا مــن الشهــواتِ والفِتَــنِ[٢]
لَكِنَّهُــمْ حُــرِمــوا وَمَــا عُصِمُــوا ... فَقُلُــوبُهُــمْ مَــرْضَــى مــن الحَــزَنِ
وَهُــمُ أَطَــبُّ علــى بَلِيَّتِهِــمْ ... مِــنْ غَيْــرِهِــمْ بِمَضَــاضَــةِ الشَّجَــنِ[٣]

لجعفر بن محمد

وقال جعفر بن محمد: إن الله وسَّع أرزاقَ الحَمْقَى ليعتبرَ العقلاء، ويعلموا أنَّ الدنيا لا يُنَالُ ما فيها بِعَقْلٍ ولا حيلة؛ ألاَ إنَّ كسب المال بالحظّ، وحِفْظَه بالعقل.

للنظام

قال إبراهيم بن سيّار النظام[٤]: الذهبُ لئيم؛ لأنَّ الشكلَ يصيرُ إلى شَكْلِه، وهو عند اللئام أكْثَرُ منه عند الكرام. قال المتنبي ـ وأخذ هذا المعنى[٥]:

وَشِبْــهُ الشــيءِ مُنْجَــذِبٌ إِلَيْــهِ ... وَأَشْبَهُنَــا بِــدُنْيَــانَــا الطَّغَــامُ[٦]

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٢٢٠.
(٢) في الديوان: «يا ليت أهل العقل».
(٣) رواية الديوان:
وَهُــمُ أَحَــثُّــوا علــى بَــلِيَّتِهِــمْ ... مِــنْ غَيْــرِهِــمْ بِمضَــاضَــةِ الغَبْــنِ
والمضاضة: وجع المصيبة. والشَّجَنُ: الحزن.
(٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن سيَّار بن هانىء البصري المعروف بالنظَّام: شاعر، أديب بليغ، من أئمة المعتزلة. توفي سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٧١؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٤/ ٢٦).
(٥) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٢٨.
(٦) الطَّغَامُ: الأرذال.

بعض أخبار النظام وكلامه

وكان النظام له نظرٌ بوجوهِ التصرف، وكان السلطان يَصِلُه بالكثير، وكان محظوظاً؛ فإذا اجتمع له مالٌ حَبَسَ لنفسه بُلْغة، وفرَّق الباقيَ في أبواب المعروف؛ فقيل له في ذلك، فقال: مِنْ حقِّ المالِ عليَّ أن أطلُبَه من مَعْدنه، وأُصِيب به الفُرْصَةَ عند أهله؛ ومن حقِّي عليه أنْ يَقِيَني السوءَ بنفسه، ويصونَ عِرْضِي بابتذاله، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به؛ ألا ترى ذا الغنى؛ ما أدْوَمَ نَصَبه[١]، وأقلَّ راحته، وأخسَّ من ماله حَظّه، وأشدّ من الأيام حذَره، وأغْرى الدهرَ بثَلْبِه ونَقصِه، ثم هو بين سلطان يَرْعَاه، وذوي حقوق يسبُّونه، وأكفاء ينافسونه، وولد يريدون فِرَاقَه، قد بعث عليه الغِنَى من سلطانه العَنَاء، ومن أكفائه الحَسَد، ومن أعدائِهِ البَغْي، ومن ذوي الحقوقِ الذمّ، ومن الولدِ المَلاَلَ، وذو البُلْغة[٢] قنعَ فَدام له السرور، ورفض الدنيا فَسَلِمَ من المحذور، ورَضِي بالكفاف فتنكَّبَتْهُ الحقوق.

[أفكار الوراقين]

وصف الوراق

قال الصولي أنشدني محمد بن أحمد بن إسحاق:

أدْمَى البُكا جَفْنَيّ والمآقي ... فَظَلْتُ ذَا هَمٍّ وذا احْتِرَاقِ
ما إن أرى في الأرض والآفاقِ ... أذْنَى ولا أشقَى من الوَرَّاقِ
إذا أتى في القُمُصِ الأخْلاقِ ... رأيته مطيرة العُشَّاقِ[٣]
يَفْرَحُ بالأقلامِ والأوراقِ ... كَفَرْحَةِ الجندي بالأرزاقِ

وقال بعض الوراقين:

إذا كُنْتُ بالليلِ لا أكْتُبُ ... وَطُول النهارِ أنَا ألعبُ
فَطَوْراً يُبطِّلني مَأْكَلٌ ... وَطَوْراً يُبطّلني مَشْرَبُ[٤]
فَإِنْ دامَ هذا على ما أرى ... فَبيتِيَ أوَّلُ ما يَخْرَبُ

---

(١) النصب: التعب.
(٢) البُلْغَةُ: ما يكفي لسدِّ الحاجة ولا يفضل عنها.
(٣) القُمُص: جمع قميص. والأخلاق: جمع خَلَق (بالتحريك)، وهو البالي.
(٤) يقال: بَطَّلَ العامل: عَطَّلَهُ، وتَبَطَّل: تعطَّل.

وقيل لورّاق: ما تَشْتَهي؟ فقال: قلماً مَشَّاقاً[١]، وحِبْراً بَرّاقاً، وجلوداً رِقَاقا. وكل امرىءٍ فأمنيته على ما يُطَابِقُ غريزته، ويوافِقُ نَحِيزته[٢].

[أطيب اللذّات عند الشعراء]

لَـذّات امرىء القيس

قال عليّ بن جبلة العكوك[٣]: قال الأصمعي: سُئِل امرؤ القيس: ما أَطيب لذاتِ الدنيا؟ قال: بيضاء رُعْبُوبة[٤]، بالحسن مَكْبُوبة، بالشَّحْم مَكْرُوبة[٥]، بالمِسْكِ مَشْبُوبة.

لَـذّات الأعشى

وسُئل الأعشى عن ذلك، فقال: صَهْبَاء صافية[٦]، تَمْزُجُها سَاقِية، من صَوْبِ غادية[٧].

لَـذّات طرفة

وسئل طرفة عن ذلك، فقال: مركب وَطيّ، وثَوْبٌ بَهِيّ، ومطعم شَهِيّ.

لَـذّات أبي دُلف

قال العكوك: فحدَّثْتُ بهذا أبا دُلَف، فقال:

أطيبُ الطيباتِ قَتْلُ الأعادِي   واختيَالٌ على مُتُونِ الجيَادِ
ورَسولٌ يَأْتِي بِوَعْدِ حبيبٍ   وحبيبٌ يَأْتِي بلا ميعَادِ

لَـذّات حُميد الطوسي

وحدَّثت بذلك حُميداً الطوسي، فقال:

---

(١) قَلَمٌ مَشَّاقٌ: سريع الجري في القرطاس.
(٢) الغريزة والنحيزة: الطبيعة والسجية.
(٣) هو أبو الحسن، علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن: شاعر مطبوع فصيح. ولد ببغداد، وكان يعرف بالعكوك، وقيل: إنه مات ميتة شنيعة سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/٧٤٢؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٧١).
(٤) الرعبوبة: الفتاة الناعمة الحسنة.
(٥) مكروبة: ممتلئة.
(٦) الصهباء: الخمر.
(٧) الغادية: السحابة تَمرُّ غدوةً.

فَلَوْلا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ لَذَّةِ الفَتَى، وَجدِّكَ، لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدِي[١]
فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العَاذلاتِ بِشَرْبةٍ كُمَيْتٍ، متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ[٢]
وكَرِّي إذا نادى المُضَافُ مُحنَّباً كَسِيدِ الغَضَا ذي السَّوْرةِ المُتَوَرِّدِ[٣]
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تحت الخِبَاءِ المُعَمَّدِ[٤]

والشعر لطرفة بن العبد[٥].

لَذّات يزيد بن عبد الله

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله، فقال: ما أدري ما قالوا، ولكني أقول:

فَاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ

فكان أسدَّهم.

---

(١) ويروى: «هُنَّ من عيشة الفتى»، وعيشة الفتى: ما يحتاجه في حياته ويلتذ به من خمر أو نساء أو غير ذلك. والجد: الحظ. وقوله: «وجدك» أي: وحقّك. والعُوَّدُ: جمع عائد، وهو الزائر في المرض.

(٢) سبق العاذلات: الغُدوُّ باكراً إلى شرب الخمر قبل انتباه اللائمات. والكميت من الخمر: البالغة الحمرة التي تضرب إلى السواد.

(٣) الكرُّ: الرجوع والعَطْفُ، وقيل: هو أشدُّ القتال. والمُضاف: الخائف المذعور. المُحنَّبُ: الأقنى الذراع، وقيل: التحنيب في الفرس: انحناء وتوتير في الصُّلْبِ واليدين، وهو مما يمدح به، قال امرؤ القيس:

فَلأْياً بِلأْيٍ ما حَمَلْنَا وَليدَنَا على ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّراةِ مُحنَّبِ

(ديوانه: ص ١٨). والسِّيدُ: الذئب. والسَّوْرَةُ: الوثبة. ويروى: «كسيد الغضا نبهته المتورد». ونَبَّهتهُ: هَيَّجتهُ. والمتورد: الذي يطلب ورود الماء. والغضا: شجر صلب العود، جمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفىء.

(٤) الدَّجْنُ: ظل الغيم في اليوم المطير. وتقصير اليوم: جعله قصيراً باللهو. قال بعض الأعراب:

لَئِنْ أيامنا أَمْسَتْ طِوالاً لَقَدْ كُنَّا نَعِيشُ بِهَا قِصَارا

(ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال: ١٩٧).

والبهكنة والبُهاكنة: التارَّةُ الغَضَّة، وقيل: هي التامة الخَلْق الحسنة. ويروى: «تَحْتَ الطِّرافِ المُعَمَّد». والطراف: بيت من أُدم يتخذه الأغنياء.

(٥) انظر ديوانه: ص ٣٢.

من شعر الأضبط بن قريع

والبيت لِلأَضْبَط بن قُرَيع[١]، أنشده أبو العباس ثعلب، قال: ويلغني أن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلامِ بدَهْرٍ طويل:

لِكُلِّ ضيقٍ من الأُمورِ سَعَهْ ... وَالصُّبْحُ وَالمُسْيُ لا فلاحَ مَعَهْ
ما بالُ مَنْ سَرَّهُ مُصابُك لا ... يَملكُ شيئاً مِنْ أمْرِه وَزَعَهْ
أَذُودُ عَنْ حَوْضِه وَيَدْفعُني ... يا قوم، مَنْ عاذِري مِنَ الخُدَعَهْ
حَتَّى إذا ما انجلتْ عَمايَتُهُ ... أقْبَلَ يَلحَى وَغيُّهُ فَجَعَهْ[٢]
قَدْ يَجْمَعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ... وَيأكلُ المالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهْ
وَيَقْطَعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ ... وَيلبسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهْ
فاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتَاكَ بِهِ ... مَنْ قَرَّ عيناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ[٣]
وَصِلْ حبَالَ البعيدِ إنْ وَصَلَ الْـ ... ـحَبْلَ، وَأَقْصِ القريبَ إنْ قَطَعَهْ
وَلا تُعَادِ الفقيرَ عَلّك أن ... تَرْكَعَ يَوْماً وَالدهرُ قد رَفَعَهْ[٤]

هذا البيت شبيه بما روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يستنشدني قول اليهودي:

ارْفَعْ ضَعيفكَ لا يَحُرْ بكَ ضَعْفُهُ ... يوماً فَتُدْرِكَه العَواقبُ قَدْ نَمَا[٥]
يَجْزيكَ، أو يُثْني عليك، وَإنَّ مَنْ ... أثْنَى عليك بما فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فأنشده، فيقول: إني فطِنٌ لها.

---

(١) هو الأضبط بن قريع السَّعدي: شاعر جاهلي من بني عوف بن كعب بن سعد. هجر قبيلته بعد أن كرهته زوجته، وأساءت عشيرته معاملته، وعاش بعيداً عنهم. ويقال: إنه غزا بني الحارث بن كعب، وأسر عدداً كبيراً منهم. وهو أحد من اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ من تميم. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٩٨).

(٢) العماية: الضلالة. ويلحى: يلوم أشد اللوم.

(٣) في الشعر والشعراء: «وأقنع من العيش ما أتاك به».

(٤) في الشعر والشعراء:

«لا تهين الفقير علَّك أن ... تَخْشَعَ ....»

(٥) لا يحر بك ضعفه: يريد أنه قد يرجع الضعف إليك وينتعش هو.

الأضبط بن قريع

وكان الأضبط سيد بني سعد، وكانوا يشتمونه ويؤذونه، فانتقل إلى حيٍّ من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم، فقال: حيثما أوجّه ألق سعداً! فذهبت مثلاً، قال الطائي(١):

فلا تَحْسَبَنْ هِنداً لها الغَدْرُ وَحْدَها ... سَجيةُ نَفْسٍ، كلُّ غانيةٍ هِنْدُ(٢)

[وصف المحابر والأقلام]

لبعض الكتّاب يصف محبرة

وَلقد مَضَيْتُ إلى المُحدِّثِ آنفاً ... وإذا بِحَضْرَتِهِ ظِباءٌ رُتَّعُ
وإذا ظِباءُ الإنْسِ تَكْتُبُ كُلَّ مَا ... يُمْلَى، وَتحفظُ ما يقولُ وتَسْمَعُ
يَتجاذبون الحِبْرَ من مَلْمُومةٍ ... بَيْضاءَ تَحمِلُها عَلائِقُ أربعُ(٣)
مِنْ خالصِ البَلّورِ غُيِّر لَوْنُها ... فَكأنَّها سَبَجٌ يَلوحُ ويَلْمَعُ(٤)
إنْ نَكَّسُوهَا لم تَسِلْ، ومَليكها ... فيما حَوَتْهُ عاجلاً، لا يَطْمَعُ
وَمتى أمالوها لِرَشْفِ رُضَابِها ... أدّاه فُوهَا وَهي لا تَتَمنَّعُ
وَكأنها قَلْبي يَضِنُّ بِسِرِّهِ ... أبداً، ويكتمُ كلَّ ما يُسْتَوْدَعُ
يَمْتَاحُها ماضِي الشَّبَاةِ مُذَلّقٌ ... يجري بِمِيْدَانِ الطُّرُوسِ فَيُسْرِعُ(٥)
رِجْلاهُ رأسٌ عنده لَكِنَّهُ ... يَلْقَاهُ بَرْدُ حَفَاهُ ساعةَ يقطَعُ
وكأنّه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسهُ ... شيخٌ لِوَصْلِ خريدةٍ يَتَصَنَّعُ(٦)
لِمَ لا أُلاحظه بِعَيْنِ جلالةٍ ... وبه إلى اللَّهِ الصحائفُ تُرْفَعُ

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٧٦. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة الخراساني.
(٢) في الديوان: «لا تحسبا هنداً».
(٣) الملمومة: المستديرة.
(٤) السَّبَجُ: الخرز الأسود.
(٥) يمتاحها: أصل المتح: نزح الماء من البئر. والشباة: حَدُّ كلِّ شيء. والمُذَلَّقُ: المُحدَّدُ، والمراد: القلم.
(٦) الخريدة: البكر، العذراء.

لأبي الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم:

مِحْبَرة جَادَ لِي بِهَا قَمرٌ ... مُسْتَحْسَنُ الْخَلْقِ مُرْتَضَى الخُلُقِ
جَوْهَرةٌ خَصَّنِي بِجَوْهرةٍ ... نَاطَتْ له المكرماتِ في عُنُقي
بيضاء والحِبرُ في قَرَارَاتِها ... أسْوَدُ كالمِسْكِ جِدّ مُنْفَتِقِ[١]
مِثلُ بياضِ العيون زيّنَهُ ... مُسْوَدُّ ما شَابَهُ مِنَ الحَدَقِ
كأنَّما حِبْرُهَا إذا نَثَرَتْ ... أقلامُنَا ظِلَّهُ على الوَرَقِ
كُحْلٌ مَرَتْهُ العُيُونُ مِنْ مُقَلٍ ... نُجْلٍ فأَوْفَتْ بِهِ على يَقَقِ[٢]
خَرسَاءُ لكنَّها تكونُ لنَا ... عَوْناً على عِلْمِ أفْصَحِ النُّطُقِ

وقال عبد الله بن أحمد: القلم أمْرَهُ، ما لم يَكْتَحِل بإثْمِدِ الدَّوَاة[٣].

وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد مَحْوَ حرف فلم يجد منديلاً، فمحاه بكُمِّه، فقيل له في ذلك، فقال: المالُ فَرْعٌ، والعلمُ أصل؛ وإنما بلَغْنَا هذه الحال، واعتقدنا هذه الأموال[٤] بهذا القلم والمداد، ثم قال:

إذا ما الفكرُ أضْمَرَ حُسْنَ لَفْظٍ ... وأدَّاه الضميرُ إلى العِيَانِ
وَوَشَّاهُ ونَمْنَمَهُ مُسَدٌّ ... فَصيحٌ بالمَقَالِ وباللِّسَانِ
رَأيتَ حُلَى البيانِ مُنَوّراتٍ ... تَضَاحَكُ بينها صُوَرُ المعاني

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف آلات الكتاب والدويّ والأقلام

الدواة من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عتاد، وللخاطر زنَاد، غدير لا يرِدُه غَيْرُ الأفهَام، ولا يمنح بغير أَرْشية الأقلام[٥]، دواة أنيقة الصَّنْعَة، رَشيقة الصبغة، مسكية الجلد،

---

(١) فتق المسك: خلط به ما يُذكيه.
(٢) مَرَتْهُ العيون: استخرجته، والمقل: جمع مقلة، وهي العين. والنُّجْلُ: جمع نجلاء، وهي الواسعة. واليَقَقُ (بالتحريك): الأبيض.
(٣) الأمْرَهُ: وصف من المَرَه (بالتحريك) وهو خُلُوُّ العين من الكحل.
(٤) اعتقدنا هذه الأموال: تأثلناها وجمعناها.
(٥) الأَرْشية: جمع رشاء، وأصله حبل الدلو.

كافُورية الحِلْيَة. غدير تفيض ينابيعُ الحِكْمَة من أَقْطَارِه، وتنشأ سُحُبُ البلاغة مِنْ قَرَاره. دواة تُدَاوِي مَرَض عُفَاتك، وتُدْوي قُلُوبَ عداتك، على مَرْفَعٍ يُؤْذِنُ بدوام رِفْعَتِكَ، وارتفاع النوائب عَنْ سَاحَتِك، ومدادٍ كسواد العَيْنِ، وَسُوَيْدَاءِ القلب، وجناح الغُرَابِ، ولُعَابِ الليل، وألوانِ دُهْمِ الخيل. وهذا من قول ابن الرومي[١]:

جِبْــرُ أَبِــي حَفْــصٍ لُعَــابُ الليــلِ كَــأَنَّــهُ أَلْــوان دُهْــمِ الخيــلِ[٢]

قال العاصر: مدادٌ ناسب خافِيَة الغُراب، واستعار لَوْنَهُ من شَرْخِ الشباب، وأَقلام جَمَّةُ المحاسن، بعيدة من المَطَاعِن، تعاصي الكاسي، وتمانع الغامِزَ القَاسِي. أنابيب ناسبت رِماح الخطِّ في أَجْنَاسها، وشاكلت الذهبَ في ألوانها، وضاهَت الحديدَ في لمعانها؛ كأنها الأَميالُ استواءً، والآجالُ مَضَاءً، بطيئة الحَفَى، قوية القُوَى، لا يُشَظِّيها[٣] القَطُّ، ولا يتشعَّبُ بها الخطُّ. أقلام بحرية مَوْشِيَّةُ اللِّيط[٤]، رائقة التخطيط. قلمٌ معتدل الكُعُوب، طويل الأنبوب، باسِقُ الفروع رَوِيّ اليَنْبُوع، هو أَوْلَى باليد من البَنَانِ، وأَخْفَى للسر من اللِّسان. هو للأنامل مطيّة، وعلى الكتابة معونة مَرْضِيّة. نعم العُدَّة القلم: يقلم أظافِرَ الدَّهر، ويملك الأقاليم بالنَّهْي والأمر، إن أَرَدْتَ كان مسجوناً لا يملّ الإسار، وإن شئتَ كان جواداً جارياً لا يعرفُ العِثار، لا يَنْبُو إذا نَبَتِ الصِّفَاح[٥]، ولا يُحْجِمُ إذا أَحجمت الرِّمَاح.

لأبي الفتح كشاجم

قال أبو الفتح كشاجم، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً:

جِسْمِـي مِـن اللَّهْـو وآلاتِ الطَّـرَبْ وَمِـنْ عَتَـادٍ وثَـرَاءٍ ونَشَـبْ
وَمِـنْ مُـدَامٍ ومَثَـانٍ تَصْطَحِـبْ وَهِمَّـةٍ طمّـاحَـةٍ إلـى الـرُّتَـبْ
مَجَـالِـسٌ مَصُـونَـة مِـنَ الـرِّيَـبْ مَعْمُـورةٌ مِـن كـلِّ عِلْـمٍ وأَدَبْ
تَكَـادُ مِـنْ حَـرِّ الحَـديـثِ تَلْتَهِـبْ شِعْـراً وأخبـاراً ونحـواً يَقْتَضِـبْ

(١) ابن الرومي، الديوان: ١٢٩/٥.
(٢) الأدهم من الخيل: الأسود.
(٣) لا يُشظيها: لا يقطعها شظايا.
(٤) اللِّيطُ: القشر.
(٥) الصفاح: السيوف.

ولغـةٌ تجمـعُ أَلْفَـاظَ العـربْ وَفِقَـراً كـالـوَعْـدِ فـي قَلْـبِ المُحِـبّ
أو كَتـأتِّـي الـرزقِ مِـنْ غَيْـرِ طلـبْ أَجَـلْ، وحَسْبِـي مـن دُوِيٍّ تُنْتَخَـبْ
مُحلّيَـاتٌ بِلُجَيْـنٍ وذهَـبْ مُحْبَـرَة يُـزْهَـى بِهَـا الحَبْـرُ الأَلَـبّ[١]
مَثْقُـوبـةٌ آذَانُهـا، وفـي الثُّقَـبْ مثـل شُنُـوفِ الخُـرَّدِ البيضِ العُـرُبْ[٢]
تَضمـن قَطْـراً فيـه للكَتْـب عُشُـبْ أَسْـوَد يَجْـرِي بمعـانٍ كـالشُّهُـبْ
لا تَنْضُـب الحكمـةُ إلاّ إنْ نَضَـبْ نِيطَـتْ إلـى يُسْـرَى يَـدَيَّ بِسَبَـبْ
كـالقُرْطِ فـي الجِيدِ تَـدَلّى فـاضْطَرَبْ تَصْحَبُهـا، والأخـواتُ تُصْطَحَـبْ
كَـأنّـهُ يـودع نَبْـلاً مـن قَصَـبْ لَـمْ يَعْلُهـا رِيشٌ ولـم تَحْمِلْ عَقَـبْ[٣]
لا تَضْحَـكُ الأوْراقُ حتـى يَنْتَحِـبْ تَـرْمِـي بهـا يُمْنـايَ أَغْـراضَ الكُتُـبْ
رَمْيـاً متـى أَقْصِـدْ بـهِ السَّمْـتَ أُصِبْ وَمُـدْيـةٍ كـالعَضْـبِ مـا مَـسَّ القَصَـبْ
غَضْبـى علـى الأقـلاَمِ مِنْ غيرِ سَبَـبْ تَسْطُـو بهـا فـي كـلِّ حيـنٍ وتَثِـبْ
وَإنمـا تُـرْضيـكَ فـي ذاكَ الغَضَـبْ فَتِلْـكَ آلاتـي، وآلاتِـي تُحَـبّ
وَالظَّـرْفُ فِـي الآلاتِ مِمَّـا يُسْتَحَـبّ لا سِيَّمـا مـا كـان مِنْهَـا لِـلأدَبْ

[عمال المأمون]

تَظلَّم رجلٌ إلى المأمون من عامل له، فقال: يا أمير المؤمنين، ما ترك لي فِضَّة إلاَّ فضَّها، ولا ذهباً إلاّ ذهب به، ولا غلَّة إلا غَلَّها، ولا ضَيْعَةً إلاّ أضاعها، ولا عِلْقاً[٤] إلا عَلِقَه، ولا عَرَضاً إلا عَرَض له، ولا ماشية إلا امْتَشَّها[٥]، ولا جليلاً إلا أجْلاَه، ولا دقيقاً إلا أَدَقَّه. فعجب من فصاحته وقضى حاجَتَهُ.

قال عمرو بن سعد بن سلم: كانت عليّ نوبة أنوبها في حرس المأمون. فكنتُ في

---

(١) الحَبْرُ: العالم.
(٢) الشُّنوف: جمع شَنْف، وهو القُرْطُ. وقد يُخَصَّصُ الشَّنْفُ بما يُعَلَّقُ في أعلى الأذن، والقرط بما يُعلَّق في أسفلها. والخُرَّدُ: جمع خريدة، وهي الفتاة البكر. والعُرُبُ: جمع عروب، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أبكاراً ۝ عُرُباً أَتراباً﴾. (سورة الواقعة، آية: ٣٧).
(٣) العقب: العصب الذي تعمل منه الأزرار.
(٤) العِلْقُ: النفيس من كل شيء.
(٥) امتشَّها: ذهب بها كلها.

نوبتي ليلةً فخرج متفقّداً مَنْ حَضَر، فعرفته ولم يعرفني، فقال: من أنت؟ قلت: عَمْرو، عمرك الله، ابن سعيد، أسْعَدَك الله، ابن سلم، سلّمك الله. فقال: تَكْلَؤنا منذ الليلة. قلت: الله يَكْلَؤُك قَبْلي، وهو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

فقال المأمون:

إنَّ أَخَاكَ الحقَّ من يَسْعَى مَعَكْ ومَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
ومَنْ إذا صَرْفُ زمانٍ صَدَعَكْ بَدَّد شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكْ(١)

[الورد والنرجس]

لابن الرومي

وقال علي بن العباس الرومي(٢):

خَجِلتْ خُدودُ الوَرْدِ من تَفْضِيلِهِ خَجَلاً تَوَرُّدها عليه شَاهِدُ
لَمْ يَخْجَلِ الوردُ المورَّدُ لونهُ إلّا وناحِلُه الفضيلةَ عَانِدُ
للنرجس الفَضْلُ المبين إذا بَدَا بَيْنَ الرياضِ طريفهُ والتَّالدُ(٣)

وكان ابنُ الرومي متعصباً للنرجس، كثير الذمّ للورد، وكتب إلى أبي الحسن بن المسيب(٤):

أدْرِكْ ثِقَاتكَ إنّهم وَقعوا في نَرْجِسٍ معه ٱبْنَةُ العِنَبِ(٥)

---

(١) الصَّدْعُ: الشَّقُّ، وصدع الزجاج: كَسَرهُ، وصدع القوم: فَرَّقَهُمْ. وبَدَّد الشَّمْلَ: فَرَّقَهُ.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ١٦١.

(٣) في الديوان:

لِلنَّرْجِسِ الفَضْلُ المُبينُ وَإنْ أَبى آبٍ وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقةِ حَائِدُ

والطريف: المال الحديث الذي يكسبه المرء بجهده. والتالد: المال القديم الموروث.

(٤) ابن الرومي، الديوان: ١/ ١٣٦. وابن المسيب: هو أبو الحسين علي بن عبد الله بن المُسَيّب الكاتب، وهو من أصدقاء ابن الرومي في أواخر حياته. مدحه الشاعر، وهجاه، وعزّاه عن بنت له ماتت. وكان كاتباً شاعراً، أشاد ابن الرومي بِفنّه، وعاش بعد ابن الرومي، وجمع شعره، وترجم له (ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٣/ ٢٣٤).

(٥) الثقات: الذين تثق بهم وتأمن لهم. وأدركهم: لَحِقَهُم. وابنة العنب: كناية عن الخمر.

فَهُمُ بحالٍ لو بَصُرْتَ بها ... سبَّحْتَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ[١]
رَيْحَانُهم ذَهَبٌ على دُرَرٍ ... وَشَرابُهم دُرٌّ على ذَهَبِ
في رَوْضَةٍ شَتْوِيَّةٍ رَضِعَتْ ... دَرَّ الحيَا حَلَباً على حَلَبِ[٢]
واليومُ مَدْجُونٌ فَحُرَّتُهُ ... فيهِ بِمُطَّلَعٍ وَمُحْتَجِبِ[٣]
ظَلَّتْ تُسَامِرُنَا وقد بَعَثَتْ ... ضَوْءاً يُلاحِظُنَا بِلا لَهَبِ[٤]

لبعض المحدثين

وكان كِسْرى أنوشروان مُسْتَهْتِراً بالنّرجس[٥]، وكان يقول: هو ياقوت أصفر، بين درّ أبيض، على زمرّد أخضر. نقله بعض المحدَثين فقال:

ويَاقوتةٍ صفراء في رأسِ دُرَّةٍ ... مُركَّبةٍ في قائمٍ مِن زَبَرْجَدِ
كَمَثَلِ بَهِيّ الدُّرِّ عقْدُ نظامها ... نَثيرُ فِرِنْدٍ قد أَطَاف بِعَسْجَدِ[٦]
كأنَّ بقايا الطَّلِّ في جَنَباتِها ... بَقيةُ دَمْعٍ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

رجع لابن الرومي

رجع ابن الرومي[٧]:

فَصْلُ القضيةِ أنَّ هذا قائدٌ ... زَهَرَ الرَّبِيع وأنَّ هذا طاردُ[٨]
شتَّانَ بين اثنين: هذا مُوعِدٌ ... بِتَصَرُّمِ الدنيا، وهذا وَاعِدُ[٩]

---

(١) العُجْبُ: الزُّهوُّ.
(٢) الروضة: المكان الخصب الذي تكثر فيه الأزهار والروائح العطرة. رضعت: بمعنى تَشبَّعت. وَدرَّ الحيا: كناية عن المطر، وفي الديوان: «دِرَر الحيا».
(٣) اليوم المدجون: الكثير الغيم. والحُرَّةُ: كناية عن الشمس. وقوله: بمطلع ومحتجب: أي تظهر مَرَّةً وتختفي أُخرى بسبب كثرة الغيوم. والمُطَّلع: اسم لمكان الطلوع. والمُحْتَجبُ: اسم لمكان الاحتجاب.
(٤) في الديوان: «شمس تُساترنا وقد بعثت». وتساترنا: تحتجب عنا بالغيم، وتسامرنا: تحدثنا.
(٥) مُسْتَهْتَراً: مُولَعاً.
(٦) النثير: المنثور، المتفرق. والفرند: السيف أو ما يُلْمَح في صفحته من أثر تموج الضوء.
(٧) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ١٦١.
(٨) في الديوان: «زهر الرياض».
(٩) في الديوان: «بِتَسَلُّبِ الدنيا».

فـإذا احْتَفَظْـتَ بـه فـأَمْتَعُ صـاحـبٍ بحيـاتـهِ، لَـوْ أَنّ حيًّـا خَـالِـدُ
يَـنْهـى الـنـديـمَ عـن القبيـحِ بِلَحْظِـهِ وَعلـى المُـدَامَـةِ والسَّمـاعِ يُسَـاعِـدُ(١)
اطلـبْ بِعَقْلِـكَ فـي المـلاحِ سَمِيَّـهُ أبـداً؛ فـإنـك لا محـالـةَ وَاجِـدُ(٢)
والـوردُ إنْ فَتَّشْـتَ فَـردٌ فـي اسمـهِ مـا فـي المـلاحِ لـه سَمِـيٌّ وَاحِـدُ
هـذي النجـومُ هـي التـي رَبَّتهـا بحَيَا السحـابِ كمـا يُـرَبّـي الـوالـدُ(٣)
فـانْظُـرْ إلـى الـولـديـن، مَنْ أدناهُمـا شَبَهـاً بِـوالـده فَـذَاكَ المـاجِـدُ(٤)
أَيـن الخـدودُ مـن العيـونِ نَفـاسـةً وَريـاسـةً، لَـولاَ القيـاسُ الفـاسِـدُ

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم في هذا المذهب، وذهبوا إلى تفضيل الوردِ؛ فما دانَوْه وما استطاعوه.

لأحمد بن يونس الكاتب يرد على ابن الرومي

قال أحمد بن يونس الكاتب رادًّا عليه:

يـا مَـنْ يُشَبِّـه نَـرْجِسـاً بنـواظـرٍ دُعْـجٍ، تَنَبَّـهْ إنَّ فَهْمَـكَ راقـدُ(٥)
إنّ القيـاسَ لمـن يصـحُّ قيـاسُـهُ بيـن العيـونِ وَبَيْنَـهُ مُتَبـاعـدُ
والـوردُ أصـدقُ للخـدودِ حكـايـةً فعـلامَ تَجْحَـدُ فَضْلَـهُ يـا جَـاحِـدُ
مَلِـكٌ قصيـرٌ عُمْـرُه مُسْتَـأْهِـلٌ تَخْليـدهُ، لـو أَنَّ حيًّـا خَـالِـدُ
إنْ قلـت إنَّ الـوردَ فَـرْدٌ فـي اسمـهِ مـا فـي المِـلاحِ لـه سمـيٌّ وَاحِـدُ
فـالشمـسُ تُفْـرَدُ بـاسمهـا والمشتـري والبـدر يُشْـرَك فـي اسمـه وَعُطَـارِدُ
أو قُلْـتَ إنّ كـواكبـاً رَبَّتَهـا بِحَيَـا السَّحَـابِ كمـا يُـرَبّـي الـوالـدُ
قلنـا أَحقّهمـا بِطَبْـعِ أبيـه فـي الْـ ـجَدْوَى هو الزَّاكِي النجيبُ الرَّاشِدُ(٦)

---

(١) في الديوان: «مُسَاعِدُ».
(٢) في الديوان: «اطلب بعفوك». يريد أنه كثير يجده بعفوه من غير جهد.
(٣) حيا السحاب: ماؤه. وفي الديوان: «هي التي رَبَّتْهُمَا».
(٤) في الديوان: «فتأمّل الإثنين». والماجد: الشريف الخَيِّرُ.
(٥) دُعْجٌ: مفرد أدعج، والأنثى دعجاء، وقد دعجت العين دَعَجاً، وَدُعْجَةً: اشتد سوادها وبياضها واتسعت.
(٦) الجدوى: العطية.

زُهْرُ النُّجُومِ تَرُوقُنا بضِيَائِها وَلها منافعُ جمةٌ وَعَوَائِدُ
وكذلك الوَرْدُ الأنِيقُ يَرُوقُنَا وله فضائلُ جَمَّةٌ وفَوَائِدُ
وَخليفُهُ إن غابَ نابَ بِنَفْعِهِ وَبِنَفْحِهِ أبداً مُقيمٌ راكِدُ(١)
إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ما ذكَرْنَا بعدما وَضَحَتْ عليه دَلائلٌ وشَواهِدُ
فَانْظُرْ إلى المُصْفَرِّ لوناً مِنْهُما وَافطنْ فما يَصْفَرُّ إلاّ الحاسِدُ

نبذ من النظم والنثر في صفات النّور والزهر

لعلي بن الجهم

قال عليّ بن الجهم:

لم يَضْحَكِ الوَرْدُ إلاّ حين أعْجَبَهُ حُسْنُ الرِّياضِ وصوتُ الطائرِ الغَرِدِ
بَدَا فأَبْدَتْ لنا الدُّنيا مَحاسِنَها وراحَتِ الرَّاحُ في أثوابها الجُدُدِ(٢)
وَقابلَتْهُ يَدُ المُشْتَاقِ تُسْنِدُهُ إلى الترائب والأحْشَاءِ والْكَبِدِ(٣)
كأنَّ فيه شفاءً من صَبَابتِهِ أو مانِعاً جَفْنَ عينيه مِنَ السُّهُدِ
بَيْنَ النَّديمين والخِلَّيْن مَصْرَعُه وَسَيْرُه من يَدٍ موصولةٍ بِيَدِ
ما قابلَتْ طَلْعَةُ الرَّيْحانِ طَلعَتَهُ إلا تَبيَّنْتَ فيه ذِلَّةَ الحَسَدِ
قامَتْ بِحُجَّتِهِ ريحٌ مُعَطَّرَةٌ تَشْفِي القلوبَ من الأوْصَابِ والكَمَدِ(٤)
لا عَذَّبَ اللَّهُ إلاّ من يُعَذِّبُه بِمُسْمِعٍ باردٍ أو صَاحبٍ نَكِدِ(٥)

لمحمد بن عبيد اللّه بن طاهر

وكان أردشير بن بابك يصفُ الورد ويقول: هو درٌّ أبيض، وياقوتٌ أحمر، على كراسي زَبَرْجَد أخْضر، توسطه شذورٌ من ذَهبٍ أصفر، له رِقَّةُ الخمر، ونفحات العِطْر، أخذه محمد بن عبد اللّه بن طاهر فقال:

---

(١) نفح الطيب: انتشرت رائحته.
(٢) الراح: الخمر.
(٣) الترائب: موضع القلادة من الصدر.
(٤) الأوصاب: جمع وصب: التعب. والكمد: الحزن المكتوم.
(٥) النَّكِدُ: الشحيح، وقيل: القليل النفع.

كـأنهـنَّ يـواقيـتٌ يُطيـفُ بهـا ... زُمُـرُّدٌ وَسْطَـهُ شَـذْرٌ مِـنَ الـذَّهَـبِ
فَاشْرَبْ على مَنْظَرٍ مُسْتَظْرَفٍ حَسَنٍ ... من خَمْرةٍ مَزَّة كالجَمْرِ في اللَّهَبِ

المتوكل وابن الضحاك

وقال يزيد المهلبي: أَحَبَّ المتوكل أن ينادمَه الحسين بن الضحاك، الخليع البصري، وأنْ يَرَى ما بقي من ظَرْفِه وشهوته لما كان عليه؛ فأَحْضره وقد كبر وضَعُفَ، فسقاه حتى سكر، وقال لخادمه شفيع: اسْقِه؛ فَسَقَاهُ وحياه بِوَرْدَة، وكانت على شفيع أثوابٌ، فمدّ الحسين يده إلى دِرْع شفيع، فقال المتوكل: أتخمش[1] غُلاَمي بحضرتي؟ كيف لو خَلَوْتَ به! ما أَحْوَجَكَ يا حسينُ إلى أدب! وكان المتوكل غمز شفيعاً على العبث به، فقال حسين: سيدي، أريد دواة وقرطاساً؛ فأمر له بهما فكتب:

وَكالوردةِ البَيْضَاءِ حَيَّا بأَحْمَرٍ ... مِن الوَرْدِ يسعى في قَرَاطِقَ كالوَرْدِ[2]
لـه عَبَثَاتٌ عِنْـدَ، كُـلَّ تَحِيَّةٍ ... بِكَفَّيْـهِ يَسْتَـدْعـي الخليَّ إلى الوَجْـدِ
تَمنيـتُ أنْ أُسْقـى بِكفَّيـهِ شَـرْبَـةً ... تُـذَكِّـرُنـي مـا قَـدْ نَسيتُ مـن العَهْـدِ
سَقَـى اللَّـهُ عيشـاً لـم أَنَـمْ فيـه لَيْلَـةً ... مِن الـدهـر إلاَّ مِنْ حَبيبٍ على وَعْـدِ

ثم دفع الرقعةَ إلى شفيع، وقال: ادْفَعْها إلى مولاك؛ فلما قرأها استملحها، وقال: لو كان شفيع مما تَجُوز هِبَتُه لَوَهَبْتُه لك، ولكن بحياتي يا شفيع إلاّ كنت ساقيهُ بقيّة يومه! وأمر له بمال كثير حمل معه لما انصرف.

قال يزيد المهلبي: فصرتُ إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام، فقلت: ويحك! أتدري ما صنعت؟ قال: لا أَدَعُ عادتي بشيء، وقد قلت بعدك:

لا رَأَى عَطْفَـةَ الأَحِبْـبَـةِ مَـنْ لا يُصَـرِّحُ
أَصْغَـرُ السـاقِيَيْـنِ أَشْكَـلُ عِنْـدِي وأَمْلَـحُ
لَـوْ تَـراهُ كـالظَبْـيِ يَنْـنَـحُ طَـوْراً ويَبْـرَحُ

(١) الخَمْشُ (في الأصل): اسم لجرح البَشَرَة، وقد خَمَشَ فلاناً: جرح بشرته في موضع ما من جسده.

(٢) القراطق: جمع قرطق، وهو ضرب من اللباس.

خِلْتَ غُصْناً على كثيـ ـبٍ بِنَوْرٍ يُوَشَّحُ[١]

قال الصولي: وكأن الأول من أبيات الحسين من قول العباس بن الأحنف:

بَيضاءُ في حُمْرِ الثيابِ كَوَرْدَةٍ بَيْضَاءَ بين شَقائِقِ النعمانِ
تَهتزُّ في غَيَدِ الشبابِ إذا مَشَتْ مِثْلَ اهتزازِ نَوَاعِمِ الأَغْصَانِ[٢]

ظبي يأكل نيلوفرا

قال أبو بكر الصولي: كان عند الخصي الوزير ظبي داجن ربيب في داره، فعمد إلى نيلوفر فأكله، فاستملح الغزال وأنسه، وقال: لو عمل في أُنْسِ هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لاشتمل العمل على معنًى مليح! فبلغ الخبر أبا عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه، فبادر لئلا يُسْبق، وعمل أبياتاً أولها:

جَرَتْ ظَبْيَةٌ غنَّاء تَرْعَى بِرَوْضَةٍ تَنُوشُ لدَى أفْنَانِها ورَقاً خُضرا[٣]

في أبيات غير طائلة، فاستبرد ما أتى به، قال الصولي: فقلت:

وَنَيلُوفرٍ يحكي لنا المِسْكَ طيبُهُ تراه على اللذَّاتِ أفْضَلَ مُسْعِدِ
قد اجتنَّ خوفَ الحادثات بجُنَّةٍ تَسروقُ كَثَوْبِ الراهبِ المُتعبِّدِ
تُركَّبُ كَالكاسَاتِ في ذَهَبِيَّةٍ على قُضُبٍ مُخْضَرَّةٍ كالزَّبَرْجَدِ
وأُلْبِس ثوباً يَفْضُلُ اللَّحْظَ حُسْنُهُ كما عبَثَتْ عَيْنٌ بِخَدٍّ مُوَرَّدِ
غَذَتْهُ أهاضيبُ السماءِ بِدَرِّها تروحُ عليه كلَّ يومٍ وتَغْتدِي[٤]
تَلَبّس لِلأنْوَارِ ثَوْب سَمائِهِ فَفَضَّلَ عنه الحسن في كلِّ مَشْهَدِ
وَفي وَسْطِهِ مِنْهُ اصفِرارٌ يَزِينُه كياقوتةٍ زرقاءَ في رَأْسِ عَسْجَدِ
أطاف به أَحْوَى المدامع شَادِنٌ حَكى طَرْف من أَهْوى وَحُسْنَ المقلدِ[٥]
كما أخذ الظمآنُ بالفمِ كاسَهُ وَلم يَسْتَعِنْ في أَخْذِه الكاسَ باليَدِ

(١) الكثيب: الرمل الطويل المحدودب. والنَّوْرُ: الزهر.
(٢) غَيَدُ الشباب: أَوَّلُهُ ونعومته، وقد غيد فلان: تمايل وتثنّى في لينٍ ونعومة.
(٣) الأفنان: الأغصان، الواحد: فنن. وقد ناش الشيء: تناوله وأخذه.
(٤) الأهاضيب: جمع أهضوبة: المَطَرَةُ الدائمة العظيمة القَطْر.
(٥) أحوى: وصف من الحُوَّة، وهي السُّمْرَة. والمقلد: الموضع الذي تلبس فيه القلادة.

[وصف أيام الربيع]

لابن وكيع

وقال أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع:

يَومٌ أتاكَ بِوَجْهِهِ المُتهلّلِ ... ناهيكَ من يومٍ أغرَّ مُحجَّلِ[1]
خَلَعَ الغمامُ على اخْضِرارِ سمائه ... خِلَعاً فَبَيْنَ مُمَسّكٍ وَمُصَنْدَلِ[2]
وَكَسَا الرّبِى حُلَلاً تَخَالَفَ شكلها ... بِمُورَّدٍ وَمُعَصْفَرٍ وَمُكَحَّلِ
وَتمايلَتْ فيه قُدودُ غُصُونِه ... من شُرْبِ كاساتِ العيونِ الهُطّلِ
وعَلا على الأشجار قَطْرُ سَمائِها ... فَهدَتْ لعينِ الناظرِ المتأملِ
يَحْكي قِبَاب زُمُرّدٍ قد كُلِّلَتْ ... بِمُنَظَّمٍ من لُؤْلُؤٍ وَمُفَصَّلِ
وأتاك نَوْرُ البَاقِلاَءِ كأنما ... يَرْنو إليك بعينِ أكْحَلَ أَقْبَلِ[3]
الوَرْدُ يُخجلُ كلَّ نورٍ طالعٍ ... وتراه مُنْتَقِباً بِحُمْرَةِ مُخجلِ
وَحكى بياضُ الطَّلْعِ في كافورِه ... وَجْهَ الخريدةِ في الخمارِ الصَّنْدَلي[4]
فكأنما الدنيا عَرُوسٌ أقْبلَتْ ... في كُلِّ أنواعِ الملابسِ تَجْتَلي
فَاشْرَب مُعَصْفَرَة القميصِ سُلافةً ... من صِنْعَةِ البَرَدَان أو قُطْرُبُّلِ[5]

لأبي الفتح البستي

وقال أبو الفتح البستي:

يَوْمٌ له فَضْلٌ على الأيامِ ... مَزَجَ السَّحابُ ضِيَاءَهُ بِظَلامِ
فَالْبَرْقُ يخفقُ مِثْلَ قَلْبٍ هائمٍ ... والْغَيْمُ يَبْكِي مثل طَرْفٍ هَامِ[6]

(١) الأغرُّ: الأبيض. والمُحجَّلُ: المُقيَّد بالحجال أو ما كان البياض منه في موضع الخلاخيل والقيود وفوق ذلك، ويوم أغرّ مُحجَّل: مشهور.
(٢) مُصَنْدَلٌ: ضُمّخَ بالصَّنْدَل، وهو نبت ذو رائحة طيبة.
(٣) أقبل: وصف من القبل (بالتحريك) وهو إقبال سواد العين إلى جهة الأنف.
(٤) الخريدة: الفتاة البكر، العذراء.
(٥) البردان وقطربل: موضعان.
(٦) هَمَت العين هَمْياً وَهَمَيَاناً: صَبَّت دمعها.

وَكـأنَّ وَجْـهَ الأرض خَـدُّ مُتَيَّـمٍ ... وُصِلَتْ سِجَامُ دُموعِـه بِسِجَامِ[1]
فَـاطْلُـبْ لِيَـوْمِـكَ أربعـاً: هُـنَّ المُنَـى ... وَبِهـنَّ تَصْفُـو لـذَّةُ الأيـامِ
وَجْـهَ الحبيـبِ، ومَنْظَـراً مُسْتَشْـرقـاً، ... وَمُغَنِّيـاً غَـرِداً، وكـأسَ مُـدامِ

لأبي الفضل الميكالي

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

سَـلَّ الـربيـعُ علـى الشِّتَـاءِ صَـوارمـاً ... تَـركَتْـهُ مَجْـرُوحـاً بـلا إغْمَـادِ[2]
وَبكَـتْ لـه عَيْـنُ السمـاء بـأَدْمُـعٍ ... ضَحِكَـتْ لِسَـاجمها رُبَـى الأنجـادِ
وَبَـدَتْ شَقـائِقُهـا خِـلالَ رِيـاضِهـا ... تُـزْهَـى بِثَـوْبَـيْ حُمْـرَةٍ وسَـوادِ
فَكـأَنهـا بِنْـتُ الشتـاء تَـوجَّعَـتْ ... لِمُصَـابِـه كَشقيقـةِ الأولادِ
فَقُنُـوءُ حُمْـرَتِهـا خِضَـابُ نَجيعـهِ ... وَسَـوادُ كُسْـوَتِهَـا لِبَـاسُ حِـدادِ[3]

وقال:

تَصـوغُ لنـا كـفُّ الـربيـعِ حَـدائقـاً ... كَعِقْـدِ عَقِيـقٍ بيـن سِمْـطِ لآلِـي
وَفيهـنَّ أَنْـوَارُ الشقـائـقِ قـد حَكَـتْ ... خُـدودَ عـذارى نُقِّطَـتْ بِغَـوَالِـي

وقال:

كـأَنَّ الشقـائـقَ إذ أَبْـرَزَتْ ... غِـلاَلَـةَ دادٍ وثَـوْبـاً أَحَـمّْ[4]
قُطَـاعٌ مِـن الجَمْـرِ مَشْبُـوبـةٌ ... فَـأَطْـرافُهـا لُمَـعٌ مِـنْ حَمَـمْ

وقال في حديقة ريحان:

أعـدَدْتُ مُحْتَفَـلاً لِيَـوْمِ فَـرَاغِـي ... رَوْضـاً غَـدا إنسـانَ عَيْـنِ البـاغـي[5]
رَوضٌ يَـرُوضُ همـوم قلبـي حُسْنُـهُ ... فيـه لِكـأسِ الأُنْـسِ أيّ مَسَـاغِ

(١) سجم الدمع والمطر سِجاماً وسُجُوماً وَتَسْجَاماً: سال قليلاً أو كثيراً.
(٢) الصوارم: القواطع.
(٣) قَنَأَ الشيءُ قُنُوءاً: اشتدَّت حمرته. والنجيع: الدم، وقيل: هو دم الجوف خاصةً.
(٤) داد: مولع باللهو واللعب، واللعب يقال له: دَد. والأحم: الأسود.
(٥) الباغي: قَيِّمُ البستان. وإنسان العين: سوادها.

فـإذا بَـدَتْ قُضْبَـانُ ريحـانٍ بـهِ   حَيَّـتْ بِمِثْـلِ سَـلاسِـلِ الأصْـدَاغِ

وقال في النرجس:

أهْـلاً بِنَـرْجِـس رَوْضٍ   يُـزْهَـى بِحُسْـنٍ وَطِيـبِ
يَـرْنُـو بِعَيْنَـيْ غَـزالٍ   علـى قَضِيـبٍ رَطيـبِ
وَفِيـهِ مَعْنًـى خَفِـيٌّ   يَـزِينُـه للقلـوبِ
تَصْحِيفُـه إنْ نَسَقْـتَ الْـ   حُـرُوفَ بِـرٌّ حَبِيـبِ

وقال:

وَما ضمَّ شَمْلَ الإنْسِ يوماً كَنَرْجِسٍ   يَقومُ بِعُذْرِ اللَّهْوِ عن خَالِعِ العُذْرِ[(١)]
فَـأحداقُـهُ أحداق تِبْـرٍ، وَسـاقُـهُ   كَقامَـةِ سَاقٍ في غَـلاَئِلِـهِ الخُضْـرِ

للبحتري

وقال البحتري[(٢)]:

سَقَى الغيثُ أكنافَ اللِّوى من مَحلَّةٍ   إلى الحِقْفِ من رَمْل اللوى المُتقاوِدِ[(٣)]
وَلا زال مُخْضَرٌّ مـن الـرَّوْضِ يـانـعٌ   عليـه بِمُحْمـرٌّ مـن النَّـورِ جَـاسِـدِ[(٤)]
شَقَـائِـقُ يَحْمِلْـنَ النَّـدى فَكـأنَّـه   دُمـوعُ التصابي في خُدودِ الخرائِدِ[(٥)]
وَمِـنْ لُـؤْلُـؤٍ فـي الأقحُوان مُنظّـمٍ   وَمِـنْ نُكَـتٍ مُصْفَـرَّةٍ كـالفَـرَائِـدِ[(٦)]
كـأن جَنَـى الحوذان في رَوْنَقِ الضحى   دَنـانيـرُ تِبْـرٍ مـن تُـؤام وَفـارِدِ[(٧)]
إذا رَاوحَتْهَـا مُـزْنَـةٌ بَكَـرتْ لَهَـا   شَـآبيـبُ مُجتـازٍ عليهـا وَقـاصِـدِ[(٨)]

---

(١) العُذْرُ: جمع عذار، وهو الشعر النابت على جانبي الوجه، ويقال: خلع فلان عذاره: انهمك في الغَيّ ولم يستح.
(٢) البحتري، الديوان: ١/ ٦٤. والأبيات من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وأبا الفتح ابنه.
(٣) الحقف: ما اعوج من الرمل. المتقاود: المستوي.
(٤) في الديوان: «من الروض يانعاً». والجاسد: من الجسد: لصوق الدم.
(٥) الخرائد: جمع خريدة: الفتاة العذراء (البكر).
(٦) في الديوان: «ومن لؤلؤ في الأرجوان منظمٍ».
(٧) في الديوان: «دنانير نَثْرٍ».
(٨) شآبيب: جمع شؤبوب: الدفعة من المطر.

رِبــاعٌ تَــردَّتْ بــالــريــاضِ مَجُــودَةٌ بِكُــلِّ جـديـدِ المـاء عَـذْبِ المـوارِدِ[١]
كـأن يـدَ الفتـحِ بـن خـاقـان أَقبلـتْ تَليهــا بتلــك البــارقــاتِ الــرَّواعِــدِ

[في مجلس المبرد]

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَويه: قال لي البحتري وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسَلَكْنَا مسلكاً من المذاكرة: أشعرت أني سبقت الناسَ كلهم إلى قولي:

شَقــائِــقُ يَحْمِلْــنَ النَّــدَى فكــأنَّــهُ دُمـوعُ التَّصـابـي فـي خُـدودِ الخـرائـدِ
كـأن يـدَ الفَتْـح بـن خـاقـان أقبلَـتْ تليهــا بتلــكَ البــارقــاتِ الــرَّواعِــدِ

هكذا أنشد، فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أَسرف فيه، وقال: ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرّطبة، والعبارة العَذْبة، لأحدٍ تقدَّمك ولا تأخَّر عنك. فاعتَرَتْهُ أَرْيَحِيّةٌ[٢] جَرَّ بها رداء العُجب؛ فكأنه أَعجبني ما يُعْجب الناس من مراجعة القول؛ فقلت: يا أبا عُبَادة، لم تَسْبِق إلى هذا، بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب[٣] إلى البيت الأول بقوله:

عَــذُبَ الفــراقُ لنــا قُبَيْــلَ وَداعِنــا ثــم اجتــرعنــاهُ كَسُــمٍّ نَــاقِــعِ[٤]
وَكــأَنمــا أَثَــرُ الــدمــوع بِخــدِّهــا طَــلٌّ تَسَــاقــط فَــوْقَ وَرْدٍ يــانــعِ

وشركك فيه صديقُنا أبو العباس الناشىء بما أنشدنيه آنفاً:

بَكَــتْ للفــراقِ وقَــدْ رَاعَنــي بُكــاءُ الحبيــب لِبُعْــدِ الــديــارْ
كــأَنَّ الــدُّمــوعَ علــى خَــدّهــا بَقِيّــةُ طَــلٍّ علــى جُلّنــارْ[٥]

---

(١) مجودة: أصابها المطر، يقال: جاد المطر الأرض: أصابها، وجاد المطر القوم: عمَّ أرضهم وشملهم. وتردّت بالرياض: اتخذتها رداءً.

(٢) الأرْيحية: الارتياح للندى، والنشاط للمعروف.

(٣) هو أبو حميد، سعيد بن حميد بن سعيد: شاعر، كاتب، مترسل، حسن الكلام. أصله من النهروان الأوسط، من أبناء الدهاقين. ولد ونشأ ببغداد، وكان أبوه من وجوه المعتزلة. كان يهوى فضل الشاعرة، وكانت تودّه، ثم فسد ما بينهما. توفي نحو ٢٥٠هـ/ نحو ٦٨٤ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٤٢٦؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٨/ ٩٠).

(٤) سُمٌّ ناقع: بالغ قاتل.

(٥) الجلنار: زهر الرمّان (فارسي معرب).

وما أساء علي بن جريج، بل أَحسن في زيادته عليك بقوله[١]:

لَـوْ كُنْـتَ يَـوْمَ الـوداعِ شـاهِـدَنـا وَهُـنَّ يُطْفِيـنَ غُلّـةَ الـوَجْـدِ[٢]
لـم تَـرَ إلاّ دمـوعَ بـاكيـةٍ تَسْفَـحُ مـن مُقْلَـةٍ علـى خـدِّ[٣]
كـأنّ تِلْـكَ الـدمـوع قَطْـرُ نَـدًى يَقطُـر مـن نَـرْجِـسٍ علـى وَرْدِ[٤]

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله[٥]:

مِـنْ كُـلّ زاهـرةٍ تَـرَقْـرَقُ بـالنَّـدَى فَكـأَنَّهـا عَيْـنٌ إليـه تَحَـدَّرُ[٦]
تَبْـدو وَيَحجبُهَـا الجَمِيـمُ كَـأنَّهـا عَـذْراءُ تبـدو تـارةً وَتَخفَّـرُ[٧]
خُلُـقٌ أطـلَّ مـن الـربيـع كـأنَّـهُ خُلُـقُ الإمـامِ وَهَـدْيُـهُ المُتنشّـرُ[٨]
فـي الأرضِ مِـنْ عَـدْلِ الإمـام وَجُـودهِ وَمـنَ الـربيـعِ الغـضِّ سَـرْجٌ يُـزْهِـرُ[٩]
يُنْسَـى الـربيـعُ ومـا يُـروّضُ جُـودهُ أبـداً علـى مَـرِّ الليـالـي يُـذْكَـرُ[١٠]

قال: فشقَّ ذلك عليه، وحلّ حَبْوَتَه ونهض، فكان آخر عهدي بمؤانسته، وغَلُظ ذلك على محمد بن يزيد، وقدح ذلك في حالي عنده.

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٢٧٠.
(٢) في الديوان:
لَـوْ كُنْـتَ يَـوْمَ الفِراقِ حَـاضِـرَنـا وَهُـنَّ يُطْفِئْـنَ غِلَّـةَ الـوَجْـدِ
(٣) في الديوان: «تَقْطُرُ من مُقْلَةٍ».
(٤) يشبه العيون بالنرجس، والخدود بالورد.
(٥) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٣٤. والأبيات من قصيدة يمدح بها المعتصم بالله العباسي.
(٦) زاهرة: متلألئة حسناً، أو حمراء، والمراد: زهرة زاهرة. ترقرق: أصلها تترقرق، وترقرق الدمع: جال في حملاق العين. تَحدَّرُ: تسكب الدمع.
(٧) الجميم: النبت الغزير الكثير المُغطّي الأرض. تخفر: تستحي.
(٨) في الديوان: «وَهَدْيُهُ المُتيسِّرُ». وأطلّ: أندى. والإمام: الخليفة المعتصم. والهدي: الرشاد. والمُتنشِّرُ: المُنْتَشِر.
(٩) السرح: كل شجر طال. وفي الديوان: «سُرجٌ تَزْهَرُ» والسرج: جمع سراج. وتزهر: تتلألأ.
(١٠) في الديوان:
تُنْسَـى الـريـاضُ وَمـا يُـرَوِّضُ فِعْلُـهُ أَبـداً علـى مَـرِّ الليـالـي يُـذْكَـرُ
يُرَوِّضُ: من رَوَّض الأرض: صَيَّرها كالروض. وفعله: أي فعل الخليفة.

للبحتري في المدح

وقال البحتري يمدح الهيثم بن عثمان الغنوي[١]:

أَلَسْتَ ترى مَدَّ الفُراتِ كأنّهُ جبالُ شَرَوْرَى جِئْنَ في البحرِ عُوَّمَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَاداتِهِ غيرَ أنّهُ رَأَى شِيمَةً من جارِهِ فَتَعَلَّمَا[٢]
وَقَدْ نبَّه النَّوْرُوزُ في غَبَشِ الدُّجى أَوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّمَا[٣]
يُفَتِّحها بَرْدُ النَّدى فكأنَّهُ يَبُثُّ حديثاً بينهنَّ مُكَتَّمَا[٤]
وَمِنْ شجرٍ رَدَّ الربيعُ لِبَاسَهُ عليه كما نَشَّرْتَ بُرْداً مُنَمْنَمَا[٥]
أَحَلَّ فأَبْدى للعيونِ بَشاشَةً وكان قَذًى للعينِ مُذ كان مُحْرِمَا[٦]
فَما يَمْنَعُ الرّاحَ التي أَنتَ خِلُّها وما يَمْنَعُ الأوتارَ أن تَتَرنَّمَا[٧]
وَما زِلْتُ خِلاًّ للنَّدامى إذا اغْتَدَوْا وراحُوا بُدوراً يستحِثونَ أَنْجُمَا[٨]
تَكَرَّمْتَ مِنْ قَبْلِ الكؤوس عَلَيْهِمُ فما اسْطَعْنَ أن يُحْدِثْن فيك تكَرُّمَا

لابن الرومي في وصف روضة

وقال ابن الرومي[٩]:

حَيَّتْكَ عَنَّا شمالٌ طافَ طائِفُهَا بِجنَّةٍ فَجَرتْ راحاً ورَيْحَانَا[١٠]

---

(١) البحتري، الديوان: ١/١٤٧.
(٢) في الديوان: «ولم يكُ من عاداته غير أنَّهُ».
(٣) النوروز: أول الربيع (أو السنة الفارسية). ويروى: «في غَلَسِ الدجى».
(٤) يَبُثُّ الحديث: يبوح به ويفشيه.
(٥) في الديوان: «كما نشرت وَشْياً منمنما». والمنمنم: المزخرف، المنقوش.
(٦) أَحلَّ: خرج من إحرامه. والمحرم: من دخل الحرم بثياب الإحرام، وهي ثياب غير مخيطة ولا مصبغة.
(٧) في الديوان: «فما يحبس الراح». والراح: الخمر.
(٨) في الديوان: «وما زلت خلاًّ للندامى إذا انتشوا».
(٩) ابن الرومي، الديوان: ٦/٢٠٩.
(١٠) في الديوان: «فجرت رَوْحاً ورَيحاناً». شمال: ريح خفيفة. الروح: الرائحة. والريحان: نبات ذو رائحة طيبة.

هَبَّتْ سُحَيراً فناجَى الغُصْنُ صَاحِبَهُ سِرًّا بها وَتَداعَى الطَّيرُ إعلانا(١)
وُرْقٌ تَغنّى على خُضْرٍ مُهَدَّلةٍ تَسْمُو بها وَتَمَسُّ الأرضَ أحيانا(٢)
تَخالُ طَائِرَها نَشْوانَ من طَرَبٍ وَالغُصْنَ من هَزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشْوانَا(٣)

لابن المعتز بذم الصبوح

ولابن المعتز في أرجوزته البستانية التي ذم فيها الصّبوح صفة جامعة، إذ قال:

أمَا ترى البُسْتَانَ كيفَ نَوَّرا وَنَشَّرَ المنشورُ بُرْداً أصْفَرا
وَضَحَّكَ الوردَ إلى الشقائقِ وَاعْتَنَقَ الورد اعتناق الوامقِ(٤)
في رَوْضَةٍ كَحَلْيِ العروسِ وَخُدَّمٍ كَهامَةِ الطاووس
وَياسمين في ذُرَى الأَغصانِ مُنظَّمٍ كَقِطَعِ العِقْيانِ(٥)
والسَّرْوُ مثلُ قَصبِ الزَّبَرْجدِ قَد استمدّ الماءَ من تُربٍ نَدِ
على رياضٍ وثَرًى نَديِّ وَجدْوَلٍ كالبَرَد الحليِّ
وَفَرَّج الخَشْخاش جَيْباً وَفَتَقْ كأنَّهُ مَصاحِفٌ بِيضُ الوَرَقْ
أو مِثْلِ أقداحٍ من البَلّورِ تَخَالها تَجسَّمتْ من نُورِ
وَبَعْضُه عُرْيَانُ من أثوابه قد خَجِلَ اليابسُ من أصحابه
تُبْصِرُه عند انتشار الوردِ مثل الدبابيس بأيدي الْجُنْدِ
والسَّوْسَنُ الآزارُ مَنْشور الحُلَلْ كَقُطُنٍ قد مسَّهُ بعضُ بَلَلْ
نَوَّرَ في حاشيتي بُسْتَانِه ودَخَّلَ الميدان في ضَمَانِه
وَقدْ بَدَتْ فيهِ ثمارُ الكنكرِ كأنها جَماجِمٌ من عَنْبَرِ
وَحلَّق البهارُ بَيْنَ الآسِ جُمْجُمَةً كَهامَةِ الشَّمَّاسِ(٦)

---

(١) في الديوان: «موسوساً وتنادى الطير إعلاناً». وسحيراً: وقت السَّحَر.

(٢) الورق: نوع من الحمام، مفردها ورقاء. وخضر مهدلة: أغصان متدلية. وفي الديوان: «وَتَمسُّ الأرض أحياناً».

(٣) العِطْفُ: عِطْفُ كلّ شيء: جانبه، وهو من الإنسان من لدن رأسه إلى وركه.

(٤) الوامق: العاشق.

(٥) العقيان: ذهب متكاثف في مناجمه خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة.

(٦) البَهَارُ: زهر طيب الريح، ينبت في الربيع، ويقال له: العَرَار. والشمَّاسُ: الذي يقوم بالخدمة الكنسية، ومرتبته دون القسيس، والشمَّاس: الشديد الشُّمُوس (العناد والعصيان والنفور).

خلال شيخ مثلِ شَيْبِ النَّصَفِ — وَجَوْهرٍ مِن زَهَرٍ مُخْتَلِفِ
وَجُلّنارٍ كاحْمِرارِ الوردِ — أو مثلِ أَعْرافِ دُيوكِ الهندِ
والأقحوانُ كالثنايا الغُرِّ — قد صُقِّلَتْ أنواره بالقَطْرِ

لأبي الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم:

وَرَوْضٍ عن صَنِيعِ الغَيْثِ رَاضٍ — كما رَضِيَ الصَّدِيقُ عن الصديقِ
إذا ما القَطْرُ أَسْعَدَهُ صَبُوحاً — أتمَّ لهُ الصنيعةَ في الغَبُوقِ[١]
يُعِيرُ الرِّيحَ بالنَفَحاتِ رِيحاً — كأنَّ ثَرَاه مِنْ مِسْكٍ فَتِيقِ
كأنَّ الطَّلَّ مُنْتَشِراً عليه — بقايا الدَّمْعِ في خدٍّ مَشُوقِ
كأنَّ غُصُونَهُ سُقِيَتْ رَحِيقاً — فَمالَتْ مِثْلَ شُرَّابِ الرَّحِيقِ
كأنَّ شقائقَ النعمانِ فيه — مُخَضَّرةٌ شَقَائقُ مِنْ عَقِيقِ
يُذَكِّرُني بَنَفْسَجُهُ بَقَايا — صَنِيعِ اللَّطْمِ في الخدِّ الرَّقِيقِ

وقال:

غَيْثٌ أَتَانا مُؤْذِناً بالْخَفْضِ — مُتَّصِلَ الوَبْلِ سَرِيعَ الرَّكْضِ[٢]
دَنَا فَحلْنَاه دُوَيْنَ الأَرْضِ — مُتّصِلاً بِطُولِهِ والعَرْضِ
إلْفاً إلى إلْفٍ بِسِرٍّ يُفْضِي — ثم سَمَا كاللؤلؤ المُرْفَضِّ[٣]
فالأرضُ تُجْلَى بالنباتِ الغَضِّ — في حَلْيِهَا المُحْمَرِّ والمُبْيَضِّ
مِنْ سَوْسَنٍ أَحْوَى ووَرْدٍ غَضِّ — مِثْلَ الخدودِ نُقِّشَتْ بالعَضِّ
وأُقْحُوَانٍ كاللُّجَيْنِ المَحْضِ — ونَرْجِسٍ ذاكي النسيم بَضِّ[٤]
مِثْلِ العيونِ رَنَّقَتْ لِلغَمْضِ — تَرْنُو فَيَغْشَاها الكَرَى فَتُغْضِي[٥]

---

(١) الصبوح: شراب الصباح، والغبوق: شراب المساء.
(٢) الوَبْلُ: المطر الشديد الضخم القطر.
(٣) ارفضَّ الدمع: سال وتَرشَّش.
(٤) اللجين: الفضة. المَحْضُ: الخالص. البَضُّ: النَّضِرُ المُمْتَلِىء.
(٥) رَنَّقت العين: انكسر طرفها.

جملة من هذا النوع لأهل العصر

لأبي فراس الحمداني

قال أبو فراس الحمداني(١):

وَجُلنّـــــارٍ مُشْـــــرِقٍ عَلَـــى أعـــالِـــي شَجَـــرَهْ
كـــأنّ فـــي رُؤُوسِـــهِ أحْمَـــرَهُ وأصفَـــرَهْ
قُـــرَاضـــةٌ مـــن ذَهـــبٍ فـــي خِـــرْقَـــةٍ مُعَصْفَـــرهْ(٢)

وقال(٣):

وَيَــوم جَــلاَ فيــه الـربيـعُ رِيـاضَـهُ بِـأَنْـوَاعِ حَلْـي فـوقَ أثْـوَابِـهِ الْخُضْـرِ
كـــأنَّ ذُيُـــولَ الجلّنـــارِ مُطِلَّـــةً فُضُـــولُ ذيـولِ الغـانيـاتِ مـن الأُزْرِ

لابن هانيء يصف زهرة رمان

وقال أبو القاسم بن هانيء، يصف زهرة رُمّان قطفت قبل عَقْدِها:

وَبِنْــتِ أيْــكٍ كـالشبـابِ النَّضْـرِ كَـأنَّهـا بيـنَ الغُصُـونِ الخُضْـرِ
جَنَــانُ بــازٍ أو جَنَــانُ صَقْــرِ قــد خَفَّقَتْــه لَقْــوةٌ بِــوَكْــرِ(٤)
كــأنَّمــا سَحَّــتْ دَمــاً مِــنْ نَحْــرِ أو نَبَتَــتْ فــي تُــرْبَــةٍ مــن جَمْــرِ
[أو سُقِيَــتْ بجَــدْوَلٍ مــن خَمْــرِ] لـو كـفَّ عنها الـدهـرَ صَـرْفُ الـدَّهْـرِ
جَـاءَتْ كَمِثْـلِ النَّهـدِ فـوق الصَّـدْرِ تَفْتَــرُّ عــن مِثْــلِ اللّثَــاتِ الْحُمْــرِ
فـي مِثْـلِ طَعْـمِ الـوَصْـلِ بعـد الهَجْـرِ

ولهم في هذا المعنى

روضة رقَّتْ حَوَاشيها، وتأنَّق واشيها. روضة كالعقود المنظّمة، على البرود المُنَمْنَمَة. روضة قد رَاضتها كفُّ المطر، وَدَبَّجَتْهَا أيدي الندى. أخرجتِ الأرضُ أسرارَها، وأظهرَتْ يدُ

(١) أبو فراس، الديوان: ص ١٤١؛ الثعالبي، يتيمة الدهر: ١/ ٨٢.
(٢) القراضة: النثار. والمعصفرة: المصبوغة بالعصفر، وهو نبات أصفر يُصبغ به.
(٣) أبو فراس، الديوان: ص ١٣٩.
(٤) اللقوة: العُقاب الخفيفة السريعة الاختطاف.

الغيثِ آثارها، وأبدت الرياضُ أزهارها. الرياض كالعرائس في حَليها وزَخَارِفها، والقيانِ في وَشْيها ومَطَارِفها، باسطة زَرابيّها[١] وأنماطها، ناشرةٌ حِبَراتها[٢] ورِيَاطَها، زَاهية بحَمْرَائها وصفرائها، تائهة بعيدانها وغُدْرَانها، كأنما احتفلت لِوَفْد، أو هي من حبيب على وَعْد. روضة قد تَضَوَّعَتْ بالأَرَج الطَّيِّبِ أرجاؤها، وتبرَّجتْ في ظُلَلِ الغمام صحراؤها، وتنافَجَتْ بنوافَجِ المِسْكِ أنوارُها[٣]، وتعارضت بغرائب النُّطْقِ أطيارُها. بستان رقَّ نورُه النضيد، وراق عودُه النضير. بستان عودُه خضر، ونوره نَضِر، ويُنْعه خَضِل، وماؤه خَصِر. بستانٌ أَرْضُه للبقل والريحان، وسماؤه للنخل والرمان. بستان أنهارُه مفروزة بالأزهار؛ وأشجارُه مُوقَرَةٌ بالثمار. أشجارٌ كأنَّ الحورَ أعارَتْها قُدُودَها، وكسَتها بُرودَها، وحلّتها عقودها. الربيعُ شبابُ الزمانِ، ومقدمة الورد والريحان. زَمَنُ الوردِ مَرْمُوق، كأنه من الجنَّةِ مسروق. قد ورد كتاب الورد، بإقباله إلى أَهلِ الوُد. إذا وَرَدَ الوَرْد، صدَرَ البرد. مرحباً بإشراف الزهر، في أطراف الدهر، وأنشد:

سَقَــى الله وَرْداً صَــار خَــدَّ رَبِيعنــا فَقَـد كـانَ قَبْـلَ اليـومِ لَيْـسَ لَـهُ خَـدُّ

كأنّ عَيْنَ النرجس عَيْن، وَوَرقه وِرْق[٤]. النرجس نُزْهَة الطَّرْف، وظَرْف الظَّرف، وغذاء الروح. شقائقُ كتيجَان العقيق على رؤوسِ الزنوج، كأنها أَصْداغُ المسك على الوجَنَاتِ المورّدة. شقائق كالزنوج تجارحت وسالت دِماؤهَا، وضَعُفَتْ فسال دَماؤُها. كأن الشقيقَ جامٌ من عقيق أَحمر، مُلِئَتْ قرارَتُه بِمِسْكٍ أذْفَر. الأرض زمرّدة، والأشجارُ وَشْي، والماء سيوف، والطيور قِيمَانٌ. قد غرّدت خطباءُ الأطيار، على منابر الأنوار والأزهار. إذا صدح الْحَمامُ، صدع الحِمامُ قَلْبَ المُسْتَهَام. انظر إلى طَرَبِ الأشجار لِغنَاءِ الأطيار. ليس للبلابل كغناء البلابل[٥]، وخَمْر بابل.

---

(١) الزرابيّ: جمع زَرْبِيَّة، وهي الوسادة تبسط للجلوس عليها، قال تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (سورة الغاشية، آية ١٦). وزرابي النبات: ما بدا فيه اليُبْسُ فاحمرَّ أو اصفرَّ وفيه خُضْرَةٌ.

(٢) الحبرات: جمع حَبَرَة: ثوب من قطن أو كتّان مُخطّط كان يُصنع باليمن، وقيل: مُلاءة من الحرير كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن.

(٣) نفجت الريح: هبّت عاصفةً، والنافجة: الريح الشديدة الهبوب، وقيل: وعاء المسك في جسم الظبي.

(٤) العين المشبه بها: الذهب. والوِرْقُ (بكسر الراء): الفضة.

(٥) البلابل (الأولى): الأشجان والهموم والوساوس، الواحد: بَلْبَال. والبلابل (الثانية): الطيور المغردة، واحدها: بُلْبُل.

ولهم فيما يتعلق بهذا النحو في وصف أيام الربيع

يوم سماؤُه فَاختيّة، وأرضه طاوُسيّة. يومٌ جَلاَبيبُ غيومِه رواق، وأرْدِيَة نسيمه رِقَاق. يوم مُمَسّكُ السماء، مُعَصْفَرُ الهواء، مُعَنْبَر الرَّوْضِ، مُصَنْدَل الماء. يوم زُرَّ عليه جَيْبُ الضَّبَاب، وانسحب فيه ذَيْلُ السحاب. يوم سماؤه كالخزّ الأدْكَن، وأَرْضُه كالديباج الأَخْضَرِ.

شَادنٌ يَرْتَعِي القلوبَ بِبَغْدا ... دَ ولا يَرْتَعِي الكلا بالنِّبَاجِ[١]
أقبلَتْ والربيعُ يختالُ في الرَّوْ ... ض وفي المزن ذِي الحيَا الثَّجَّاجِ[٢]
ذو سماءٍ كأدْكَنِ الخزِّ قد غِيـ ... ـمَتْ وأرضٍ كأخْضَرِ الديباجِ
فَتجلَّى عَنْ كُلِّ ما يَتَمنَّى ... موعد الكدخَداةِ والهيلاجِ
فَظللنا في نُزْهَتَين وفي حُسْـ ... ـنين بين الأرْمَالِ والأهْزاجِ
بِفَتَاةٍ تسرُّنَا في المَثَاني ... وَعَجُوزٍ تَسُرُّنَا في الزُّجاجِ
أَخذَتْ من رؤوسِ قومٍ كرامٍ ... ثَارَها عِنْدَ أَرْجُلِ الأَعْلاجِ[٣]

يومٌ حَسَنُ الشمائل، مُمْتِعُ المخايل، سَجْسَجُ الهواء[٤]، مُؤْنِقُ الأَرْجَاءِ، يوم تَبَسَّم عنه الربيعُ، وتبرَّجَ عنه الروضُ المريع. يوم كأنَّ سماءَه مأتم تتباكى، وَأَرْضَهُ عَرُوسٌ تتجلَّى. يوم مشهّر الأوْصاف، أغَرّ الأطراف. يوم يُغْفِي فيه النَّور وَيَنْتَبِه، وَتُسْفِر فيه الشمس وتَنْتَقِب، وتَعْتَنِقُ الغصون وتَفْتَرِق، ويوشي الغيم وينسكب. يوم غاب نَحْسُه وهَوَى، وطلع سَعْدُه واعتلى، والزمان ساقطة جماره، مُفْعَمَةٌ أنهاره، مُونِقَةٌ أشجارُه، مغرّدة أطيارُه. نحن في غبِّ سماءٍ، قد أَقلعت بعد الارْتِوَاء، وأَقْشعتْ عند الاستغناء، فالنَّبْتُ خَضِلٌ ممطور، والنَّقْعُ ساكن محصور[٥]. يوم جوُّه طَارونِيّ، وأَرْضه طاوسيّ. يوم دَجْنُهُ عاكف، وقَطْرُهُ وَاكِف. يومٌ من أعياد العُمْرِ، وأَعْيانِ الدَّهْرِ.

---

(١) الشادن: ولد الظبي الذي قوي واشتد واستغنى عن أُمّه. والنِّبَاج: قرية بالبادية، أحياها عبد الله بن عامر، وفي بلاد العرب نباجان: أحدهما على طريق البصرة، يقال له نباج بني عامر، وهو بحذاء فَيْد، والآخر نِباج بني سعد بالقريتين.

(٢) الحيا: المطر. والثَّجَّاجُ: الشديد الانصباب، قال تعالى: ﴿وأنزلنا مِن المُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً﴾ (سورة النبأ، آية: ١٤).

(٣) الأعلاج: جمع عِلْج، وهو كل شديد جافٍ من الرجال.

(٤) هواءٌ سَجْسَجٌ: طيب معتدل.

(٥) النَّقْعُ: الغبار.

[الربيع والرفاق]

ولهم في تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الإخوان والسادة:

غَيْثٌ مُشبِهٌ بِكَفِّك، واعتدالُه مُضَاهٍ لِخُلقك، وزَهْرُه مُوازٍ لِنَشْرِك[١]، كأنما استعار حُلَلَه من شيمتك، وحَلْيه من سجيَّتك، واقتبس أنوارَه من محاسن أيامك، وأَمطارَه من جُودك وإنعامك. قدم الربيعُ مُنْتَسِباً إلى خلقك، مُكْتَسِياً محاسِنَه من طَبْعك، متوشّحاً بأنوار لَفْظِك، متوضِّحاً بآثار لسانِك ويَدِك. أنا في بُستان أَذْكَرني وَرْدُه المفتَّح بخلقك، وجَدْوَلُه السابح بِطَبْعِكَ، وزَهْرُه الجَنِيُّ بِقُرْبك. أنا في بستان كأنَّه من شمائلك سُرِق، ومن خُلُقك خُلِق، وقد قابلتني أشجارٌ تَتَمايل فتذكرني تَبْرِيحَ الأحباب، إذا تَداولَتْهُمْ أَيْدِي الشراب، وأنهار كأنّها من يدك تَسيل، ومن راحتيك تَفِيض. أناعلى حافةِ حَوْضٍ أزرق كصفاء مودَّتي لك، ورِقَّة قولي في عَتْبِك.

[الصوم في الربيع]

وقال ابن عون الكاتب:

جاءنا الصومُ في الربيع فَهَلاَّ أَخْـ ـتَار رُبْعاً من سائِر الأرْبَاعِ[٢]
وكأنَّ الربيعَ في الصوم عِقْدٌ فوق نَحْرٍ غطّاه فَضْلُ قِنَاعِ

[يوم الشك]

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته في يوم شك:

هُو يومُ شَكٍّ يا عَلِـ ـيُّ وَبِشْرهُ مُذْ كان يُحْذَرْ
وَالجوُّ حُلَّتُهُ مُمسَّـ ـكةٌ وَمُطْرَفُهُ مُعَنْبَرْ
وَالماءُ فِضِّيُّ القَميـ ـصِ وَطَيْلَسانُ الأرضِ أخْضَرْ
نَبْتٌ يُصَعِّد زَهْرُه في الرَّوْضِ قَطْرَ نسدًى تَحَدَّرْ
وَلنا فُضَيْلاتٌ تَكو نُ لِيَوْمِنا قُوتاً مُقَدَّرْ
وَمُدامةٌ صَفراءُ أَدْ رَكَ عُمْرَها كِسْرَى وَقَيْصَرْ[٣]

(١) النَّشْرُ: الرائحة الطيبة.
(٢) الأرباع: فصول السنة، كل فصل ربع.
(٣) أي هي خمر قديمة مُعتَّقة.

فَانْشَطْ لنا لِنَحُثَّ مِنْ كاسَاتِنا ما كانَ أكْبَرْ
أو لا فإنَّكَ جَاهِلٌ إنْ قُلْتَ إنّكَ سَوْفَ تُعْذَرْ

من بديع الزمان لبعض أهل همذان

وكتب بديع الزمان إلى بعض أهل هَمَذان:

كتابي ـ أطال اللّهُ بقاك ـ عن شهر رمضان، عرَّفنا اللّهُ بركةَ مَقْدَمه، ويُمْنَ مُخْتَتَمه، وخصَّك بتقصير أَيامِه، وإتمامِ صيامِه وقيامِه؛ فهو ـ وإن عَظُمَتْ بَرَكَتُهُ ـ ثقيلٌ حركته، وإن جلّ قَدْرُه بعيد قَعْره، [وإن عمّت رأفته، طويل مسافته، وإن حسنت قربته، شديد صحبتُه، وإن كبرت حرمته كثير حشمته، وإن سرّنا مُبْتداه فلن يسوءنا منتهاه] فإنْ حَسُن وَجْهُه فليس يَقْبُح قَفَاه، وما أَحْسَنَه في القَذَال[١]، وأشبَه إدبارَه بالإقبال، جعل اللّهُ قُدومَهُ سببَ تَرْحَالِه، وَبَدْرَهُ فِداءَ هلالِه، وأَمدَّ فَلَكه تحريكاً، بتقضي مُدَّتِه وَشيكاً، وأَظْهَر هلالَه نحيفاً، ليزِفَّ إلى اللذاتِ زفيفاً، وعفا اللّهُ عن مَزْحٍ يكرهه، ومُجونٍ يُسْخِطُه.

لابن العميد

عوّل البديع في هذا الكلام على قول أبي الفضل بن العميد في رسالة له في مثل ذلك:

أسأَلُ الله أن يُعَرِّفَني بركتَه، ويُلَقِّيني الخيرَ في باقي أَيامه وخاتمته؛ وأَرْغَبُ إليه في أن يُقَرّبَ على الفَلَكِ دَوْرَه، ويقصِّره سَيْرَه، ويُخَفِّف حَرَكته، ويعجِّل نَهْضَته، وَيُنْقِصَ مسافةَ فلكه ودَائرتِهِ، ويزيل بركةَ الطولِ عن ساعاته، ويَرُدَّ عليّ غُرَّةَ شوال، فهي أَسْنَى الغُرَرِ عندي، وأقرُّها لِعَيْني؛ ويُطْلِعَ بَدْرَه، ويُريني الأيْدي متطلبة هِله ببشْر، ويسمعني النَّعْيَ لشهر رمضان، ويعرض عليّ هلاله أَخْفَى من السِّحْرِ، وأَظْلَم من الكُفْر، وأَنْحَف من مَجنونِ بني عامر[٢]، وأَبْلَى من أَسير الهَجْرِ، وأَستغفرُ الله جلّ وَجْهُه مما قُلْتَ إن كَرِهه، وأَستَعْفِيه من توفيقي لما يذمُّه، وأسأله صفحاً يُفيضه، وعَفْواً يُوسِعُه، إنَّه يعلم خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفي الصدور.

[عواقب الطيش]

طاهر بن الحسين يصف الأمين

قال المأمون لطاهر بن الحسين: صِفْ لي أخلاقَ المخلوع. قال: كان واسعَ الصَّدْرِ،

(١) القذال (في الأصل): جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق القفا.
(٢) هو قيس بن الملوح الشاعر الأموي المعروف بالمجنون (ت ٧٠ هـ/ ٦٨٩ م).

ضَيِّقَ الأَدَب، يُبيح من نفسه ما تَأْنَفُهُ هِمم الأحرار، ولا يُصْغِي إلى نصيحة، ولا يقبل مَشُورة، يستبدُّ برأيه، ويُبَصَّر سوءَ عاقبتِه؛ فلا يَرْدَعُه ذلك عما يَهُمُّ به. قال: فكيف كانت حروبُه؟ قال: كان يجمعُ الكتائب بالتبذير، ويفرِّقُها بسوء التدبير. فقال المأمون: لذلك حلّ ما حلّ به؛ أَمَا والله لو ذاق لذَّاتِ النصائح، واختار مَشُورَاتِ الرجال، وملَكَ نَفْسَه عن شهواتها، لما ظُفِر به.

[الأمين والمأمون]

ولما عقد الرشيدُ البيعةَ للأمين وهو أَصغرُ من المأمون لأجل أمِّه زُبَيْدة، وكلام أخيها عيسى بن جعفر، وقدّمه على المأمون، جعل يرى فَضْلَ عقله فيندَم على ذلك، فقال:

لَقدْ بانَ وَجْهُ الرَّأْيِ لي غَيْرَ أَنَّني ... غُلِبْتُ على الأَمْرِ الذي كان أَحْزَما[1]
فَكَيْفَ يُرَدُّ الدرّ في الضَّرْعِ بَعْدَما ... تَوزَّعَ حتى صار نَهْباً مُقَسَّما
أَخافُ الْتِوَاءَ الأمرِ بعد اَستوائِه ... وَأَنْ يُنْقَضَ الحَبْلُ الذي كان أُبرِما[2]

قال أسد بن يزيد بن مزيد: بعث إليَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنباري، قال: فأتيتُه وهو في صَحْنِ داره، وفي يده رُقْعة قد غضب لما نظر فيها، وهو يقول: ينامُ نَوْمَ الظَّرِبَان، وينتبهُ انتباهَ الذئب، هِمَّتُه بَطْنُه، ولذَّته فَرْجُه. لا يفكّر في زوالِ نِعْمَةٍ، ولا يتروَّى في إمضاءِ رَأْيٍ ولا مَكِيدة، قد شمَّر له عبدُ اللَّه عن ساقِه، وفوَّق له أشَدَّ سهامِه، يرميه على بُعْدِ الدار بالحَتْفِ النافذ والموت القاصد، قد عبَّى له المنايا على مُتُونِ الخيل، وناطَ له البلاءَ في أَسِنَّةِ الرماح وشِفَارِ السيوف، ثم تمثّل بشعر البَعيث[3]:

يُقَارِعُ أتراكَ ابنِ خاقانَ لَيْلَهُ ... إلى أَنْ يَرَى الإصْبَاح لا يَتلعْثَمُ
فَيُصْبِحُ في طُولِ الطِّراد وَجِسْمُهُ ... نَحيلٌ، وأُضحِي في النعيم أُصَمِّمُ
فَشتَّانَ ما بيني وَبَيْنَ ابنِ خالدٍ ... أُمَيَّةَ في الرِّزْقِ الذي اللَّهُ يقسمُ

(١) حزم الرأي أو الأمر: ضبطه وأتقنه.
(٢) أبرم الحبل: أُحكم فَتْلُه.
(٣) هو أبو زيد، خداش بن بشر بن خالد الملقب بـ«البعيث»: شاعر مجيد، سكن البصرة، وتهاجى مع جرير مدّة طويلة، وأعانه الفرزدق عليه. وقيل: إنه كان أخطب بني تميم. توفي في البصرة سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٣٥؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ٥٢).

ثم قال: يا أبا الحارث، أنا وأنت نَجْرِي إلى غايةٍ إنْ قصَّرْنا عنها ذُمِمْنَا، وإن اجتهدنا في بلوغها انْقَطَعنا؛ وإنما نحن شُعْبَةٌ من أصلٍ، إن قَوِي قوينا، وإن ضَعُفَ ضعفنا؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاءَ الأمة الوَكْعَاء: يشاور النساء، ويعتمدُ على الرؤيا، وقد أمْكَنَ أهلَ اللهو والخَسَارةِ مِنْ سَمْعِه؛ فهم يُمَنُّونه الظَّفَر، ويَعِدُونَه عواقب الأيام؛ والهلاكُ إليه أسرعُ من السيل إلى قِيعَانِ الرَّمْلِ؛ وقد خشِيتُ أن نَهْلِكَ بهلاكه، ونَعْطَب بِعَطبِه، وأنت فارسُ العرب وابنُ فارسها، وقد فزِع إليك من لقاءِ طاهر لأمرين: أحدهما صِدْقُ طاعتك، وفَضْل نصيحتك؛ والثاني يُمْنُ نَقِيبتك، وشِدَّةُ بأسك؛ وقد أمرني أنْ أبسطَ يدك غير أنّ الاقتصاد رأسُ النصيحة، ومفتاحُ البركة؛ فبادِرْ ما تريد، وعَجِّل النهضة، فإني أرجو أنْ يوليك اللَّهُ شَرَفَ هذا الفَتْح، ويلم بكَ شَعثَ الخلافة.

فقلت له: أنا لطاعتك وطاعةِ أمير المؤمنين مُقْدِم، ولما وَهَنَ عَدُوَّكُما مُؤْثِر؛ غير أن المُحارِب لا يَفْتَتِحُ أمْرَهُ بتقصير؛ وإنما مِلاَكُ أَمرِه الجنود، والجنود لا تكون بلا مال، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائبَ إلى قوم لم يُجْدُوا عليه، ومتى سُمت مَنْ أقدرُ به الانتفاع له الرضا بدون ما أخذه غيرُه ممن لم يَكُنْ عنده غَنَاءٌ ولا مَعُونة، لم ينتظم بذلك التدبير، وأحتاج لأصحابي رِزْقَ سنة قَبْضاً، وحملاً إلى ألفِ فرس لحمل من لا أَرْتَضِي فرسه، وإلى مال أستظهر به، لا أُلاَم على وَضْعِه حيث رَأَيْت. فقال: شاوِرْ أمير المؤمنين؛ فأدخلني عليه، فلم تَدُرْ بيني وبينه كلمتان حتى أمر بِحَبْسِي.

الأمين يصف طاهر بن الحسين

ويروى أن الأمين لما أَعْيَتْهُ مكايدُ طاهر قال:

بُلِيتُ بأَشْجَعِ الثقلينِ نَفْساً ... تَزُول الراسياتُ وما يزولُ[1]
لـه مـع كُـلِّ ذي بدن رَقِيبٌ ... يُشَاهِدُهُ وَيَعْلَمُ ما يقولُ
فَلَيسَ بِمُغْفِلٍ أَمراً عَنَاهُ ... إذا ما الأمْرُ ضَيَّعَه الجَهُولُ

الفضل بن الربيع وابنه وأبوه

وفي الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء:

كَمْ مِنْ مُقيمٍ بِبَغْدادٍ على طَمَعٍ ... لولا رَجاءُ أَبي العباس لم يُقِمِ

(١) الثقلان: الإنس والجن. والراسيات هنا: الجبال.

البـدرُ إن نظـروا، والبحـرُ إنْ رَغِبـوا والحِصْنُ إن رهبوا، والسيف ذُو النِّقَمِ

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع: ما مدحنا شاعرٌ بشعر أَحب إلينا من قول أبي نواس(١):

سَـادَ الملـوكَ ثـلاثـةٌ مـا مِنهُـمُ إن حُصِّلـوا إلا أَعـزُّ قَـريـعُ(٢)
سَـاد الـربيـعُ وَسـادَ فَضْـلٌ بعـدهُ وَعلـتْ بِعبّـاس الكـريـم فُـروعُ(٣)
عَبـاسُ عَبـاسٌ إذا احتـدم الـوَغَـى وَالفَضْـلُ فضـلٌ والـربيـعُ ربيـعُ(٤)

وقيل للعتابي(٥): أمدحت أحداً؟ قال: لا، وليس لي على ذاك قدرة، فقيل له: فقد مدحتَ الربيع، فقال: ذلك ليومٍ يستحقّ فيه المدح، فقلت:

وَمُعْضِلـةٍ قـامَ الـربيـعُ إزاءَهـا لِيَعْمِـدَ رُكْـنَ الـدِّيـنِ لمـا تَهـدَّمَـا
بِمكـةَ والمنصـورُ رَهْـنٌ كمـا أَتَـى أَخـا الـوَحْـي داعـي رَبّـه فَتقـدَّمَـا
غَـداةَ عُـداةُ الـديـنِ شَـاحِـذةُ المُـدى إليـه وَغُـولُ الحـربِ فـاغِـرَةٌ فَمَـا(٦)

[بيعة المهدي]

وكان المنصور قد تُوفِّي بمكة وهو حاجٌّ في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، فأخذ الربيع للمهدي البيعةَ على الناس، وأخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حيّ، وأدخل إليه قوماً فرأَوْه من بعيد وقد جللهُ بثوب، وأقعد إلى جنبه من يحرّك يده وكأنه يومِىء بها إليهم، فلم يشكّوا في حياته؛ فما خالف أحد؛ فشكره المهدي لذلك، وفي ذلك يقول أَبو نواس في مدحه الفضل بن الربيع(٧):

---

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٤٦٣.
(٢) في الديوان: «إلاَّ أَغرُّ». والأَغرُّ: الأبيض المشهور. والقريع: السيد.
(٣) الربيع: والد الفضل، كان وزيراً للمنصور، والفضل: كان وزيراً للرشيد بعد البرامكة ثم لمحمد الأمين، والعباس: ابن الفضل.
(٤) احتدم الوغى: اشتد القتال واستعر.
(٥) هو أبو عمرو، كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابي: شاعر مترسل بليغ، مقدم في الرواية والخطابة. مدح الرشيد، وانقطع إلى البرامكة. وكان يفضل الأدب والعلم على المال. توفي سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٦٠؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٢/ ٤٨٨).
(٦) المُدَى: جمع مُدْيَة: السِّكِّين. وَفَغَر فمه: فتحه.
(٧) أبو نواس، الديوان: ص ٤٤١.

أبـــوكَ جلّـــى عَـــنْ مُضَـــرْ يَـــوْمَ الـــرواقِ المُحْتَضَـــرْ[١]
وَالحَـــرْبُ تَفْـــرِي وَتَـــذَرْ لمـــا رأى الأمـــر اقمَطَـــرّ[٢]
قـــامَ كـــريمـــاً فـــانْتَصَـــرْ كَهـــزَّةِ العَضْـــبِ الـــذَّكَـــرْ[٣]
مـــا مـــسَّ مِـــنْ شـــيء هَبَـــرْ وَأَنْـــتَ تَقْتَـــافُ الأَثْـــرْ
مِـــنْ ذي حُجـــولٍ وَغُـــرَرْ[٤]

وقال أيضاً[٥]:

آلَ الـــربيـــع فَضلْتُـــمُ فَضْـــلَ الخَميـــسِ علـــى العشيـــرِ[٦]
مَـــنْ قـــاسَ غَيْـــرَكُـــمُ بِكُـــمْ قَـــاسَ الثِّمَـــادَ إلـــى البُحُـــورِ[٧]
أيـــن القليـــلُ بنـــو القليـــلِ مـــن الكثيـــرِ بنـــي الكَثيـــرِ
أيـــن النجـــومُ التـــاليـــات مـــن الأهلَّـــةِ والبـــدورِ
قَـــوْمٌ كفـــوا أَيـــام مَكَّـــةَ نـــازِلَ الخَطْـــبِ الكبيـــرِ
وَتـــدارَكُـــوا نَصْـــرَ الخِـــلاَفـــةِ وَهْـــيَ شَـــاسِعَـــةُ النَّصِيـــرِ[٨]
لـــولا مُقـــامُهُـــمُ بهـــا هَـــوَتِ الـــرواسـي مـــن ثَبِيـــرِ[٩]

ومن قول أبي نواس: «من قاس غيركم بكم...» البيت، أخذ أبو الطيب المتنبي[١٠]:

---

(١) جلى عنهم يوم الرواق: كشف عنهم شَرَّهُ.
(٢) في الديوان: «والخوف يَفْري ويذرْ»، ويفري ويذر: يجمع ويفرّق. واقمطرَّ الأمر: اشتد.
(٣) العضب: السيف القاطع. وسيف ذكر وَمُذكَّر: ذو رَوْنَق. والذكر من الحديد: أَيبه وأشدّه وأجوده، والذُّكْرَةُ من السيف: حِدَّتُه.
(٤) في الديوان: «ما مَسَّ من شيءٍ هَبَرْ». وهبر: قطع. وتقتاف الأثر: تتبعه. والحجول: جمع حجل، وهو الخلخال، وفرس مُحجَّل: في قوائمه بياض. والغرر: جمع غُرّة: بياض في الجبهة.
(٥) أبو نواس، الديوان: ٤٦٧.
(٦) الخميس: الخُمْسُ، والعشير: العُشْرُ، والخمس في الكسور أكبر من العشر.
(٧) الثماد: الماء القليل.
(٨) في الديوان: «فتداركوا جُزُرَ الخلافة». والجزر: جمع الجزور: البعير أو الناقة المجزورة. والشاسعة: البعيدة.
(٩) ثبير: جبل بمكة.
(١٠) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٤٤. والبيتان من قصيدة يمدح بها كافور الإخشيدي سلطان مصر.

قَــواصِـــدَ كـــافـــورٍ تَـــوارِكَ غَيْـــرِهِ وَمَـنْ قَصَـدَ البحـرَ استقـلَّ الـسـواقِيَـا[١]
فتًـى مَـا سَـرَيْنَـا فـي ظُهـورِ جُـدودِنَـا إلـى عَصْـرِه إلاّ نُـرَجِّـي التَّـلاقِيَـا[٢]

[وقت كلام الملوك]

من كلام الفضل بن الربيع

وقال الفضل بن الربيع: من كلَّمَ الملوكَ في الحاجات في غيرِ وَقْتِ الكلام لم يَظفَر بحاجته، وضاع كلامُه، وما أشبههم في ذلك إلا بأوقات الصلوات لا تُقْبَل الصلاةُ إلا فيها، ومن أراد خطابَ الملوك في شيء فَلْيَرْصُد الوقتَ الذي يصلح في مثله ذِكْرُ ما أراد، ويسبّب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذِكْرُه بِعَقِبه.

بين المأمون والفضل بن الربيع

وقال المأمون للفضل بن الربيع لما ظَفِر به: يا فضل؛ أكان في حقي عليك، وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك، أن تَثْلِبَني[٣] وتَسُبَّني، وتُحَرِّضَ على دمي؟ أتحبُّ أن أفعل بك ما فعلتَه بي؟

فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ عُذْري يُحْقِدُك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا حفَّته العيوب، وقبَّحَتْه الذنوب؛ فلا يَضِيقُ عني من عَفْوِكَ ما وسع غيري منك، فأنت كما قال الشاعر فيك:

صَفُـوحٌ عـن الأجـرامِ حتـى كَـأَنّـهُ مِنَ العَفْوِ لم يَعْرِفْ من الناس مُجْرِما[٤]
وَلَيـسَ يُبَـالـي أن يكـونَ بـه الأذَى إذا مـا الأذى لـم يَغْـشَ بـالكُـرْهِ مُسْلِمَـا

والشعر للحسن بن رجاء بن أبي الضحاك.

---

(١) قواصد: حال من الجرد، وعبّر بضمير الخيل وأراد أربابها. أي: قصدنا بها كافوراً وتركنا غيره من الملوك، لأنه البحر وغيره الساقية.
(٢) السُّرَى: سير الليل. يقول: ما قطعنا مسافات حظوظنا الماضية حتى انتهينا إلى عصر ملكه إلاَّ ونحن نرجو أن نلقاه ونجعل تلك المسافات طريقاً إليه.
(٣) تثلبني: تنقصني وتعيبني.
(٤) الأجرام: جمع الجُرْم: الذنب.

[بين المنصور والربيع]

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة: دعا المنصور بالربيع، فقال: سلني ما تُرِيد، فقد سكتَّ حتى نَطَقْتَ، وخَفَّفت حتى ثقّلت، وأَقْلَلْتَ حتى أَكْثَرْت.

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أَرْهَبُ بُخْلَكَ، ولا أَسْتَقْصِرُ عُمْرِكَ، ولا أَستَصْغِرُ فَضْلَك، ولا أَغْتَنِمُ مالك؛ وإنّ يومي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ من أمسي، وغَدُكَ في تأميلي أَحْسَنُ من يومي؛ ولو جاز أن يَشْكُرَكَ مثلي بغير الخِدْمَةِ والمُنَاصحَة لما سَبَقَني لذلك أَحَد.

قال: صدقت، عِلْمِي بهذا منك أَحَلَّكَ هذا المحلّ؛ فَسَلْنِي ما شِئت.

قال: أسأَلُك أن تُقرِّب عبدك الفَضْلَ، وتُؤْثِره وتحبّه.

قال: يا ربيع إنَّ الحب ليس بمال يُوهَب، ولا رُتْبَة تُبْذَل؛ وإنما تؤكّدُه الأسباب.

قال: فاجعل لي طريقاً إليه، بالتفضل عليه.

قال: صدقت، وقد وصَلْتُه بألف ألف درهم، ولم أصل بها أحَداً غير عمومتي؛ لتعلم مَا لَهُ عندي، فيكون منه ما يَسْتَدْعِي به محبَّتي، ثم قال: فكيف سألت له المحبة يا ربيع؟

قال: لأنها مفتاحُ كلّ خير، ومِغْلَاقُ كلّ شر، تُسْتَر بها عندك عيوبُهُ، وتَصِير حَسَناتِ ذنوبه.

قال: صدقت وأتيت بما أردت في بابه.

* * *

لأبي تمام يمدح ابن الزيات

أخذ قوله: «خففت حتى ثقلت» أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات[١]:

عَلَى أنّ إفراطَ الحَيَاءِ اسْتَمَالني ... إليْكَ، ولم أعْدِل بِعِرْضِيَ مَعْدِلاَ[٢]
فَثقّلتُ بالتخفيف عَنْكَ، وَبَعْضُهُم ... يُخَفِّفُ في الحاجاتِ حتى يُثَقّلاَ[٣]

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٥٢.

(٢) الإفراط: الإكثار. يقول: إفراط الحياء أحوجني إلى طول المقام عندك، وإلى تأخر قضاء حاجتي، لأني لو ألححت عليك، وكشفت قناع الحياء لظفرت بما أردت، ولكني أكرمت عرضي بلزوم الحياء وصيانة النفس عن الإلحاح.

(٣) ثَقّلتُ: أي ثقلت أمري عليك بأن عزمت على الرحيل، في حين أن غيري يطلب القليل ثم يلحف في الطلب.

[سهل بن هارون والرشيد]

ودخل سهلُ بنُ هارون على الرشيد، وهو يُضَاحِكُ المأمون، فقال: اللهم زِدْهُ من الخيرات، وابْسُطْ له من البركاتِ، حتى يكونَ في كلّ يوم من أيامه مُرْبِياً[١] على أمْسِهِ، مُقَصِّراً عن غده.

فقال له الرشيد: يا سَهْلُ، من رَوَى من الشعر أحسَنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحَه وأوضَحه، إذا رام أن يقولَ لم يُعْجزه القول.

فقال سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين؛ ما ظننت أنّ أحداً تقدّمني إلى هذا المعنى.

قال: بل أعْشى هَمْدَانَ[٢] حيث يقول:

رَأَيْتُكَ أمْسِ خَيْرَ بني لُؤَيٍّ ... وَأَنْتَ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسِ
وأَنْتَ غداً تَزِيدُ الخَيْرَ ضِعْفاً ... كَذاكَ تَزِيدُ سَادَةُ عَبْدِ شَمْسِ

[من شعر الفضل بن الربيع]

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولي:

إنّي امرؤٌ من هاشمٍ ... بفِنَاءِ مَعْمُور النَّوَاحِي
أَهْلِ الهدى وَذَوِي التُّقَى ... وَأُولي البَسَالةِ والسَّماحِ
أَهلِ المعالمِ والمكا ... رِم في المَسَاءِ وفي الصَّبَاحِ
أَهلِ النبوّة والخِلا ... فَةِ والكمالِ بِرَغْم لاحِي
يتألّمُون من الصُّدُو ... دِ ويَصْبِرُونَ على الجِرَاحِ

[بين ابن خاقان وأبي العيناء]

وصف دابة

حَمَلَ محمد بن عبيد الله بن خاقان أبا العيناء على دَابّة زَعم أنها غَيْرُ فَارِه[٣]، فكتب

---

(١) مربياً: اسم فاعل من «أربى» إذا زاد.

(٢) هو أبو المُصْبَح، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث من بني همدان: شاعر فحل، مكثر، طويل النَّفَس، وخطيب، وفقيه. قتله الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ هـ/ ٧٠٢ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٤٨٢).

(٣) دابة فاره: جيدة قادرة على السير.

إليه: أُعلم الوزير، أعزه الله، أن أبا علي محمداً أراد أن يَبَرَّني فَعَقَّني، وأن يُرْكِبني فأَرْجَلَني، أمر لي بدابّة تَقِفُ للنَّبْرَة[١]، وتَعْثُر بالبَعْرَة، كالقضيب اليابس عَجَفا[٢]؛ وكالعاشق المهجور دَنَفاً، قد أَذْكَرَتِ الرواة عذرة العذريّ، والمجنون العامري، مساعد أعلاه لأسفله، حُبَاقُهُ مقرون بِسُعَاله[٣]، فلو أَمْسَك لَترجَّيْتُ، ولو أَفْرد لتعزَّيْتُ، ولكنه يَجْمَعُهُما في الطريق المعمور، والمَجْلِس المشهور، كأنه خطيبٌ مُرْشِد، أو شاعر مُنْشِد، تَضْحَكُ من فِعْلِه النِّسْوَان، وتَتَنَاغى من أجله الصِّبيان؛ فمن صائح يَصِيحُ: دَاوه بالطباشير، ومن قائل يقول: نَوِّله الشعير، قد حفِظَ الأشعار، ورَوَى الأخبار، ولحق العلماءَ في الأمْصار، فلو أُعِينَ بنطق؛ لَرَوى بحقٍّ وصدق، عن جابر الجُعْفيّ، وعامر الشّعبي؛ وإنما أُتيت من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر، وإن اختار لغيره أَخْبَث وأنزر؛ فإن رأى الوزير أن يُبَدِّلَني به، ويُرِيحني منه بمركوب يُضْحِكني كما ضحَّك مني، يَمْحُو بِحُسْنه وفَرَهَته، ما سطَّرَه العَيْبُ بِقُبْحه ودمامته؛ ولست أذكرُ أمْرَ سَرْجِهِ ولجامهِ؛ فإن الوزير أكرمُ من أن يَسْلب ما يهديه، أو يَنْقُضَ ما يُمْضِيه.

فوجّه عبيد الله إليه بِرْذوناً[٤] من براذينه بِسَرْجه ولجامه، ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه، فقال عبيد اللّه: شكوت دابّة محمد، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار، وما هذا ثمنه لا يُشْتكى.

فقال: أعز الله الوزير، لو لم أكذب مستزيداً، لم أنصرف مستفيداً، وإني وإياه لكما قالت إمرأة العزيز: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٥]. فضحك عبيدُ اللّه، وقال: حجّتك الداحضة بِمَلاَحَتِكَ وظَرْفك أبلغُ من حجّة غيرك البالغة.

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابي عن أبي العباس بن سابور إلى الحسين بن صَبرة عن رقعة وردت منه في صفة حَمَل أهْدَاه

وصلت رُقْعَتك، فَفَضَضْتُها عن خَطٍّ مُشْرق، ولفظ مُونقٍ وعبارةٍ مُصيبة، ومعانٍ

(١) النبرة: الصيحة.
(٢) العجف: الهزال.
(٣) الحُباق: إخراج ريح الحدث.
(٤) البِرْذَوْنُ: يُطلق على غير العربي من الخيل والبغال.
(٥) سورة يوسف، آية (٥١).

غريبة، واتساع في البلاغة يَعْجزُ عنه عبدُ الحميد في كتابته، وقُسّ وسَحْبَان في خطابته؛ وتصرف بين جدٌّ أمْضى من القَدر، وهَزْلٍ أرقّ من نسيم السَّحَر، وتقلّب في وجوه الخِطاب، الجامع للصَّوَاب؛ إلا أنّ الفعلَ قَصَّرَ عن القول، لأنك ذكرت حَملاً، جعلته بصفتك جَمَلاً، فكانَ المُعَيْدِيَّ الذي تسمعُ به ولا أنْ تراه. وحضر فرأيت كَبْشاً مُتَقادِمَ الميلاد، من نِتَاج قَوْم عَاد، قد أفْنَته الدّهور، وتَعَاقَبَتْ عليه العصور، فظننته أَحَد الزَّوْجين اللذين جعلهما نوحٌ في سفينته، وحفِظَ بهما جِنْسَ الغنم لذرِّيته؛ صَغُر عن الكبر، وَلطُف عن القدم، فبانَتْ دَمامتُه، وتقاصرت قَامَتُه، وعاد ناحلاً ضئيلاً، بالياً هزيلاً، بادِيءَ السَّقَام، عاري العِظام، جامعاً للمعايب، مشتملاً على المثَالِب، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الحياةِ به، وتأتّي الحركةِ فيه، لأنه عَظْمٌ مجلّد، وصوف مُلبّد، لا تجد فوق عظامه سَلَباً، ولا تَلْقَى يدك منه إلا خَشَبا، لو أُلْقِيَ إلى السَّبع لأَباه، ولو طرح للذئب لَعافَه وقَلاه، قد طال للكلأ فَقْدُه، وَبَعُدَ بالمَرْعَى عَهْدُه، لم ير الْقَتَّ إلا نائماً، ولا عرف الشعيرَ إلا حالماً، وقد خيّرتني بين أن أَقْتَنيه فيكون فيه غِنَى الدهر، أو أَذْبَحه فيكون فيه خِصْب الرَّحل؛ فَمِلْتُ إلى استبقائه لما تعرف من محبتي في التوفير، ورغبتي للتَّثْمير، وجَمْعي للولد، وادّخاري لِغَد، فلم أَجِدْ فيه مستمتعاً للبقاء، ولا مَدْفَعاً للفناء؛ لأنه ليس بأُنثى فتَحْمِل، ولا بفتى فَيَنْسُل، ولا بصحيح فَيَرْعَى، ولا بسليم فَيَبْقَى؛ فملتُ إلى الثاني من رأييك، وعوّلت على الآخر من قَوْلَيك، وقلت: أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رَطباً مقام قَدِيدِ الغَزال، فأنشدني وقد أُضرِمت النار، وحُدَّت الشِّفار، وشمَّر الجزّار[1]:

أُعيذُهَا نظراتٍ مِنكَ صادِقَةً   أَنْ تَحسِبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وقال: ما الفائدة لك في ذبحي؟ وأنا لم يَبْقَ مني إلا نَفَس خافتٌ، ومُقْلَةٌ إنسانُها باهت، لَسْتُ بذي لَحْم، فأَصلح للأكل؛ لأن الدهرَ قد أكل لحمي، ولا جِلدي يصلُح للدّباغ؛ لأن الأيام قد مزَّقَتْ أديمي، ولا لي صوف يصلُح للغزل؛ لأن الحوادث قد حَصَّت وَبَري؛ فإن أردتني للوَقُود فكفُّ بَعْرٍ أبقى من ناري، ولن تَفِي حرارةُ جمري بريح قُتَاري، فلم يبق إلا أن تطلبني بِذَحْل[2] أو بيني وبينك دَم. فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي من قصيدة قالها في عتاب سيف الدولة والفخر على حاسديه من الشعراء (ديوانه ٢/ ٩٣).

(٢) الدخل: الثأر.

مَشُورته، ولم أعلم من أي أمْرَيْهِ أعجب؛ أمِن مُماطَلَتِه للدهر بالبقاء، أم من صبره على الضرِّ واللأواء[١]، أم من قدرتك عليه مع إعواز مثله، أم من تأهيلك الصديق به مع خَسَاسة قَدْرِه؟ ويا ليت شعري إذ كنتَ ـ وإليك سوق الغنم، وأمْرك يَنْفُذ في الضأن والمَعز، وكلُّ كبش سمين وحَمَلٍ بطين مجلوبٌ إليك، مقصورٌ عليك ـ تقول فيه قولاً فلا تُرَدّ، وتريده فلا تُصدّ، وكانت هديتك هذا الذي كأنه نَاشر من القبور، أو قائم عند النفخ في الصور، فما كنتَ مُهْدِيا لو أنك رجل من عُرْض الكُتّاب، كأبي عليّ وأبي الخطّاب، ما كنت تهدي إلّا كَلْباً أجرب، أو قرداً أحْدَب.

[الحمدوني وشاة سعيد بن أحمد]

وقال الحمدوني في شاة سعيد بن أحمد بن خوسنداذ:

أَسعيدُ قد أعطيتني أُضْحِيّةً ... مَكثَتْ زماناً عِنْدَكُمْ ما تُطْعَمُ
نِضْواً تَعاقَرتِ الكِلابُ بها وقَدْ ... شَدُّوا عليها كي تَمُوتَ فَيُولِمُوا[٢]
فإذا المَلاَ ضَحِكوا بها قالتْ لَهُمْ: ... لا تَهْزَءُوا بي وَارْحَمُوني تُرْحَمُوا
مَرَّتْ على عَلَفٍ فَقامَتْ لم تَرِم ... عنه، وغَنَّت وَالمدامِعُ تَسْجُمُ
وَقفَ الهوى بي حَيْثُ أَنْت فَلَيْسَ لي ... مُتأَخَّرٌ عَنْهُ ولا مُتَقَدَّمُ[٣]

وقال أيضاً:

أبا سعيدٍ لنا في شَاتِك العِبَرُ ... جاءت وما إن لها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وَكَيْفَ تَبْعَرُ شاةٌ عِنْدَكُمْ مكثَتْ ... طَعامُها الأبيضانِ الشمسُ والقَمَرُ
لَوْ أنَّها أبْصَرَتْ في نَوْمِها عَلَفاً ... غَنَّت له وَدُموعُ العينِ تَنْحَدِرُ
يا مانعي لَذَّةَ الدنيا بِأَجْمَعِها ... إنِي لَيَفْتِنني مِنْ وَجْهِك النظرُ

وقال أيضاً:

شَاةُ سعيدٍ في أمْرِها عِبَرُ ... لما أتتنا قد مَسَّها الضررُ

---

(١) اللأواء: الشدة.
(٢) النِّضْوُ: المهزول من الحيوان، وثوب نِضْوٌ: خَلَقٌ، وسهم نِضْوٌ: فاسد من كثرة ما رُمي به. وعاقرت الكلاب: تسابقت.
(٣) يروى البيت لدعبل الخزاعي.

وَهْيَ تغنى مِنْ سُوءِ حالتها حَسْبي بما قَدْ لَقِيتَ يا عُمَرُ
مَرَّت بقطف خضر يُنَشِّرها قَوْمٌ فَظنَّتْ بِأَنَّها خُضُرُ
فأقبلَتْ نَحْوَها لِتَأكلها حتى إذا ما تبيَّنَ الخَبَرُ
وَأبدلتها الظنونُ من طَمَعٍ يَأْساً تغنَّت والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ
كانوا بَعيداً وكنتُ آمُلُهم حتى إذا ما تَقرَّبوا هَجَروا

وقال:

لِسعيدٍ شُوَيْهَةٌ سَلَّها الضُّر والعَجَفْ[1]
قَدْ تَغنَّتْ وَأَبْصَرَتْ رَجُلاً حامِلاً عَلَفْ
بأبي مَنْ بِكَفِّهِ بُرْءُ ما بي من الدَّنَفْ[2]
فأتاها مُطمِّعاً وَأَتَتْهُ لِتَعْتَلِفْ
فَتَولَّى فَأقبلتْ تتغنَّى من الأسَفْ
لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ وَقَفْ عَذَّب القلب وانْصَرَفْ

[الحمدوني وطيلسان ابن حرب]

[قال]: وإذ قد جَرَتْ بعضُ تضمينات الحمدوني في هذا الموضع فأَنا أَذكر هنا قطعةً من شعره في الطيلسان، وأَنعطف في غير هذا الموضع إليها وأكر عليها؛ وكان أحمد بن حَرْب المهلّبي من المُنْعِمين عليه، والمحسنين إليه، وله فيه مدائح كثيرة، فوهب له طيلساناً أَخْضر لم يَرْضَهُ، قال أبو العباس المبرّد: فأنشدنا فيه عشر مقطعات، فاستَحْلَينا مَذْهَبه فيها، فجعلها فوق الخمسين؛ فطارت كل مَطَار، وسارت كل مَسَار، فمنها:

يابْنَ حرب كَسَوْتَني طَيْلَساناً مَلَّ من صُحْبَةِ الزمان وصَدَّا
فَحسِبْنا نَسْجَ العناكبِ قَدْ حا لَ إلى ضَعف طَيْلَسانك سَدَّا
طَال تَرْدادُهُ إلى الرَّفْوِ حتى لو بَعَثْنَاه وَحْدَه لَتَهدَّى[3]

---

(١) العجف: الهُزال.
(٢) الدَّنَفُ: المَرَضُ المُثْقِلُ.
(٣) رفا الثوب رَفْواً: أصلحه وضمَّ بعضه إلى بعض.

وقال فيه أيضاً:

يا طيلسانَ ابن حَرْبٍ قَدْ هَمَمْتَ بأنْ تُودِي بِجسمي كما أَوْدَى بِكَ الزَّمَنُ(١)
ما فيك مِنْ ملبسٍ يُغْني ولا ثمنٍ قد أَوْهَنَتْ حيلتي أركانُك الوُهُنُ(٢)
فَلو تَرَاني لَدَى الرَّفَّاء مُرْتَبِطاً كأنني في يَدَيْهِ الدَّهْرَ مُرْتَهِنُ
أَقولُ حين رآني الناسُ ألزمهُ كأنما ليَ في حانوته وَطَنُ
مَنْ كان يسأل عنّا أيْنَ مَنْزِلُنا فَالأُقحوانَة مِنَّا مَنْزِلٌ قَمِنُ(٣)

وقال:

قُلْ لابْنِ حَرْبٍ طيلسا نُك قومُ نوحٍ منه أَحْدَثْ
أَفْنَى القُرونَ وَلم يَزَلْ عَمَّنْ مَضَى مِنْ قَبْلُ يُورَثْ
وَإذا العيونُ لَحظْنَهُ فَكأَنَّهُ بِاللَّحْظِ يُحْرَثْ
يُودِي إذا لم أرْفُهُ فَإذا رَفَوْتُ فليس يَلْبَثْ
كَالكَلْبِ إن تَحْمِلْ عليـ ـه الدَّهْرَ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ

وقال:

قُلْ لابنِ حَرْبٍ طَيْلَسانُكَ قَدْ أوْهَى قِوَاي بكَثْرةِ الغُرمِ(٤)
مُتبينٌ فيه لِمُبصِرِه آثارُ رَفْوِ أوائلِ الأُممِ
وَكأنهُ الخمرُ التي وُصِفَتْ في «يا شقيق الرّوح مِن حكَمِ»
فَإذا رَمَمْنَاهُ فقيل لنا: قد صَحّ، قال له البِلَى: انْهَدِمِ
مِثل السّقيم بَرَا فَراجَعهُ نُكْسٌ فأسلَمه إلى سَقَمِ
أنشدتُ حين طَغى فأَعْجَزني «ومن العناء رِياضةُ الهرمِ»

«الخمر التي وُصِفت» من قول أبي نواس(٥):

---

(١) أودى بالشيء: ذهب به.
(٢) الوُهُنُ: جمع واهن: الضعيف لا بطش عنده.
(٣) القَمِنُ: الخليق والجدير.
(٤) أوهى قواي: أضعفها.
(٥) أبو نواس، الديوان: ص ٤١.

يـا شقيـقَ النّفْـسِ مِـنْ حكـم ... نِمـتَ عـن لَيْلِـي ولَـمْ أَنَـم
فَـاسْقِنـي البِكْـرَ التـي اعْتَجَـرتْ ... بِخِمَـارِ الشَّيْـبِ فـي الـرَّحِـم[1]
ثُمَّـتَ إنْصَـاتَ الشبـابُ لهـا ... بَعْـدَ أن جـازت مَـدى الهـرم[2]
فَهـي لليـوم الـذي بُـزِلـتْ ... وَهـي تِلْـو الـدَّهْـر فـي القِـدَم[3]
عُتِّقَـتْ حتـى لـوِ اتَّصلـتْ ... بلسـانٍ نـاطـقٍ وفَـم
لاحْتَبَـتْ فـي القـومِ مَـاثلـةً ... ثـم قصَّـت قِصَّـةَ الأمَـم[4]
فَـرَعَتْهـا بـالمـزاج يَـدٌ ... خُلِقَـتْ للكـاسِ والقَلَـم[5]

وقال الحمدوني:

طَيْلَسَـانٌ لابـنِ حَـرْبٍ جَـاءني ... خِلْعَـةً فـي يـوم نَحْـسٍ مُستمـرْ
فـإذا مـا صِحْـتُ فيـه صَيْحَـةً ... تَـركتْـهُ كَهشيـمِ المُحْتظَـرْ
وَإذا مـا الـرّيـحُ هبَّـتْ نَحْـوَهُ ... طَيَّـرَتْـه كـالجـرادِ المُنتشِـرْ
مُهْطِـع الـدَّاعـي إلـى الـرّافـي إذا ... مـا رآه قـال: ذا شـيءٌ نُكُـرْ[6]
وَإذا رَفَّـاؤه حَـاوَلَ أن ... يتـلافـاهُ تَعَـاطـى فَعَقَـرْ

وقال:

أيـا طيلسـانـيَ أَعْيَيْـتَ طبِّـي ... أَسـلٌّ بِجسْمِـكَ أَم داءُ حُـبِّ
ويَـا ريـحُ صَيَّـرْتِنـي أتَّقيـكِ ... وَقـد كُنْـتُ لا أتَّقـي أن تَهُبِّـي

(١) في الديوان: «فاسقني الخمر التي اختمرت». واختمرت: لبست الخمار تستتر به، والخمار: النصيف تلفه المرأة عليها لتستر به جسدها، وهو ما تسميه العامة اليوم بالطرحة. يقول: اسقني الخمر التي طال عليها العهد حتى شابت وهي جنين لم تُولد من الدنان.
(٢) انصات: أجاب وأقبل. وجازت: تخطَّت. وفي الديوان: «بعدما جازت».
(٣) بزلت: بزل الخمر: ثقب إناءها. وفي الديوان: «ترب الدهر في القدم». وترب الدهر: وُلدت معه ومن سِنِّه.
(٤) أَمم: قريب.
(٥) في الديوان: «قرَّعَتْهَا بالمزاجِ يدٌ».
(٦) المُهْطِعُ: من ينظر في ذُلٍّ وخضوع، أو الساكت في تذلل وخوف، ينطلق إلى من دعاه، قال تعالى: ﴿مُهْطِعين إلى الدَّاعِ﴾ (سورة القمر، آية: ٨).

وَمُستخبِرٍ خَبَرَ الطيلسان فَقُلْتُ لَهُ الرُّوحُ من أَمْرِ ربِّي

وقال فيه:

طَيْلَسانٌ لابن حربٍ جاءني قد قَضَى التمزيقُ منه وَطَرَهْ
أنا مِنْ خوفٍ عليه أبداً سَامِريٌّ ليس يَأْلُو حَذَرَه
يابْنَ حرب خُذْه أو فابْعَثْ بما نَشْتَري عِجْلاً بِصفرٍ عَشَرَه
فَلعلَّ اللَّهَ يُحْيِيه لنا إن ضَرَبْنَاهُ بِبَعْض البَقَرَهْ
فَهو قد أدرك نُوحاً، فَعَسى عِنْدَهُ من عِلْم نوح خَبَرَه
أبداً يَقْرَأُ مَن أَبْصَرَهُ أَئِذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَهْ

وقال فيه:

يابْنَ حربٍ أطَلْتَ فَقري بِرفْوي طَيلساناً قد كُنْتُ عَنْهُ غَنِيّا[1]
فَهو في الرَّفْو آلُ فِرْعَوْن في العَرْ ضِ على النار غُدْوةً وعَشِيَّا
زُرْتُ فيه معاشراً فازْدَرَوْني فَتغنَّيْتُ إذ رأوني زَرِيّا
جِئْتُ في زِيِّ سائلٍ كي أَراكُمْ وَعلى البابِ قد وَقَفْتُ مَلِيّا

وقال فيه:

وَهَبْتَ لنا ابنَ حربٍ طَيْلساناً يَزيدُ المرءَ ذا الضَّعَةِ اتِّضَاعَا[2]
يُسلِّمُ صاحبي فَيُعيد شَتْمي لأنَّ الروحَ يَكْبِتُه انصداعا[3]
أُجِيل الطَّرْفَ في طَرَفَيْهِ طُولاً وَعَرْضاً ما أَرى إلاّ رِقَاعَا
فَلسْتُ أَشكُّ أَنْ قد كانَ قِدْماً لِنُوحٍ في سَفينتِهِ شِرَاعا[4]
فَقدْ غَنَّيْتُ إذ أَبصرت منهُ جَوانِبَهُ على بَدني تَداعَى[5]
قِفي قَبْلَ التفَرُّقِ يا ضُبَاعَا وَلا يَكُ مَوْقِفٌ مِنكِ الوَداعَا

---

(١) في وفيات الأعيان: ٧/٩٦: «أَطلت وِتري».
(٢) في وفيات الأعيان: «رأينا طيلسانك يا ابن حربٍ».
(٣) في وفيات الأعيان:
يُسَلِّمُ صَاحبي فَيقِدُّ شِبْراً بِهِ وَأَقدُّ في رَدِّي ذِرَاعا
(٤) في وفيات الأعيان: «أَنْ قَدْ كانَ دَهْراً».
(٥) في وفيات الأعيان: «بَقَاياهُ على كتفي تداعى».

[المأمون والحسن بن رجاء]

دخل المأمونُ بعضَ الدواوين، فرأى غلاماً جميلاً على أُذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشيءُ في دولتك، المتقلِّبُ في نعمتك، المؤمّل لخدمتك، خَادِمُكَ وابنُ خادِمك الحسنُ بن رجاء. فقال: أحسنت يا غلام، وبالإحسانِ في البديهة تَفَاضَلت العقولُ. فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج: قال لي أبو العباس المبرّد: ما رأيتُ في أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن؛ كنت إذا رأيته رأيت رجلاً كأنما خُلق لذِرْوَة مِنْبَر، أو صَدْرِ مجلس، يتكلّم وكأنه يتنفّس، يُسْهِبُ ويُطْنِب، ويُعْرِبُ ويُغْرِب، ولا يَعْجَب وَيُعْجِب.

أراد القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، والحسن بن رجاء بن أبي الضحاك.

[بديهة المبرد]

المبرد عند المتوكل

وكان أبو العباس يُعَدّ في البلغاء، وقال: لما دخلت على المتوكل اختار لي الفَتْحُ بن خاقان وَقْتَ شُرْبه، وكان الشراب قد أخذ منه، فسألني وقال: يا بصري، أرأيت أحسنَ وجهًا منّي، فقلت: لا والله ولا أَسْمَح راحةً، ثم تجاسرت فقلت:

جَهَرْتُ بِحَلْفَةٍ لا أَتَّقيها ... بِشكٍّ في اليمينِ ولا ارتيابِ
بِأَنَّكَ أحسنُ الخلفاءِ وَجْهاً ... وأَسْمَحُ راحتين، ولا أُحَابي[1]
وَأَنَّ مُطِيعَكَ الأعلى مَحَلاًّ ... وَمَنْ عاصاك يَهْوي في تَبَابِ[2]

فقال: أحسنت وأجملت في حُسن طبعك وبديهتك، فقلت: ما ظننتُني أبلغُ هذا الشرف، ولا أَنال هذه الرتبة؛ فلا زال أميرُ المؤمنين يسمو بِخَدمِهِ إلى أعْلى المراتب، ويُصَرِّفهم في المذاهب.

---

(١) حاباه مُحاباةً وَحِباءً: اختصه ومال إليه.
(٢) التبابُ: الهلاك والخُسران.

[من أدب المبرد]

بين ابن المعتز والمبرد

وكان ابنُ المعتزّ قد غضبَ على بعض وكلائه، فصار إلى أبي العباس المبرّد يسأله أن يكلمه له؛ فكتب إليه المبرّد: أَنْتَ والله كما قال مسلم بن الوليد في جدك الرشيد:

بِأبي وَأُمي أَنْت ما أَنْدَى يَداً ... وَأَبرَّ مِيثاقاً، وَما أَزْكَاكا
يَغْدُو عَدوُّك خائفاً، فإذا رأَى ... أَنْ قَدْ قَدرتَ على العِقَاب رَجَاكا

وهذا معنًى كثير.

[في المدح]

لأعرابي

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب لأعرابي:

كَريمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فَضلَ حَيَائِه ... وَيَدْنُو وأَطرافُ الرِماحِ دَوَاني[١]
وَكَالسيفِ إن لاَيَنْتَهُ لاَنَ مَتْنهُ ... وَحَدَّاه إنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

لابن المعتز

وهذا يناسب قول ابن المعتز في بعض جهاته:

وَيَجْرَحُ أحشائي بِعَيْنٍ مَريضةٍ ... كما لان مَتْنُ السيفِ والحدُّ قَاطِعُ

للأخطل

وقال الأخطل في بني مروان:

صُمٌ عَنْ الجَهْلِ، عَنْ قيلِ الخَنَا أُنُفٌ ... إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَرُوا[٢]

---

(١) فضل حيائه: منصوب على أنه مفعول لأجله.

(٢) في رواية:

حُشْدٌ على الحَقِّ عَيَّافو الخَنَا أُنُفٌ ... إذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا

وعيافو الخنا: كارهون للذل. أُنف: أصحاب رفعة. وألمت: نزلت. والمكروهة: المصيبة.

شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم وأَعْظَمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا[(١)]

لابن هرمة

وقال إبراهيم بن عليّ بن هرْمَة[(٢)] يمدح أبا جعفر المنصور:

كَريمٌ له وَجْهَانِ: وَجْهٌ لدى الرضا طَليقٌ، وَوَجْهٌ في الكريهة بَاسِلُ
وَليس بِمُعْطِي الحقّ مِنْ غَيْرِ قُدْرَةٍ وَيَعْفُو إذا ما أمْكَنَتْهُ المَقَاتِلُ
له لحظاتٌ من حِفافي سَريرِهِ إذا كَرَّها فيها عِقَابٌ ونَائِلُ
فَأَمّ الذي أَمّنْتَ آمِنَةُ الرَّدى وَأَمّ الذي حَاولْتَ بِالثُّكْلِ ثَاكِلُ

لأبي تمام

وقال الطائي في أبي سعيد محمد بن يوسف[(٣)]:

هُوَ السيلُ إن واجَهْتَهُ أنْقَدْت طَوْعَهُ وَتَقْتَادُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ فَيَتْبَعُ[(٤)]

لعصابة الجرجاني في الحسن بن رجاء

وكان عصابة الجرجاني، واسمه إسماعيل بن محمد، منقطعاً إلى الحسن بن رجاء متصلاً به، وهو القائل فيه:

وَمُحجَّبٍ بالنورِ لَيْسَ بِمُدْرَكٍ إلا بما تَأْتِي به الأَنْبَاءُ
مَلِكٌ يُحِبُّ الله فهو يُحِبُّهُ وَيُطيعُهُ فَتُطيعُهُ الأَشْيَاءُ
يَمشي الهُوَيْنَا لِلصلاةِ يُقِيمُها وَإذا مَشَى لِلحَرْبِ فَالخُيَلاَءُ

---

(١) شمس العداوة: أشداء على العدو. يستقاد لهم: يُقَدَّمُ لهم الخضوع، وَيُسَلَّم بقيادتهم ورياستهم. والأحلام: جمع الحلم: العقل الراجح والتسامح.

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي: شاعر مفلق مجيد، من سكان المدينة. أدرك الدولتين الأموية والعباسية، وهو آخر الشعراء الذين يُحْتَجُّ بشعرهم. توفي سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٥/ ٢٣٤؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٦/ ١٢٧).

(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٠٠.

(٤) شَبَّه الممدوح بالسَّيْل، فقال: إنه لا يدفع ولا ينال منه بالعنف، كما أن السيل يقود من واجهه بالعنف، ويمرُّ به، فإذا خُوتِل وَأُتي من جانبيه أمكن اجتذاب السواقي منه.

لله دَرّك أيمـــا ابـــنِ عـــزيمـــةٍ يَثْـــوى الـــزمـــان ومَـــالَـــهُ إشْـــوَاءُ

ثم عتب عليه في بَعْضِ الأمر، فهجاه هجاءً قبيحاً؛ فهرب إلى عمان، ثم اعتذر إليه بقصيدته التي أولها:

لا تَخْضِبَـــنَّ عَـــوَالِـــيَ المُـــرّانِ إلا مـــن العلـــق النَّجِيـــع الآنِ(١)

وهي أجود شعر قيل في معناه، وهي التي يقول فيها:

إقـرَ السـلام علـى الأميـر، وَقُـلْ لَـهُ: إنَّ المنـادمـةَ الـرِّضـاعُ الثَّـانـي
مـا إنْ أَتَـى حَشَمِـي بِـأنّـك سَـاخِـطٌ حَتَّـى اسْتَخَـفَّ بِمَـوْضِعِـي غِلْمَـانِـي(٢)
وَغَـدتْ عَلَـيَّ مَطـاعِمـي ومَشَـارِبـي وَمـلابسـي مـن أَعْـوَنِ الأَعْـوَانِ

فكتب إليه الحسن:

أَبْلِـــغ أبـــا إسحـــاق أَنّ محلّـــهُ مِنّـــي بحيـــث الـــرأسُ وَالعينـــانِ
لا تَبْعِـــدنَّ بـــك الـــديـــارُ لِنَـــزْغـــةٍ وَلَـتُبْعِـــدَنَّ نَـــوازِغَ الشيطـــانِ
فَلْيُفْـــرِخ الـــرَّوْع الـــذي رُوِّعْتَـــهُ إنَّ المحـــلَّ مَحـــلُّ كـــلِّ أَمـــانِ(٣)

[بين جميل وعمر بن أبي ربيعة]

اجتمع جميل بن معمر العذري بِعُمَر بن أبي ربيعة المخزومي، فأنشده جميل قصيدته التي أولها(٤):

لَقَـدْ فَـرِحَ الـوَاشُـونَ أَنْ صَـرَمَـتْ حَبْلِـي بُـثَيْـنَـةُ أو أَبْـدَتْ لَنَـا جـانِـبَ البُخْـلِ(٥)
يَقُـولُـونَ: مَهْـلاً يـا جَمِيـلُ، وَإنَّنِـي لأُقْسِـمُ مَـالِـي عَـنْ بُثَيْـنَـةَ مِـنْ مَهْـلِ
خَلِيلَـيَّ فِيمـا عِشْتُمـا هَـلْ رأيْتُمـا قَتِيـلاً بَكَـى مِـنْ حُـبِّ قَـاتِلِـهِ قَبْلِـي

(١) عوالي المران: أطراف الرماح. والعلق: العلم. والنجيع: الدم، وقيل: دم الجوف خاصة، والآن: الحارّ.
(٢) الحشم: الخدم.
(٣) أفرخ روعه: خرج الفزع من قلبه وسكن.
(٤) جميل بن معمر، الديوان: ص ٩٨.
(٥) صرمت: قطعت.

نقله أبو العتاهية، فقال:

يـا مَـنْ رأى قَبْلـي قَتيـلاً بكـى ... مِـنْ شِـدَّةِ الـوَجْـدِ علـى القـاتـلِ

فلما أتمّها قال لعمر: يا أبا الخطاب، هل قلت في هذا الرويّ شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشده(١):

جَـرى نـاصِـحٌ بِـالـوُدِّ بينـي وَبَيْنَهـا ... فَعَـرَّضني يـوم الحِصَاب إلى قتلي(٢)

فمـا أنْـسَ م الأشيـاء لا أنْـسَ قـولَهـا ... وَمَـوْقِفها يـومـاً بقـارِعـة النخـلِ(٣)

فلمـا تَـواقَفْنَـا عَـرَفْـتُ الـذي بهـا ... كمثلِ الذي بي حَذْوَك النَّعْلَ بالنَّعْلِ(٤)

فَسلَّمْتُ واستـأنسـتُ خِيفَـة أَنْ يـرَى ... عَـدوٌّ مكـاني أو يَرَى حَـاسِـدٌ فِعْلِي(٥)

وأقبـلَ أَمثـالُ الـدُّمـى يَكْتَنِفْنَهـا ... وكـلٌّ يُفَـدِّي بـالمـودَّةِ والأَهْـلِ(٦)

فقـالـت وأرْخَـتْ جـانـبَ السِّتْرِ: إنمـا ... معـي فتكلَّـم غَيْـرَ ذي رِقْبَـةٍ أهلـي(٧)

فقـالـت لهـا: مـا بـي لَهُـمْ مِنْ تَـرقُّـبٍ ... وَلكـنّ سِـرِّي لَيْـسَ يَحْمِلُـهُ مِثْلِـي

فاستخذى جميل وصاح: هذا والله الذي طَلَبَت الشعراء فأخطأته، فتعلَّلُوا بوصف الديار، ونعت الأطلال.

ولما مات عمر بن أبي ربيعة نُعِيَ لامرأة من مولّدات مكة، وكانت بالشام، فبكت

---

(١) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ١٦١.

(٢) في الديوان: «فَقَرَّبني». ويوم الحصاب: يوم رمي الجمرات في مِنًى. يقول: لم أدر أن الناصح الذي أصلح بيني وبين محبوبتي يوم رمي الجمار بمنًى قد قربني من خطر القتل.

(٣) في الديوان:

فَمـا أَنْـسَ م الأَشْياءِ لا أَنْسَـى مَوْقِفي ... وَمَـوْقِفَهـا وَهْنـاً بِقَـارِعَـةِ النَّخْـلِ

الوَهْنُ: نحو نصف الليل، أو بعد ساعة منه. وقارعة النخل: عَرْضُهُ وَمُعْظَمُهُ.

(٤) تواقفنا: وقف كلٌّ تجاه الآخر. حذوك النعل بالنعل: مثل يضرب للمقاربة والمحاذاة.

(٥) استأنست: انتظرت قليلاً، تأنيت لأعرف الجواب. الكاشح: العدو المبغض. وفي الديوان: «أن يرى كاشح»، والكاشح: العدو المبغض.

(٦) في الديوان: «وَقُمْنَ إِلَيْها كالدُّمَى فَاكْتَنَفْنَهَا». والدمى: التماثيل. اكتنفنها: أَحَطْنَ بها. يُفَدِّي: يقول لها أفديك.

(٧) في الديوان: «فَتَحدَّث غير ذي رقبة أَهلي». وغير ذي رقبة أهلي: أي لا تخف رقابة أهلي.

وقالت: مَنْ لأَباطح مكة؟ ومن يَمْدحُ نساءَها، ويصفُ محاسنهن، ويبكي طاعتهن؟! فقيل لها: قد نشأ فتًى من ولد عثمان بن عفان[١] على طريقته، فقالت: أنشدوني له، فأنشدوها:

وَقد أرسلَتْ في السِّر لَيْلَى بأَنْ أَقِمْ ... وَلا تَقْرَبنَّا فالتجنُّبُ أَجْمَلُ
لَعلَّ العيونَ الرامقاتِ لِوَصْلِنَا ... تُكذبُ عَنَّا أو تَنامُ فَتغْفَلُ
أُناسٌ أَمِنَّاهُمْ فَبَثُّوا حَدِيثَنا ... فَلمَّا كتَمْنَا السرَّ عَنْهُمْ تَقَوَّلُوا
فما حَفِظوا العَهْدَ الذي كانَ بيْنَنا ... وَلا حِينَ هَمُّوا بالقطيعةِ أَجْمَلُوا

فتسلَّت وقالت: هذا أجلُّ عِوَضٍ، وأفضل خَلَف، فالحمدُ لله الذي خلف على حرمه وأُمته مثل هذا.

من شعر العرجي

وقال عروة بن أذينة: أنشدت ابن أبي عتيق للعَرْجي:

فما ليلةٌ عِنْدي وإنْ قِيل لَيلةٌ ... وَلا ليلةُ الأضْحَى ولا ليلةُ الفِطْرِ
بِعادلةِ الإثنين، عندي وَبالحرَى ... يَكُونُ سواءٌ مثلها ليلةُ القَدْرِ
وَما أَنْسَ مِ الأشياءِ لا أنس قَوْلَها ... لِجارتها: قُومِي سَلِي لي عن الوِتْرِ
فجاءتْ تقولُ الناس في سِتّ عشرةٍ ... وَلا تَعْجَلِي عَنْهُ فإنكِ في أجْرِ

فقال ابن أبي عتيق: هذه أفْقَه من ابن أبي شهاب: أُشهِدكم أنّها حُرَّة من مالي إن أجاز أهلها ذلك.

نسب العرجي وبعض أخباره

والعَرْجيُّ هو عبد اللَّه بن عمرَ بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان ينزل بِعَرْجِ الطائف فَنُسِبَ إليه، وهو القائل:

هَلْ في ادِّكَارِي الحبيبَ مِنْ حَرَجِ ... أمْ هَلْ لِهَمِّ الفؤادِ من فَرَجِ
أمْ كيفَ أنْسَى مَسِيرَنا حرماً ... يَوْم حَلَلْنَا بالنَّخْلِ مِنْ أَمَجِ[٢]

(١) هو أبو عمر، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان الأموي القرشي، الملقب بالعرجي، المتوفى نحو ١٢٠ هـ/ نحو ٧٣٨ م.
(٢) أمج: قرية كثيرة النخل والزرع، يسكنها قوم من قضاعة.

يَـوْمَ يقـولُ الـرسـولُ قـد أَذِنَـتْ فَـاتِ علـى غَيْـرِ رِقْبَـةٍ فَلِـجِ(١)
أَقْبَلْـتُ أَهْـوِي إلـى رِحَـالِهِـمُ أُهْـدَى إليها بِـرِيحِهـا الأَرِجِ(٢)

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم والياً على مكة ـ وهو خال هشام بن عبد الملك ـ بلغه أنّ العرجيّ هجاه، فضربه ضرباً مبرحاً، وأقامه على أعين الناس، فجعل يقول:

سَيَغْضَـبُ لـي الخليفـة بعـد رِقـيّ وَيَسْـأَل أَهْـلَ مَكَّـةَ عـن مَسَـاقـي(٣)
عَلـيَّ عبـاءَةٌ بَـرْقَـاءُ لَيْسَـتْ مِـنَ البَلْـوَى تُجَـاوِزُ نِصْـفَ سَـاقِـي
وَتَغْضَـبُ لـي بِـأُسْـرَتِهـا قُصَـيٌّ وَلاةُ الشعـبِ والطُّـرقِ العِمَـاقِ(٤)

فحلف محمد بن هشام ألا يخرجه ما دامت له ولاية، فأقام في السجن سبع سنين حتى مات، وهو القائل في سجنه:

أَضَـاعـونـي وأيّ فتَـى أضـاعـوا لِيَـوْمِ كَـريهـةٍ وَسِـدَادِ ثَغْـرِ(٥)
وَخَلَّـوْنـي وَمُعْتَـرك المنـايـا وَقـد شُـرِعَـتْ أَسنّتهـم لنَحْـرِي
كـأنـي لَـمْ أكـنْ فيهـم وَسِيطـاً وَلـم تَـكُ نِسْبَتِـي فـي آلِ عَمْـرو
أُجَـرَّرُ فـي الْجَـوامـع كـلَّ يـوم ألاَ لله مَظْلِمَتـي وَهَصْـري(٦)
عَسـى المَلِـكُ المجيـبُ لمـن دعـاهُ سَيُنْجِينـي فَيَعْلَـمُ كَيْـفَ شُكْـرِي
فَـأَجْـزِي بـالكـرامـة أهْـلَ وُدِّي وَأَجْـزِي بـالضغـائـنِ أهْـلَ ضُـرِّي

جملة من الفصول القصار لابن المعتز

البشر دالٌ على السخاء كما يدلُّ النَّوْر على الثمر. إذا اضطررت إلى الكذّاب فلا تصدّقه، ولا تُعْلِمْه أنك تكذِّبُه، فينتقل عن وُدِّهِ، ولا ينتقل عن طَبْعِه. كما أن الشمس لا

(١) الرقبة: الترقب والحذر. و«لج»: أمر من الولوج: الدخول.
(٢) أَرِجَ الطيبُ أَرجاً وأريجاً: فاح، وأرج المكان: انتشر فيه الطيب.
(٣) الرقّ: العبودية.
(٤) الشِّعْبُ: الطريق، والانفراج بين الجبلين.
(٥) الكريهة: الحرب، أو الشدّة في الحرب، والنازلة.
(٦) الجوامع: جمع الجامع: المسجد الذي تُصَلَّى فيه الجمعة، وأمر جامع: له خطر يجتمع لأجله الناس. والهَصْرُ: الكسر.

يَخْفَى ضوءُها وإن كانت تحت السحاب كذلك الصبيُّ لا تخفى غريزة عَقْلِه وإن كان مغموراً بأَخلاَقِ الحداثة. كَرَمُ الله عزّ وجل لا يَنْقُضُ حِكمته، ولذلك لا يجعل الإجابة في كل دعوة. كما أنّ جلاءَ السيف أَهْوَنُ من صُنْعه، كذلك استصلاح الصديق أَهونُ من اكتساب غَيْرِه. إذا استرجع اللَّهُ مواهبَ الدنيا كانت مواهب الآخرة. لولا ظلمةُ الخطأ ما أشرق نورُ الصواب. الحوادث المُمِضَّة[١] مُكْسِبةٌ لحظوظ جزيلة: من صوابٍ مدَّخر، وتطهيرٍ من ذَنْب، وتنبيه من غَفْلة، وتعريفٍ بقَدْرِ النعمة، ومُرُون على مُقَارَعَةِ الدهر.

ومثل هذا الفصل محفوظ عن ذي الرياستين، قاله بعقب عِلَّةٍ فأغار عليه ابن المعتز.

وكتب إلى أحمد بن محمد جواباً عن كتاب استزاده فيه: قَيِّدْ نِعْمَتِي عندك بما كنت استَدْعيتها به، وذُبَّ عنها أَسْبَابَ سوءِ الظن، وَٱسْتَدِمْ ما تُحِبُّ مني بما أُحبُّ منك.

وكتب إليه: واللَّهِ لا قَابَلَ إحسانَكَ مني كفرٌ، ولا تَبِعَ إحساني إليك مَنّ ولك عندي يدٌ لا أَقْبِضُها عن نفعك، وأُخْرَى لا أَبْسطُها إلى ظُلْمِكَ، فتجنَّبْ ما يُسْخِطني؛ فإني أصون وجهك عن ذُلّ الاعتذار.

وكان أحمدُ بن سعيد يؤدّبه فتحمل البلاذري على قبيحَةَ أم ابن المعتز بقوم سألوا أن تأذن له أن يدخلَ إلى ابن المعتز وقتاً من النهار، فأجابت أو كادَتْ تجيب، قال ابنُ سعيد: فلما اتصل الخبرُ بي جلستُ في منزلي غَضْبَانَ لما بلغني عنها، فكتب إليَّ ابن المعتز وله ثَلَاثَ عشر سنة:

أَصبحتَ يا بن سعيدٍ خِدْنَ مَكْرُمَةٍ ... عنها يُقَصِّرُ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ[٢]
سَرْبَلْتني حِكْمةً قَدْ هَذَّبَتْ شِيَمي ... وَأَجَّجَتْ نارَ ذَهْني فهي تَشْتَعِلُ[٣]
أكونُ إن شِئتَ قُسًّا في خَطَابَتِهِ ... أو حارثاً وَهو يَومَ الْحَفْلِ مُرْتَجِلُ
وَإن أَشأْ فِكْرَ زَيْدٍ في فرائِضِه ... أو مِثْلَ نُعْمَانَ لما ضَاقَتِ الحِيَلُ
أو الخليلَ عَرُوضيّاً أخا فِطَنٍ ... أو الكِسَائيّ نَحْويًّا لَهُ عِلَلُ
تَعْلُو بَدَاهةُ ذِهْنِي في مراكبها ... كَمِثْلِ ما عَرَفَتْ آبائيَ الأُوَلُ

(١) المُمِضَّةُ: المؤلمة.
(٢) الخدن: الصديق، والصديق في السرّ، والجمع: أَخدان.
(٣) سَرْبَلتني: ألبستني.

وَفــي فَمِــي صــارمٌ مَــاسلَّــهُ أحــدٌ من غِمْدِه فَدَرى ما العيشُ والْجَذَلُ[١]
عُقبــاكَ شُكْــرٌ طــويــل لا نَفَــادَ لــه يَبْقَــى بِجِــدَّتِــهِ مــا أَطَّــتِ الإبِــلُ[٢]

وقسّ الذي ذكر: هو قسّ بن ساعدة الإيادي، وقد سَمع النبيُّ ﷺ شِعْرَه، وعجب منه.

وحارث: هو الحارث بن حِلّزة اليشكري، وصف ارتجاله يوم فَخْرِه بقصيدته التي أنشدها بحضرة عمرو بن هند التي أولها[٣]:

آذَنَتْنَــا بِبَيْنِهَــا أسْمــاءُ رُبّ ثــاوٍ يُمَــلُّ منــه الثَّــوَاءُ[٤]

وزيد: هو زيد بن ثابت الأنصاري، وإليه انتهى علم الفرائض. ونعمان: هو أبو حنيفة النعمان ـ رضي الله عنه ـ بن ثابت، سبق أهْل العراق في الفِقْه. والخليل بن أحمد الفُرْهُودي، ويقال: الفَرَاهِيدي، منسوب إلى حيّ من الأزد، اليحمري. والكسائي: علي بن حمزة الكوفي.

[من ابن العميد إلى بعض إخوانه]

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانِه:

أنا أشكُو إليك ـ جعلني اللَّهُ فِدَاكَ ـ دهراً خؤوناً غَدُوراً، وزمَاناً خَدُوعاً غَرُوراً، لا يمنحُ ما يمنح إلا رَيْثَ ما ينتزع، ولا يبقى فيما يهب إلا رَيْث ما يَرْتَجع، يبدو خَيْرُه لُمَعاً ثم ينقطع، ويَحْلُو ماؤه جُرعاً ثم يَمتَنِعُ. وكانت منه شيمَةٌ مألوفة، وسجيَّةٌ معروفة، أن يشفع ما يُبْرِمُه بقُرْبِ انتقاض، ويُهْدِي لما يبسطه وَشْكَ انقباض، وكنا نَلْبَسُه على ما شرط وإن خان وقَسَط؛ ونَرْضى على الرغم بحكمه، ونَسْتَنِمّ بقَصْدِه وظلمه، ونعتدّ من أسباب المسرة ألاّ يجيء محذورهُ مصمتاً بلا انفِرَاج، ولا يَأتِي مكروهُه صِرْفاً بلا مِزَاج، ونتعلّل بما نختلِسه من غَفَلاَته، وَنَسْتَرِقُه من ساعاته. وقد استحدث غيرَ ما عرفناه سُنّةً مبتدعة، وشريعةً مُتَّبَعة، وأعَدَّ لكل صالحةٍ من الفساد حالاً، وقَرَن بكلّ خَلَّة من المكروه خِلاَلاً. وبيان ذلك

(١) الصارم: القاطع. والجَذَلُ: الفرح.
(٢) أَطَّت الإبل: أنّت من تعب أو ثِقَل حِمْلٍ أو حنين.
(٣) هي قصيدته المعلقة، التي ذكر معظم الرواة أنه ارتجلها بين يدي عمرو بن هند، وقالوا فيها: إنه لو نظمها في عام كاملٍ لم يُلَمْ لنفاستها وجودتها. أنظر شرح المعلقات العشر: ٣٣٣ ـ ٣٧٠.
(٤) آذنتنا: أعلمتنا. والبين: الفراق. والثاوي: المقيم، والثواء: الإقامة.

ـ جعلني الله فِداكَ ـ أنه كان يَقْنَعُ من معارضته الإلفين، بتفريق ذاتِ البَيْن، فقد أثنى مَمْنُوًّا فيك بجميع ما أوغرَه، وما أطويه من البَلْوَى منك أَكْثَرُ مما أنشُرُه، وأَحسبني قد ظَلَمْتُ الدهرَ بسوء الثناء عليه، وألزمته جُرماً لم يكن قدره بما يحيط به، وقدرته تَرْتَقِي إليه، ولو أنك أَعَنْتَه وظاهَرْتَه، وقصدت صرفه وآزَرْتَه، وبِعْتَني بِيع الخَلَقِ وليس فيمن زادَ ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني إعراضَ غير مراجع، واطَّرحتني اطراحَ غير مُجامل؛ فهلاَّ وجدت نفسك أهلاً للجميل حين لم تجِدْني هناك، وأَنْفَذْتَ من جلّ ما عقدت من غير جريمة، ونكثت ما عهدت من غير جريرة، فأَجِبْني عن واحدة منهما؛ ما هذا التَّغَالي بنفسك، والتّعالي على صديقك؟ ولِمَ نَبَذْتَنِي نَبْذَ النّواة، وطرَحْتَني طَرْحَ القَذَاة؟ ولم تَلْفِظني من فِيك، وتمجُّنِي من خَلْقِك؟ وأنا الحلال الحُلوُ، والبارد العذب، كيف لا تُخْطرني ببالك خَطْرة، وتُصَيِّرني من أشغالك مرة؛ فترسل سلاماً إن لم تتجسم مُكَاتَبَة، وتذكرني فيمَنْ تَذْكُر إن لم تكن مخاطبة؟ وأحسب كتابي سَيرِدُ عليك فتنكره حتى تتثبّت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتَصَوّر شخصه حتى تتذكّر؛ فقد صرت عندك ممن مَحَا النسيانُ صورتَه من صدرك، واسمَه من صحيفةِ حِفْظِك ولعلك أيضاً تتعجب من طمعي فيك وقد تولّيت، واستمالتي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد يتفجّر الصَّخْرُ بالماء الزلال، ويَلين مَنْ هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال، وآخر ما أقوله أنّ ودّي وَقْفٌ عليك، وَحَبْسٌ في سبيلك. ومتى عدت إليه وجدته غضًّا طريّاً، فجرِّبه في المعاودة فإنه في العود أَحْمَدُ.

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار.

حلّ قوله «فقد يتفجر الصَّخْرُ بالماء الزلال» من قول ابن الرومي(١):

يـــا شَبِيـــهَ البـــدرِ فـــي الحُســـ ـــنِ وَفـــي بُعْـــدِ المَنَـــالِ
جُـــدْ فَقَـــدْ تَنفجـــر الصَّخْـــ ـــرة بـــالمـــاء الـــزُّلالِ

وفي هذه الرسالة في ذكر فَتْح وإن لم يستبق منه المعنى:

وقد خصنا اللّهُ تعالى معاشرَ عُبُدِ الأمير عضد الدولة بنعمة يَعْلُو مراتبَ النعم مَوْقعُها، ويفوتُ مقدار المواهب موضعها، فباسْمِه ـ أبقاه الله ـ فُتح الفَتْح، وبشعارها استُنزل النّجْح، وَبِيُمْن نَقِيبته فُرِّجَ الكَرْب، وبسعادة جدّه كُشِفَ الخَطْب، وباهتزازه للدولة وحمايته عاد إليها ماؤها، وراجعها بهاؤُها، فَعزَّ الملك ونُصِر، وذلّ العدو وقُهِر، وحُمِيت أطرافُ الدولة،

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٥/٩٧.

وحُفِظت أكنافُ الملّةِ، واستجدّ نظام النعمة، وسُدِلَتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة؛ ولو جعل المولى ـ تقدّس اسمه ـ لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاءً غَيْرَ الإخلاص في شكره، وقَبِل ما في مقابلة المَوْهبة التي يستجدها عند خَلقه غيرَ الإغراق في حَمْده، لرأيت ألاَّ أقتصر في قضاء حقه على بعض الملك دون بعض، ولجعلت في صَدْرِ ما أبذل عن هذه النعمة الأعزَّيْن: الأهل والولد، والأنْصَرين: الساعد والعَضُد، بل العميدين: القلبُ والكبد؛ بل النفس كلها، والمُهْجَة بأسرها.

[من بديع ما قيل في العتاب]

لسعيد بن حميد

وقال سعيد بن حميد يعاتِبُ بعض إخوانه:

أَقلِلْ عتابك فالبقاءُ قليلُ ... والدَّهْرُ يعدِلُ تارةً ويَميلُ[(١)]
لم أَبْكِ من زمنٍ ذَمَمْتُ صُروفهُ ... إلاَّ بَكَيتُ عليه حينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ نائبةٍ ألمّت مُدّةٌ ... ولكل حالٍ أقْبَلَتْ تَحْويلُ
وَالمُنْتَمونَ إلى الإخاء جماعةٌ ... إنْ حُصِّلوا أفناهم التحصيلُ
وَلعلَّ أَحداثَ المنيَّةِ والرَّدَى ... يوماً سَتَصْدَعُ بيننا وَتَحُولُ[(٢)]
فَلئن سَبقْتُ لَتبكينّ بحَسْرةٍ ... وَليكثرنّ عليّ مِنْكَ عَويلُ
وَلتفجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لك وامقٍ ... حَبْلُ الوفاء بِحَبْلِهِ موصولُ[(٣)]
وَلئن سَبَقْتَ ـ ولا سبقت ـ لَيَمضيَنْ ... مَنْ لا يُشَاكِلُه لديَّ خليلُ
وَليذهبنَّ بَهاءُ كُلّ مُروءةٍ ... وَلَيُفْقَدنَّ جمالُها المَأْهولُ
وَأَراكَ تَكْلَفُ بالعتاب وَوُدُّنا ... ضافٍ عليه من الوفاء دليلُ[(٤)]
وِدٌّ بدا لِذَوِي الإخاءِ جمالُهُ ... وبَدت عليه بَهْجَةٌ وقَبولُ
وَلعل أَيسامَ الحياة قليلةٌ ... فَعَلامَ يكثر عَتْبُنَا ويَطُولُ

وقال أيضاً:

---

(١) عَدَلَ في أمْرِهِ عَدْلاً وَعَدَالَةً: استقام، وَعَدَل عَدْلاً وَعُدولاً: مال.
(٢) الرَّدَى: الهلاك. وَصَدَعَ القَوْمَ: فَرَّقَهُم.
(٣) الوامق: المُحبُّ، العاشق.
(٤) ضافٍ: سابغ.

لقد سائني أَنْ ليس لي عَنْكَ مَذْهَبُ وَلا لكَ عن سوءِ الخليقة مَرْغَبُ
أُفكّر في ودٍّ تَقَادَمَ بَيْنَنَا وَفي دُونِهِ قُرْبَى لِمَنْ يَتقرَّبُ
وَأَنْتَ سَقيمُ الودِّ رَثٌّ حِبالُهُ وَخيرٌ مِنَ الوُدِّ السقيم التجنُّبُ
تُسيءُ وتَأْبَى أَنْ تُعقِّبَ بَعْدَهُ بِحُسْنَى، وتَلْقَاني كأنيَ مُذْنِبُ
وَأَحْذَرُ إن جازيتَ بالسوءِ والقِلَى مَقالةَ أقوامٍ هُمُ مِنْكَ أَنْجَبُ[(١)]
أَساءَ اختياراً أو عَرَتْهُ مَلالَةٌ فَعادَ يُسيء الظنَّ أَو يتعتَّبُ
فَخِبْتُ من الودِّ الذي كانَ بيننا كما خابَ رَاجِي البرقِ والبَرْقُ خُلَّبُ[(٢)]

لعبيد اللَّه بن عبد اللّه بن طاهر

وقال عبيد الله بن عبد اللّه بن طاهر:

إلى كَمْ يكونُ الصَّدُّ في كُلّ ساعةٍ وَلِمْ لا تَملَّنَّ القطيعةَ والهَجْرَا؟
رُويدكَ! إنَّ الدهرَ فيه بَقِيَّةٌ لِتفريقِ ذاتِ البَيْنِ فَانتظرِ الدَّهْرَا

آخر:

وَلقد عَلِمْتَ فَلا تَكُنْ متجنِّباً أَنَّ الصدُودَ هو الفِرَاقُ الأَوَّلُ
حَسْبُ الأحِبَّة أَنْ يُفرِّقَ بينهم صَرْفُ الزمان، فما لنا نَسْتَعْجِلُ؟

آخر[(٣)]:

ذَرِ النفسَ تَأْخذ وُسْعَهَا قبل بَيْنِها فَمُفْتَرِقٌ جَارانِ دَارُهُما العُمْرُ[(٤)]

للمتنبي

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً[(٥)]:

---

(١) القلي: البغض.
(٢) الخُلَّبُ: السحاب يومض برقه حتى يرجى مطره، ثم يخلف وينقشع، ويقال: بَرْق خُلَّب، وبرْقُ الخُلَّب.
(٣) البيت للمتنبي، أنظر ديوانه: ١/ ٣٤٤.
(٤) ذر: دع، والوسع: الطاقة. والجاران: الروح والبدن، يجتمعان مدة العمر، فإذا فرغ افترقا. يقول: دع نفسك تأخذ ما يمكنها أخذه من لذة أو مال أو سلطان، فإنها غير باقية مع الجسد.
(٥) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٢٤. والبيتان من قصيدة قالها في مدح سيف الدولة سنة ٣٥٢ هـ/ ٩٦٣ م، بعد مفارقته لكافور، وعودته إلى الكوفة.

زَوِّدِينَا مِن حُسْنِ وَجْهِك ما دَا مَ فَحُسْنُ الوجُوهِ حالٌ يَحُولُ(١)
وَصِلِينَا نَصِلْكِ في هذِهِ الدُّنْـ ـيَا فإِنَّ المُقَامَ فيها قَلِيلُ(٢)

[من كلام الأعراب]

وقف أعرابيٌّ يسألُ، فَعَبث به فتى، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني عامر بن صعصعة، فقال: من أيّهم؟ فقال: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة، فليس مقامي بمقام مُجَادَلة ولا مفاخرة، وأنا أقولُ: فإن لم أكن من هاماتهم فلستُ من أَعجازهم. فقال الفتى: ما رويتَ عن فضيلتك إلا النقص في حسبك. فامتعض الأعرابي لذلك؛ فجعل الفتى يَعْتذِر، ويخلط الهَزْل والدعابة باعتذاره، وأطَال الكلام، فقال له الأعرابي: يا هذا، إنك منذ اليوم آذيتني بِمَزْحِك، وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جَهْلِك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُره من أمرك، وَيْحك! إنَّ الجاهل إن مَزَحَ أسْخَط، وإن اعتذر أفرط، وإن حدّثَ أسقط، وإن قدَر تسلّط، وإن عزم على أمرٍ تورَّط، وإن جلس مجلس الوقار تبسَّط؛ أعوذُ منك ومن حالٍ اضطرتني إلى احتمالِ مثلك!

وقال إسحاق الموصلي: قال أعرابي لرجل كان يعتمده بالعطية: أسأل الذي رحمني بك أن يرحمَك بي.

وسأل أعرابي رجلاً، فأعطاه، فقال: الحمد لله الذي ساقني إلى الرزق وساقَك إلى الأجر.

[المقامة البَلْخِيَّةُ]

ومن إنشاء البديع من مقامات الإسكندري:

قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: أَفْضَتْ بي إلى بَلْخ تجارة البَزّ، فوردتها وأنا بِفَرْوَةِ الشباب(٣) وبَالِ الفراغ، وحِلْية الثروة، لا يهمُّني إلا نزهة فكر أستفيدها وشَريدة من الكلام أصيدها؛ فما استأذن على سَمْعِي مسافةَ مُقامي، أفصحُ من كلامي. ولَمّا حَنَى التفرقُ بنا

(١) في الديوان: «حال تحول». دام: فعل ماضي تام، والضمير فيها للحسن. وتحول: تتغير.
(٢) نَصِلْكِ: جواب الأمر. والمُقام (بالضم): مصدر ميمي بمعنى الإقامة.
(٣) الفروة: الشعر. وفي رواية: «وأنا بعذرة الشباب». والعذرة: الناصية، وهي الخصلة من الشعر في مقدم الرأس.

قَوْسَهُ أو كاد، دخل إليَّ شابٌّ في زي مِلْء العَيْن، ولحية تَشُوكُ الأَخْدَعَيْن(١)، وطَرْفٍ قد شرب بماء الرَّافدين(٢)، ولَقِيَني من البِرِّ في السناء، بما زِدْتُه من الشكر والثناء؛ ثم قال: أظَعْناً تُرِيد؟ قلت: إي والله، فقال: أخصَبَ الله رَائِدَك، ولا أضلّ قائِدَك، فمتى عزَمْتَ؟ فقلت: غداةَ غد، فقال:

صَبَاحُ اللَّهِ لا صُبْحُ انطلاقِ ... وَطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

قال: أين تريد؟ قلت: الوطن، قال: بُلِّغْتَ الوَطن، وقضَيتَ الوَطَر، فمتى العَوْد؟ قلت: القابل، قال طَوَيْتَ الرَّيْط(٣)، وثنَّيتَ الخيط، فأين أنت من الكرم؟ قلت: بحيث أردت، قال: إذا رجعك الله من هذه الطريق، فاستَصحِب لي عدُوًّا في بُرْدَةِ صديق، من نِجَار الصُّفْر، يدعو إلى الكُفْر، ويرقُص على الظُّفْر، كدَارة العين، يحطُّ ثِقَلَ الدّين، وينافقُ بوَجْهَيْن! فعلمت أنه يلتمس ديناراً، قلت: لك ذلك نقداً، ومثله وَعْداً، فأنشأ يقول:

رَأْيُكَ مِمَّا خَطَبْتُ أعلى ... لا زِلْتَ لِلمَكْرُمَات أَهْلا
صَلُبْتَ عُوداً وَفُقْتَ جُوداً ... وَطِبْتَ فرعاً وَطِبْت أصلاً
لا أستطيعُ العَطاء حَمْلاً ... ولا أطِيقُ السؤال ثِقْلاَ
قَصُرْتُ عَنْ مُنْتَهَاكَ ظَنّاً ... وطُلْتُ عما ظَنَنْتَ فِعْلاَ
يا رَحْمَةَ الله والمَعَالي ... لا لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْكَ ثُكْلاَ(٤)

قال عيسى بن هشام: فَنُلْتُه الدينار، وقلت: من أين نَبتَ هذا الفَضل؟ قال: نَمَتني قريش، ومُهد لي الشرفُ في بَطْحَائها. فقال بعض من حضر: أَلَسْت أبا الفتح السكندري؟ أَلم أَرَك بالعِراق، تطوف بالأسواق، مُكَدِّياً بالأوراق(٥)؟ فأنشأ يقول:

إنَّ للّهِ عبيداً ... أَخَذوا العُمْرَ خَلِيطا
فَهُمُ يُمْسُون أَعرابا وَيُضْحُون نَبيطا(٦)

---

(١) الأخدعان: عرقان في صفحة العنق.
(٢) الرافدان: دجلة والفرات.
(٣) الريط: جمع ريطة، وهي الملاءة. وفي العبارة كناية، فهو يدعو له بأن يطوي أيام البعد عن أهله.
(٤) في رواية: «يا رُجْمَةَ الدَّهرِ وَالمَعَالي»، والرُّجْمَةُ: ما يُبْنَى تحت النخلة الكريمة لتعتمد عليه إذا ثقل حملها، أو ضعف احتمالها.
(٥) كدى الرجل تكدية: سأل.
(٦) النبيط: جماعة من العجم كانوا يسكنون سواد العراق.

[من البديع إلى الميكالي]

كتابي أطال اللَّهُ بقاءَ الشيخ الجليل، والماءُ إذا طال مُكْثُه، ظَهَرَ خُبْثُهُ، وإذا سكن مَتْنُه، تحرَّك نَتْنُه، كذلك الضيفُ يَسْمُج لقاؤه، إذا طال ثَوَاؤه[١]، ويثقل ظِلّه، إذ انتهى مَحَلّه؛ وقد حلبْت أَشطر خمسة أَشْهر بهَرَاة وإن لم تكن دار مثلي لولا مُقامهُ، وما كانت تسعني لولا ذِمَامُه، ولي في بَيْتَيْ قيسٍ مَثَلُ صدق، وإن صَدَرَا مَصْدَر عِشْق:

وَأَدْنَيْتِنِي حَتّى إذا ما سَبَيْتِني ... بِقَوْلٍ يُحِلّ العُصْمَ سَهْلَ الأَبَاطِحِ[٢]
تَجافَيْتِ عنّي حَيْثُ لا لِيَ حِيلةٌ ... وَخَلَّفْتِ ما خَلَّفْتِ بين الجوانِحِ

نعم، قنصتني نِعَمُ الشيخ الجليل، فلمَّا عَلِقَ الجناح، وقَلِقَ البَرَاح، طرت مطارَ الريح، بل مطارَ الرّوح. وتركتني بين قوم ينقض مَسُّهم الطهارَةَ، وتُوهِن[٣] أكفُّهم الحجارة. وحُدِّثت عن هذا الخليفة، بل الجيفة[٤]، أنه قال قضيت لفلان خمسين حاجةً منذ ورد هذا البلد، وليس يَقْنع، فما أصنع؟ فقلت: يا أحمق، إن استطعت أن تراني محتاجاً، فاستطع أن أراك محتاجاً إليك. أفّ لقولك ولفعلك؛ ولدهر أَحْوَج إلى مثلك! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يُبيِّضَ وجهي بكتاب يُسَوِّد وجهه، ويعرّفه قَدْره، ويملأ رعباً صدره، إلى أن تَبين على صفحات جَنبه، آثارُ ذنبه.

وله إليه يعاتبه:

قد عرف الشيخ الجليل اتّسامي بعبوديّته، ولو عَرَفْتُ وراءَ العبوديّة مكاناً لبلغته معه، وأراني كلما قدمت صُحْبة، رجعت رُتْبة، وكلما طالت خِدْمة، قَصُرتْ حِشمة، ولست ممن يذهب عليه أن للسلطان أَنْ يرفع عَبْداً حبشياً، ويَضَع قُرَشياً، ولكن أحب أن أقف من مكاني على رُتْبةٍ كوكبها لا يغور، ومنزلةٍ لَوْلَبُها لا يَدُور؛ فإذا عرفت قَدري وخطه، لم أتخطَّه، ثم إن رأيت محلّي وحدّه، لم أتعدَّه، إن قدَّمني يوماً عليها علمت أن عنايةً قدمتني، وإن أخرّني عنها علمت أنّ جناية أخرتني. رُفع عليّ اليوم فلانٌ ولستُ أُنْكِر سِنَّه وفَضْلَه، ولا أجحد بيته

(١) الثواء: الإقامة.
(٢) سبيتني: أسرتني. العُصْمُ: جمع أعصم، وقد عَصِم الحيوان عَصَماً: كان في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر، ويقال: ظبي أعصم، وفرس أعصم، والأعصم: الوعل.
(٣) توهن: تضعف.
(٤) الجيفة: جثة الميت إذا أنتنت، والجمع: جِيَفٌ.

وأصله، ولكن لم تَجْرِ العادة بتقدّمه، لا في الأيام الخالية، ولا في هذه الأيام العالية؛ وشديدٌ على الإنسان ما لم يُعوّد؛ فإن كان حاسدٌ قد همّ، أو كاشح قد نمّ[١]، أو خَطْبٌ قد ألمّ، أو أمرٌ قد وقع وتمّ، فالشيخُ الجليلُ أولى من يعرفه ويعرّفنيه، وإلا فما الرأي الذي أَوْجَب اصطناعي، ثم ضياعي، والسبب الذي اقتضى بيْعِي بعد ابتياعي؟

[بين المأمون وإبراهيم بن المهدي]

ولما رضي المأمون عن إبراهيم بن المهدي أمر به فأُدْخِل عليه، فلما وقف بين يديه قال: وَليُّ الثأر محكّم في القصاص، ومَنْ تَناوَله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الرجاء أَمِن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك اللَّهُ تعالى فوق كل ذي ذنب، كما جعل كلَّ ذي ذَنْب دونك، فإن أخذتَ فبحقِّك، وإن عفوت فبفضلك. ثم قال:

ذَنْبي إليك عظيمٌ وأَنْتَ أعظم مِنْهُ
فَخُذْ بِحقِّكَ، أوْ لا فَاصْفَحْ بِفَضْلِك عَنْهُ
إن لم أَكنْ في فعالي مِنَ الكرام فَكُنْهُ

فقال لي: إني شاورتُ أبا إسحاق والعباس في قَتْلِك، فأشارا به، قال: فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت لهما: بدأناه بإحسان، ونحن نَسْتَأْمِره فيه، إن غيَّر فالله يغير ما به، قال: أما أن يكونا قد نصحا في عظيم ما جَرَت عليه السياسة فقد فعلا وبَلغا ما يبلغك، وهو الرأيُ السديد، ولكنك أبيت ألا تستجلب النصر إلاَّ من حيث عوّدك الله. ثم استَعْبَر باكياً، فقال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جَذَلا! إذ كان ذَنْبي إلى مَنْ هذه صفته في الإنعام، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جُرْمي استحلال دمي، فَعِلْمُ أمير المؤمنين وفَضْلُه بلغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحقُّ الأبوة بعد الأب. فقال: يا إبراهيم، لقد حُبِّبَ إليّ العفو حتى خِفْتُ ألاَّ أُوجَر عليه، أما لو علم الناسُ ما لنا في العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنايات، لا تَثْريبَ عليك يغفر الله لك، ولو لم يكن في حقّ نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لَبَلَّغكَ ما أملّت حسنُ تنصلك ولطف توصلك ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله، فقال:

---

(١) الكاشح: العدو المبغض. وَنَمَّ بين القوم: حَرَّشَ وأغرى، وَنَمَّ الحديث: سعى به ليوقع فتنةً بين الناس.

رَدَدْتَ مالي ولم تَبْخَلْ عليَّ بهِ وَقبل رَدِّك مالي قد حَقَنْتَ دمي[١]
وَقام عِلْمُكَ بي فَاحْتَجّ عِنْدَكَ لي مَقام شاهِدِ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَمِ
فَلَوْ بَذَلْتُ دمي أبغي رضاكَ بهِ والمالَ حتى أسلَّ النَّعْلَ من قَدَمي
ما كان ذاك سِوَى عاريّة سَلَفَتْ لو لم تَهبْهَا لَكُنْتَ اليوم لم تُلَمِ

أخذ معنى قول المأمون: «لقد حُبّب إليّ العفو حتى خفت ألا أُوجر عليه» أبو تمام الطائي فقال[٢]:

لو يَعلمُ العافون كم لكَ في النَّدى مِنْ لَذَّةٍ وَقريحةٍ لم تَحْمُدِ[٣]

فكان أبو تمام في هذا كما قال أبو العباس بن المعتز في القاسم بن عبيد الله:

إذا ما مَدحْنَاهُ اسْتَعنَّا بفِعْلِه فَأخذُ معنى قَوْلِنا مِنْ فِعَالِه

وكان تصويبُ إبراهيم لرأي أبي إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون ألطفَ في طلب الرضا ودَفْع المكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من الإزراء عليهما في رأيهما، وكان إبراهيم يقول: والله ما عفا عني لِرَحِمٍ ولا لمحبةٍ؛ ولكن قامت له سوقٌ في العفو كَرِه أن يفسدها [بي].

وكان المأمون شاور في قتل إبراهيم أحمدَ بن أبي خالد الأحول، فقال: إن قتلتَه فلك نظير؛ وإن عفوتَ عنه فلا نَظيرَ لك؛ فأخْتار لك العفو.

[بين المأمون وإسحاق بن العباس]

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبني أغفلت أَمْر ابن المهدي وتأييدك له، وإيقادَك لِناره.

قال: والله يا أمير المؤمنين لَإجرامُ قريش إلى رسول الله ﷺ أعْظمُ من جُرْمي إليك؛ ولرَحِمي أمسّ بك من أرحامهم؛ وقد قال لهم كما قال يوسفُ؛ على نبينا وعليه الصلاة والسلام لأخْوَته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٤]. وأنْت

(١) حقنت دمي: منعته أن يُسْفَك.
(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٦٧.
(٣) العافون: طالبو المعروف. وفي الديوان: «لم تُحْمَدِ».
(٤) سورة يوسف، آية (٩٢).

يا أمير المؤمنين أَحَقُّ وارثٍ لهذه الأمة في الطَّوْل[١]، وممثل لخلال العَفْو والفَضْل.

قال: هيهات! تلك أجرامٌ[٢] جاهلية عَفَا عنها الإسلام، وجُرْمُك جُرْمٌ في إسلامك، وفي دارِ خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين؛ فوالله للمسلم أحقّ بإقالة العَثْرَة وغُفْرَان الذنب من الكافر. وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٣]. والناسُ يا أميرَ المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر، والشريف والمشروف.

قال: صدقت، وَرِيَتْ بك زنادي، ولا بَرِحْتُ أرى من أهلك أمثالك.

[رجل يستعطف بعض الملوك]

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه: أسألك بالذي أنت بين يديه غَداً أذَلُّ مني بين يديك اليوم، وهو على عقابك أَقْدَرُ منك على عقابي، إلا ما نظرتَ في أمري نَظَرَ من بُرْئي أحبُّ إليه من سُقْمي، وبراءتي أحبُّ إليه من بليتي.

[بين معاوية وروح بن زنباع]

وأَراد معاوية عقوبة روح بن زنباع فقال: يا أمير المؤمنين: أنشدك الله تعالى ألّا تضع مني خَسيسة أنتَ رفعتها، أو تنقض مني مَرِيرة[٤] أنتَ أبرمتها، أو تشمت بي عدوًّا أنت كَبَتَّه[٥]، وحاسداً بك وَقَمْتَه[٦]؛ وأَسألك بالله إلا أَرْبى[٧] حِلْمُك على خطئي وصفحك على جَهلي.

(١) الطَّوْلُ: الفَضْلُ والغِنَى واليُسْرُ.
(٢) الأجرام: جمع الجُرْم: الذنب.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان (١٣٣ و ١٣٤).
(٤) المريرة (في الأصل): الحبل المحكم الفتل.
(٥) كَبَتَّهُ: أَغظته وأَذللته وأخزيته، ومنه: كبت الله العَدُوَّ: رَدَّهُ بِغَيْظِهِ. وفي التنزيل العزيز: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الذين كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبوا خَائِبين﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٢٧).
(٦) وَقَمْتُهُ: قهرته وأذللته.
(٧) أَربى: زاد.

فقال معاوية رضي الله عنه: إذا الله ثنّى عقد شيء تيسّرا.

أشار إلى هذا أبو الطيب المتنبي إذ قال[١]:

أزِل حَسَدَ الحُسَّادِ عنـي بِكَبْتِهِـمْ فـأنْتَ الـذي صَيَّرْتَهُـم لِـيَ حُسَّـدَا[٢]
إذا شَـدَّ زَنْـدي حُسْـنُ رَأيِـك فـي يَـدِي ضَـرَبْتُ بِسَيْـفٍ يَقْطَـعُ الْهَـامَ مُغْمَـدَا[٣]

[عفو الملوك]

المأمون وبعض خاصته

وعَتَب المأمون على بعض خاصته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قديم الحرمة وحديث التوبة يَمْحُوَان ما بينهما من الإساءة. قال: صدقت، وعفا عنه.

بعض ملوك فارس

وكان في ملوك فارس ملك عظيم المملكة، شديدُ النقمة، فقرَّبَ له صاحبُ المطبخ طعامه، فنقطت نُقْطَةٌ من الطعام على المائدة، فَزَوى له الملك وَجْهَه، وعلم صاحبُ المطبخ أنّه قاتله، فعمد إلى الصَّحْفَة[٤] فكفأَها على المائدة ثم ولّى، فقال له الملك: ما حَملك على ما فعلت، وقد علمتُ أَن سقوط النّقطة أخطأَتْ بها يدك ولم يَجْرِ بها تعمُّدك، فما عندك في الثانية؟ قال: استحَيتُ للملك أنْ يُوجِب قتلي، وَيُبيح دَمَ مثلي، في سنّي وحُرْمتي، وقديم اختصاصي وخِدْمتي، في نُقْطة أَخْطأَتْ بها يَدي، فأَرَدْتُ أن يَعْظُمَ ذَنبي ليَحْسُنَ بالملك قَتْلي.

قال: لئن كان اعتذارُك يُنْجِيك من القتل، فليس يُنْجيك من التأديب؛ اجلدوه مائةَ جَلْدة، واخلعوا عليه خلع الرِّضَا.

---

(١) المتنبي، الديوان: ٢/ ١٤٧. والبيتان من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، ويهنئه بعيد الأضحى المبارك سنة ٣٤٢ هـ/ ٩٥٣ م.

(٢) يقول: أنت صَيَّرتهم حاسدين لي بما أفضت عليَّ من نعمتك وإحسانك، فاصرف شرَّ حسدهم عني بإذلالهم وردّ كيدهم عليهم.

(٣) الهام: الرؤوس. يقول: إذا آنست منك انحرافاً عنهم، كفاهم ذلك خذلاناً بين يدي، حتى لو ضربتهم بسيفي وهو في غمده لقطع.

(٤) الصَّحْفَةُ: إناء من آنية الطعام، والجمع: صِحَافٌ.

بهرام جور

وخرج بهرام جور متصيداً فعنّ له حمار وَحْشٍ، فأتبعه حتى صَرعه، وقد انقطع عن أَصحابه، فنزل عن فَرسه يريدُ ذَبْحَهُ، وبَصُرَ براعٍ فقال: أَمْسك عليّ فرسي، وتشاغل بذبح الحمار، وحانَتْ منه التفاتة، فنظر إلى الراعي يقطع جَوْهَر عِذار فرسه، فحوّل بهرام جور وَجْهَهُ وقال: تأَمُّلُ العيبِ عَيْب، وعقوبةُ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سَفَه، والعفوُ من أَفعال الملوك، وسُرْعَة العقوبة من أَفعال العامة.

ثم قال: يا غلام، ما بال شِرْيَانِك يضطربُ لعلّك آذاك تكسيرُنا أرْضك بحوافر خَيْلنا، فقال: نعم، وقد عزمتُ على أن أنقلع مائةَ فرسخ، فقال بهرام: لا تُرَع؛ فهذا الموضع وما فيه لك، وكان الراعي خبيثاً، فقال: إن الملوك إذا قالت قولاً تَمَّتْ على قولها، فرجع بهرام إلى عسكره وقال: اتبعني لأُوثِّقَ لك من هذه الأرض، فاتّبعه، فلما بَصُر به الوزير قال: أيها الملك السعيد، إني لأَرى جَوْهَر عِذار فرسك مُقَلّعاً، فتبسم وقال: أخذه من لا يردّه، ورآه من لا ينمّ به، فَمَنْ أخذه صاحبُنا ولا نُطالبه به.

* * *

نقل ابن الرومي قول بهرام: «تأمل العيب عَيْبٌ» كما اتفق موزوناً فقال[١]:

تَأَمُّلُ الْعَيْبِ عَيْبُ ... مَا فِي الذي قُلْتُ رَيْبُ[٢]
وَكُلُّ خَيْرٍ وَشَرٍّ ... دُونَ العَوَاقِبِ غَيْبُ[٣]
وَرُبَّ جِلْبَابِ هَمٍّ ... فيه مِنَ الصُّنْعِ جَيْبُ[٤]
لا تَحْقِرنَّ سُبَيْباً ... كم قادَ خَيْراً سُبَيْبُ[٥]

أخذ البيت الأخير من قول الطائي:

رُبَّ قليلٍ غداً كثيراً ... كَمْ مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ

(١) ابن الرومي، الديوان: ١/ ١٣٥.
(٢) في الديوان: «وَلَيْسَ في الحَقِّ رَيْبُ». والريب: الشَّكُّ والظِنَّة.
(٣) في الديوان: «خَلْفَ العَوَاقِبِ غَيْبُ». والغيب: الشكُّ، وكل ما استتر عن العين.
(٤) في الديوان: «يا رُبَّ غُمَّةِ خَطْبٍ». والغُمَّةُ: الحزن. والخطب: الأمر العظيم. وأراد بالصنع: صنع الخالق عَزَّ وجَلَّ. والجيب: كناية عن الفرج.
(٥) تحقرن: تستصغرن. وَسُبَيْبٌ: تصغير سَيْب، وهو العطاء. وفي الديوان: «كَمْ جَرَّ نَفْعاً سُبَيْبُ».

وقوله[١]:

لا تُـزِيلَـنْ صَغِيـرَ هَمّـكَ وَانْظُـرْ كَمْ بـذي الأَثْـل دَوْحَـةً مِـنْ قَضِيـبِ[٢]

وقد أعاد ابن الرومي قوله:

وَكُـلُّ خَيْـرٍ وَشَـرٍّ دُونَ الْعَـوَاقِـب غَيْـبُ

في قصيدته التي مدح بها أحمد بن محمد بن ثوابة حين ساوره، وقال: لو أتى لبيد لتعجَّب منه، فاستجزله وقال[٣]:

ولَمّـا دَعَـانِـي للمَثُـوبَـةِ سَيِّـدٌ يَرَى الْمَدْحَ عَاراً قَبْلَ بَذْلِ المَثَاوِبِ[٤]
تَنَـازَعَنِـي رَغْـبٌ ورَهْـبٌ كِـلاهُمـا قَـوِيٌّ، وَأَعْيَـانِـي طُلُـوعُ الْمَعـايِـبِ[٥]
فَقَـدَّمـتُ رِجْـلاً رَغْبَـةً فـي رَغِيبَـةٍ وأَخَّـرْتُ رِجْـلاً رَهْبَـةً لِلْمَعَـاطِـبِ[٦]
أَخَـافُ عَلـى نَفْسِـي وأَرْجُـو مَفَـازَهَـا وأَسْتَـارُ غَيْـبِ اللَّـهِ دُونَ الْعَـوَاقِـبِ[٧]
أَلاَ مَـنْ يُـرِينـي غَـايَتـي قَبْـلَ مَـذْهَبـي وَمِـنْ أَيْـنَ وَالْغَـايَـاتُ بَعْـدَ المَـذَاهِـبِ[٨]

[من اعتذاراتِ البديع]

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبي علي إسماعيل يعتذرُ إليه:

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ١١٩. والبيت من قصيدة يمدح بها سليمان بن وهب.
(٢) الهَمُّ هنا، بمعنى الهمة، أو بمعنى الحزن. الأَثل: ضرب من الشجر. الدوحة: الشجرة العظيمة. يقول: لا تهمل نظرك في صغير هَمِّك، فإن كان خيراً فإنه يثمر، وتعظم المنفعة به، وإن كان مما يحذر فإنه لا يؤمن أن يغلب ويتفاقم.
(٣) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٢٢٠.
(٤) المثاوب: جمع مثوبة: المكافأة، الجزاء.
(٥) في الديوان: «وأعياني اطلاع المغايب». تنازعني: تجاذبني. الرغب: الرغبة. والرهب: الرهبة: الخوف. وأعياني: جعلني عاجزاً. واطلاع المغايب: معرفة الغيب.
(٦) الرغيبة: الأمر المرغوب فيه. والمعاطب: المزالق.
(٧) مفازها: فوزها، والوصول إلى مبتغاها.
(٨) يقول: من ذا يدلني على مصيري قبل اختيار طريقي، ولكن كيف ذلك؟ فالنتائج لا بُدَّ أن تسبقها مقدمات.

سوءُ الأَدب من سكر النَّدْب، وسكر الغضب من الكبائر التي تَنالُها المَغْفِرَة، وتَسَعُها المَعْذِرَة، وقد جرى بحَضْرةِ الشيخ ما جَرَى، وقد أَفْنَيْتُ يدي عضًّا، وأسناني رَضّاً، وإن لم أوف ما جَرَى فالعُذْرَ أَمَدّ خطا، فإنْ كان بِساطاً يطوى، وحديثاً لا يُرْوَى، فأَوْلى مَن عَذَرَ اللاعب، وأَحْرَى من غَفَر الصاحب؛ وإن كان ميتاً يُنْشَر، وسبباً يُذْكَر، فلْيَكن العقابُ ما كان، إن لم يكن الهجران، على أني قد أَخذت قِسْطِي من العقاب، واستَفَدْت من ردِّ الجواب، ما كفى وأَوْجَعَ القَفَا؛ فكان من مُوجب أدب الخِدْمَةِ، إبقاءُ الحِشمة لوليّ النعمة، باحتمال الشَّتْم، والإغضاء عن الخَصْم، لكنني أَحْدَقَتْ بي ثلاثة أحوال لا يَسْلَمُ صاحبها: اللعب وسكره، والخصم وهُجْره، والإدلال والثقة، وهُنَّ اللواتي حملنني على ماء الوَجْهِ فَهَرَقْتُه، وحجابِ الحشمة فَخَرَقْتُه، وقد منعني الآن فَرْطُ الحياءِ من وَشْكِ اللقاء، وعَهْدِي بوجهي وهو أَصْفَقُ من العُدم الذي حملني على جَهْلِه، وأَوْقَحُ من الدهر الذي أَحوجني إلى أَهله؛ لكن النعم إذا توالَتْ على وَجْهٍ رقَّقت قِشْرَته، وأَلانت بَشَرته؛ وأنا منتظرٌ من الجواب ما يريش جَنَاحِي إلى خِدْمَته، فإنْ رأى أن يَكتب فَعل، إن شاء الله.

وله رقعة إلى أبي علي بن مشكويه أولها[١]:

ويا عَزّ إن وَاشٍ وَشَى بيَ عِنْدَكُمْ   فلا تُمْهِلِيهِ أَنْ تَقُولي له: مَهْلاَ
كما لَوْ وَشَى وَاشٍ بِعَزَّةَ عِنْدَنا   لَقُلْنا: تَزَحْزَح لا قريباً ولا أَهْلاَ

بلغني أَطال اللَّهُ بقاءَ الشيخ أن قِيضَة كَلْب[٢] وافَتْهُ بأحاديث لم يُعِرْها الحقُّ نورَه، ولا الصدقُ ظهورَه، وأنه ـ أدام الله عزّه ـ أذن لها على مَجال أذنه، وفسح لها فِناء ظَنّه، ومعاذ الله أن أقولها، وأستجيز معقولها؛ بل قد كان بيني وبين الشيخ عِتَابٌ لا ينزل كنَفه ولا يجدف، وحديث لا يتعدَّى النفسَ وضميرها، ولا يعرف الشفة وسَميرها، وعَرْبَدة كَعَرْبَدَة أَهْل الفضل، لا تتجاوزُ الدّلال والإدلال، ووحشة لا يشكفها عتابُ لَحْظة، كعتاب جَحْظة، فسبحان مَنْ رَبّى هذا الأمرَ حتى صار أمراً، وتأبّط شرًّا، وأَوْجَب عُذْراً، وأوحش حُرًّا. وسبحان مَنْ جعلني في حَيّزِ العدو أَشِيم بَارِقَته، وأتخوّف صَاعِقَته، وأَنَا المُسَاءُ إليه، والمجنيُّ عليه، ولكن من بُلي من الأعداء بمثل ما بُليت، ورُمي من الحسد بما رُميت، ووقف من التوحّد والوحدة حيث وقَفْت، واجتمع عليه من المكارِهِ ما وَصَفْت، اعتذر

---

(١) البيتان لِكُثَيِّر عزَّة، الشاعر الاموي المشهور.
(٢) القِيضَة: قطعة صغيرة من العظم، والكلام على التشبيه.

مظلوماً وضَحِك مشتوماً، ولو علم الشيخُ عددَ أولاد الجدد، وأبناء العدد، بهذا البلد، ممن ليس له همٌّ إلاّ في سعاية أو شكاية أو حكاية أو نكاية، لضنَّ بعِشْرَة غريب إذا بدر، وبعيد إذا حضر، ولصَان مجلسه عمن لا يَصُونُه عما رقي إليه، وهَبْني قد قلت ما حكى، أليس الشَّاتِمُ مَنْ أسْمع، والجاني مَنْ أبلغ؟ فقد بلغ مِنْ كيد هؤلاء القوم أنهم حين صادفوا من الأستاذ نفساً لا تُستفز، وجبلاً لا يهزّ، وشَوْا إلى خدمه بما أرّثوا نارهم[١]، وورد عليّ ما قالوه فما لبثت أن قلت:

فَإِنْ تَكُ حَرْبٌ بين قومي وَقَوْمَها ... فإنِّي لَهَا في كُلِّ نائبةٍ سَلْمُ

وليعلم الأستاذ أنَّ في كبد الأعداء مني جَمْرة، وأنَّ في أولاد الزنا عندنا كَثْرة، وقُصاراهم نارٌ يَشُبُّونها، وعقرب يُدَبِّبُونها، ومَكِيدة يَطْلُبونها، ولولا أن العذْرَ إقرار بما قيل، وأكره أَن أَستقيل، لبسطتُ في الاعتذار شَاذَرْوانا، ودخلت في الاستقالة مَيْداناً، لكنه أمرٌ لم أضعْ أَوّله، فلم أَتَدارَكْ آخره.

وقد أبى الشيخ أبو محمد ـ أيده الله ـ إلا أن يوصَلَ هذا النثر الفاتر بنظم مثله فهاكه يَلْعَنُ بعضه بعضاً:

مَولاي إنْ عُذْتُ ولم تَرْضَ لي ... أَنْ أشرب البارِدَ لم أشْرَبِ
اُمْتَطِ خدي وانْتَعِل ناظري ... وَصِدْ بِكفي حُمةَ العَقْربِ[٢]
تالله ما أَنْطِقُ عَنْ كاذِبٍ ... فِيكَ، ولا أُبْرِقُ عن خُلَّبِ[٣]
فالصفوُ بَعْدَ الكذبِ المُفْتَرَى ... كالصَّحْوِ عُقْبَ المَطَرِ الصَّيِّبِ[٤]
إن أَجْتَنِ الغلظَةَ من سيدي ... فالشوكُ عِندَ الثمرِ الطيبِ
أو يُفْسِد المزُّورُ على ناقدٍ ... فالخمرُ قد يَغْصِبُ بِالثيِّبِ

ولعل الشيخ أبا محمد ـ أيده الله ـ يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلمُ واللسان؛ فنعم رائد الفضل هو، والسلام.

---

(١) أَرّثوا نارهم: أَشعلوها وأَجّجوها.
(٢) الحُمَّةُ: الحُمَّى، وهي عِلَّة يستحرُّ بها الجسم، والحِمَّةُ (بالكسر): المنية.
(٣) الخُلَّبُ: السحاب يومض برقه حتى يُرْجَى مطره، ثم يُخلف ويتقشّع، يقال: برق خُلَّب، وَبَرْقُ الخُلَّب، وَيُشَبَّهُ به من يَعِدُ ولا يُنْجز.
(٤) الصَّيِّبُ: السحاب ذو الصوب، وهو المطر، وقيل: الصَّيِّبُ: المطر.

فقرٌ من كلام سهل بن هارون للمأمون

كان المأمون استثْقل سَهْلَ بن هارون، فدخل عليه يوماً، والناسُ على مَراتبهم، فتكلّم المأمون بكلام ذَهَب فيه كلَّ مذهب؛ فلما فرغ من كلامه أقبل سهلُ بن هارون على الْجَمْع فقال: ما لكم تسمعُون ولا تَعُون، وتشاهدون ولا تَفْقَهُون، وتفهمون ولا تتعجَّبُون، وتتعجَّبون ولا تُنْصفون؟ والله إنه ليقول ويفعلُ في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهرِ الطويل، عَرَبُكم كعجمكم، وعَجَمُكم كعبيدكم، ولكن كيف يَعْرِف الدواء من لا يشعر بالداء؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأي الأول.

[من ترجمة سهل بن هارون، وأخباره]

وكان أبو عمرو سهل بن هارون من أهل مَيْسَانَ[1] نزل البصرة فَنُسِب إليها، وهو القائل:

يـا أَهْـلَ مَيْسـانَ السـلام عليكـمُ الطيبـونَ الفـرعُ والْجِـذْمُ[2]
أمـا الـوجـوهُ فَفِضَّـةٌ مُـزِجَـتْ ذَهبـاً وأيـدٍ سَحَّـةٌ هُضْـمُ[3]
أتُـريـدُ كَلْـبٌ أَنْ أُنـاسِبَهـا قَـدْ قـلَّ مـن كَلْـبٍ بـيَ العِلْـمُ
أَجعلـت بيتـاً فـوق رابيـة فـرعُ النُّجـومِ كـأنَـهُ نَجْـمُ
كَبَّيْـتِ شَعـرٍ وَسْـطَ مَجْهَلَـةٍ بِفَنـائـهِ الْجِعْـلانُ وَالبُهْـمُ

وكان سهل شعوبياً، والشعوبية: فِرْقَةٌ تتعصب على العرب وتنتقصُها، وكان أبو عبيدة يُرْمىٰ بذلك.

وسهل ظريفٌ عالم حَسَنُ البيان، وله كتب ظريفة صنَّفها معارضاً للأوائل في كتبهم بما لا يَنْتَصْونُهُ منهم، حتى قيل له «بزرجمهر الإسلام» وقال يمدح رجلاً:

عَـدوٌ تِـلادِ المـال فيمـا يَنُـوبُـهُ مَنُـوعٌ إذا مـا مَنْعُـه كـان أحْـزَمـا
مُـذلّـلُ نَفْـسٍ قـد أَبَـتْ غيـر أنْ تَـرَى مَكـارِمَ مـا تـأْتِـي مـن العيـش مَغْنَمـا

---

(١) مَيْسَان: بلدة بين واسط والبصرة.
(٢) الجذْمُ: الأصل، وجذم الرجل: أهله وعشيرته، والجمع أجذام وجذوم.
(٣) سَحَّةٌ: دائمة الصَّبِّ. والهُضْمُ: جمع هضوم، واليد الهضوم: التي تجود بما لديها.

وهذا نظير قوله في كتاب «ثَعْلَة وعُفرة» الذي عارض به كليلة ودمنة: اجعلوا أَداءَ ما يَجِبُ عليكم من الحقوق مقدّساً قبل الذي تجودون به من تفضُّلكم؛ فإن تَقْدِيمَ النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظَاهر على وَهَنِ العقيدة، وتقصير الرويّة، ومُضِرٌّ بالتدبير، مخلٌّ بالاختيار، وليس في نفع محمدتِه عِوَض من فساد المروءة ولزوم النقيصة. وكتابه هذا مملوء حكماً وعلماً. وسهل هو القائلُ:

تَقسَّمني هَمَّانِ قد كَسَفا بالي ... وَقد تركا قَلْبي محلَّةَ بَلْبَالِ[1]
هُمَا أَذرَيَا دَمْعِي، ولم تذر عَبْرَتي ... رَهينةُ خِدْرٍ ذات سِمْطٍ وخَلْخالِ
وَلا قهوة لم يَبْقَ منها على المدى ... سوى أن تحاكي النور في رَأس ذيالِ[2]
تَحلَّل مِنْهَا جِرمها وَتماسكتْ ... لها نَفَسُ مَعْدُوم على الزمنِ الخالي[3]
وَلكِنَّما أَبكي بعَيْنٍ سخينةٍ ... على حَدَثٍ تَبْكي لَهُ عَيْنُ أمثالي
فِراقُ خليلٍ لا يقومُ به الأسى ... وَخَلَّة حُرٌّ لا يَقُوم لها مالي
فَوا حَسْرَتي حَتَّى متى القلبُ مُوجَعٌ ... لِفَقْدِ خَليلٍ أو تعَذّرِ إفضالِ[4]
وَمَا الفَضْلُ إلا أنْ تَجُودَ بنائلٍ ... وَإلا لقاء الخلّ ذي الخُلُقِ العالي[5]

وهو القائل:

إذا امرؤٌ ضاق عني لَمْ يَضِقْ خُلُقي ... مِنْ أَنْ يراني غَنيًّا عنه باليَاسِ
لا أطلبُ المالَ كَيْ أَغْنَى بِفَضْلَتِهِ ... ما كانَ مَطْلَبُه فَقْراً إلى الناسِ

وأنشد له الجاحظُ يهجو رجلاً:

مَنْ كانَ يَعْمُرُ ما شادَتْ أوائلهُ ... فَأَنْتَ تَعْمُر ما شادُوا وما سَمَكُوا[6]
ما كان في الحقِّ أَنْ تَحْوِي فعالهمُ ... وَأَنْتَ تَحْوِي من الميراثِ ما تَرَكُوا

---

(١) البلبال: الوسواس.
(٢) الذَّيَّالُ: المتبختر في مشيه، الطويل الذيل.
(٣) الجِرْمُ (بالكسر): الجسد، والجمع: أَجْرَامٌ وَجُرُومٌ وَجُرُمٌ.
(٤) الإفضال: الإنعام والإحسان.
(٥) النائل: العطاء.
(٦) سمكوا: رفعوا.

وقال محمد بن زياد الزيادي: وَجَدْتُ[١] على سهل بن هارون في بعض الأمر، فهجوته، فكتب إليّ: أما بعد فالسلامُ على عهدك وداعَ ذي ضَنّ بك، في غير مَقْلِيَة لك[٢]، ولا سَلْوَة عنك، بل استسلامٌ لِلبَلْوَى في أمرك، وإقْرَار بالمعجزة في استعطافك، إلى أوان فيئتك[٣]، أو يجعل الله لنا دَولة من رجعتك، والسلام.

وكتب في أسفل الكتاب:

إن تَعْفُ عن عَبْدِكَ المُسيءِ ففي عَفْوِكَ مَأْوَى لِلفَضْلِ والمِنَنِ
أَتيتُ ما أستحقُّ من خَطإٍ فَجُدْ بما تَسْتَحِقّ مِنْ حَسَنِ

[من عِظات الحسن البصري]

وقال الحسن البصري رحمه الله في يوم [فطر] وقد رأى الناسَ وهيآتِهم:

إنّ الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لِخَلْقِه، يَسْتَبِقُون فيه بطاعته إلى مَرْضَاته، فسبَقَ قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابُوا، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويَخْسَرُ فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومُسِيء بإساءته.

ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفِطْر يتدافعون ويتضاحكون، فقال:

الله المستعان! إن كان هؤلاء قد تقرّر عندهم أن صومهم قد تُقُبِّل فما هذا محلُّ الشاكرين، وإن علموا أنه لم يتقبل فما هذا محلُّ الخائبين.

وكان الحسن من الخطباء النّساك الفقهاء الأجواد، ويقال: إنه لم يكن تابعيّ أفضل منه.

هذا قول أهل العراق جميعاً، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه، وكان سعيدٌ أحْسَنَ من الحسن وَرَعاً، وأشدّ الناس حَذَراً، وأقلهم كلاماً. وكان الحسن لا يَدع أن يتكلّم بما هَجَس في نفسه، وجَاشَ في صدره.

---

(١) وَجَدَ عليه مَوْجِدَةً: غضب.
(٢) المقلية: البغض.
(٣) الفيئة: الرجعة، والحِين، يقال: جاء بعد فيئة.

وعلى ذكر الحسن شهرَ رمضان نقول:

ألفاظ لأهل العصر، في التهنئة بإقبال شهر رمضان مع ما يتصل بها من الأدعية

ساق اللّهُ تعالى إليكَ سعادةَ إهلاله، وعَرَّفك بَركة كماله. قسم اللهُ لك من فَضْلِه، ووفَّقك لفَرْضِه وَنَفْلِه. لقّاك الله ما ترجوه، ورقاك إلى ما تحبُّه فيما تَتْلوه. جعل اللّهُ ما أظلَّك من هذا الصوم مقروناً بأفضَلِ القبول، مُؤْذِناً بدَرْكِ البُغْيَةِ ونُجْح المأمول، ولا أَخْلاك من برّ مرفوع، ودعاءٍ مسموع. قابَلَ الله تعالى بالقبول صيامَك، وبعظيم المَثُوبة تهجُّدك وقيامك. عرَّفك الله من بركاته ما يُرْبِي على عدد الصائمين والقائمين، ووفَّقك اللّهُ تعالى لتحصيل أجْرِ المتهجِّدين. أسأل الله تعالى أن يضاعِفَه بمنه لك، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مَرْضاته عنك. أعاد اللّهُ إلى مولاي أمثاله، وتقبّل فيه أعماله، وأصلح في الدين والدنيا أحواله، وبلّغه منها آماله. أسعده الله بهذا الشهر، ووفاه فيه أجزل المَثُوبة والأجر، ووفّر حظَّه من كل ما يرتفع من دُعاء الدَّاعِين، وينزل من ثواب العاملين، وقبل مساعيه وزَكاها، ورفع درجاته وأعلاها، وبلّغَه من الآمال مُنْتهاها، وظَفِر بأبعدها وأقصاها.

أخلاق المؤمن

وقال الحسن: من أخلاق المؤمن قوةٌ في دين، وحَزْمٌ في لين، وحِرْص على العلم، وقناعة في فَقْر، ورحمة للمَجْهود، وإعطاء في حق، وبرٌّ في استقامة، وفِقْهٌ في يقين، وكسب في حلال.

صفة الأخ الصادق

وقال محمد بن سليمان لأبي السماك: بلغني عنك شيء، قال: لا أُباليه، قال: ولمَ؟ قال: لأنه إن كان حقًّا غفرته، وإن كان باطلاً كذبته.

وقال محمد بن صُبَيْح المعروف بابن السماك: خَيْرُ الإخوان أقلّهم مصانعة في النصيحة، وخيرُ الأعمال أحلاها عاقبة، وخيرُ الثناء ما كان على أفْوَاه الأخيار، وأشرف السلطان مما لم يخالطه البَطَر، وأَغْنى الأغنياء من لم يكن للحِرْصِ أسيراً، وخيرُ الإخوان من لم يخاصم، وخيرُ الأخلاق أعونها على الورع، وإنما يختبر وُدُّ الرجال عند الفاقةِ والحاجة.

صفة الرجل الكامل

ووصف بعضُ البلغاء رجلاً فقال: إنه بسيط الكف، رَحْب الصَّدْر، موطَّأ الأكناف(١)، سَهْل الخلق، كريم الطباع، غَيْثٌ مُغِيثٌ، وبَحْرٌ زَخُور(٢)، ضَحُوكُ السنّ، بشير الوَجْه، بادي القبول، غير عَبُوس، يستقبلك بطَلاَقة، ويحيِّيك ببِشْر، ويَسْتَدْبرك بكرمِ غَيْب، وجميل سرّ، تبهجكَ طَلاَقَتهُ، ويرضيك بِشْرُه، ضَحَّاك على مائدته، عَبْدٌ لضيفانه، غير ملاحظ لأكيله، بَطِينٌ من العقل، خَمِيصٌ(٣) من الجهل، راجح الْحِلْم، ثاقب الرَّأْي، طيِّب الخلق، مُحصّن الضريبة، مِعْطَاء غير سائل، كاسٍ من كل مَكْرُمة، عارٍ من كلّ ملامة، إن سُئِلَ بذَل، وإن قال فَعلَ.

قال أبو الفتح كشاجم:

مِـزَاجُـكَ لِلْمَثْنـى مـن العـودِ والصَّبـا ... من الرِّيح والصافِي الرقيق من الْخَمْرِ
فلـو كُنْـتَ وَرْداً كُنْـتَ وَرْداً مُضَـاعَفـاً ... وَلو كُنْتَ طِيباً كُنْتَ من عَنْبَرِ الشَّحْرِ(٤)
وَلـوْ كُنْـتَ لَحْنـاً كُنْـتَ تـأْلِيـف مَعْبَـدٍ ... وَلو كُنْتَ عُوداً ما افْتقَرتَ إلى زَمْرِ(٥)

وقال أعرابي:

ألا حَبَّــذا البُــرْدُ الــذي تَلْبَسِينــهُ ... وَيا حبّذا مَنْ باعكِ البُرْدَ من تَجْرِ(٦)
فلـو كُنْـتِ مـاءً كُنْـتِ مـاءَ غمـامـةٍ ... وَلـو كُنْـتِ دُرًّا كُنْـتِ مِـنْ دُرَّةٍ بِكْـرِ
وَلـو كُنْـتِ لَهْـواً كُنْـتِ تَعْلِيـلَ سـاعـةٍ ... وَلـو كُنْـتِ نَـوْمـاً كُنْـتِ إغفـاءةَ الفَجْـرِ
وَلـو كُنْـتِ لَيْـلاً كُنْـتِ قَمْـراء جُنِّبَـتْ ... نُحُـوسَ لَيَـالِـي الشَّهْـرِ أَو ليلَـةَ القَـدْرِ

---

(١) مُوطَّأ الأكناف: دَمِثٌ كريم مضياف، لا يحتمل قاصده من زيارته عَنَتاً.
(٢) زخور: من زَخَرَ النهر أو البحر زَخْراً، وَزُخُوراً، وَزَخيراً: طما وفاض.
(٣) خميص: ضامر.
(٤) الشَّحْرُ: بطن الوادي، ومجرى الماء.
(٥) مَعْبَدُ: هو أبو عباد، معبد بن وهب المدني: نابغة الغناء العربي في العصر الأموي. نشأ في المدينة يرعى الغنم لمواليه، ولما ظهر نبوغه في الغناء، أقبل عليه كبراء المدينة. ثم رحل إلى الشام، واتصل بأمرائها وارتفع شأنه، وعاش طويلاً إلى أن انقطع صوته، ومات في عسكر الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م. (الزركلي، الأعلام: ٧/ ٢٦٤).
(٦) التَّجْرُ: اسم جمع، واحده تاجر.

فهرس المحتويات